

الرواية التي بيعت منها عدة ملايين من النسخ في الولايات المتحدة

كيم إدواردز

ذكرى

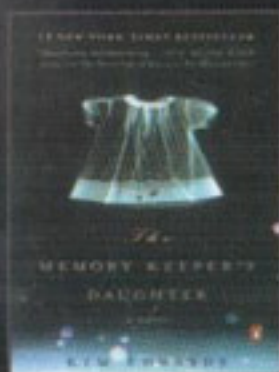
الابنة المفقودة



«جميلة ببساطة»

جودى بيكولت

ذكرى الابنة المفقودة



إن الأسر لديها أسرار تخفيها
حتى عن أنفسها..

كان ينبغي أن تكون ولادة طبيعية، وأن تكون
بداية تكوين أسرة عادية سعيدة. ولكن الليلة
التي سيقوم فيها دكتور ديفيد هنري بتوليد توأم
زوجته ستظل تطارد حياة خمسة أشخاص إلى الأبد.

فبالرغم من أن ابن ديفيد صبي وافر الصحة إلا أن ابنته قد ولدت
مصابة بمتلازمة داون. وفي تصرف مصدم وخائن ستظهر عواقبه
على مر الوقت، أخبر زوجته أن ابنتهما قد ماتت في حين أنه أعطاها
سراً لإحدى الممرضات كي تتولى العناية بها.

وفي الوقت الذي تناست فيه أسرة ديفيد أحزانها، كان على هذه
الفتاة الصغيرة أن تشق طريقها في الحياة بأفضل طريقة ممكنة.

إنها حقاً فكرة مذهلة تأخذك بعمق وبشكل ساحر إلى حياتين
أسريتين متشابكتين والسر المدمر الذي يغلفهما. إنها رواية أسرة..

سو مونك كيد، مؤلفة رواية The Secret Life of Bees

ذكرى الإبنة المفقودة

كيم إدواردز

dodyadodo
www.rewity.com

إلى أبيجيل وناعومي

ملحوظة الناشر

إن هذا العمل من وحى خيال مؤلفته. فالأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث مستوحاة جميعاً من خيال المؤلفة أو مستخدمة بشكل خيالي، وأى وجه شبه مع أشخاص حقيقيين - سواء أحياء أو أموات، مؤسسات أو أحداث أو أماكن - يعد مصادفة بحتة .

شكرو وتقدير

أود أن أعبر عن عميق تقديري إلى الراعيين بدار عبادة هانتر من أجل القرارات الحكيمة التي ظلا يتخذنها علي مدار سنوات بشأن أمور جليلة وغير جليلة، وأوجه شكرا خاصا إلى كلير فونك بروكس، والتي كانت تحمل بذرة هذه القصة.

وقد أدلى كل من جين وريتشارد كوفرت بآرائهما حول هذه الرواية بعد أن قاما بقراءة المسودة. وأنا ممتنة لهما وكذلك إلى ميج ستيمان وكارولين بيسلر وكالي بيسلر ونانسي كوفرت وبيكي ليس ومالكانشي ماكورميك - من أجل عطفهم وإرشادهم. قد دعاني بروس بوريس لإقامة ورشة عمل في مايندز وايد أوبن؛ لذا فأنا أشكره وأشكر كل المشاركين في هذا اليوم والذين كتبوا من قلوبهم.

وأنا ممتنة للغاية لمؤسسة السيدة جيلز وايتنج لدعمها وتشجيعها منقطعا النظير لي. كما أمدني كل من مجلس كنتاكي للآداب والفنون ومؤسسة كنتاكي للمرأة بالعديد من المنح كدعم لهذه الرواية، لذا فأنا أوجه الشكر لهما.

أقدم امتناني العميق كذلك لوكيل أعمالي جيري توما من أجل حكمته ودفئه وكرمه وسرعة بديهته. وأنا شديدة الامتنان أيضا لكل الناس في فايكينج وخاصة محررتي باميلا دورمان التي أضفت كل هذا النبوغ والترابط على الكتاب أثناء تحريرها له،

والتي ساعدتني أسئلتها المتبصرة على المضي بشكل أكثر عمقاً في السرد. كما كانت لمسة بينا كمالاني التحريرية الرشيقة وحادة الملاحظة لا تقدر بثمن، وقامت لوشيا واتسون بمرحها ودقتها بتسيير آلاف الأشياء.

أشكر كذلك المؤلفات جين ماكفرتي وماري آن تايلور هول وليثا كيندريك اللاتي قرأن مسودة الرواية بعينين محبتين ومتفحصتين. وشكر خاص كذلك لوالدي جون وشيرلي إدواردز. وأشكر جيمس ألين ماكفيرسون الذي مازلت أستفيد من تدريسه لي. أشكر كذلك كاثرين مولارد تيرنر ووالدها الراحل وليم جي. تيرنر لصداقتهم الغنية والحوارات التي أجريتها معهما حول الكتاب والخبرة التي أمداني بها عن بتسبرج. حبي وشكري لكل أفراد أسرتي، وخاصة توم.

١٩٦٤

مارس ١٩٦٤

١

بدأت الثلوج تهطل قبل عدة ساعات من بدء المخاض لديها. كانت في البداية مجرد رقاقات ثلجية قليلة تسقط من سماء فترة بعد الظهيرة الرمادية الكثيفة حتى بدأت دوامات وتيارات الهواء تحوم حول شرفتهما الأمامية العريضة. كان يقف إلى جوارها أمام النافذة يشاهدان عصفات الثلوج الحادة تموج في الهواء قبل أن تسقط على الأرض. وكانت المصابيح مشتعلة في جميع منازل الجيران المحيطة وقد اكتست فروع الأشجار العارية باللون الأبيض.

وبعد تناول العشاء قام بإضرام النار في المدفأة بعد أن خرج إلى الغابة في هذا الطقس لي جلب بعض عيدان الأخشاب التي كان قد كدسها عند المرآب في الخريف السابق. كان الهواء بارداً وكان الثلج في الطريق يصل إلى ركبتيه. جمع العيدان الخشبية وأزاح من فوقها الثلج ثم أخذها إلى داخل المنزل. وقد التقطت حاملة الوقود الحديدية النار على الفور، وجلس لبعض الوقت أمام

المدفأة وهو عاقد ساقيه وأخذ يضيف العيدان الخشبية ويرى السنة النار وهي ترتفع وتتراقص. وفي الخارج ظلت الثلوج تهطل في هدوء خلال الظلام والتي كانت تبدو براقعة وسميكة في مخروطات الضوء التي ألقتها مصابيح الشارع على الطريق. وبحلول الوقت الذي نهض فيه ونظر عبر النافذة كانت سيارتهما قد تحولت إلى تل أبيض على قارعة الطريق. وسرعان ما امتلأت آثار أقدامه بالثلوج واختفت.

نفذ الرماد من فوق يديه وجلس على الأريكة بجوار زوجته التي كانت تضع قدميها فوق وسادة وتعد كاحليها المتورمين وتضع نسخة من كتاب دكتور سبوك فوق بطنها. وفي حالة من التركيز الشديد أخذت تعلق سبابتها من دون وعي تقريباً في كل مرة تقلب فيها إحدى صفحات الكتاب. كانت يداها نحيفتين وكانت أصابعها قصيرة وقوية وكانت تعصر على شفتها السفلية برفق وعن عمد أثناء القراءة. وفي أثناء مشاهدته لها شعر بدفقة من الحب والدهشة تتسلل إليه، وذلك لأن تلك كانت زوجته ولأن طفلهما سوف يولد في خلال ثلاثة أسابيع فقط. إن ذلك هو طفلهما الأول. وهما متزوجان منذ عام فقط.

نظرت إليه وهي تبتسم حينما قام بوضع الملاءة فوق قدميها.

قالت: "أنا أتساءل دوماً كيف يكون الأمر، أقصد قبل أن نولد؟ من المؤسف أننا لا نستطيع تذكر هذا"، فتحت "روبها" ورفعت معطفاً كانت ترتديه أسفله كاشفة عن بطنها والتي كانت مستديرة وصلبة مثل ثمرة البطيخ. مررت يديها فوق سطحها الأملس بينما كان ضوء المدفأة يتراقص فوق بشرتها ملقياً بظل ذهبي ضارب إلى الحمرة على شعرها. "هل تظن أن الأمر يشبه الوجود بداخل مصباح كبير؟ إن الكتاب يقول إن الضوء يخترق جلدي وإن الطفل بإمكانه أن يرى بالفعل".

قال: "لا أعرف".

ضحكت ثم سألته: "كيف هذا؟ إنك طبيب". قال مذكراً إياها: "أنا فقط جراح تقويم. أستطيع أن أسرد عليك نموذج التكوين العظمي للجنين ولكن هذا هو كل ما أستطيع القيام به". رفع قدمها والتي كانت رقيقة ومتورمة داخل الجورب الأزرق الخفيف وبدأ في تدليكها برفق: عظمة الكاحل القوية بقدمها، والعظام الوظيفية والسلامية، والعضلات المختبئة تحت الجلد والتي تشبه المروحة التي على وشك الدوران. وقد ملأت أنفاسها الغرفة الهادئة، وأدفأت قدمها يديه وبدأ يتخيل التماثل العظمي الكامل والسري. وأثناء الحمل بدت له جميلة ولكن ضعيفة، فقد كانت الأوردة الزرقاء الدقيقة مرئية بشكل طفيف عبر جلدها الأبيض الشاحب.

لقد كان حملاً ممتازاً دون أية محاذير طبية. وبالرغم من ذلك فإنه لم يستطع ممارسة العلاقة الحميمة معها منذ عدة أشهر. فقد وجد نفسه يريد حمايتها وأن يحملها فوق درجات السلم وأن يدثرها ويجلب لها أكواب القستر. وكانت تعترض في كل مرة وهي تضحك: "أنا لست مصابة بإعاقة. أنا لست فرخاً وجدته على المرج". ومع ذلك فإن اهتمامه البالغ بها كان يسعدها. في بعض الأحيان كان يستيقظ ويظل ينظر إليها وهي نائمة: رفرقة جفنيها، والحركة البطيئة المطردة لصدرها، ويدها المطروحة جانباً والتي كانت صغيرة للدرجة التي تجعله يستطيع وضعها بالكامل داخل يده.

لقد كانت تصغره بأحد عشر عاماً. وكان قد رآها للمرة الأولى منذ ما يزيد على العام بفترة وجيزة بينما كانت تستقل مصعداً في متجر بوسط المدينة، في أحد أيام السبت من شهر نوفمبر في أثناء شرائه لرابطات عنق. كان في الثالثة والثلاثين من عمره وجاء لتوه إلى ليكسنجتون، كنتاكي، وكانت هي قد بزغت من وسط الزحام كالحلم، وكانت تعقد شعرها الذهبي على شكل كعكة بمؤخرة رأسها وتزين بحلى من اللآلئ البراقة في أذنيها

ومعتمدة ولكن فى الربيع كانت بتلات الليك البيضاء والأرجوانية
تقتناثر إلى جوار الزجاج وتملأ رائحتها المكان مثل الضوء.

قام بتنقية صوته - فكان يجد صعوبة فى التنفس - وأمسك
بالروب الوبرى ولكن البائعة خلف الطاولة كانت تضحك وتسرد
مزحة دون أن تلاحظه. وحينما نقى صوته مرة أخرى نظرت إليه
فى انزعاج وبعد ذلك أومأت لزبونتها التى كانت تمسك الآن
بثلاث عبوات رفيعة من الجوارب والتى تشبه بطاقات الورق
العملقة فى يدها.

قالت البائعة فى برود وتعجرف: "أخشى أن الآنسة آشر
جاءت إلى هنا قبلك".

تلاقت عيناها فى هذه اللحظة وقد اندهش حينما اكتشف أن
لهما نفس اللون الأخضر الداكن لمعطفها. وقد أخذت تتفحصه -
المعطف ذو النسيج الصوفى الخشن، الوجه حليق الذقن والذى
أدت البرودة إلى احمراره، أظافر أصابعه المشدبة. ابتسمت فى
بهجة وأشارت إلى الروب فوق ذراعه.

سألت: "لزوجتك؟". وقد تحدثت بدماثة ولطف كما اعتقد
بلكنة أهل كنتاكي - تلك البلدة الثرية التى كانت تشكل فيها
مثل هذه الاختلافات فارقا كبيرا. فبعد إقامته بالبلد طوال ستة
أشهر فقط أدرك هذا. واصلت كلامها قائلة وهى تدير ظهرها
للبائعة: "لا بأس يا جين. تولى أمره قبلى. فهذا الرجل المسكين
لا بد أنه يشعر بأنه تائه هنا فى هذا المتجر".

قال لها: "إنه من أجل شقيقتى"، وحاول فى يأس محو
الانطباع السيئ الذى كان يتركه. فكان ذلك يحدث معه دوما
حيث إنه كان مباشرا للغاية ومزعجا. انزلق الروب وسقط على
الأرض وقد انحنى ليلتقطه بينما كان وجهه متوردا كالزهرة.
كان قفازها يرقدان فوق الزجاج وكانت يداها العاريتان ترقدان
إلى جوارهما. وقد بد أن ارتبأكه يسعدها حيث إنه حينما تلاقت
عيناها ثانية بدت عيناها عطوفتين.

وعنقها. كانت ترتدى معطفاً من الصوف الأخضر الداكن وكانت
بشرتها شاحبة. دلف داخل المصعد وهو يشق طريقه خلال
الزحام بينما يصارع لإبقائها فى مجال رؤيته. ذهبت إلى الطابق
الرابع، القسم الخاص بالملابس الداخلية والجوارب. وعندما
حاول ملاحظتها خلال الممرات المكسدة بأكوام القمصان التحتية
ومشدات الصدر والسراويل التحتية، والتى كانت تبرق جميعاً
بشكل رقيق، أوقفته البائعة التى كانت ترتدى ثوبا أزرق فاتحا
ذا ياقة بيضاء وهى تبتسم لتسأله إن كان بإمكانها المساعدة فقال
لها إنه يبحث عن "روب"، وفى نفس الوقت كان يجوب الممرات
بعينيه إلى أن لمح شعرها ينسدل فوق كتف أخضر داكن، وكان
رأسها المنحنى يكشف عن رقبتها الجميلة شاحبة اللون. "روب
لأختى التى تعيش فى نيو أورليانز". وهو بالطبع ليس له أخت أو
أى أحد متبق من أفراد أسرته.

اختفت البائعة وعادت بعد دقيقة وهى تحمل ثلاثة أنواع
مصنوعة من قماش وبرى سميك. اختار دون تركيز وهو لا ينظر
تقريباً حيث أخذ ذلك الموضوع أعلى الاثنين الآخرين. قالت
البائعة: "ثلاثة مقاسات، وسوف ترد إلينا مجموعة أفضل من
الألوان الشهر المقبل"، ولكنه كان بالفعل قد اتجه إلى الممر فى
حين كان روب قرنفلى اللون يتدلى فوق ذراعه، وكان حذاؤه يصر
فوق الأرضية بينما كان يتحرك سريعا بين الأقسام الأخرى حيث
كانت تقف.

كانت تتنقل بين أكوام الملابس الغالية وكانت الألوان المختلفة
تبرق عبر نوافذ السيلوفان الملساء: الرمادى الداكن والأزرق
البحرى والأحمر الداكن. وقد لمس كم معطفها الأخضر معطفه
وشم رائحة عطرها والذى كان رقيقا وفى نفس الوقت قويا، شىء
يشبه بتلات الليك الشاحبة المتراكمة خارج نافذة الغرفة التى
كان يقطنها بينما كان طالبا فى بتسبرج. كانت النوافذ الخفيضة
فى شقته التى تحتل قبو إحدى الأبنية مكسوة دوما بالسخام

اجتاحت كذبة "عمرها عام مضى" الغرفة كطائر أسود. بعد ذلك هز كتفيه في خجل. قال لها: "كان لابد لي أن أجد شيئاً لأقوله. كان لابد لي أن أجد طريقة أحصل بها على اسمك". في ذلك الحين ابتسمت وعبرت الغرفة واحتضنته.

كان الجليد يتساقط. وطوال الساعات القليلة التالية ظلا يقرآن ويتحدثان. وفي بعض الأحيان كانت تمسك بيده وتضعها على بطنها كي يستشعر حركة الطفل. ومن وقت لآخر كان ينهض ليضيف خشباً إلى المدفأة وينظر من النافذة ليرى الثلج وقد وصل ارتفاعه إلى ثلاث بوصات ثم خمس ثم ست بوصات. كانت الشوارع مكسوة بالثلج الناعم وهادئة، وكانت هناك بعض السيارات.

وفي الساعة الحادية عشرة، نهضت وذهبت إلى الفراش. وقد ظل هو بالطابق السفلي يقرأ العدد الأخير من دورية جراحة العظام والمفاصل. كان معروفاً عنه أنه طبيب ماهر للغاية ذو موهبة في التشخيص وسمعة حسنة في العمل الماهر. وقد كان الأول على دفعته. ومع ذلك فكان لا يزال شاباً ولا يمتلك ثقة كبيرة في قدراته - بالرغم من أنه كان ماهراً في إخفاء ذلك - لدرجة أنه كان يدرس طوال الوقت ويجمع كل نجاح حققه كدليل إضافي يوضع في رصيده. وقد كان يشعر أنه شاذ وسط أسرته حيث إنه قد ولد بنهم للتعليم في أسرة تعيش حياتها ببساطة يوماً بيوم. فقد كانوا ينظرون إلى التعليم بوصفه رفاهية لا عوز لها، وسيلة لغاية غير محددة. لقد كانوا فقراء، وكانوا حينما يضطرون للذهاب إلى الطبيب كانوا يتوجهون صوب العيادة في مورجان تاون والتي تبعد خمسين ميلاً. وكان يتذكر هذه الرحلات النادرة بوضوح حيث كان يثب ويقفز في مؤخرة الشاحنة المستعارة التي كان الغبار يطير في أعقابها. وكانت شقيقته التي تجلس في السيارة إلى جوار والديه تطلق عليه الطريق الراقص. وفي مورجان تاون كانت الحجرات مظلمة،

حاول مرة أخرى: "أنا آسف. فيبدو أنني لا أعرف ماذا أفعل. وأنا في عجلة من أمري. أنا طبيب، وقد تأخرت عن المستشفى".

تغيرت ابتسامتها في ذلك الحين وأصبحت أكثر جدية. قالت وهي تستدير مرة أخرى ناحية البائعة: "أتفهم ذلك. حقاً يا جين تولى أمره هو قبلي".

وقد وافقت على مقابلته ثانية وكتبت له اسمها ورقم هاتفها بخط جميل كانت قد تعلمته في الصف الثالث حيث كانت تدرس لها معلمتها قواعد فن الخط. فكل حرف كان له شكل معين كما أخبرتهم، شكل واحد في العالم أجمع لا يوجد غيره وهي مسئوليتك أن تجعله مثالياً. فحينما كانت طفلة شاحبة ونحيفة في الثامنة من عمرها كانت تلك المرأة ذات المعطف الأخضر التي ستصبح زوجته تلف أصابعها الصغيرة بإحكام حول القلم وتتمرس على الكتابة بأحرف متصلة وحدها في غرفتها ساعة بعد ساعة حتى أصبحت تكتب بانسيابية بالغة. وفي وقت لاحق حينما كان يستمع إلى هذه الحكاية كان بمقدوره تخيل رأسها وهي منحنية أسفل المصباح وأصابعها تتشبث في ألم بالقلم، وقد اندهش من مدى قدرتها على التذكر وإيمانها في الجمال والصوت الذي يمثل السلطة للمعلمة. ولكن في هذا اليوم لم يكن يعرف أي من هذا. في هذا اليوم ظل يحمل تلك القصاصة الورقية في جيب معطفه الأبيض طوال اليوم في أثناء دخوله وخروجه من غرف المرضى وهو يتذكر الأحرف التي كتبتها واحداً تلو الآخر لتنسخ اسمها. وقد اتصل بها في هذه الليلة واصطحبها للعشاء في الليلة التالية وبعد ثلاثة أشهر تزوجا.

والآن وفي هذه الأشهر الأخيرة من حملها كان الروب الوبري الناعم يلائمها تماماً. فقد عثرت عليه وأمسكت به لتريه إياه. قالت: "ولكن أختك قد ماتت منذ وقت طويل"، وقد أربكه سؤالها هذا وتجمد في مكانه للحظة ولكنه ابتسم لها، لقد

وكان ماء البركة ذا لون أخضر ضبابي أو فيروزي، وكان الأطباء في عجلة دوماً ومشتتين.

وبعد كل هذه السنوات، مازال يستشعر في بعض الأحيان ويتذكر نظرات هؤلاء الأطباء ويشعر بأنه دجال على وشك أن يكشف خطأ واحد عن أمره. وكان يعلم أن اختياره لهذا التخصص يعكس هذا. فلا تتواءم شخصيته مع الإثارة العشوائية للطب العام أو عملية ضخ الدم إلى القلب وما تنطوي عليه من خطورة. فقد كان يتعامل في الأساس مع الأطراف المكسورة وينحت جبال العظام ويتفحص الأشعات السينية ويشاهد الكسور وهي تلتحم معاً ببطء ولكن بشكل إعجازي. كان يحب حقيقة كون العظام بهذه الصلابة وأنها تتحمل حتى حرارة عملية إحراق الجثث دون أن تتأثر. إن العظام لا تقنى؛ وقد كان سهلاً بالنسبة له أن يضع إيمانه في شيء بهذه الصلابة والوضوح.

ظل يقرأ إلى ما بعد منتصف الليل حتى أصبحت الكلمات تومض بدون معنى على الصفحات البيضاء البراقة، بعد ذلك ألقى بالدورية على طاولة القهوة وذهب للعناية بالنار. أخذ يرص العيدان الخشبية المشتعلة بجوار بعضها البعض مطفئاً إياها وفتح الصمام المنظم على آخره وأغلق باب المدفأة النحاسي. وحينما أطفأ المصابيح كانت كسرات من النار تتوهج برقة خلال طبقات الرماد الناعم والأبيض مثل الثلج المتراكم الآن على درابزين الشرفة وشجيرات الوردية.

أصدرت الدرجات صريراً بينما كان يتحرك فوقها. توقف عند غرفة الطفل وأخذ يتفحص المهد وطاولة تغيير الحفاضات والدمى المحشوة المرصوفة على الأرفف. كانت الجدران مطلية باللون الأخضر البحري الشاحب. وقد صنعت زوجته لحافاً وقامت بتعليقه على الحائط البعيد، وكان محاكاً بفرز صغيرة وقد كانت زوجته تفك أجزاء كاملة منه إن لاحظت به أي عيب

صغير. وكانت هناك مجموعة من الدببة المطبوعة أسفل السقف مباشرة والتي قامت بصنعها أيضاً.

وجد نفسه يدخل الغرفة ويقف أمام النافذة ويفتح الستارة الشفافة ليشاهد الثلج والذي وصل ارتفاعه الآن إلى ثمانى بوصات فوق عواميد النور والأسوار والأسطح. إن مثل هذه العواصف نادراً ما كانت تهب على ليكسنجتون، وقد ملأته رقاقات الثلج البيضاء والسكون الذي يرخى سدوله على هذه الليلة بشعور بالإثارة والسكينة. كانت لحظة بدا فيها أن كل كسرات حياته المتباينة تغزل نفسها معاً، كل لحظة تعاسة وإحباط سابقة، كل سر مخبأ الآن أسفل الطبقات البيضاء الناعمة. غداً سيكون يوماً هادئاً، وسوف يظل العالم يبدو مهجوراً إلى أن يخرج أطفال الحى من منازلهم كاسرين هذا السكون بخطواتهم وصيحاتهم وبهجتهم. وقد تذكر تلك الأيام فى طفولته بالجبال، لحظات الهروب النادرة التي كان يذهب خلالها إلى الغابات حيث كانت أنفاسه تتزايد ويصبح صوته مكتوماً إلى حد ما بفعل الثلوج الكثيفة التي كانت تثنى فروع الأشجار لأسفل وتتراكم فوق الطرقات. لقد تغير العالم خلال بضع ساعات قليلة.

ظل واقفاً هناك لفترة طويلة حتى سمع حركة زوجته. وجدها تجلس على حافة فراشها وهي تثنى رأسها للأسفل وتمسك بالفراش بكلتا يديها.

قالت وهي تنظر إليه: "أعتقد أنه المخاض". كان شعرها منسدلاً ووقعت إحدى خصلاته فوق شفتها. دفعها للخلف وراء أذنها. هزت رأسها بينما كان يجلس إلى جوارها. "لا أدري. يساورنى شعور غريب. تلك التقلصات التي تأتي وتذهب".

ساعدتها كي تنام على جانبها وبعد ذلك استلقى هو أيضاً وبدأ يدلك ظهرها. قال لها: "إنه على الأرجح مجرد مخاض زائف. إن موعد ولادتك لن يحين قبل ثلاثة أسابيع والحمل الأول عادة ما يكون طويلاً".

كان يعلم أن هذا صحيح، فكان يصدق ذلك أثناء حديثه وكان فى الواقع واثقاً من هذه المعلومات لدرجة أنه بعد قليل غط فى النوم. استيقظ ليجدها جالسة على الفراش وتهز كتفه. وكان روبها وشعرها يبدوان ذوى لون أبيض فى ذلك الضوء الثلجى الغريب الذى كان يعبق غرفتهما.

"لقد كنت أعد الانقباضات. إن الفاصل الزمنى بينها أصبح خمس دقائق. إنها قوية وأنا خائفة".

شعر بدفقة من مشاعر الإثارة والخوف تجتاحه مثل الزبد الذى تدفعه إحدى الموجات. ولكنه تدرب على أن يكون هادئاً أثناء الطوارئ، أن يكبح مشاعره، لذا فقد كان قادراً على الحفاظ على رباطة جأشه وأخذ ساعة وسار معها جيئةً وذهاباً بالرددة ببطء وهدوء. وحينما كانت تأتينا انقباضة كانت تعصر يده بشدة لدرجة أنه شعر أن عظام أصابعه على وشك التحطم. وكانت الانقباضات كما قالت يفصل بينها خمس دقائق ثم أربع. أخذ المعطف من خزانة الملابس وهو يشعر بأنه فاقد الحس من خطورة الموقف، فبالرغم من أن هذا الحدث كان منتظراً إلا أنه كان بمثابة المفاجأة. تحركا معاً فى سكون العالم من حولهما. كان مدركاً لكل حركة: أنفاسه وهى تشق طريقها خارج فمه فوق لسانه، الطريقة التى انزلت بها قدمها داخل الحذاء الوحيد الذى تستطيع ارتدائه، جلدها المتورم الذى يشكل مرتفعاً داخل الجلد الرمادى الداكن. وحينما أخذ ذراعها شعر وكأنه معلق فى مكان ما فى الغرفة، فى مكان ما بالقرب من المصباح يشاهد نفسه وزوجته من الأعلى ويلحظ جميع التفاصيل والفروق الدقيقة: كيف كانت ترتعد مع كل انقباضة، كيف التفت أصابعه بقوة حول مرفقها. كيف ظلت الثلوج بالخارج تهطل.

ساعدتها كي ترتدى معطفها الصوفى الأخضر والذى تدلى فوق جسمها وهو مفتوح وبرزت من داخله بطنها. وقد عثر على القفازات الجلدية التى كانت ترتديها فى أول مرة رآها فيها

أيضاً. بدا مهماً أن تكون هذه التفاصيل صحيحة. وقفاً معاً فى الشرفة للحظة وهما مصابان بالذهول من العالم الذى تحول إلى اللون الأبيض.

قال: "انتظري هنا"، ثم هبط الدرجات وبدأ يشق طريقه عبر ركاب الثلج. كانت أبواب السيارة القديمة مجمدة وقد استغرقت عملية فتحها منه عدة دقائق. طارت سحابة بيضاء حينما انفتح أحد الأبواب أخيراً وقد انحنى بالداخل كي يأتى بكاشطة الثلج والفرشاة. وحينما خرج، كانت زوجته تتكى على دعامة الشرفة وهى تضع جبهتها بين ذراعيها. أدرك فى هذه اللحظة مدى الألم الذى تشعر به وأن الطفل كان فى طريقه للوصول حقاً، إنه سيصل فى هذه الليلة. قاوم رغبته فى التوجه إليه وبدلاً من ذلك ركز كل جهده فى تحرير السيارة، وقد قام أولاً بتدفئة إحدى يديه ثم الأخرى أسفل إبطيه حينما اشتدت عليهما برودة الجو، ثم عمد إلى إزاحة الثلج من فوق حاجب الريح والنوافذ وغطاء المحرك بينما يشاهده وهو يتناثر ويختفى داخل بحر الثلج الأبيض الناعم حول قدميه.

قالت حينما جاء إلى الشرفة: "إنك لم تخبرنى أن الألم سيكون حاداً إلى هذه الدرجة". وضع ذراعه حول كتفها وساعدها فى هبوط الدرجات. قالت بحزم: "أستطيع أن أسير. أنا فقط أصبح عاجزة حينما يعود الألم".

قال: "أعرف ذلك"، ولكنه لم يبعد ذراعه عنها. وعندما وصلا إلى السيارة، لمست ذراعه وأشارت إلى المنزل المغطى بالثلج والذى كان يتوهج كالمصباح فى ظلام الشارع. قالت: "حينما نعود سيكون معنا طفلنا. لن يصبح عالمنا كسابق عهده قط".

كانت ماسحات حاجب الريح مجمدة وقد سقط الثلج على الزجاج الخلفى حينما انطلقت السيارة فى الطريق. كان يقود ببطء وهو يفكر فى مدى جمال ليكسنجتون ويتأمل كيف كانت

الأشجار والشجيرات مغطاة بالثلج. وعندما انعطفت داخل الطريق الرئيسي، اصطدمت الإطارات بالثلج وانزلقت العربة سريعاً عبر التقاطع لتستقر فوق منحدر ثلجي.

قال: "نحن بخير". ولحسن الحظ لم تكن هناك أية سيارات أخرى بالطريق. كانت عجلة القيادة باردة وصلبة كالحجر أسفل يديه العاريتين. ومن حين لآخر، كان يمسح الحجاب الزجاجي بمؤخرة يده ويميل للأمام ليرى عبر الفجوة التي صنعها. قال متحدثاً عن زميله طبيب التوليد: "لقد اتصلت بـ "بنتلي" قبل مغادرتنا. لقد طلبت منه لقاءنا في عيادته. سوف نتوجه إلى هناك. إنها أقرب".

ظلت صامتة لفترة، وكانت يدها تتشبث بلوحة أجهزة القياس وهي تأخذ أنفاسها خلال انقباضة. استطاعت أن تقول أخيراً ممازحة: "هذا إن لم ألد في هذه السيارة القديمة. أنت تعلم كم كنت أخشى هذا".

ابتسم ولكنه كان يعلم أنها على حق وقد شاركها هذا الخوف.

كان منظماً للغاية، فحتى في هذه الحالة الطارئة لم يستطع تغيير طبيعته. فكان يتوقف عند كل إشارة حمراء وينير الإشارة الخلفية عند المنعطفات للشوارع الشاغرة. وكل بضع دقائق كانت تمسك بلوحة أجهزة القياس بإحدى يديها وتمارس تمرينات التنفس، مما كان يجعله يزدرد لعبه وينظر إليها، لقد أصابه من التوتر في هذه الليلة ما لم يصبه من قبل طوال حياته. لقد كان مصاباً بتوتر يفوق هذا الذي أصابه في أول دروس التشريح حينما ظهرت أمامهم جثة فتى صغير كاشفة عن أسرارها. كان توتره الحالّي يفوق هذا الذي أصابه يوم زفافه حينما كانت أسرته تملأ أحد جانبي دار العبادة وكان الجانب الآخر يمتلئ بعدد قليل من زملائه في العمل. فقد مات أبواه وأخته كذلك.

كانت هناك سيارة واحدة مركونة في موقف السيارات، وقد كانت سيارة الممرضة الفيرلين الزرقاء، تلك السيارة العملية والأجود من سيارته. وكان قد اتصل بها هي أيضاً. ركن السيارة أمام المدخل وساعد زوجته على الخروج. والآن وبعد أن وصلا إلى العيادة بأمان كان كلاهما مبتهجا ويضحك ودخلا غرفة الانتظار متوهجة الأضواء.

قابلتهما الممرضة. وفي اللحظة التي رآها فيها أدرك أن ثمة ما يسوء. كان لها عينان زرقاوان واسعتان في وجه شاحب يمكن أن يكون في الخامسة والعشرين أو الخامسة والأربعين، وحينما لا يسير شيء ما وفق هواها كان يتكون خط رأسى رفيع عبر جبهتها، بين عينيها تماماً. وقد كان هذا الخط موجوداً الآن وقد أبلغتهما بالأخبار: لقد تعثرت سيارة بنتلي في الطريق الريفي غير الممهّد حيث يسكن وانقلبت مرتين وانزلقت داخل خندق.

سألت الزوجة: "هل تقولين إن دكتور بنتلي لن يأتي؟". أومأت الممرضة. كانت طويلة ونحيفة للغاية وبارزة العظام لدرجة أنه بدا أن عظامها قد تنثأت من أسفل جلدها في أية لحظة. كانت عيناها الزرقاوان وقورتين وذكيتين. وطوال أشهر، كانت هناك مزحات وشائعات أنها كانت تحبه. وقد كان ينظر إلى تلك الأقاويل بوصفها نميمة مزعجة ولكن طبيعية في تلك الأحيان حينما يعمل رجل مع امرأة غير متزوجة عن كثب يوماً بعد يوم. وكان قد استغرق في النوم على مكتبه في إحدى الليالي. كان يحلم بأنه عاد طفلاً ثانية في منزل أسرته حيث كانت أمه تضع برطمانات الفاكهة التي تبرق مثل الجواهر فوق الطاولة ذات القماش الزيتي أسفل النافذة. وكانت أخته البالغة خمس سنوات من عمرها تجلس في هدوء ممسكة بعروستها. مجرد صورة عابرة أو ربما ذكرى ولكنها غمرت على الفور بمشاعر الحزن والحنين. كان المنزل ملكه ولكنه كان شاغراً الآن، فقد أصبح مهجوراً حينما ماتت أخته ورحل والداه، الغرف التي نظفتها

والدته مراراً وتكراراً أصبحت أطلالاً يملؤها فقط الآن حفيف السناجب والفئران.

وقد كانت هناك دموع بعينية حينما فتحهما وقد رفع رأسه من فوق المكتب. كانت المريضة تقف بالباب ووجهها تغمره العاطفة. كانت جميلة في هذه اللحظة، لم تكن هي المرأة ذات الكفاءة العالية التي تعمل إلى جواره في هدوء كل يوم. تلاقى عيناها، وقد بدا للطبيب أنه يعرفها - أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض - بشكل عميق ووطيد. طوال لحظة لم يكن هناك ما يقف بينهما، كانت تجمع بينهما حميمية كبيرة لدرجة جعلته شبه فاقد للحس ومشلول. بعد ذلك توردت خجلاً وأشاحت بوجهها. قامت بتنقية صوتها وتقدمت للأمام قائلة إنها عملت ساعتين كوقت إضافي وتود الرحيل. وطوال أيام عديدة لم تتلاق عيناها مرة أخرى.

بعد ذلك حينما كان الآخرون يسخرون منه بخصوص هذا الأمر كان يجعلهم يكفون عن المزاح بشأنها. فكان يقول: "إنها ممرضة ممتازة"، ويرفع إحدى يديه أمام المزحات شاعراً بالتبجيل إزاء لحظة التوحد تلك التي تشاركها. "إنها أفضل ممرضة عملت معها". كان هذا صحيحاً، وهو الآن كان سعيداً للغاية لأنها معه.

سألت: "ماذا عن غرفة الطوارئ. أيمكنك الذهاب إلى هناك سريعاً؟".

هز الطبيب رأسه. فكانت الانقباضات يفصل بينها دقيقة تقريباً.

قال وهو ينظر إلى زوجته: "إن الطفل لن ينتظر". كان الثلج قد ذاب في شعرها وأصبح يتلألأ مثل التاج المرصع بالجواهر. "إن هذا الطفل في طريقه للخارج".

قالت زوجته في رزانة: "لا بأس". كان صوتها أكثر هدوءاً وحزماً الآن. "سوف تكون تلك قصة جميلة نقصها عليه أو عليها حينما يكبر".

ابتسمت المريضة بينما كان الخط بين عينيها مازال مرئياً وإن كان أضعف بعض الشيء. قالت: "دعينا نأخذك للداخل إذن. دعينا نعطيك مسكناً لهذا الألم".

دخل مكتبه ليجلس عن معطف، وعندما دخل غرفة الفحص الخاصة بالدكتور بنتلي كانت زوجته مستلقية على الفراش وقدمها مثبتتان بالركاب. كانت الغرفة مطلية بلون أزرق شاحب وزاخرة بزخارف كرومية وبيضاء اللون وأدوات معدنية دقيقة براقة. توجه الطبيب إلى الحوض وغسل يديه. كان شديد اليقظة ومدركاً لجميع التفاصيل الدقيقة، وبينما كان يؤدي هذا الطقس التقليدي شعر بأن الذعر الذي ساوره لغياب دكتور بنتلي بدأ ينحسر. وقد أغلق عينيه مجبراً نفسه على التركيز في هذه المهمة.

قالت له المريضة حينما استدار: "إن عنق الرحم يزداد اتساعاً. كل شيء يبدو على ما يرام. أعتقد أن الاتساع قد بلغ عشرة سنتيمترات. تفحصها بنفسك وأخبرني عن رأيك".

جلس على مقعد خفيض ومد يده داخل الفجوة الدافئة الناعمة من جسد زوجته. إن الكيس السلى لم ينفجر بعد وعبره كان يستطيع استشعار رأس الطفل، ناعمة وصلبة مثل كرة البيسبول. إنه طفله. كان لابد له أن يكون بإحدى غرف الانتظار يذرعه جيئة وذهاباً. وبنهاية الغرفة كانت الستائر مسدلة فوق النافذة الوحيدة، وبينما كان يسحب يده من دفء جسد زوجته وجد نفسه يتساءل إن كان الثلج مازال يتساقط مضيقاً الهدوء على المدينة بالخارج.

قال: "نعم، هذا صحيح، عشرة سنتيمترات".

متراكماً على جوانب المنزل والطرق. كان الطبيب يجلس على مقعد فولاذي واضعاً كل تركيزه على الحقائق الأساسية. لقد قام بتوليد خمسة أطفال حينما كان طالباً بكلية الطب، وجميعها كانت ولادات ناجحة، وقد ركز الآن على هذه الولادات باحثاً في عقله عن تفاصيل الرعاية الخاصة بهذه الحالات. وبينما كان يقوم بذلك أصبحت زوجته ببطء - والتي كان مستلقية وقدمها موضوعتان في الركاب وبطنها عالية لدرجة جعلته لا يستطيع رؤية وجهها - إحدى هؤلاء النساء الأخريات. وركبتها المستديرتان، ربلة ساقيها الناعمتان والرفيعةتان، كاحلاها، كل هذا كان أمامه مألوفاً ومحبباً إلى قلبه. ومع ذلك لم يخطر في باله أن يقوم بتمرير يده فوق بشرتها أو وضع يده على ركبتيها لطمأنيتها. لقد كانت المريضة هي التي تمسك بيدها أثناء قيامها بالدفع. فبالنسبة للطبيب - والذي كان يركز على الحالة التي أمامه - فإنها لم تعد زوجته وإنما مجرد حالة مثل أي حالة أخرى، مريضة يجب عليه تلبية احتياجاتها مستخدماً كل مهارة تقنية يمتلكها. فقد كان من الضروري - بل من الضروري للغاية الآن - أن يكبح عواطفه، وبعد مضي بعض الوقت عاوده ثانية الشعور الذي ساوره حينما كان بغرفة نومهما. فقد بدأ يشعر وكأنه ترك غرفة الولادة هنا وأصبح يرى نفسه وزوجته من مكان آمن بعيد. رأى نفسه يُحدث بحرفية شق فوهة الرحم. وقد كان شقاً ممتازاً - كما اعتقد - حيث انبثق منه الدم في خط نظيف، وقد أرغم نفسه على ألا يتذكر الأوقات التي لامس فيها نفس هذا المكان بشكل حميمي.

ظهر الرأس وبعد ثلاث دفعات أخرى خرج بالكامل ثم انزلق الجسم فوق يديه المنتظرتين وصرخ الطفل وتحول جسده الأزرق إلى اللون الوردي.

قالت زوجته: "فويب". لم يكن بإمكانه رؤية وجهها ولكن صوته كان واضحاً. لقد ظلا ينتقيان الأسماء طوال أشهر ولم يتوصلا لأي قرار. قالت: "إن كانت فتاة سنسميها فويب وإن كان صبياً سنسميه بول، فقد كان ذلك اسم عمي. هل أخبرتك بذلك من قبل؟ أردت فقط أن أخبرك أنني قد توصلت لقرار بخصوص هذا الأمر."

قالت المريضة: "إن تلك أسماء جميلة".

كرر الطبيب قائلاً: "فويب وبول" ولكنه كان يركز الآن على الانقباضة التي تمر بها زوجته. أشار إلى المريضة التي قامت بتحضير الغاز. خلال السنوات التي كان فيها طبيباً مقيماً كان العرف هو ترك المرأة تخوض فترة المخاض دون أي تدخل طبي حتى انتهاء الولادة ولكن الزمن قد تغير - فنحن في عام ١٩٦٤ - ودكتور بنتلي - على حد علمه - كان يستخدم الغاز كمسكن في معظم الأوقات. إن الأفضل أن تكون متيقظة لتقوم بالدفع: وهو سوف يعطيها المسكن فقط في حالة مداهمة انقباضة سيئة لها وأثناء بزوغ الرأس والولادة. صرخت زوجته وتحرك الطفل في قناة الولادة مفجراً الكيس السلي.

قال الطبيب: "الآن"، وقامت المريضة بوضع القناع على وجهها. ارتخت يدا زوجها وفتحت قبضتيها حينما بدأ الغاز يحدث مفعوله، واستلقت ساكنة حتى داهمتها انقباضة أخرى. قالت المريضة ملاحظة: "إن الانقباضات تتوالى سريعاً بخلاف ما يحدث في العادة في حالة الولادة الأولى".

قال الطبيب: "نعم. كل شيء على ما يرام حتى الآن".

وقد مرت نصف ساعة على هذا الحال. ترتفع زوجته وتأن وتدفع، وحينما يشعر أنها متألمة بشدة - أو حينما تصيح قائلة بأن الألم غير محتمل - كان يومئ للمريضة التي كان تعطيها الغاز. وفيما عدا الفترة الفاصلة بين الانقباضات التي تتسم بالهدوء فإنهما لم يتحدثا معاً. وفي الخارج ظل الثلج يهطل

كان صبيًا ذا وجه أحمر وشعر داكن وكانت عيناه يقظتين وتستجيبان للضوء وهواء الغرفة البارد. ربط الطبيب الحبل السرى وقطعه. أخذ يفكر، /بنى، /بنى.

قالت المريضة: "إنه جميل". انتظرت حتى تفحص نبضات قلب الطفل والتي كانت قوية ومنتظمة، وتفحص أصابع يديه الطويلة وشعره الداكن. بعد ذلك أخذته المريضة للغرفة الأخرى لتنظيفه ووضع النترات في عينيه. كانت صرخاته مسموعة عندهما بالغرفة وقد تحركت زوجته حركة ضئيلة وقد ظل الطبيب جالساً في مكانه يضع يده على ركبتها وقد أخذ عدة أنفاس عميقة في انتظار المشيمة. بدأ يفكر ثانية، /بنى.

سألت زوجته: "أين الطفل؟" وفتحت عينيهما وأزاحت الشعر من فوق وجهها المتورد: "هل كل شيء على ما يرام؟".

قال الطبيب وهو يبتسم لها: "إنه صبي. لقد رزقنا بصبي. سوف تريه بمجرد أن تنظفه المريضة. إنه شبه كامل".

وقد تجعد وجه زوجته الناعم والمجهد فجأة إذ داهمتها انقباضة أخرى، وقد عاد الطبيب الذي كان ينتظر نزول المشيمة إلى مقعده الخفيض بين ساقيهما وضغط على بطنها برفق. صرخت وفي نفس اللحظة أدرك ماذا كان يحدث وهو مصاب بالذعر وكان نافذة ظهرت فجأة في الحائط الخرساني.

قال: "لا بأس. كل شيء على ما يرام"، ثم نادى على المريضة حينما بدأت الانقباضة التالية.

جاءت على الفور وهي تحمل الطفل في ملاءة بيضاء.

قالت: "لقد أحرز تسع درجات بمجموعة أبحار. إن هذا جيد جداً".

رفعت زوجته ذراعيها وهمت بالتحدث ولكن داهمها الألم ثانية فاستلقت منتصبة على الفراش.

قال الطبيب: "أيتها المريضة. أحتاجك هنا على الفور".

بعد دقيقة من الارتباك وضعت المريضة وسادتين على الأرض ووضعت فوقهما الطفل وانضمت إلى الطبيب عند الطاولة.

قال: "مزيد من الغاز". رأى دهشتها ثم إيماءتها السريعة بالاستيعاب وانصاعت لأمره على الفور. كانت يده مستقرة على ركبة زوجته، وقد شعر بارتخاء عضلاتها حينما بدأ المخدر يحدث مفعوله.

سألت المريضة: "توأم؟".

ولم يكن في استطاعة الطبيب الذي كان قد بدأ بعد ميلاد ابنه ولكنه توتر ثانية الآن أن يستجيب بأكثر من إيماءة. قال لنفسه: "استعد" بينما كانت الرأس التالية تبزغ. فكر بينه وبين نفسه، /إنك في مكان آخر تشاهد ما يحدث من بقعة دقيقة بالسقف - ترى يديك وهي تعمل بشكل نظامي ودقيق. /إنها مثل أي ولادة أخرى.

هذا الطفل كان أصغر وخرج بسهولة، وانزلق سريعاً في يديه المكسوتين بالقفزات الطبية لدرجة أنه اتكأ للأمام واستخدم صدره ليضمن عدم سقوطه. قال: "إنها فتاة" وقلبها لأسفل وربت على ظهرها حتى صرخت. وبعد ذلك قلبها ليرى وجهها.

كانت هناك دوائر حلزونية من الطلاء الدهني على جلدها الناعم، وقد كانت زلقة للغاية بفعل السائل الأمنيوني وخطوط الدم. كانت عيناهما الزرقاوان غائمتين وكان شعرها أسود ولكنه لم يلاحظ أياً من هذا تقريباً. فما كان ينظر إليه هو الملامح سهلة التمييز، العينان العاليتان وكأنهما تضحكان، والثنية الفوق ماقية بجفنيها، والأنف المفرطة. "حالة كلاسيكية"، هكذا قال أستاذه بينما كان يتفحص طفلاً ذا حالة مشابهة منذ عدة سنوات مضت. "طفل منغولي. هل تعرفون ماذا يعني هذا؟". ثم قام

الطبيب بسرد الأعراض التي حفظها من الكتاب: ترهل في العضلات، تأخر في النمو وفي التطور العقلي، مضاعفات محتملة بالقلب، موت مبكر. وقد أوماً الطبيب ووضع سماعته على صدر

الطفل العارى الناعم. "يا له من طفل مسكين. ليس فى وسعهم القيام بشيء فيما عدا الحفاظ على نظافته. لابد أن يوفرنا على أنفسهم عناء الرعاية به ويرسلوا به إلى إحدى دور الرعاية".

شعر الطبيب أنه سافر إلى الورا عبر الزمن. لقد ولدت شقيقته بعيب خلقى فى قلبها وكانت تنمو ببطء شديد وكانت تلهث فى كل مرة تحاول الركض فيها. وطوال سنوات عديدة - حتى القيام بالرحلة الأولى للعيادة فى مورجان تاون - لم يكن لديهم فكرة عما بها. وبعد ذلك أدركوا ما الأمر ولم يكن فى وسعهم القيام بأى شيء. وقد انصرف كل اهتمام والدته إلى شقيقته، ومع ذلك فقد ماتت حينما كانت فى الثانية عشرة من عمرها فقط. وكان الطبيب يبلغ فى ذلك الحين السادسة عشرة من عمره، ويعيش بالفعل فى المدينة حيث توجد مدرسته الثانوية، وحيث كان فى طريقه للتوجه إلى بتسبرج وكلية الطب والحياة التى يعيشها الآن. ومع ذلك كان لا يزال بإمكانه تذكر مدى عمق حزن والدته، والطريقة التى كانت تصعد بها التل لتصل إلى قبرها وذراعاها مطويتان لتصد عنها أية رياح تواجهها.

وقفت الممرضة إلى جواره وتفحصت الطفلة.

قالت: "أنا آسفة".

كان يمسك بالطفلة وقد نسى ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك. يداها الصغيرتان كانتا كاملتين. ولكن كانت هناك فجوة كبيرة بين إصبعي قدميها الكبيرين وباقي الأصابع كما لو أن هناك إصبعاً مفقوداً، وحينما نظر بعمق فى عينيها رأى نقاط بروفيلد البيضاء التى كانت صغيرة ومميزة مثل حبات الثلج على نباتات السوش. تخيل شكل قلبها، فى حجم ثمرة البرقوق وفى الغالب مصاب بخلل بالغ، ثم فكر فى غرفة الطفل التى تم طلاؤها بحرص وما تحتوى عليه من حيوانات ناعمة ومهد واحد. وقد فكر فى زوجته وهى تقف على الرصيف أمام منزلها المغطى بالثلج وتقول: "إن عالماً لن يعود إلى سابق عهده قط".

لامست يد الطفلة يده مما جعله يجفل. ودون أن يدرك ذلك بدأ يقوم بالإجراءات التقليدية. قطع الحبل السرى وتفحص القلب والرئتين. وطوال الوقت كان يفكر فى الثلج والسيارة العائنة فى المصرف وسكون هذه العيادة الشاغرة. ولاحقاً حينما كان يتذكر هذه الليلة - وقد كان يفكر فيها كثيراً فى الأشهر والسنوات التالية حيث إنها كانت تمثل نقطة تحول فى حياته، لقد كانت هى اللحظات التى ترتب عليها كل شيء آخر - فما كان يتذكره هو سكون الغرفة والثلج الذى يتساقط بطريقة نظامية بالخارج. كان السكون عميقاً ومهيماً لدرجة جعلته يشعر بأنه يطفو فوق ارتفاع جديد، فى مكان ما فوق هذه الغرفة حيث كان وسط الثلوج وحيث كان هذا المشهد بهذه الغرفة يبدو كأنه ينتمى لحياة أخرى، حياة كان يلعب بها دور المشاهد فقط، والذى يرى مشهداً داخل غرفة مضاءة دافئة أثناء تجوله فى شارع مظلم. ذلك هو ما سوف يتذكره، هذا الشعور بالفضاء اللامتناهى. الطبيب فى المصرف وأضواء منزله تتوهج من بعيد.

قال: "حسناً، قومي بتنظيفها من فضلك"، ثم وضع الرضاعة بين يدي الممرضة. "ولكن أبقئها فى الغرفة الأخرى. لا أريد لزوجتي أن تعرف بأمرها. ليس على الفور".

أومات الممرضة. اختفت ثم عادت لترفع ابنه وتضعه فى حمالة الطفل التى قاما بشرائها. وكان الطبيب فى ذلك الحين مشغولاً بتوليد المشيمتين، واللتين خرجتا بسهولة وكانتا داكنتين وسميكتين وكل واحدة فى حجم الطبق الصغير. إنهما توأم بيضتين - ذكر وأنثى - أحدهما فى حالة ممتازة والآخر لديه كروموسوم إضافى فى كل خلية من خلايا جسده. ما احتمالات حدوث حالة كهذه؟ كان ابنه يرقد فى الحمالة ويده تلوح من حين لآخر فى حركات مشابهة للحركات العشوائية التى كانت تتحرك بها داخل الرحم. حقن زوجته بمسكن ثم اتكأ للأمام ليقوم بخياطة شق الفوهة الشرجية. كان الفجر على وشك

الزرقاوين الغامضتين. حديق بدوره فى عينيها دون أن يجفل وفى النهاية أومات برفق شديد.
تمتت قائلة وهى تنظر للأسفل: "الثلج".

...

بحلول فترة منتصف الصباح بدأت العاصفة تنحسر، ودوت أصوات جرف الثلج فى المكان. وقد نظر إلى الخارج خلال نافذة الأدراج العلوية حيث كانت الممرضة تنفض الثلج من فوق سيارتها الزرقاء قبل أن تنطلق بها فى العالم الأبيض الناعم. كانت الطفلة غير مرئية حيث إنها كانت نائمة فى صندوق مبطن بالملاءات يوجد على المقعد خلفها. ظل الطبيب يشاهدها حتى انعطفت يساراً واختفت. بعد ذلك عاد وانضم إلى أسرته.

كانت زوجته نائمة وكان شعرها الذهبى منسدلاً فوق الوسادة. ومن حين لآخر كان الطبيب يغط فى النوم. وحينما يستيقظ كان يحدق فى موقف السيارات الشاغر، ويشاهد الدخان يتصاعد من المداخل عبر الشارع ويعد الكلمات التى سيقولها. إن ما حدث لم ينتج عن خطأ ارتكبه أى شخص، وابنتهما ستكون بين أيد أمينه، وسط أطفال يعانون نفس حالتها، ويتلقون جميعاً رعاية فائقة. فذلك سيكون أفضل للجميع.

وفى وقت متأخر من هذا الصباح حينما توقف الثلج عن الهطول نهائياً، صرخ ابنه حينما قرصه الجوع مما أيقظ زوجته. قالت زوجته: "أين الطفل"، ورفعت رسيغها ودفعت شعرها بعيداً عن وجهها. كان يمسك بابنهما دافئاً ومشرقاً وجلس إلى جوارها ووضع الطفل بين ذراعيها.
قال: "مرحباً يا عزيزتى. انظري إلى ابننا الجميل. لقد كنت شجاعة للغاية".

قبلت جبهة الطفل وبعد ذلك فتحت رובהا وبدأت بإرضاعه. وقد تشبث الطفل بشديدها على الفور، فنظرت زوجته إليه

البزوغ، وقد تجمع الضوء بشكل رقيق فى النوافذ. وقد أخذ يشاهد يديه وهما تتحركان وهو يفكر فى مدى جودة الغرز التى كانت جميلة ودقيقة مثل الغرز الخاصة بزوجته. فقد قامت بتمزيق لحاف كامل بسبب خطأ واحد لم يكن مرئياً له.

وحينما انتهى الطبيب وجد الممرضة تجلس على كرسى هزاز فى غرفة الانتظار وهى تهدد الطفلة بين ذراعيها. نظرت إليه لتجده يحدق إليها ولكنهما لم يتحدثا، وقد تذكر فى هذه اللحظة الليلة التى شاهدته فيها وهو نائم.

قال وهو يكتب اسماً وعنواناً على ظهر مظروف: "إن هناك مكاناً أود أن تأخذها إليه. أعنى حينما تشرق الشمس. وسوف أرسل هناك شهادة الميلاد وأتصل لأخبرهم بأنك ذاهبة".

قالت الممرضة: "ولكن زوجتك"، وكان باستطاعته أن يسمع من حيث يقف نبذة الدهشة والرفض فى صوتها.

كان يفكر فى أخته - شاحبة ونحيفة - تحاول التقاط أنفاسها بينما تستدير والدته ناحية النافذة محاولة إخفاء دموعها.

سأل فى صوت خفيض ورقيق: "ألا ترين؟ إن تلك الطفلة المسكينة ستصاب على الأرجح بخلل حاد فى القلب. خلل مميت. أنا أحاول أن أوفر علينا عناء المرور بتجربة حزن شنيعة".

كان يتحدث عن اقتناع بالغ. جلست الممرضة وهى تحدق فيه، كان تعبيرها ينم عن الدهشة. ومع ذلك كان صعب القراءة وظل ينتظر منها الموافقة على كلامه. ففى خضم الحالة العقلية التى كان منغمساً فيها لم يخطر بباله أنها قد تقول أى شيء آخر. فإنه لم يتخيل - كما فعل لاحقاً فى هذه الليلة وفى ليال عديدة تالية - أن قراره هذا سوف يعرض كل شيء آخر فى حياته للخطر. بدلاً من ذلك فقد ضاق ذرعاً من تباطئها وشعر بالتعب فجأة وبدت له العيادة التى كانت فيما سبق مألوفة غريبة من حوله وكأنه يسير فى حلم. أخذت الممرضة تتفحصه بعينيها

وابتسمت. أمسك بيدها الحرة وهو يتذكر كيف كانت تمسك يده بشدة حتى أن عظام أصابعها انطبعت فوق جلده. تذكر إلى أي مدى أراد حمايتها.

سألت: "هل كل شيء على ما يرام يا عزيزي؟ ما الأمر؟". أخبرها ببطء: "لقد أنجبنا توأماً"، بينما كان يفكر في الشعر الأسود والجسدين المنزلقين اللذين سقطا بين يديه. اغرورقت عيناه بالدموع: "صبي وفتاة".

قالت: "يا إلهي، فتاة أيضاً؟ فويب وبول. ولكن أين هي؟". كانت أصابعها رقيقة مثل عظام طائر صغير.

قال: "يا عزيزتي" ولكن الكلمات التي كان قد أعدها بحرص تطايرت جميعاً. أغمض عينيه وحينما استطاع الحديث ثانية خرجت الكلمات من فمه عفواً.

قال: "أنا آسف يا عزيزتي، لقد ماتت طفلتنا بعد ولادتها".

٢

كانت كارولين جيل تتقدم بحرص وارتيباك عبر ساحة الانتظار. كان الثلج يصل إلى رجليها؛ وفي بعض الأماكن إلى ركبتيها. حملت الطفلة المدثرة في الملاء داخل الصندوق الكرتوني والذي كان يستخدم فيما قبل في توصيل عينات لبن الأطفال إلى العيادة. كان مدموغاً بخطابات حمراء وأوجه أطفال رضع ملائكية، وكانت الألسنة ترتفع وتسقط مع كل خطوة. كان يسود الساحة شبه الشاغرة صمت غير طبيعي، صمت بدا أنه ينبع من برودة الجو، وينتشر في الهواء مثل الموجات التي تتكون عند إلقاء حجر بالماء. وقد لفح الثلج وجهها حينما فتحت باب السيارة. وبطريقة غريزية وحميمية لفت جسمها حول الصندوق ووضعت على المقعد الخلفي حيث سقطت الملاءات الوردية على التنجيد الفينيل الأبيض. كانت الطفلة نائمة نوماً هميماً، نوم الأطفال حديثي الولادة، كان وجهها مجعداً وعيناها مجرد لوزتين وأنفها وذقنها عبارة عن نتوءات صغيرة. أنت لن

اللون وبطنها الضخمة، والتي كانت تتموج بفعل الانقباضات مثل بحيرة في عاصفة. الحفيف الهادئ للغاز واللحظة التي استدعاها فيها دكتور هنري، صوته الرزين ولكن المتوتر، نظرة الذعر على وجهه لدرجة أنها اعتقدت أن الطفل الثاني ولد ميتاً. وقد انتظرت أن يتحرك، أن يحاول إنعاشه. ولكن عندما لم يقم بذلك اعتقدت على الفور أنها يجب أن تذهب إليه، كي تكون شاهدة، حتى تستطيع أن تشهد فيما بعد: "نعم، كانت الطفلة زرقاء اللون، لقد حاول دكتور هنري، لقد حاولنا معاً، ولكن لم يكن هناك ما يمكن فعله".

ولكن بعد ذلك صرخت الطفلة، تلك الصرخة التي جعلتها تأتي وتقف إلى جواره حيث نظرت وفهمت.

واصلت القيادة وهي تستعيد ذكرياتها. كانت السيارة تسير فوق طريق من الحجر الجيري وأسفل سماء قمعية الشكل، صعدت تلا صغيراً وبدأت هبوطاً طويلاً نحو النهر بالأسفل. وخلفها، في الصندوق الكرتوني كانت الطفلة نائمة. كانت كارولين تنظر من فوق كتفها من حين لآخر وكانت تشعر بالطمأنينة والحزن لتري أنها مازالت نائمة. وقد ذكرت نفسها بأن مثل هذا النوم كان طبيعياً بعد مرحلة المخاض التي يتطلبها الدخول لهذا العالم. وقد فكرت في ولادتها هي، وإن كانت قد نامت بمثل هذا العمق في الساعات التالية، ولكن كلا والديها قد رحل عن الحياة منذ زمن بعيد؛ فلم يكن هناك من يتذكر هذه اللحظة. كانت أمها قد تجاوزت الأربعين حينما أنجبته وكان والدها في الثانية والخمسين. كانا قد توقفا منذ وقت طويل عن التفكير في إنجاب طفل، وتخلياً عن أى أمل أو ترقب أو حتى ندم. فكانت حياتهما منظمة وهادئة وسعيدة.

ذلك حين وصلت كارولين على حين غرة، مثل الزهرة التي نمت خلال الثلج.

تعرفى ما حدث، أخذت كارولين تفكر. فإن لم تعرفى الآن فلن تعرفى قط فيما بعد. وكانت كارولين قد أعطتها ثمانى درجات على مقياس أبجار.

كان الثلج متراكماً فى شوارع المدينة مما زاد من صعوبة اختراقها. فقد انزلقت السيارة مرتين وعادت كارولين أدراجها تقريباً مرتين. لكن المنطقة الفاصلة بين الولايتين كانت أكثر اعتدالاً وبمجرد أن وصلت كارولين إليها، شقت طريقها بمزيد من السهولة عابرة الضواحي الصناعية للكسجنجتون ومختربة القرية المتعرجة لمزارع الخيول. وفى هذه القرية ألقت أميال من الأسوار البيضاء بظلال خفيفة على الثلج بينما تقف الخيول داخل الحقول. وكانت السماء الخفيفة تعج بالسحب الرمادية الممتلئة. قامت كارولين بتشغيل الراديو وبحثت خلال التشويش عن محطة ثم أغلقته. كان العالم يتسارع من حولها وقد أصابه تغيير كبير.

فمنذ اللحظة التي سمحت فيها لرأسها بالإيماء بالموافقة على طلب دكتور هنري الغريب شعرت كارولين وكأنها تسقط فى الهواء بحركة بطيئة، وفى انتظار أن ترتطم بالأرض وتكتشف أين هي. فما طلبه منها - أن تأخذ طفلته الرضاعة بعيداً دون أن يخبر زوجته شيئاً عنها - يبدو منافياً للعقل. ولكن كارولين كانت قد تأثرت حينما رأت تعبير الألم والدهشة يطفو على وجهه عند تفحصه لابنته، حينما رأت كيف كان يتحرك وكأنه فاقد الحس بعد ذلك. لقد كان يعاني صدمة، ومن يستطيع لومه على ذلك؟ لقد قام بتوليد طفليه فى عاصفة ثلجية عنيفة، والآن هذا الأمر.

قادت السيارة على نحو أسرع وكان العالم من حولها فى هذا الوقت المبكر من الصباح يمر أمامها كجدول نهري: دكتور هنري الذى كان يعمل بكل هذه البراعة والهدوء، حركاته المركزة والدقيقة، كتلة الشعر الأسود بين فخذى نورا هنري بيضاوية

وعلى بعد عشرين ميلاً من لويسفيل تفحصت كارولين إرشادات دكتور هنرى المكتوبة بخط يده الحاد وغادرت الطريق الرئيسى. وهنا - وعنق مقربة كبيرة من نهر أوهايو - كانت الأفرع العلوية من شجر الزعرور البرى والميس مغطاة بالثلج، بالرغم من أن الطرقات كانت جافة وخالية من الجليد. كانت الأسوار البيضاء تحوط الحقول المغطاة بالثلج وكانت الخيول تتحرك خلفها وتحدث أنفاسها سحباً فى الهواء. انعطفت كارولين داخل طريق أصغر؛ حيث كانت الأرض مموجة ومحاطة بحواجز. وبعد نحو ميل من التلال الشاحبة، سرعان ما رأت المبنى، والذي تم تشييده من الطوب الأحمر فى مطلع القرن، وتزويده بجناحين عصريين سفليين متضاربين. وكان يختفى من حين لآخر بينما كانت تنعطف فى المنحنيات بالطريق الريفى حتى أصبح فجأة أمامها.

دلفت داخل الطريق الدائرى. وحينما اقتربت منه وجدت أن المنزل القديم كان يخضع لعملية ترميم بسيطة. فكان الطلاء قد تحول إلى قشور على الزركشة الخشبية وبالطابق الثالث كانت إحدى النوافذ مكسوة بالألواح الخشبية والألواح الزجاجية المكسورة مغطاة بالخشب الرقائقى. خرجت كارولين من السيارة. كانت ترتدى حذاء قديماً بالياً من غير كعب ذا نعل رفيع والذي كانت تحتفظ به فى خزانته ووقع فى يديها بسهولة فى وسط الليلة الماضية حينما لم تستطع العثور على حذائها. وكان الحصى يبرز من بين الثلج وسرعان ما شعرت قدمها بالبرودة. أخذت الحقيبة التى قامت بتحضيرها - والتى كانت تحتوى على حفاظات وترمس للبن الدافئ - فوق كتفها والتقطت الصندوق الذى تنام فيه الطفلة ودخلت المبنى. وقد أحاطت أنوار الزجاج ذى الأطر الرصاصية وغير المصقول الباب على كلا جانبيه. وكان يوجد باب داخلى ذو زجاج مجمد يقود إلى بهو كان مصنوعاً من البلوط الداكن. وقد داهمها والتف حولها هواء ساخن عابق

ولقد أحباها بالطبع، ولكن كان حباً يشوبه القلق والخوف، حباً تغلفه طبقات من الكمادات والجوارب الدافئة وزيت الخروج. فى فصول الصيف الحارة - عند ارتفاع معدلات الإصابة بشلل الأطفال - كان والدا كارولين يرغبانها على البقاء فى المنزل؛ حيث كانت حبات العرق ترقد فوق صدغيها أثناء استلقائها وهى تقرأ على سرير النهار بقرب النافذة فى الرواق العلوى. كان الذباب يطن فوق الزجاج وبعضه يرقد ميتاً على عتبة النافذة. وفى الخارج كانت الأرض تومض أسفل ضوء الشمس وحرارتها وكان الأطفال من الحى - أطفال كان آباؤهم أصغر سناً وبالتالى لا يتوقعون حدوث مكروه لأطفالهم طوال الوقت - يصيحون على بعضهم البعض من بعيد. كانت كارولين تضع وجهها وأطراف أصابعها على زجاج النافذة وتأخذ فى الإنصات والحنين. كان الجو حاراً وكان كنفها قميصها القطنى وحزام تنورتها مشربين بالعرق. وبالأسفل فى الحديقة، كانت والدتها ترتدى قفازين ومئزرًا طويلاً وقبعة وتقوم بانتزاع الأعشاب الضارة. ولاحقاً فى الليالى المعتمة كان والدها يعود إلى المنزل من مكتب التأمين الخاص به وهو يخلع قبعته أثناء دخوله للمنزل الحار والرطب. وأسفل المعطف يكون قميصه مبقعاً ورطباً.

كانت تعبر الجسر الآن، وكانت إطارات سيارتها تنن، وكان نهر كنتاكي يموج بالأسفل وطاقة الليلة السابقة العالية قد ذابت. نظرت مرة أخرى إلى الطفلة. بالتأكيد نورا هنرى كانت لترغب فى احتضان هذه الطفلة حتى فى حالة عدم استطاعتها الاحتفاظ بها.

ولكن بالطبع لم يكن لكارولين أى دخل بهذا.

ومع ذلك فإنها لم ترفض التدخل فى الأمر. شغلت جهاز الراديو ثمانية - وفى هذه المرة عثرت على محطة تبث موسيقى كلاسيكية - وواصلت القيادة.

العالم كان يومض من حولها وأن الأوضاع لن تكون مستقرة. "هذ/٩" كانت تلك هي اللازمة التي تتكرر في ذهنها. "هذا الذى يحدث الآن بعد كل هذه السنوات؟".

لقد كانت كارولين جيل فى الحادية والثلاثين من عمرها، وهى تنتظر منذ وقت طويل أن تبدأ حياتها الحقيقية. إنها لم تصارح نفسها بهذا بشكل مباشر. ولكنها شعرت منذ طفولتها أن حياتها لن تكون عادية. فسوف تأتى لحظة - وهى ستعرفها حينما تأتى - يتغير فيها كل شىء. فقد كانت تحلم أن تصبح عازفة بيانو عظيمة، ولكن أضواء مسرح المدرسة الثانوية كانت مختلفة عن أضواء المنزل؛ حيث كانت تتجمد أسفل بريقها وتوهجها. وفى مرحلة العشرينات حينما بدأت صديقاتها فى مدرسة التمريض يتزوجن وينشأن أسراً وجدت كارولين كذلك شاباً حاز على إعجابها، شاباً ذا شعر أسود وبشرة شاحبة وضحكة عميقة. وقد كانت تتخيل أنه - وحينما لم يتصل بها تخيلت أن شخصاً آخر - سوف يغير حياتها. وبمرور السنين بدأت تركز اهتمامها على عملها مرة أخرى دون يأس. كانت تؤمن فى نفسها وفى قدراتها. فإنها لم تكن تنتمى لتلك الفئة من الأشخاص التى تقطع نصف المسافة لوجهة ما ثم تتوقف متسائلة إن كانت قد تركت المكواة موصولة بالتيار الكهربائي وإن كان المنزل يشتعل. لقد واصلت العمل. لقد ظلت تنتظر.

وقد كانت تقرأ أيضاً، فقد قرأت روايات بيرل باك أولاً ثم كل شىء استطاعت العثور عليه عن الحياة فى الصين وبورما ولاوس. وفى بعض الأحيان كانت تدع الكتب تنزلق من بين يديها وتشرع فى التحديق بطريقة حاملة خارج نافذة شقتها الصغيرة البسيطة على حدود المدينة. كانت ترى نفسها تنتقل إلى حياة أخرى، حياة غريبة وصعبة ومشبعة. إن عيادتها سوف تكون بسيطة وستؤسسها بغابة خضراء، ربما على مقربة من البحر. سوف يكون لها جدران بيضاء، وسوف تتلألأ مثل الجوهرة. وسوف

بروانح الطهى - الجزر والبصل والبطاطس. سارت كارولين فى تردد وألواح الأرضية تصر تحت كل خطوة، ولكن لم يظهر أحد. كانت سجادة رثة تستقر فوق أرضية خشبية واسعة وتمتد حتى مؤخرة المنزل بغرفة انتظار ذات نافذتين طويلتين وستائر ثقيلة. جلست فوق حافة أريكة من القطيفة الرثة، ووضعت الصندوق إلى جوارها وانتظرت.

كانت الغرفة مفرطة التدفئة، فقامت بفتح أزرار معطفها. كانت مازالت ترتدى زى الممرضات الأبيض وحينما لامست شعرها أدركت أنها مازالت ترتدى أيضاً قبعاتها البيضاء. فإنها قد نهضت من نومها على الفور حينما اتصل بها دكتور هنرى وارتدت ملابسها بسرعة وانطلقت فى تلك الليلة العاصفة ولم تتوقف منذ ذلك الحين. قامت بخلع قبعاتها وطوتها بحرص وأغلقت عينيها. وعن بعد، كان بإمكانها سماع قعقة الأنية الفضية وحفيف الأصوات. وفوقها كانت تشعر بصدى وقع الأقدام. كانت كأنها تحلم بأمرها وهى تعد وجبة يوم العطلة بينما كان والدها يعمل فى ورشته. كانت طفولتها منعزلة وتتسم أحياناً بالوحدة الشديدة، ولكنها مع ذلك كانت تحتفظ بتلك الذكريات: لحاف خاص بها، سجادة ذات نقوش على هيئة زهور أسفل قدميها، الأصوات التى كانت تخصها هى فقط.

وقد رن من بعيد جرس الهاتف مرتين. كان المتصل هو دكتور هنرى والذى قال بنبرة صوت يشوبها التوتر والعجلة: "أحتاج إليك هنا الآن". وقد أسرعت كارولين بعد أن أعدت فراش الوسائد وأمسكت قناع الغاز فوق وجه السيدة هنرى بينما كان التوأم الثانى - تلك الفتاة الصغيرة - تنزلق إلى هذا العالم لتحرك عجلة كانت ساكنة.

وهى تتحرك وتدور الآن. نعم لم يعد فى الإمكان إيقافها. حتى عند الجلوس هنا على هذه الأريكة فى سكون هذا المكان، حتى أثناء الانتظار، كانت كارولين يساورها شعور مزعج بأن

انفتح باب العيادة الخارجى محدثاً صوت خشخشة الباب الداخلى ذى الألواح الزجاجية.

قالت كارولين: "إنها جميلة". كانت يداها ترتعدان وذلك لأنها تأثرت بحبه وحزنه ولأنه لم يسبق لأحد أن أحبها بنفس الطريقة. كانت فى الثلاثين من عمرها تقريباً ومع ذلك فإنها لو ماتت فى اليوم التالى فلن يحزن أحد عليها كما لا يزال روبرت دين حزيناً على زوجته بعد مضى عشرين عاماً على موتها، وبالطبع لابد لها - كارولين لورين جيل - أن تكون متفردة وجديرة بالحب مثل تلك المرأة فى صورة الرجل العجوز، ومع ذلك، فإنها لم تجد أى وسيلة تظهر بها ذلك، ليس خلال الفن أو الحب أو حتى خلال تفانيها فى عملها.

كانت لا تزال تحاول لمام شتات نفسها حينما انفتح الباب الواصل بين الردهة وغرفة الانتظار. تردد رجل يرتدى معطفاً بنياً من النسيج الصوفى الخشن عند الباب للحظة وهو يمسك بقبعته فى يده ويتأمل ورق الحائط القماشى الأصفر ونبات السرخس فى الزاوية والرف الفولاذى الذى يحمل مجلات وكان تعبير وجهه ينم عن اليقظة والتقييم. لم يكن شديد الوسامة ولكن كان هناك ما يميز وقفته وسلوكه - تلك اليقظة الشديدة وهذه الموهبة فى الاستماع - والذى جعله متفرداً. تسارعت ضربات قلب كارولين وشعرت بالقشعريرة تسرى فى جسمها والتى كانت ممتعة ومزعجة فى الوقت ذاته مثل رفرفة جناح الفراش. التقت عيناها - فعرفت من هو. قبل أن يعبر الغرفة ليصافحها وقبل أن يفتح فمه لينطق اسمه، ديفيد هنرى بلكنة محايدة جعلتها تدرك أنه غريب عن البلدة. قبل كل هذا كانت كارولين واثقة من حقيقة واحدة بسيطة: لقد وصل الشخص الذى كانت تنتظره.

لم يكن متزوجاً فى هذا الحين. ليس متزوجاً أو مرتبطاً أو على علاقة بأية امرأة. فكانت كارولين تنصت جيداً فى هذا اليوم حيث قام بجولة فى العيادة ولاحقاً فى حفلات ولقاءات

يصطف الناس خارجها ويربضون أسفل أشجار جوز الهند أثناء انتظارهم. وسوف تقوم برعايتهم جميعاً، سوف تقوم بعلاجهم. سوف تغير حياتهم وحياتها.

وبعد أن سيطرت عليها هذه الفكرة قررت والحماسة تملؤها أن تصبح ممرضة فى إحدى البعثات الدينية. وفى نهاية أحد أسابيع فصل الصيف استقلت الحافلة إلى سانت لويس حيث كان لديها مقابلة عمل. ثم وضع اسمها على قائمة انتظار للسفر إلى كوريا. ولكن مر الوقت وتم تأجيل رحلة البعثة وألغيت فى النهاية. وقد وضع اسم كارولين بقائمة أخرى، هذه المرة فى رحلة إلى بورما.

وفى ذلك الحين حينما كانت لا تزال تتفحص بريدها وتحلم بالغابات الاستوائية، ظهر دكتور هنرى فى حياتها.

كان يوماً عادياً لا يميزه شئ آخر. كان بنهاية فصل الخريف - موسم نزلات البرد - وكانت الغرفة مكتظة، وممتلئة بالعطسات والسعال المكتوم. وكانت كارولين نفسها تشعر بحكة فى نهاية حلقها بينما كانت تنادى على المريض التالى، وهو رجل عجوز ستزداد نزلة البرد المصاب بها سوءاً فى الأسابيع التالية وتتحول إلى التهاب رئوى سوف يودى بحياته فى النهاية. روبرت دين. كان يجلس بالمقعد الجلدى يكافح نزيفاً بالأنف وقد وقف ببطء وهو يحشر منديله القماشى الملطخ ببقع الدم داخل جيبه. وحينما وصل إلى المكتب، أعطى كارولين صورة ذات إطار كرتونى أزرق داكن. كانت صورة شخصية بالأبيض والأسود يتخللها لون ضعيف. وكانت السيدة التى تطل من الصورة ترتدى معطفاً خوخي اللون. كان شعرها مجعداً برقة، وعيناها زرقاوين وعميقتين. إنها زوجة روبرت دين، إميلدا، وقد رحلت عن الحياة منذ عشرين عاماً. قال لكارولين بصوت مرتفع مما جعل الجميع ينظرون نحوه: "لقد كانت حب حياتى".

الاستقبال. لقد سمعت ما لم يسمعه الآخرون، وأسرها حوارها المذهب ولكنته غير التقليدية وضحكاته الفجائية غير المتوقعة ولاحظت كيف أنه تجنب التحدث عن حياته في بتسبرج - وهي المعلومة التي عرفتتها من سيرته الذاتية وشهادته - وكيف أنه لم يشير إلى ماضيه بأى شكل من الأشكال. وبالنسبة لكارولين أضفى عليه هذا التحفظ مسحة من الغموض، وهذا الغموض رفع من شعورها بأنها تعرفه أكثر من الآخرين. بالنسبة لها كانت كل مقابلة بينهما زاخرة بالكلام غير المنطوق، كما لو أنها كانت تخبره من وراء مكتبها ومن وراء طاولة الفحص، من وراء الأجسام العلية للمرضى: *"أنا أعرفك! أنا أفهم. أنا أرى ما لا يراه الآخرون"*. وحينما كانت تسمع الآخرين يسخرون من إعجابها بالطبيب الجديد كانت تتورد دهشة وخجلا. ولكنها كانت تسعد بذلك من داخلها أيضا حيث إن الشائعات قد تصله بطريقة لا تستطيع هي مع كل خجلها هذا أن تستخدمها.

وفى وقت متأخر من إحدى الليالى بعد شهرين من العمل الهادئ وجدته نائما على مكتبه. كان وجهه يستقر بين يديه وكان يتنفس بإيقاع يدل على النوم العميق. اتكأت كارولين ضد باب الغرفة وأثنت رأسها وفى هذه اللحظة تجمعت فى ذهنها كل الأحلام التي ظلت تراودها لسنوات. فإنهما سوف يذهبان معا - هي ودكتور هنرى - إلى مكان ناءٍ بالعالم حيث يمكنهما العمل طوال اليوم فى حين تنقطر حبات العرق فوق جبهتيهما وتصبح الأدوات زلقة بين يديهما، وحيث تعزف له ليلا على البيانو الذى سيشتريانه ويسافر إليهما عبر البحار وخلال نهر على الأمواج وأرض خضراء حتى يصل إلى حيث يعيشان. كانت كارولين منغمسة فى هذا الحلم للغاية لدرجة أنه حينما فتح دكتور هنرى عينيه ابتسمت له ابتسامة عريضة وحارة لم تبسمها لأى أحد آخر من قبل.

ولكن دهشته الواضحة جعلتها تسترد وعيها. انقضت فجأة ولمست شعرها وتمتمت معذرة وتورد وجهها بشدة، وقد اختفت وهى تشعر بالخجل ولكنها أيضا كانت سعيدة إلى حد ما. فالآن لابد أن يكون قد عرف، الآن سيرها كما تراه. وخلال الأيام القليلة الماضية كان توقعها لما قد يحدث بعد ذلك عظيماً حتى أنها لاقت صعوبة فى البقاء فى نفس الغرفة معه. ومع ذلك فحينما مرت الأيام ولم يحدث شيء لم تصب بالإحباط. فقد هدأت نفسها والتمست الأعذار للتأخير واستمرت فى الانتظار بدون ضيق.

وبعد ثلاثة أسابيع، فتحت كارولين الجريدة لتجد صورة الزفاف فى صفحة المجتمع: نورا آشر - الآن السيدة ديفيد هنرى - تظهر ورأسها مستدير لتكشف عن رقبة جميلة وكان جفناها منحوتين بعض الشيء مثل القواقع...

فزعت كارولين وتعرقنت فى معطفها. كانت الغرفة مفرطة الحرارة وهى تغط فى النوم تقريباً. وإلى جوارها كانت الطفلة مازالت نائمة. وقفت وسارت إلى النوافذ بينما أصدرت الألواح الخشبية بالأرض أسفل السجادة الرثة صريراً. وكانت الستائر المصنوعة من القطيفة تلامس الأرض، وهى من ضمن الآثار المتبقية من هذا الزمن حينما كان هذا المكان يتسم بالفخامة. لمست حافة الستائر الشفافة بالأسفل؛ والتي كانت صفراء وهشة ومنفتخة بالغبار. وبالخارج نصف دسنة من الأبقار كانت تقف بالحقل الجليدى واضعة أنوفها فى العشب الذى تتناوله. وكان رجل يرتدى سترة حمراء مربعة النقش وقفازاً داكن اللون يشق طريقه نحو الحظيرة وهو يحمل دلوين يتأرجحان فى يديه.

هذا الغبار، هذا الثلج. لم يكن هذا عدلاً، ليس عدلاً على الإطلاق، أن تحظى نورا هنرى بكل هذا، أن تعيش مثل هذه الحياة السعيدة. وبعد أن شعرت بالصدمة من تفكيرها هذا ومن

قسوتها، تركت كارولين الستائر تسقط وسارت مغادرة الغرفة نحو أصوات بنى البشر بالمكان.

دلقت داخل ردهة حيث كانت مصابيح الفلورسنت تصدر حفيفاً بالسقف العالى. كان الهواء ثقيلًا حيث إنه كان عابقاً بمسائل التنظيف والخضراوات المسلوقة والرائحة الصفراء للبول. كانت العربات تقعقع وكانت الأصوات تنادى وتتمتم. انحرفت فى أحد المنعطفات ثم آخر ثم هبطت درجة واحدة لتدخل جناحاً أكثر عصرية ذا جدران فيروزية شاحبة. وهنا كانت طبقة من الشمع مفرودة بشكل غير محكم فوق الخشب الرقائقى. مرت أمام العديد من الأبواب وهى تلمح لحظات من حياة بعض الأشخاص، والتي كانت تشبه الصور الفوتوغرافية: رجل يحدق خارج نافذة ووجهه مغطى بالظلال ومن الصعب تحديد عمره. ممرضتان يرتبان فراشا، أذراعهما مرفوعة للأعلى والملاءة شاحبة اللون تطير فى الهواء على مقربة من السقف. غرفتان شاغرتان مكسوتان بالقماش المشمع وتتكدس بأحد الأركان عبوات الطلاء. باب مغلق ثم الباب الأخير مفتوح حيث كانت هناك شابة ترتدى سروالاً تحتياً قطنياً أبيض تجلس على حافة الفراش وتعد يدبها داخل حجرها وتثنى رأسها للأسفل. وكانت هناك امرأة أخرى تقف خلفها وهى تمسك بيدها مقصاً فضياً لامعاً. كان الشعر يتساقط بغزارة فوق الملاءة البيضاء كاشفاً عن رقبة المرأة العارية: مكتنزة وجميلة وشاحبة. توقفت كارولين عند باب هذه الغرفة. سمعت نفسها تقول: "إنها تشعر بالبرد" مما جعل كلتا السيدتين تنظر إليها. كان للسيدة الجالسة على الفراش عينان واسعتان كانتا تشعان بريقاً فى وجهها. وشعرها -والذى كان طويلاً للغاية منذ فترة وجيزة - ينتأ بشكل أشعث عند مستوى ذقنها.

قالت الممرضة: "نعم"، وشرعت فى نفخ بعض الشعر من فوق كتفى المرأة؛ والذى طار خلال الضوء المعتم واستقر فوق الملاءة

ومشمع الأرضية الرمادى المبقع. "ولكن لا بد من القيام بهذا". ضاقت عيناها فى ذلك الحين بينما كانت تتفحص زى كارولين المجدد ورأسها الذى لا تغطيه قبعة. سألت: "هل أنت جديدة هنا؟".

أومات كارولين: "جديدة. هذا صحيح".

ولاحقاً حينما تذكرت هذه اللحظة، سيدة تمسك بمقص وأخرى تجلس بسروالها الداخلى وسط حطام شعرها، كانت تراها باللونين الأبيض والأسود وكانت الصورة تملؤها بشعور جامح بالفراغ والحنين. الحنين لماذا، هذا ما لم تكن تعرفه حقاً. كان الشعر متناثراً وغير قابل للاسترداد وكان الضوء البارد يتخلل الغرفة عبر النافذة. شعرت أن الدموع تترغرغ بعينيها. كانت الأصوات تتردد بردهة أخرى وتذكرت كارولين الطفلة التى تركتها نائمة فى صندوق على الأريكة القטיפية بغرفة الانتظار. استدارت وعادت أدراجها سريعاً.

كان كل شيء كما تركته تماماً. الصندوق الذى كان مطبوعاً عليه أوجه الأطفال الضاحكة لا يزال على الأريكة؛ والطفلة التى كانت يداها تتخذان شكل قبضتين صغيرتين عند ذقنها لا تزال نائمة. "فويب"، هكذا قالت نورا هنرى قبل أن يحدث المخدر مفعوله مباشرة. "إن كانت فتاة سنسميها فويب".

فويب. أزاحت كارولين الملاءات برفق وحملتها. كانت ضئيلة - نحو خمسة أرتال ونصف - وأصغر من أخيها بالرغم من أن لها نفس الشعر الأسود الكثيف. تفحصت كارولين حفاظتها - كانت مبقعة بالبراز - قامت بالتغيير لها ولفتها ثانية فى الملاءات. إنها لم تستيقظ حتى الآن وظلت كارولين تحملها لبرهة وهى تستشعر إلى أى مدى كانت خفيفة وصغيرة ودافئة. كان وجهها صغيراً للغاية ومتقلباً. فحتى فى نومها كانت التعبيرات تعبر ملامحها مثل السحب. فقد رأت كارولين تقطيع نورا هنرى فى أحدها وطريقة ديفيد هنرى العميقة فى الإنصات فى تعبير آخر.

وضعت فويب ثانية في الصندوق ودثرتها برفق بالملاءات وهي تفكر في ديفيد هنري وهو يملؤه التعب والإرهاق ويتناول شطيرة من الجبن على مكتبه ويشرب قدحا نصف بارد من القهوة إلى أن ينهض مجددا ليفتح أبواب العيادة في ليالي الثلاثاء؛ حيث كان يكشف بالمجان على المرضى الذين لا يستطيعون دفع مصروفات الفحص والعلاج. كانت غرفة الانتظار ممتلئة دوماً في هذه الليالي وهو عادة ما كان يظل هناك حتى تقرر كارولين في النهاية العودة إلى منزلها وهي تشعر بإرهاق شديد كان يمنعها من التفكير في أي شيء. وهذا هو السبب الذي جعلها تحبه، تلك الطيبة والعطف. ومع ذلك فقد أرسلها إلى هذا المكان مع رضيعته، هذا المكان حيث كانت تجلس امرأة على حافة فراش ويتراكم شعرها حولها في أكوام ناعمة على الأرضية ذات الضوء البارد.

قال عن نورا: "إن هذا سيدمرها وأنا لن أسمح بأي شيء أن يدمرها".

كان هناك وقع أقدام يقترب أكثر فأكثر وبعد ذلك ظهرت سيدة ذات شعر رمادي وترتدي زيا يشبه إلى حد كبير الزي الذي ترتديه كارولين عند الباب. كانت قوية البنية وخفيفة الحركة مقارنة بحجمها، وجادة. وفي وقت آخر كانت كارولين لتشعر بالانبهار والإعجاب إزاءها.

سألت: "هل بإمكانى مساعدتك؟ هل تنتظرين منذ وقت طويل؟"

قالت كارولين ببطء: "نعم أنا أنتظر منذ وقت طويل".

هزت المرأة رأسها في غضب: "نعم. أنا آسفة لذلك. إنه الثلج. إن هناك الكثير من العاملين المتغيبين اليوم بسببه. فما إن يغطي الثلج بوصة من الأرض هنا في كنتاكي يتعطل كل شيء في الولاية. لقد نشأت في أيوا ولا أعرف لماذا يثير الآخرون كل هذه

الجلبة حينما تهطل الثلوج، ولكن هذا رأيي. الآن، حسناً، كيف يمكننى مساعدتك؟"

سألت كارولين وهي تصارع لتذكر الاسم المكتوب على الورقة أسفل الإرشادات؛ حيث إنها قد تركتها في السيارة: "هل أنت سيلفيا باترسون؟"

بدت المرأة منزعجة: "لا. بالتأكيد أنا لست هي. أنا جانيت ماسترز. إن سيلفيا لم تعد تعمل هنا".

قالت كارولين: "آه"، ثم سكنت. إن هذه المرأة لم تكن تعرف من هي؛ من الواضح أنها لم تتحدث إلى دكتور هنري. كانت كارولين مازالت تمسك بالحفاضة المتسخة وقد ألقت بيديها إلى جوارها لإخفائها عن الأنظار.

وضعت جانيت ماسترز يديها في خصرها وضافت عيناها. سألت: "هل جئت من شركة لبن الأطفال؟"، وأشارت عبر الغرفة إلى الصندوق على الأريكة والذي كانت وجوه الأطفال تبتسم فوقه في براءة. "إن سيلفيا كانت لها علاقة بمثل هذه الشركات، نحن جميعاً نعلم ذلك، وإن كنت تعملين لدى نفس هذه الشركة فأنصحك أن تأخذى أشياءك وترحلى". قامت كارولين بهز رأسها بحدة.

قالت: "لا أعرف ماذا تعنين. أنا سوف أرحل. حقاً. أنا راحلة. لن أقوم بإزعاجك مرة أخرى".

ولكن جانيت ماسترز لم تكن قد انتهت بعد. "مجموعة من المحتالين، هذه هي حقيقتكم. تلقون لنا بعينات مجانية وبعد ذلك ترسلون لنا فاتورة بسعرها بعد أسبوع. ربما يكون ذلك مأوى للحمقى ولكن من يديرونه ليسوا كذلك، لا بد أن تعرفي ذلك".

همست كارولين: "أعرف ذلك. أنا آسفة حقاً".

رن جرس من بعيد وتركت المرأة يديها تسقط من خصرها.

قالت: "أحرصى على مغادرة المكان خلال خمس دقائق. اخرجى من هنا ولا تعودى قط". بعد ذلك غادرت.

حدقت كارولين بالمدخل الشاغر. التف تيار هوائى حول ساقيها. بعد دقيقة، وضعت الحفاضة المتسخة فى وسط الطاولة الموجودة إلى جوار الأريكة. بحثت فى جيبها عن مفاتيحها ثم حملت الصندوق الذى تنام بداخله فويب. وسريعا وقبل أن تفكر فيما تفعل اتجهت نحو الردهة الإسبرطية وعبر الأبواب المزبوجة حتى خرجت إلى العالم الخارجى حيث لفحها الهواء البارد.

وضعت فويب فى السيارة مجدداً. لم يحاول أحد إيقافها، لم يبد أى أحد اهتمامه بها بالمرّة. وبالرغم من ذلك، قادت كارولين سيارتها سريعا بمجرد أن وصلت إلى المنطقة الفاصلة بين الولايتين بينما كان الإنهاك يملك من جسمها وينهمر فوقه مثلما ينهمر الماء فوق الصخر. خلال الثلاثين ميلا الأولى أخذت تتحدث إلى نفسها، فى بعض الأحيان بصوت مرتفع. "ماذا فعلت؟" سألت نفسها بحدة. وقد كانت تتحدث وتجادل دكتور هنرى أيضاً متخيلة الخطوط العميقة بجبهته، والعضلة الشاردة بوجنته والتى كانت تقفز حينما يكون حانقا. سألتها: "قيم كنت تفكرين؟"، واضطرت كارولين أن تعترف أنها لم تكن تمتلك أدنى فكرة عما تفعل.

ولكن سرعان ما توقفت عن تخيل هذه المحادثات، وقد كانت تقود بطريقة ميكانيكية منذ اللحظة التى وصلت فيها إلى المنطقة الفاصلة بين الولايتين ومن حين لآخر كانت تهز رأسها لتبقى متيقظة. كان الوقت يقترب من فترة بعد الظهر وكانت فويب نائمة منذ اثنتى عشرة ساعة تقريبا. وسوف تحتاج للرضاعة عما قريب. وقد تمنّت كارولين أن يكونا قد وصلا إلى ليكسنجتون قبل حدوث هذا.

كانت قد عبرت لتوها آخر مخرج لفرانكفورت - على بعد اثنين وثلاثين ميلا من المنزل - حينما توهجت أمامها أضواء المكابح الخلفية للسيارة التى تسير أمامها. أبطأت ثم أبطأت أكثر حتى اضطرت أن تضغط على المكابح بشدة. كان الغسق قد بدأ فى التكون بالفعل وكانت السماء معتمة. وبينما كانت تصعد التل توقفت السيارات تماما وكان يبرق أمامها شريط طويل من الأضواء الخلفية والتى انتهت بضوء وامض من الأحمر والأبيض. كانت هناك حادثة. كانت كارولين على وشك البكاء. كان مقياس البنزين بالسيارة يشير إلى أن البنزين يقل عن ربع التانك، وهى الكمية التى كانت تكفى لإيصالها إلى ليكسنجتون، ليس أكثر من ذلك، وهذا الخط من السيارات - حسنا إنهم قد يظلون واقفين هنا لساعات. وهى لا تستطيع المخاطرة بإيقاف المحرك وفقدان الحرارة، لا يمكن أن يحدث هذا وبصحبته طفلة حديثة الولادة فى السيارة.

جلست ساكنة لعدة دقائق لا تعرف ماذا تفعل. كان آخر مخرج يبعد ربع ميل خلفها، يفصلها عنه سلسلة من السيارات. كانت الحرارة ترتفع من غطاء محرك سيارتها الفيرلين الزرقاء والذى كان يبرق فى العتمة بشكل خافت ويذيب رقاقات الثلج القليلة التى بدأت تسقط فوقه. تنهدت فويب وتجدد وجهها برفق ثم ارتخى. وجدت كارولين نفسها - وهو الأمر الذى أثار دهشتها فيما بعد - تدير عجلة القيادة لتخرج بسيارتها الفيرلين عن الأسفلت إلى داخل الأرض الحصوية الناعمة. عادت بالسيارة للوراء وهى تسير ببطء عابرة خط السيارات. كان الأمر غريبا كما لو أنها تحاول مسابقة قطار وتجاوزة. كانت هناك امرأة ترتدى معطفاً من الفرو وثلاثة أطفال يصنعون تعبيرات مضحكة بوجوههم ورجل يرتدى سترة قماشية ويدخن. أخذت تتحرك ببطء للخلف فى ظلمة المكان ووسط السيارات الساكنة مثل النهر المجدد.

عربات مكدسة بالبضائع. كان فتى يعمل بالمتجر يقف عند الباب.

حذرنا عند دخولها: "نحن لا نزال نعمل فقط بسبب الجو. وسوف نغلق المتجر خلال نصف ساعة".

قالت كارولين: "ولكن العاصفة انتهت"، فضحك الفتى ضحكة يشوبها البهجة والشك. كان وجهه متورداً نتيجة لتدفق الحرارة فوق الأبواب الأوتوماتيكية والتي كانت تتفرق سريعاً. "ألا تعرفي هذا؟ إن هناك عاصفة أخرى ستهب الليلة".

وضعت فويب داخل عربة معدنية وسارت عبر الممرات غير المألوفة. بدأت في تفحص عبوات اللبن، وأجهزة تدفئة زجاجات الإرضاع فوق الأرفف والمجموعات المختلفة من الحلويات وصدريات الأطفال. توجهت إلى الخزينة ولكنها أدركت أنه من الأفضل أن تبتاع لبناً لنفسها، والمزيد من الحفاضات وأحد أنواع الأطعمة. كان الناس يمرون من أمامها ولكنهم حينما يرون فويب كانوا يبتسمون حتى إن بعضهم كان ليتوقف ويمزج الملاءات بعيداً ليرى وجهها. كانوا يقولون: "يا إلهي، يا لها من طفلة لطيفة!" و "كم تبلغ من العمر؟". وكانت كارولين تكذب عليهم قائلة: "أسبوعان". وقد وبختها سيدة ذات شعر رمادي قائلة: "ما كان ينبغي أن تخرجي بها في مثل هذا الطقس. يا إلهي، لا بد أن تذهبي بهذه الرضاعة إلى المنزل".

وفي الممر ٦ بينما كانت كارولين تلتقط عبوات صلصة الطماطم تحركت فويب، أخذت يداها تتحركان بسرعة وبدأت في البكاء. ترددت كارولين للحظة ثم حملت الطفلة والحقيبة المملئة وذهبت إلى الاستراحة بمؤخرة المتجر. جلست فوق مقعد بلاستيكي يرتقي اللون بأحد الركنين وهي تنصت لصوت الماء وهو يتدفق من الصنبور ثم وضعت الرضاعة فوق ساقها وصبت اللبن الصناعي من الترمس في الزجاج. وقد استغرق الأمر من الطفلة عدة دقائق قبل أن تهدأ وتستطيع الرضاعة وذلك لأنها كانت

وصلت إلى المخرج دون أن تتسبب في وقوع أية حادثة. وقد أخذها هذا المخرج إلى الطريق ٦٠؛ حيث كانت الأشجار يعلوها الكثير من الثلج مجدداً. كانت الحقول تخترقها المنازل، في البداية كانت قليلة ثم ازداد عددها، كانت نوافذها تشع نورا وسط الظلام. وسرعان ما كانت كارولين تقود سيارتها في الشارع الرئيسي في فيرسيل وأخذت تشاهد واجهات المتاجر الطوبية في سعادة وهي تبحث عن لافتات ترشدها إلى الطريق إلى المنزل.

كانت هناك لافتة زرقاء داكنة ترتفع على بعد بناية ومطبوع فوقها اسم كروجر. وقد شعرت بالراحة حينما رأت هذا المتجر مألوف الشكل والذي تزين نوافذه البراقة نشرات إعلانية عديدة وأدركت فجأة كم هي جائعة. أي يوم كان هذا - كان السبت وكان الليل على وشك الحلول. إن المتاجر سوف تغلق طوال اليوم غداً وهي ليس لديها الكثير من الطعام في شقتها. وبالرغم من الإنهاك الذي كانت تشعر به فقد ركنت السيارة في ساحة الانتظار وأوقفت المحرك.

كانت فويب الدافئة والخفيفة والبالغة من عمر اثنتي عشرة ساعة مازالت نائمة في الصندوق. حملت كارولين حقيبة الحفاضات على كتفها ووضعت الطفلة والتي كانت ضئيلة للغاية ومجمدة ودافئة أسفل معطفها. تحركت الرياح فوق الأسفلت كاسحة بواقي الثلج وبعض الرقاقات الجديدة جارفة إياها في الأركان. شقت طريقها خلال الثلج نصف الذائب وهي تخشى السقوط وإيذاء الطفلة، وكانت تفكر في الوقت ذاته في مدى سهولة أن تتركها ببساطة، في أحد مقالب القمامة أو على عتبة دار عبادة أو بأى مكان آخر. لقد كانت هيمنتها على هذه الحياة الصغيرة مطلقة. غمرها إحساس عميق بالمسئولية مما جعلها تشعر بالدوار.

فتحت الباب الزجاجي والذي حرر دفقة من الضوء والدفع. كان المتجر مزدحماً. وكان المتسوقون منتشرين فيه وهم يدفعون

توقفت فى مكانها فى فزع. طوال كل هذا الوقت بينما كانت تدور فى ممرات البقالة وبينما كانت تجلس فى غرفة الاستراحة ترضع فويب، كان هذا المصباح مضاءً ضد الثلج المتساقط. وحينما حاولت تشغيل المحرك أصدر فقط صوت قعقة، لقد نفذت الطاقة من البطارية ولن يعمل المحرك.

غادرت السيارة ووقفت إلى جوار الباب المفتوح. كانت ساحة الانتظار شاغرة تماما الآن؛ فأخر سيارة غادرت لتوها. بدأت تضحك. لم تكن ضحكة طبيعية؛ حتى كارولين كان بإمكانها أن تلاحظ ذلك: كان صوتها عالياً يشبه البكاء. قالت بصوت عالٍ فى ذهول: "إن معى طفلة رضية. إن معى رضية فى هذه السيارة". ولكن السكون كان يسود الساحة أمامها والأضواء من داخل متجر البقالة كانت تكون مستطيلات كبيرة بالثلج نصف الذائب. كررت كارولين بينما كان صوتها يتلاشى سريعاً فى الهواء: "إن لدى طفلة هنا. طفلة!"؛ هكذا صرخت داخل السكون.

ثائرة للغاية ولأن رد الفعل المنعكس للمص لديها كان لا يزال ضعيفاً. ولكن فى النهاية استطاعت التقاط الحلمة وأخذت فى الرضاعة بينما كانت نائمة وهى تضع يديها اللتين تتخذان شكل قبضتين إلى جوار ذقنها. وبحلول الوقت الذى استرخت فيه الطفلة وشبعت، أعلنوا أن المتجر على وشك أن يغلق أبوابه. هرعت كارولين إلى الخزانة حيث كان موظف واحد هو الذى لا يزال موجوداً والذى كان يشعر بالملل ونفاد الصبر. دفعت حسابها سريعاً واضعة الحقيبة الورقية أسفل إحدى ذراعيها وفويب بالذراع الآخر. وحينما غادرت أوصدوا الأبواب خلفها.

كان الموقف شبه شاغر؛ حيث إن السيارات القليلة الأخيرة كانت قد شقت طريقها خلال الشارع ببطء. وضعت كارولين حقيبة البقالة على غطاء المحرك ووضعت فويب فى صندوقها بالمقعد الخلفى. وقد دوت أصوات الموظفين الضعيفة بالساحة. وكانت رقاقات الثلج المتناثرة تتساقط فى دوائر داخل الأقماع التى كونتها مصابيح الشارع، والتى كانت تهطل بنفس المعدل السابق بدون زيادة أو نقصان. إن خبراء الأرصاد الجوية غالباً ما يخطئون فى توقعاتهم. فالعاصفة الثلجية التى بدأت قبل مولد فويب - فقط بالليلة الماضية كما ذكرت نفسها بالرغم من أنها بدت لها وكأنها كانت منذ عهود طويلة - لم يتم رصدها على الإطلاق ولم يعلن عنها أحد. بحثت داخل الحقيبة الورقية وأخرجت شريحة من الخبز من لفافتها وبدأت تتناولها حيث إنها لم تتناول شيئاً طوال اليوم وكانت مقصورة جوعاً. بدأت تمضغ وأغلقت الباب بينما تفكر بحنين يشوبه الإنهاك فى شقتها - والتى كانت خالية من أى أشخاص سواها - وفى فراشها المزدوج ذى الملاءات الشنيل البيضاء، ففى شقتها كان كل شيء منظماً وفى مكانه. كانت قد قطعت نصف المسافة حول مؤخرة السيارة قبل أن تدرك أن مصابيحها الخلفية كانت مضاءة وتشع ضوءاً أحمر خفياً.

داهمها ألم حاد والذي بدأ يخمد مثل الموجة مع نزول اللبن. مررت يدها داخل شعره رقيق القوام وفروة رأسه الرخوة. وقد أدهشتها قوة جسمه. وقد هدأت يدها الآن واستقرت مثل النجمتين الصغيرتين فوق المنطقة الدائرية الملونة المحيطة بالحلمة.

أغلقت عينيها وهي تترنح بين اليقظة والنوم. شعرت أن بثراً عميقاً بداخلها كان يسيل ماؤه ويتحرر. كان لبنها يتدفق وبطريقة غامضة شعرت فوراً بأنها نهر أو ريح تحيط بكل شيء وتحوطه. النرجس البري على المزينة والعشب الذي ينمو بشكل جميل وهادئ بالخارج، الأوراق الجديدة التي تتفتح على براعم الأشجار. اليرقانات الصغيرة البيضاء مثل اللآلئ والمخبأة في الأرض والتي تحول نفسها إلى فراشات وديدان ونحل. الطيور التي تحلق داخل سرب. كل هذا كان ملكها. وضع بول يديه الصغيرتين أسفل ذقنه. كانت وجنتاه تتحركان حركة إيقاعية أثناء الرضاعة. وحولهما كان العالم يصدر حفيفاً فاتناً وجميلاً.

امتلاً قلب نورا بالحب وساروها شعور غريب بالسعادة والحزن.

إنها لم تبك على ابنتهما على الفور بالرغم من أن ديفيد فعل. قال لها: "طفلة زرقاء" بينما كانت الدموع تتعلق بلحيته التي لم يحلقها منذ يوم. طفلة صغيرة لم تتنفس ولو نفساً واحداً. كان بول يرقد في حجرها وشرعت نورا في تفحصه: الوجه الضئيل الصافي والمجدد، القبعة المغزولة ذات التقاليم الصغيرة، أصابع يدي الرضيع والتي كانت وردية ورقيقة ومقوسة. أظافر أصابعه الصغيرة جدا والتي مازالت ناعمة وشفافة مثل القمر الذي يظهر صباحاً. ما كان ديفيد يقوله - لم تستطع نورا تذكره حقاً. كانت ذكرياتها عن الليلة الماضية مشوشة وضبابية: كان هناك الثلج، والطريق الطويل إلى العيادة عبر الشوارع الشاغرة مع قيام ديفيد بالتوقف عند كل إشارة بينما كانت هي تصارع رغبتها العنيفة

٣

فتحت نورا عينيها. في الخارج كان الفجر على وشك البزوغ ولكن القمر كان لا يزال مرئياً بين الأشجار وكان يلقي ضوءاً شاحباً داخل الغرفة. كانت تحلم بأنها تبحث عن شيء فقدته بأرض مجمدة. كانت أوراق الأعشاب حادة وهشة وتتحطم بلمسها إياها تاركة جروحاً صغيرة بجلدها. استيقظت فجأة ورفعت يديها للأعلى وهي مرتبكة ولكن يديها كانتا خاليتين من أية خدوش وأظافرها مبردة ومطلية بحرص.

وإلى جوارها كان ابنها يبكي في مهده. وبحركة واحدة رشيقة والتي كانت تغلبها الغريزة أكثر من القصد رفعت نورا آخذة إياه إلى فراشها. كانت الملاءات إلى جوارها دافئة وبيضاء كثلج القطب الشمالي. كان ديفيد قد غادر حيث تم استدعاؤه بالعيادة حينما كانت نائمة. وضعت نورا ابنها فوق منحنى جسدها وفتحت رداء نومها. كانت يدها ترفرفان حول ثدييها المنتفخين مثل جناحي الفراشة، بعد ذلك بدأ الرضاعة. وقد

قالت: "أود رؤيتها"، كان صوتها هامساً ومع ذلك كان قوياً في سكون ساحة الانتظار. "فقط مرة واحدة. قبل أن تغادر. لأبد أن أراها".

دس ديفيد يديه في جيبه ونظر إلى الرصيف. طوال اليوم كانت الكتل الجليدية تتساقط من السقف المتعرج، وهنا كانت ترقد محطمة بجوار الدرجات.

قال برقة: "نورا، من فضلك دعينا نعود للمنزل. إن لدينا صبياً جميلاً".

قالت: "أعلم"، ولأنه كان عام ١٩٦٤ وكان هو زوجها فقد كانت تذعن له دوماً. ومع ذلك فقد بدا أنها لا تستطيع الحركة، كانت تساورها مشاعر غريبة وكأنها تترك جزءاً منها وراءها. "فقط لدقيقة واحدة يا ديفيد. لماذا لا يمكننا القيام بذلك؟".

تلاقت عيناها والحزن الذي كان يملأ عينيها جعل عينيها تترغرغ بالدموع.

كان صوت ديفيد فجاً: "إنها ليست هنا. هذا هو السبب. إن هناك مقبرة في مزرعة أسرة بنتلي. في مقاطعة وودفورد. لقد طلبت منه أخذها إلى هناك. تستطيعين الذهاب إلى هناك فيما بعد حينما يحل الربيع. من فضلك يا نورا، إنك تمزقين قلبي". أغلقت نورا عينيها في ذلك الحين وهي تشعر أن روحها تخرج منها عندما فكرت أن ابنتها سوف ترقد داخل مقبرة باردة في شهر مارس. كانت ذراعها اللتان تحملان بول متصلبتين وثابتتين، ولكنها شعرت بأن باقى جسدها كان مثل السائل وكأنها أيضاً سوف تذوب وتسرى داخل المصرف وتختفى مع الثلج. اعتقدت أن ديفيد كان محقاً، وهي فقط لم تكن ترغب أن تعرف هذا. وحينما صعد الدرجات ووضع ذراعه حول كتفيها أومأت وسارا معاً عبر ساحة الانتظار الشاغرة تحت الضوء الضعيف. ثبت مقعد السيارة وقاد بهما بأمان وبطريقة منهجية ونظامية إلى المنزل؛ حملاً بول عبر الشرفة الأمامية وخلال الباب

والزلزالية في الدفع. بعد ذلك كانت تتذكر فقط أشياء متفرقة، أشياء غريبة: السكون غير المعتاد للعيادة، الإحساس المتعب بقماش أزرق يلتف حول ركبتيه وبرودة طاولة الفحص تضرب ظهرها العارى. ساعة كارولين جيل الذهبية وهي تبرق في كل مرة تقترب منها فيها لتضع لها قناع الغاز. بعد ذلك استيقظت لتجد بول بين ذراعيها وديفيد إلى جوارها يبكي. نظرت إليه بإمعان بينما كانت تشعر بانعزال عن العالم. كان ذلك بسبب المخدر وتوابع الولادة وارتفاع الهرمونات. طفل آخر، أزرق اللون - كيف حدث هذا؟ تذكرت الرغبة الثانية في الدفع، والتوتر بصوت ديفيد الذي كان يشبه الصخور بالماء الأبيض. ولكن الرضيع كان يوجد بين يديها، كان كاملاً وجميلاً بشكل كاف. قالت له وهي تمسك بذراعه: "لا بأس. لا بأس".

لم يكن ذلك قبل مغادرتهم للعيادة في تردد وهما يقتحمان بتردد الجو الرطب والبارد لظهيرة اليوم التالي حتى بدأت تشعر بأنها فقدت شيئاً ما. كان الغسق على وشك الحلول وكان الهواء ممتلئاً بالثلج الذائب وكانت الأرض رطبة. كانت السماء معتمة وبيضاء ومجزعة خلف الفروع العارية الصلبة لشجر الجميز. حملت بول - كان خفيفاً مثل القطة - وهي تفكر في مدى غرابة هذا الأمر، أن تصطحب شخصاً غريباً تماماً إلى منزلها. وكانت قد صممت ديكورات الغرفة بدقة وحرص واختارت مهذاً مصنوعاً من خشب القيقب ومزينة ولصقت الورق الذي يأخذ أشكال الدببة فوق الجدار وعلقت الستائر وغزلت اللحاف بنفسها. كان كل شيء مرتباً ومعداً وكان ابنها بين ذراعيها. ومع ذلك وعند مدخل المبنى توقفت بين العمودين الخرسانيين المستدقين وهي غير قادرة على أخذ خطوة واحدة إضافية.

قالت: "ديفيد". استدار وهو شاحب اللون وداكن الشعر كشجرة تخترق السماء. سأل: "ماذا؟ ما الأمر؟".

ثم وضعاه وهو نائم في غرفته. وقد بثت فيها شعوراً بالراحة تلك الطريقة التي كان يعتنى بها ديفيد بكل شيء، الطريقة التي اعتنى بها من خلالها، ولم تجادله ثانية بشأن رغبتها في رؤية ابنتهما.

ولكنها الآن كانت تحلم كل ليلة بأشياء مفقودة.

راح بول في النوم. وخلف النافذة كانت فروع القرانيا ممتلئة بالبراعم الجديدة وتتحرك أسفل السماء النيلية الشاحبة. استدارت نورا ووضعت بول أسفل ثديها الآخر وأغلقت عينيها وراحت في النوم. استيقظت فجأة لتجد بول مبللاً ويصرخ، كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة. كان ثدياها منتفخين ثانية؛ لقد مرت ثلاث ساعات. جلست وهي تشعر بالثقل، كان الجلد فوق معدتها ليناً ورخواً ويرتخي كلما استلقت، وكان ثدياها متصلبين وممتلئين باللبن، وكانت مفاصلها لا تزال تؤلمها من أثر الولادة. وفي الردهة كانت ألواح الأرضية تصر تحت قدميها.

فوق طاولة تغيير الحفاضات أضحت صرخات بول أعلى وقد تحول لونه إلى الأحمر المرقش. خلعت عنه ملابسه الرطبة وحفاضته القطنية المبللة. كان جلده رقيقاً للغاية وساقاه هزيلتين وحمراوين مثل أجنحة الدجاج المقتلعة. وعلى حدود عقلها كانت ابنتها الفقيدة تحوم وتراقب في صمت. غمست حبل بول السرى بالكحول وألقت بالحفاضة في الدلو ليصفى ما به من ماء ثم ألبسته مجدداً.

تمتعت وهي تحمله: "طفلي الجميل. حبيبى الصغير"، ثم أخذته للطابق السفلى.

في حجرة المعيشة كانت الستائر لاتزال مسدلة والنافذة مغلقة. شقت نورا طريقها إلى المقعد الجلدى الوثير فى الركن وفتحت روبرها. تدفق لبنها مرة أخرى بإيقاعه المد جزرى، كان تدفقه قوياً لدرجة بدا معها أنه يمحو كل شيء مرت به قبل

ذلك. فكرت "لقد استيقظت لأنام" وهي ترتاح للخلف وهي مرتبكة لأنها لم تستطع أن تتذكر من كتب هذا.

كان المنزل هادئاً. طقطق الفرن؛ وأصدت الأوراق حفيفاً على الأشجار بالخارج. ومن بعيد سمعت صوت باب دورة المياه يفتح ويغلق ثم سمعت صوت الماء يتدفق. هبطت برى - شقيقتهما - الدرجات برشاقة وهي ترتدى قميصاً قديماً كانت أكمامه تصل إلى أطراف أصابعها. كانت ساقاها بيضاوين وكانت قدمها حافيتين على الأرض الخشبية.

قالت نورا: "لا تضيئى المصابيح".

"حسناً". سارت برى نحوهما. لمست فروة رأس بول برفق بأصابعها.

قالت: "كيف حال ابن شقيقتي؟ كيف حال بول الجميل؟". نظرت نورا إلى وجه ابنها الضئيل فى دهشة كالعادة دوماً من اسمه. فهو لم ينم كفاية ليناسبه الاسم، إنه لا يزال يرتديه مثل سوار فى معصمه، شيء قد ينزلق بسهولة ويختفى. لقد قرأت عن أشخاص - أين؟ لم تستطع تذكر هذا أيضاً - رفضوا تسمية أطفالهم لأسابيع لأنهم شعروا بأنهم لا ينتمون للأرض بعد، معلقين إياهم بذلك بين عالمين.

"بول". قالتها بصوت عال وحازم ودافئ مثل الحجر تحت أشعة الشمس.

ثم أضافت بينها وبين نفسها "قويب".

قالت نورا: "إنه جائع. إنه دوماً جائع للغاية".

"آه. إنه يشبه خالته. سوف أعد لنفسى خبزاً محمصاً وقهوة. أتريدى أى شيء؟".

قالت: "ربما بعض الماء"، وشرعت فى مشاهدة برى ذات الأطراف الطويلة والجميلة تغادر الغرفة. كم كان غريباً أنها كانت أختها - والتي كانت دوماً تختلف عنها فى كل شيء بل

نورا، أنا ممتنة للغاية لأن لدي فتاة صالحة. حتى إن لم تتزوجي قط يا عزيزتي ستكونين دوماً سيدة محترمة". وقد شعرت نورا وهي تضع صورة محاطة بإطار داخل الكرتونة بالانزعاج والإحباط. كانت هي أيضاً قد شعرت بالصدمة من جرأة برى وفعلتها وكانت ساخطة لأن الأعراف بدت أنها تغيرت ولأن برى نجت بفعلتها - الزواج والطلاق والفضيحة.

لقد كرهت ما فعلته برى بهم جميعاً.

وقد تمننت في يأس لو أنها من قامت بذلك أولاً.

ولكن ذلك ما كان ليحدث لها قط. لقد كانت دوماً فتاة صالحة؛ كانت تلك هي وظيفتها. كانت مقربة إلى والدهما، ذلك الرجل الدمث غير المنظم والذي كان خبيراً بالمواشي ويمضي أيامه في الغرفة الحبيسة أعلى الأدراج يقرأ الجرائد أو بالخارج في محطة الأبحاث يقف وسط الماشية ذات العيون الصفراء الغريبة والمنحرفة. لقد أحبته، وطوال حياتها وهي تشعر بأنها مرغمة على التعويض: عن عدم رعايته لأسرته، وعن الإحباط الذي لازم والدتها لأنها تزوجت رجلاً مختلفاً عنها تماماً. وعندما مات تضاعف هذا الشعور بأنها مكرهة لوضع الأمور في نصابها الصحيح ولإصلاح العالم. لذا فقد مضت في طريقها قدماً وهي تدرس بهدوء وتفعل ما هو متوقع منها. وبعد التخرج عملت طوال ستة أشهر في شركة الهواتف، وهي الوظيفة التي لم تستمتع بها والتي تركتها في سعادة حينما تزوجت ديفيد. فكان لقاؤهما في قسم الملابس الداخلية بالمتجر وزواجهما الخاص السريع يمثلان اللحظات التي مارست فيها الجموح هي الأخرى. كانت برى تقول إن حياة نورا تشبه المسلسلات التلفزيونية. كانت تقول وهي تدفع شعرها للخلف ويلمع السوار الفضي العريض في راسها: "إنها حياة ملائمة لك. أما أنا فلا أستطيع تحملها. فلو كنت مكانك لجننت في أسبوع. في يوم!"

كانت خصمتها - هي التي أرادت أن تكون إلى جوارها - ولكن هذا هو ما حدث.

كانت برى في العشرين من عمرها فقط ولكنها كانت عنيدة وواثقة من نفسها للغاية حتى أنها بدت لنورا كأنها هي الشقيقة الكبرى. منذ ثلاث سنوات مضت حينما كانت لاتزال طالبة في السنة الأولى من المدرسة الثانوية هربت برى مع الصيدلي الذي كان يقطن في نفس الشارع والذي كان أرمل ويكبرها بعدد من السنوات يساوي عمرها في ذلك الحين. وقد ألقى الآخرون اللوم على الصيدلي؛ حيث إنه كان ناضجاً بما فيه الكفاية ليستطيع التمييز بين الصواب والخطأ. وقد ألقوا اللوم في جموح برى على فقدانها لوالدها فجأة حينما كانت لا تزال في سنوات مراهقتها الأولى، تلك المرحلة السنوية الخطيرة كما اتفق الجميع. وقد توقعوا جميعاً أن هذه الزيجة ستنتهي سريعاً وبشكل مؤسف وهذا هو ما حدث.

ولكن إن كان الناس قد تخيلوا أن زواج برى الفاشل سوف يقهرها، إذن فقد كانوا مخطئين. فقد تغير شيء ما في هذا العالم منذ أن كانت نورا طفلة، فلم تعد برى إلى المنزل كما كان متوقعاً وهي شاعرة بالخزي والندم. لكن بدلاً من ذلك قامت بالالتحاق بالجامعة وغيرت اسمها من بريجيت إلى برى لأنها أحببت وقعه: قالت إنه مبهج وحر.

وكانت أمهما التي صعقتها فضيحة زواج ابنتها وفضيحة طلاقها قد تزوجت من طيار يعمل بشركة تى دبليو إيه وانتقلت إلى سانت لويس تاركة ابنتيهما وحدهما. قالت بعد أن رفعت عينيهما من فوق صندوق الآنية الصيني الذي كانت تعده لتأخذه معها: "على الأقل واحدة من ابنتي تعرف كيف تحسن السلوك". كان ذلك في الخريف وكان الهواء بارداً وزاخراً بأوراق الأشجار الذهبية المتساقطة. كان شعرها الذهبي الأبيض متموجاً مثل السحابة وكانت ملامحها الرقيقة تتخللها عاطفة مفاجئة. "يا

والآن عادت برى وهى تحمل صينية فوقها قدح من القهوة وخبز طازج وزيد. كان شعرها الطويل ينسدل فوق كتفها حينما مالت لتضع كوباً طويلاً من الماء المثلج على الطاولة إلى جوار نورا. وضعت الصينية على طاولة القهوة وجلست على الأريكة واضعة ساقها البيضاوين الطويلتين أسفلها.

"هل غادر ديفيد؟"

أومأت نورا: "أنا لم أسمع حتى وهو ينهض".

"هل تعتقدين أنه من الأفضل له أن يعمل كثيراً هكذا؟"

قالت نورا بحزم: "نعم. أعتقد ذلك". لقد تحدث الدكتور بنتلى إلى الأطباء الآخرين فى العيادة وعرضوا على ديفيد أن يأخذ إجازة ولكنه رفض. "أعتقد أنه من الأفضل له أن يشغل نفسه فى الوقت الحالى".

سألت برى وهى تقضم الخبز: "حقاً؟ وماذا عنك؟"

"أنا، أنا بخير حقاً".

أشاحت برى بيدها الأخرى. قالت: "ألا تعتقدين — ، ولكن قبل أن تستطيع انتقاد ديفيد ثانية قاطعتها نورا.

قالت: "أنا سعيدة لأنك هنا. فليس هناك شخص آخر ليتحدث إلى".

"إن هذا جنون. لقد كان المنزل ممتلئاً بأشخاص يودون التحدث إليك".

"لقد رزقت بتوأم" هكذا قالت نورا وهى مدركة لحلمها، الأرض المجمدة الشاغرة، بحثها الجنونى. "لن يأتى أى أحد على ذكرها. إنهم يعتقدون أننى لابد أن أكون راضية بما أننى رزقت بول. إن طفلاً يعوض غياب الآخر. ولكننى رزقت بتوأم. لقد رزقت بابنة أيضاً —"

سكتت عن الكلام حيث أسكتتها الحشرة المفاجئة فى حلقها.

كانت نورا تغضب وتزدري برى وتحسدها وتعص على شفتها؛ لقد درست برى أدب فيرجينيا وولف وانتقلت لتعيش مع مدير مطعم للأغذية الصحية فى لويسفيل وتوقفت عن الإتيان لزيارتها. ولكن الغريب أنه حينما حملت نورا تغير كل شيء. فقد عاودت برى الظهور مجدداً حاملة هدايا مثل جوارب صوفية محبوكة شريطية وسوارات فضية صغيرة للكاحل مستوردة من الهند، والتي وجدتها فى أحد المتاجر بسان فرانسيسكو. كما جلبت أوراقاً مطبوعة تحمل نصائح عن الرضاعة الطبيعية بمجرد أن سمعت أن نورا لن ترضع طفلها صناعياً. وفى هذا الوقت كانت نورا سعيدة لرؤية أختها. سعيدة لأنها جلبت لها تلك الهدايا اللطيفة والعملية، سعيدة لدعمها لها؛ وفى عام ١٩٦٤ كانت الرضاعة الطبيعية أساسية وكانت تجد صعوبة فى إيجاد معلومات عنها. وقد رفضت والدتهما مناقشة هذا الأمر؛ فقد أخبرها النساء فى حلقة الأشغال أنهن كن يضعن مقاعد فى دورات المياه حرصاً على الخصوصية أثناء ذلك. وقد سخرت برى حينما سمعت ذلك مما بث فيها الراحة. قالت: "يا لهن من مجموعة من المحتشمات. لا تلقى لهن بالاً".

ومع ذلك وفى حين كانت نورا ممتنة لدعم برى فقد كانت فى بعض الأحيان تشعر بعدم الراحة فى قرارة نفسها. وفى عالم برى - والذى كان يوجد فيما يبدو بمكان آخر فى كاليفورنيا أو باريس أو نيويورك - كانت الشابات يتجولن حول منازلهن عاريات الصدر وهن يلتقطن صوراً لهن مع أطفالهن يظهرهن بها صدورهن الكبيرة ويكتبن عواميد يفصلن فيها الفوائد الغذائية للرضاعة الطبيعية. قالت برى: "إنها مسألة طبيعية؛ إنها جزء من طبيعتنا كشدييات" ولكن تلك الفكرة بأنها من الشدييات يحكمها الغريزة جعلت نورا تتورد خجلاً وترغب فى مغادرة الحجرة.

قالت برى برقة: "إن الجميع يشعرون بالحزن. سعداء للغاية وتعيسون للغاية، مشاعر متضاربة. إنهم لا يعرفون ماذا يقولون، هذا هو كل ما فى الأمر".

رفعت نورا بول والذى كان نائماً الآن إلى كتفها. كانت تشعر بأنفاسه الدافئة فى رقبتها؛ دلكت ظهره والذى كان حجمه لا يتعدى كثيراً حجم راحة يدها.

قالت: "أعلم، أعلم. ولكن".

قالت برى: "لم يكن ينبغى أن يعود ديفيد إلى العمل بهذه السرعة. فلم يمض على الولادة سوى ثلاثة أيام".

قالت نورا: "إنه يجد عزاءه فى العمل. لو كان لدى وظيفة لكنت ذهبت إليها أيضاً".

قالت برى وهى تهز رأسها: "لا يا نورا. أمقت أن أقول هذا ولكن ديفيد يعزل نفسه بعيداً ويكبح جميع مشاعره. وأنت مازلت تحاولين ملء هذا الفراغ. تحاولين إصلاح الأمور. ولكنك لا تستطيعين ذلك".

بدأت نورا تتساءل وهى تتفحص أختها عن المشاعر التى اعتاد الصيدلى كبجها؛ فبالرغم من كل انفتاحها لم تتحدث برى قط عن زواجها القصير. وبالرغم من أن نورا كانت ميالة إلى الاتفاق معها الآن فقد شعرت أنها مرغمة على الدفاع عن ديفيد والذى اعتنى رغم كل حزنه بكل شيء: مراسم الدفن الهادئة وتفسير ما حدث للأصدقاء ولما شتات حزنه.

قالت بعد أن نهضت لتفتح النافذة: "عليه أن يتعامل مع الموقف بطريقته". كانت السماء زرقاء وبراقة، وقد بدا وكأن البراعم قد انتفخت فوق الفروع فى تلك الساعات القليلة. "كنت أود أن أراها يا برى. إن الآخرين يعتقدون أن ذلك مروع ولكننى كنت أرغب فى ذلك حقاً. كنت أتمنى لو أننى لمستها، فقط لمرة واحدة".

قالت برى برقة: "ذلك ليس مروعاً. يبدو ذلك منطقياً للغاية بالنسبة لى".

ساد الصمت لبرهة ثم قطعت برى فى ارتباك وتردد بعرض آخر شريحة من خبز الزبد على نورا.

كذبت نورا قائلة: "أنا لست جائعة".

قالت برى: "لابد أن تأكل. فإن وزنك الزائد سوف يختفى بأى حال من الأحوال. فتلك إحدى مميزات الرضاعة الطبيعية التى لم أتحدث عنها".

قالت نورا: "لم تتحدثين عنها. أنت تتحدثين طوال الوقت". ضحكت برى: "أعتقد أن هذا صحيح".

قالت نورا وهى تأخذ كوب الماء: "أنا حقاً سعيدة لأنك هنا".

قالت برى وهى محرجة بعض الشيء: "وأين عساي أن أكون؟".

كانت رأس بول دافئة وكان شعره الكثيف الجميل ناعماً فوق رقبته. هل يفتقد توأمتها - هكذا تساءلت نورا - هل يفتقد رفيقة حياته القصيرة؟ هل سيساوره يوماً شعور بالفقدان؟ مررت يدها فوق رأسه وهى تنظر خارج النافذة. وخلف الأشجار لمحت بالسماء القمر الذى كان على وشك الاختفاء.

. . .

لاحقاً حينما نام بول أخذت نورا حماماً. قاست واستبعدت ثلاثة أثواب مختلفة، كانت التنورات تقيد خصرها، وكانت السراويل محكمة الشد حول فخذها. كانت دوماً تتسم بأنها ضئيلة الحجم ونحيفة ومتناسقة القوام مما جعل بشاعة جسدها الآن تذهلها وتحبطها. وأخيراً وفى النهاية انتهى بها الحال مرتدية ثوب الحمل القديم المصنوع من قماش الدنيم - والذى كان فضفاضاً - والذى كانت قد أقسمت أنها لن ترتديه ثانية. وقد شرعت فى التجول فى المنزل بعدما ارتدت ملابسها - حافية القدمين -

دون أن تهتم بوضع طلاء شفاه أو حتى تمشط شعرها. كانت قدماها لا تزالان حافيتين.

قالت وهي تدخل الغرفة في تحد: "إن مظهرى شنيع".

قالت روث ستارلينج: "لا يا عزيزتى"، وهي تربت على الأريكة بالمكان الذى يوجد إلى جوارها، وقد لاحظت نورا برضا بالغ النظرات التى كانت الأخريات يتبادلنها. جلست بشكل مطيع وهي تعقد ساقها من عند كاحليها وتضع يديها فى حجرها كما كانت تفعل حينما كانت فتاة صغيرة بالمدرسة.

قالت: "إن بول نام لتوه. وأنا لن أوقظه". كان صوتها يشوبه الغضب ويتخلله عدوانية حقيقية.

قالت روث: "لا بأس يا عزيزتى". كانت فى السبعين من عمرها تقريبا وذات شعر أبيض جميل ممشط بحرص. وكان زوجها البالغ من العمر خمسين عاما قد رحل عن الحياة العام الماضى. تساءلت نورا عن السبب الذى يجعلها تهتم بمظهرها الآن ويجعل سلوكها مبهجاً بهذه الطريقة؟ قالت روث: "لقد مررت بالكثير حقاً".

شعرت نورا بابنتها ثانية، ذلك الوجود غير المرئى، وقمعت رغبة فجائية فى الركض لأعلى للاطمئنان على بول. فكرت بأنها سوف تجن وحدقت بالأرضية.

سألت برى فى بهجة: "ماذا عن بعض الشاي؟"، وقبل أن يجيبها أحد اختفت داخل المطبخ.

بذلت نورا أقصى ما تستطيع من جهد للتركيز على الحوار: بالنسبة لوسائد المستشفى هل كانت من القطن أم من الكتان الخفيف، رأى الآخرين فى رجل الدين الجديد، وما إذا كان يجب أن يتبرعن بالملاءات للجيش أم لا. بعد ذلك أعلنت سالى أن كاي مارشال أنجبت طفلة فى الليلة الماضية.

وبدأت تنتقل من غرفة لأخرى. ومثل جسدها، كانت الغرفة فى حالة من الفوضى والخروج عن السيطرة. كان الغبار الناعم يتجمع فوق كل شيء، والملابس مبعثرة فوق كل سطح، والأغطية مزاحة من فوق الأسرة غير المرتبة. كان هناك أثر نظيف على التسريحة حيث كان ديفيد قد وضع مزهرية من النرجس البرى والذى كانت حوافه قد تحولت بالفعل للون البنى؛ وكانت النوافذ غائمة كذلك. فى يوم آخر كانت برى لتغادر وتصل والدتهما. وحينما ساورتها هذه الفكرة جلست نورا فى يأس على حافة الفراش، بينما كانت إحدى رابطات عنق ديفيد تتدلى فى يديها. كانت الفوضى التى تعم المنزل تزعجها كالحمل الثقيل - كما لو أن أشعة الشمس نفسها أصبحت ثقيلة فوقها. ولم تكن تمتلك الطاقة الكافية لمقاومة هذا الشعور. علاوة على ذلك - وما كان أكثر مدعاة للكآبة - فإنها لم تبد أنها تكثر لذلك.

رن جرس الباب. تحركت قدما برى بخفة عبر الحجرات. تعرفت نورا على أصوات الضيوف على الفور وطوال دقيقة ظلت حيث هى تشعر بأنها مستنزفة الطاقة وتتساءل كيف يمكنها أن تجعل برى تصرفهم، ولكن اقتربت الأصوات أكثر - قرب بئر السلم - ثم تلاشت تدريجياً ثانية حينما دخلوا غرفة المعيشة؛ لقد كن صديقاتها من دار العبادة يحملن الهدايا ويستقن لرؤية الطفل الجديد. وكانت مجموعتان من الأصدقاء قد جاءتا بالفعل، إحداهما من حلقة الأشغال والأخرى من نادى الطلاء الصينى، وملأن الثلاجة بالطعام وأخذن يمررن بول من يد إلى يد مثل الميدالية. وكانت نورا قد فعلت المثل مع الأمهات الجديديات مرات ومرات والآن كانت مصابة بالصدمة لتجد أنها تشعر بالاستياء أكثر من الاستحسان إزاء هذه الزيارات: هذا العبء والاضطرار لكتابة خطابات الشكر، ولم تكثر كثيراً للطعام، فى الواقع إنها لم تكن تريده. كانت برى تنادى. هبطت نورا الدرج

قالت سالى: "سبعة أرطال تماماً. إن كاي تبدو رائعة والطفلة جميلة. لقد سموها إيزابيث على اسم جدتها. يقولون إن مخاضها كان سهلاً".

ساد الصمت للحظات ثم أدرك الجميع ماذا حدث. شعرت نورا وكأن السكون كان يخرج من مركز ما فى داخلها وينتشر بالغرفة فى موجات. نظرت سالى للأعلى وهى متوردة الوجه من فرط الندم.

قالت: "يا إلهى، أنا آسفة حقاً يا نورا".

أرادت نورا أن تتحدث وتضع الأمور فى نصابها الصحيح. كانت الكلمات الصحيحة تحوم داخل ذهنها ولكن بدا أنها عجزت عن إخراج صوتها. جلست فى سكون وقد تحول سكونها إلى بحيرة ثم محيط والذى كن يفرقن جميعاً داخله.

قالت روث بلباقة فى النهاية: "حسناً. باركك الله يا نورا. لا بد أنك منهكة". رفعت حقيبة ممتلئة مغلفة بورق براق ومزينة بمجموعة من الشرائط الموجهة بإحكام. "لقد اتفقنا على أن نجلب لك هذه الهدية بعدما اعتقدنا أن لديك على الأرجح كل دبابيس الحفاضات التى قد تريدها أى أم".

ضحكت النساء وشعرن بالراحة. ابتسمت نورا أيضاً وفتحت الصندوق ممزقة الورق: مقعد وثاب ذو إطار معدنى ومقعد قماشى، يشبه ذلك الذى أبدت إعجابها به ذات مرة فى منزل إحدى صديقاتها.

قالت سالى: "وبالطبع فإنه لن يستطيع استخدامه طوال أشهر قليلة. ومع ذلك فنحن لم نستطع التفكير فى شىء أفضل يستخدمه بمجرد أن يتحرك!".

قالت فلورا مارشال وهى تقف وتمسك بحقيبتين ناعمتين فى يديها: "وهنا —"

كانت فلورا أكبر النساء بالمجموعة، أكبر حتى من روث ولكنها كانت قوية ونشطة. كانت تغزل ملاءات لكل مولود جديد

بدار العبادة. وقد اعتقدت نتيجة لضخامة حجم بطن نورا أثناء الحمل أنها حامل فى توأم، لذا فقد غزلت لها ملاءتين واللتين كانت تعمل بهما أثناء جلساتهن الليلية وساعة احتساء القهوة بدار العبادة، وكانت كرات الغزل الناعمة تتساقط من حقيبتها. فكان هناك تداخل بين اللونين الأصفر والأخضر الفاتح، وبين الأزرق والوردى - فإنها لم تكن تعرف كما قالت إن كانت ستنجب ولدين أم فتاتين. ولكنها كانت واثقة من أنها ستلد توأمًا. ولم يأخذ أحد كلامها هذا على محمل الجد أثناء الحمل.

أخذت نورا الحقيبتين وحبست دموعها. وقد سقط الصوف الناعم كالشلال فى حجرها حينما فتحت الحقيبة الأولى، وبدأت لها ابنتها فى هذا الوقت قريبة للغاية. شعرت نورا بالامتنان إزاء فلورا التى عرفت - بحكمة الجدات - ماذا تفعل. فتحت الحقيبة الأخرى وهى متلهفة لرؤية الملاءة الأخرى متوقعة أن تكون مبهجة الألوان وناعمة مثل الأولى.

اعتذرت فلورا حينما وقع لباس اللعب فى حجر نورا قائلة: "إنه كبير بعض الشئ. ولكنهم يكبرون سريعاً فى هذه السن". سألت نورا: "أين الملاءة الأخرى؟". سمعت نبرة صوتها التى تحدثت بها والتى كانت أجشة وتشبه صيحات الطيور وشعرت بالدهشة، فهى معروف عنها أنها هادئة ورابطة الجأش، وطالما كانت تفخر بحالتها المزاجية المعتدلة دوماً واختياراتها المتأنية. "أين الملاءة التى غزلتها لابنتى؟".

تورد وجه فلورا ونظرت حولها طلباً للمساعدة. أخذت روث يد نورا وضغطت عليها بشدة. شعرت نورا بجلدها الناعم وضغط أصابعها المدهش. كان ديفيد قد أخبرها بأسماء هذه العظام ذات مرة ولكنها لم تستطع تذكرها والأسوأ من ذلك أنها كانت تبكى. قالت روث: "إن لديك طفلاً جميلاً الآن".

همست نورا فى حزم وهى تنظر لجميع الوجوه: "لقد كان لديه أخت". لقد أتت إلى هنا من باب العطف. لقد كن يشعرن

بالحزن حقاً وهي كانت تزيد من حزنهن هذا وتعمل على تفاقمه. ماذا كان يحدث لها؟ طوال حياتها وهي تحاول جاهدة أن تفعل الصواب: "إن اسمها كان فويب. أريد أن يقول أحد اسمها". وقفت: "أريد أن يتذكر أحد اسمها".

في ذلك الحين، كانت هناك قماشة باردة على جبهتها وأيديا تساعدها للاستلقاء على الأريكة. وقد طلبن منها إغلاق عينيها وقد قامت بذلك. كانت الدموع لاتزال تنهمر من أسفل جفنيها وكأنها ينبوع ماء، فهي لم تستطع منع نفسها من البكاء. بدأت النساء يتحدثن ثانية ودارت الأصوات في الحجرة كالثلج في الريح، كن يتحدثن عما سيفعلنه. قالت إحداهن إن ذلك كان متوقعا. حتى في أفضل الظروف لم يكن من الغريب أن تصاب المرأة بمثل هذه الحالة المزاجية السيئة في الأيام القليلة الأولى بعد الولادة. اقترحت أخرى أنه يجب عليهن الاتصال بديفيد، ولكن حينها جاءت برى في هدوء ولباقة وقادتهن جميعا للباب. وحينما غادرن فتحت نورا عينيها لتجد برى ترتدى أحد مآزرها والذي تركت حزامه المزخرف مترهلا حول خصرها النحيف. كانت ملاءة فلورا مارشال على الأرض وسط ورق التغليف، فقامت بالتقاطها وهي تضع أصابعها داخل الغزل الناعم. مسحت نورا عينيها وتحدثت.

"قال ديفيد إن شعرها كان أسود. مثل هذا". نظرت برى إليها بتمعن. "لقد قلت إنك ستقيمين حفل تأبين يا نورا. لم الانتظار؟ لماذا لا تقيمينه الآن؟ ربما يجعلك تشعرين ببعض السكينة".

هزت نورا رأسها: "إن ما يقوله ديفيد وما يقوله الجميع منطقي. لابد أن أركز على الطفل الذي رزقت به".

هزت برى كتفيها. "فيما عدا أنك لن تفعل هذا. فكلما حاولت ألا تفكر فيها تمرکز تفكيرك حولها. إن ديفيد هو مجرد طبيب. إنه لا يعرف كل شيء".

قالت نورا: "بالطبع. أعلم هذا".

"في بعض الأحيان لا أكون واثقة من هذا".

لم تجب نورا. كانت الأشكال تتراقص فوق الأرضيات الخشبية المصقولة وكانت ظلال أوراق الأشجار تصنع حفراً بالضوء. رن المنبه الذي يوجد فوق رف المستوقد برفق. شعرت أنها يجب أن تكون غاضبة ولكنها لم تكن كذلك. إن فكرة إقامة حفل تأبين بدت أنها أوقفت تدفق استنزاف الطاقة من داخلها والذي بدأ على درجات العيادة ولم يتوقف حتى هذه اللحظة.

قالت: "ربما أنت محقة. لا أعلم. ربما شيء صغير. شيء هادئ".

أعطتها برى الهاتف. "إليك الهاتف. فقط ابدئي في طرح الأسئلة".

أخذت نورا نفساً عميقاً وبدأت الاتصال. اتصلت برجل الدين الجديد أولاً ووجدت نفسها تشرح له أنها تريد إقامة حفل تأبين بالخارج في ساحة المحكمة. نعم سواء كان الجو مشمساً أو مطيراً. "إنه لا يفتى فويب التي ماتت عند ولادتها". وخلال الساعتين التاليتين أخذت تكرر نفس الكلمات مراراً وتكراراً: لبائع الزهور والمرأة التي تعمل في قسم الإعلانات المبوبة في جريدة The Leader، ولصديقاتها في المشغل واللاتي وافقن على تنسيق الأزهار. وفي كل مرة كانت نورا تشعر بالهدوء والسكينة داخلها يتزايدان وينموان، بطريقة تشبه الراحة التي تشعر بها عند يرضع بول لبنها - مما يجعلها تتصل ثانية بالعالم.

غادرت برى متوجهة لدورتها الدراسية وبدأت نورا تسير في المنزل الشاغر تتفحص حالة الفوضى. في غرفة النوم، كان ضوء فترة ما بعد الظهيرة ينحدر عبر الزجاج كاشفاً عن كل مظاهر الفوضى. وقد رأت هذه الفوضى كل يوم دون أن تهتم لذلك، ولكن الآن للمرة الأولى منذ الولادة شعرت بالطاقة تحل محل الوهن والكسل. جذبت الملاءات بإحكام فوق الأسرة وفتحت

على الطاولة بينما كانت تغسل الخس. سألته وهي تغلق الصنبور "ماذا عنك؟".

قال: "لم يكن يومى سيئاً للغاية. كنت مشغولاً جداً. آسف بشأن الليلة الماضية. كان هناك مريض مصاب بأزمة قلبية، ولكنها لم تكن مميتة لحسن الحظ".

سألت: "هل كانت هناك مشكلة بالعظام".
 "آه، نعم، لقد سقط من فوق الدرج وانكسر عظم الذنوب. هل الطفل نائم؟".

نظرت نورا إلى الساعة وتنهدت. قالت: "لابد أن أوقظه على الأرجح، إن كنت أريد منه أن يسير على جدول روضة".

قال ديفيد: "سوف أقوم أنا بذلك"، وصعد الدرجات حاملاً الزهور. سمعته يتحرك بالطابق العلوى وتخيلته يميل للأمام ليلمس جبهة ديفيد برفق، وليمسك بيده الصغيرة. ولكن فى خلال دقائق قليلة هبط ديفيد الدرج وحده وهو يرتدى بنطال جينز وسترة. قال ديفيد: "إنه يغطى فى النوم. اتركه ينام".

دخلا حجرة المعيشة وجلسا معاً على الأريكة. وللحظة بدت حياتهما كالسابق، فقط وحدهما، وكان العالم من حولهما مكاناً يسهل فهمه وزاخراً بالوعود. كانت نورا قد خططت لأن تخبر ديفيد بشأن خططها أثناء تناولهما للعشاء ولكن الآن وفجأة وجدت نفسها تشرح له الحفل البسيط الذى قررت تنظيمة والإعلان الذى نشرته. وبينما كانت تسير كانت تشعر بزيادة تحديد ديفيد إليها. جعلها تعبيره تتردد، فقد بدا الأمر وكأنه خلع قناعاً عن وجهه، وأصبحت تتحدث الآن إلى شخص غريب ليس بإمكانها توقع ردود أفعاله. كانت عيناه أكثر سواداً من ذى قبل، ولم تعرف ماذا يدور فى ذهنه.

قالت: "إنك لا تحب هذه الفكرة".

"الأمر ليس كذلك".

النوافذ المغطاة بالغبار. خلعت عنها ثوب الحمل. فتشت داخل خزانة ملابسها حتى وجدت تنورة تلائمها وقميصاً ليس محكم الشد فوق صدرها. نظرت إلى نفسها فى المرآة، فهي لاتزال سميكة ومنتفخة ولكنها كانت تشعر بأنها أفضل حالا. وبدأت تمشط شعرها أيضاً والذى كان مليئاً بالتشابكات. كانت الفرشاة ممتلئة بالشعر حينما انتهت، شبكة سميكة من الشعر الذهبى، وقد كانت تعلم أن سقوط الشعر هذا هو نتيجة طبيعية لاضطراب الهرمونات والولادة. ومع ذلك فإن تلك الخسارة جعلتها ترغب فى البكاء.

قالت بصرامة لنفسها: "يكفى هذا"، وبدأت تضع طلاء الشفاه وتمسح الدموع من عينيها. "هذا يكفى يا نورا".

لبست معطفاً قبل أن تهبط الأدراج ووجدت حذاءها البيج الذى لا نعل له. فقد عادت قدماها على الأقل نحيفتين ثانية.

ذهبت لتتبين حال بول - والذى كان مازال نائماً وكانت أنفاسه رقيقة ولكن قوية فوق أطراف أصابعه - ووضعت أحد الآنية المجمدة داخل الفرن وأعدت الطاولة وفتحت زجاجة من الشراب. كانت تتخلص من الزهور الذابلة - والتى كانت سويتاتها باردة ولينة بين يديها - حينما انفتح الباب الأمامى. تسارعت ضربات قلبها حينما سمعت وقع أقدام ديفيد الذى ظهر عند المدخل، وكان معطفه الداكن فضفاضاً حول جسده النحيل وكان وجهه متورداً من أثر المشى. كان متعباً ورأته ينظر - والراحة تملأه - إلى المنزل النظيف وملابسها المألوفة ورائحة الطهى. كان يمسك بزمرة أخرى من زهور النرجس البرى والذى جمعه من الحديقة. وحينما قبلته كانت شفتاه باردتين على شفتيها.

قال: "مرحباً. يبدو أنك استمتعت بيومك".

"نعم. هذا صحيح". وكانت على وشك أن تخبره بما فعلته. ولكن بدلاً من ذلك أعدت له شراباً بالطريقة التى يحبها. اتكأ

مرة أخرى رأت الحزن في عينيه وسمعتة في صوته. وانطلاقاً من رغبة في تسكينه كانت على وشك العدول عن رأيها ولكنها شعرت بالكسل يعاودها ثانية وبذلت جهداً كبيراً لتتخلص منه وشرعت في التجول بالغرفة.

قالت: "إن القيام بذلك سوف يساعدني. ما الخطأ في ذلك؟". قال: "لا خطأ في ذلك".

بدا أنه يرغب في أن يقول المزيد ولكنه أسكت نفسه بدلاً من ذلك وسار إلى النافذة وحقق في الظلام في الحديقة الصغيرة عبر الشارع. قال بصوت خفيض وأجش وبنبرة لم تسمعه نورا يستخدمها من قبل: "ولكن اللعنة يا نورا". وقد شعرت بالخوف من ذلك الغضب المختبئ في كلماته. "لماذا يجب أن تكوني عنيدة بهذه الطريقة؟ لماذا، على الأقل، لم تخبريني قبل ذلك أنك اتصلت بالصحف؟".

قالت نورا بعدما أضحت هي الأخرى غاضبة: "لقد ماتت، لا يوجد ما هو مخز في هذا. ليس هناك سبب يجعلنا نخفي الأمر".

لم يستدر ديفيد وكانت كتفاه متصلبتين. رجل غريب يضع روبا مرجاني اللون فوق كتفه في متجر دولف وايل، حينها بدا شخصاً مألوفاً، كشخص تعرفه جيداً ولكنها لم تره منذ سنين. ومع ذلك وبعد عام من الزواج بدا وكأنه شخص لا تعرفه مطلقاً. قالت: "ديفيد، ما الذي يحدث لنا؟".

لم يستدر. كانت روائح اللحم والبطاطس تعبق الغرفة؛ تذكرت العشاء الذي كانت تسخنه في الفرن وتمخضت معدتها من فرط الجوع والذي ظلت تنكره طوال اليوم. وبالأعلى بدأ بول يبكي ولكنها بقيت حيث هي منتظرة إجابته.

قال أخيراً: "لا شيء يحدث لنا". وعندما استدار، كان الحزن لا يزال مرثياً في عينيه بالإضافة إلى شيء آخر - نوع من

التصميم - والذي لم تفهمه. قال: "إنك تثيرين جلبة لأجل لا شيء يا نورا. ولكنني أعتقد أن هذا طبيعي".

بعد أن ساورته مشاعر النبذ والهجر وشعر بالبرودة، بدأ بول يبكي بصوت أعلى وبشدة أكبر. دفعته قوة غضبها للخارج وانطلقت أعلى الدرج حيث رفعت الطفل وبدلت له حفاظته، كل ذلك والغضب يشتعل بداخلها. بعد ذلك جلست على الكرسي الهزاز وفتحت أزرار قميصها وبدأت تهدأ. أغلقت عينيهما. وبالأسفل كان ديفيد يتحرك خلال الغرف. إنه على الأقل لمس ابنتهما ورأى وجهها.

إنها سوف تقيم المراسم مهما حدث. إنها سوف تقوم بذلك من أجل نفسها.

وببطء وأثناء رضاعة بول ومع انحسار الضوء، أصبحت هادئة وأضحت ثانية هذا النهر الهادئ العريض الذي يتقبل العالم ويتحمل صعوباته. وفي الخارج كان العشب ينمو ببطء وهدوء؛ وكانت أكياس بيض العناكب تتفتح؛ وكانت أجنحة الطيور ترفرف أثناء تحليقها. وجدت نفسها تفكر "إن هذا مقدس" شاعرة بأن الطفل بين ذراعيها والأخرى المدفونة تحت الأرض يربطانها بكل شيء عاش من قبل وسوف يعيش بعد ذلك. مضى وقت طويل قبل أن تفتح عينيهما؛ وحينها أصابتها الدهشة من الظلام والجمال المحيطين بها: مستطيل صغير من الضوء والذي انعكس من مقبض الباب الزجاجي وكان يرتعش على الجدار. وكانت ملاءة بول الجديدة والمغزولة بشكل رائع تقدل مثل الأمواج من المهد. وفوق المزينية، كان نبات النرجس البري الذي وضعه ديفيد والذي كان ناعماً مثل جلد الإنسان وشبه مضاء يجمع النور من الردهة.

والباردة حيث ذاب الثلج. طرقت الباب بشدة وهى معجبة بالهدير الذى كان يصدره حتى أنها طرقت عدة مرات حتى بدأت تلهث.

"إن كانوا هنا يا حبيبتي - وهو الأمر الذى أشك فيه - فإنهم لن يفتحوا قريباً".

سمعت صوت رجل. استدارت كارولين ورأته يقف أسفلها، على الطريق المنحدر الذى كان يسمح للعربات المقطورة بالدخول إلى منطقة الشحن. وحتى من هذه المسافة البعيدة، استطاعت أن تلاحظ أنه شخص ضخم. كان يرتدى معطفاً ضخماً وقبعة صوفية مغزولة. كان يضع يديه فى جيبيه.

قالت: "إن ابنتى تبكى، وقد فرغ الشحن من بطارية سيارتى. إن هناك هاتفًا بالداخل عند الباب الأمامى ولكننى لا أستطيع الوصول إليه".

سأل الرجل: "ما عمر طفلتك؟". أجابته كارولين وهى عاجزة عن التفكير والدموع والخوف يملآن صوتها: "حديثّة الولادة". يا له من موقف سخيف والذى طالما كانت تمقته ومع ذلك فما هى قد وقعت فيه - شابة فى مأزق.

قال الرجل بصوت سافر عبر المسافة الثلجية بينهما: "إنها ليلة السبت". وخلف ساحة الانتظار كان الشارع مازال ساكناً. "أى مرآب فى المدينة سيكون مغلقاً على الأرجح". لم تجب كارولين.

بدأ يتحدث ببطء ورزانة: "انظري يا سيدتى". أدركت كارولين أنه كان شديد الهدوء ويحاول التخفيف من روعها معتقداً فى الغالب أنها مجنونة. "لقد تركت وصلات سيارتى الكهربائية مع سائق آخر فى الأسبوع الماضى على سبيل الخطأ، لذا فأنا لا أستطيع مساعدتك فى شحن بطاريتك. ولكن الجو بارد هنا الآن كما قلت. لذا فلماذا لا تأتين وتجلسين معى فى العربة؟

٤

بمجرد أن رأت أن صيحاتها فى ساحة الانتظار الشاغرة لم تسفر عن شىء، أغلقت كارولين باب السيارة وبدأت تشق طريقها عبر الثلج الذائب. وبعد بضع خطوات توقفت وعادت للطفلة. فصيحات فويب علت فى الظلام ودفعت كارولين فوق الأسفلت وعبر مربعات الضوء البيضاء إلى أن وصلت للأبواب الأوتوماتيكية لتجر البقالة. كانت موصدة. صاحت كارولين وطرقت وكان صوتها متداخلاً مع بكاء فويب. وفى الداخل كانت الممرات براقة الأضواء شاغرة. وكان هناك ممسحة ودلو منبوزان يقفان إلى جوارها وتلمع العبوات المعدنية فى الظلام. وطوال عدة دقائق، وقفت كارولين ساكنة هى الأخرى تستمع إلى صيحات فويب وصوت الرياح وهى تسرى بين الأشجار والذى كان قادماً من بعيد. بعد ذلك للملت شقات نفسها واندفعت إلى خلف المتجر. كان الباب الدوار الخلفى مغلقاً ولكنها توجهت إليه رغماً عن ذلك وهى تشم رائحة العفن فوق الخرسانة المشحمة

يدها على وجهها برفق وفي النهاية التقطت الحلمة وبدأت تشرب.

قال الرجل بمجرد أن هدأت الطفلة: "أمر غريب، أليس كذلك؟". وكان قد قفز إلى مقعد السائق. وكان المحرك يصدر حفيفاً في الظلام والذي كان ذا صوت باعث على الراحة - مثل قطعة ضخمة - وامتد العالم أمامهما حتى الأفق المظلم. "أعنى سقوط مثل هذا الثلج في كنتاكي؟".

قالت: "يحدث هذا كل بضعة سنين. أنت لست من هنا؟". قال: "أنا من أكرون، أوهايو. لكن في هذه الأيام بدأت أعتقد أنه لا وطن لي".

قالت كارولين وهي تفكر في نفسها في إحدى الليالي المعتادة وهي تجلس وحيدة في شقتها مساءً: "ألا تشعر بالوحدة؟"، وهي لم تصدق أنها كانت بهذا المكان تتحدث بهذه الحميمية إلى شخص غريب. كان ذلك غريباً ولكن مبهجاً كذلك - الوثوق بشخص قابلته في حافلة أو قطار وإفشاء أسرارك له.

قال معترفاً: "أحياناً. إن هذا العمل يجعل المرء يشعر بالوحدة بالطبع. ولكن عادة ما أقابل شخصاً ما مصادفة. مثل الليلة".

كانت السيارة دافئة ووجدت كارولين نفسها تستسلم للدفع وتتكئ للخلف على المقعد العالي المريح. كان الثلج لا يزال متناثراً أسفل مصابيح الشارع. وكانت سيارتها تقف في منتصف ساحة الانتظار وحيدة ويغطيها الثلج.

سألها: "إلى أين كنت ذاهبة؟".

"فقط إلى ليكسنجتون. كانت هناك حادثة بالطريق الفاصل بين الولايتين فقط على بعد بضعة أميال للخلف. وقد اعتقدت أن بإمكانني أن أوفر على نفسي بعض الوقت والتعب".

إنها دافئة. لقد قمت بتسليم شحنة من اللبن إلى هنا منذ ساعتين وكنت أنتظر حتى يتحسن الطقس. فأنا أقترح عليك الإتيان والجلوس معي في الشاحنة. فربما يتيح هذا لك بعض الوقت للتفكير". وحينما لم تجب كارولين على الفور، أضاف: "أنا خائف على هذه الطفلة".

نظرت في ذلك الحين إلى ساحة الانتظار ثم إلى المنعطف حيث كانت تقف شاحنة ذات علوية براقية. لقد رأتها قبل ذلك ولكنها لم تنتبه إليها جيداً، صندوقها الفضى الطويل، شكلها الذي يبدو مثل مبنى بحافة العالم. وبين ذراعيها لهثت فويب والتقطت أنفاسها وواصلت البكاء.

قالت كارولين: "حسناً. لبرهة من الوقت على الأقل". خطت بحرص حول مجموعة من البصل المهروس. وحينما وصلت إلى حافة المنحدر كان يقف هناك باسطاً ذراعه لها لمساعدتها على النزول. أمسكت بيده وهي منزعة ولكنها كانت ممتنة كذلك حيث إنها شعرت بطبقة الثلج التي كانت توجد أسفل الخضراوات المتعفنة. نظرت إلى الأعلى لترى وجهه ولحيته الكثيفة والقبعة التي كانت تصل إلى حاجبيه وأسفلها عيناه الداكنتان: عينان عطوفتان. قالت لنفسها: "يا له من أمر سخيف" بينما كانا يسيران معاً عبر ساحة الانتظار. أمر جنوني وأحمق كذلك. فهو ربما يكون قاتلاً. ولكنها في الواقع كانت متعبة للغاية لدرجة جعلتها لا تهتم.

ساعدها على أخذ بعض الأشياء من السيارة والجلوس داخل الشاحنة حيث أمسك هو بالطفلة أثناء تسليق كارولين فوق المقعد المرتفع ثم أعطاها لها. صبت كارولين مزيداً من اللبن من الترمس إلى الزجاجية. كانت فويب شديدة الاحتياج لدرجة أن الأمر استغرق منها بضع لحظات حتى أدركت أن الطعام قد وصل وحتى في ذلك الحين كانت تصارع لص اللبن. مررت كارولين

كان وجهه مضاء برفق من مصباح الشارع ثم ابتسم. وما أدهشها أنها ابتسمت هي الأخرى ثم أخذتا هما الاثنان يضحكان. قال: "إن أفضل الخطط تفشل".
أومات كارولين.

قال بعد فترة من الصمت: "اسمعي، إن كنت تودين الذهاب إلى ليكسنجتون فقط أستطيع إيصالك إلى هناك. أستطيع كذلك إيقاف العربّة هناك مثلما فعلت هنا. وغداً، حسناً غداً هو الأحد، أليس كذلك؟ حسناً، في يوم الاثنين تستطيعين الاتصال بشركة إنقاذ السيارات لتشد لك سيارتك. وسوف تكون بأمان هنا، هذا أكيد".

كان ضوء أحد مصابيح الشارع يسقط فوق وجه فويب الصغير. تحرك للأمام ومرر يده الكبيرة برفق فوق جبهتها، أحبت كارولين هدوءه وارتبأكه.

قالت: "لا بأس. إن لم يكن في ذلك إزعاج لك".

قال: "لا، لا. إن ليكسنجتون في طريقي".

جمع باقى المتعلقات من سيارتها، أكياس البقالة والملاءات. كان اسمه آل، ألبيرت سيمبسون. رُبض على الأرضية ليجد كوباً آخر خلف المقعد. قام بتنظيفه جيداً بمنديل قماشى قبل أن يصب لها القهوة من الترمس الخاص به. شربت القهوة وهى سعيدة لأن الظلام قد حل وسعيدة بهذا الدفء ولأنها كانت بصحبة شخص لا يعرف شيئاً عنها، شعرت بالأمان والسعادة بالرغم من أن الهواء كان ثقيلاً وعابقاً برائحة الجوارب المتسخة وبالرغم من وجود طفلة غريبة تنام فوق حجرها. وبينما كان يقود، شرع آل فى قص حكايات من حياته عليها وكيف أنه يتوقف دوماً عند هطول الأمطار والأميال التى قطعها بسيارته وهو يتنقل بها ليلة تلو الأخرى.

وبعد أن سكنها حفيف الإطارات والدفء والثلج المتساقط أمام الأضواء الأمامية للسيارة، كانت كارولين على وشك أن تغط فى

النوم. وحينما وصلا إلى مرآب المبنى الذى توجد بها شقتها احتلت الشاحنة خمسة أماكن لإيقاف السيارات. خرج آل لمساعدتها على الهبوط وترك الشاحنة وحمل متعلقاتها وصعد بها الدرج الخارجى. سارت كارولين وراءه وفويب بين ذراعيها. انفتحت ستارة بنافاذة خفيفة - لقد كانت لوسى مارتن تتلصص كعادتها - وتوقفت كارولين عن السير حيث إنها شعرت للحظة بالدوار. لقد كان كل شيء كما هو ولكنها بدون شك لم تكن نفس المرأة التى غادرت هذا المكان فى منتصف الليلة السابقة شاقة طريققتها بصعوبة خلال الثلج إلى سيارتها. بالطبع لقد تغيرت تماماً حتى أنه يجب عليها الدخول لتجد غرفاً مختلفة وضوءاً مختلفاً. ومع ذلك فقد دخل مفتاحها المألوف داخل القفل وفتح الباب بسهولة. وحينما انفتح الباب، حملت فويب إلى غرفة تحفظها عن ظهر قلب: السجادة البنية الداكنة، الأريكة مربعة النقش والمقعد الذى ابتاعته عند التخفيضات، طاولة القهوة ذات السطح الزجاجى، الرواية التى كانت تقرأها قبل أن تخلد للفرش - الجريمة والعقاب. وقد تركت راسكولنكوف يعترف لسونيا وحلمت بهما وهما يجلسان بالغرفة العلوية إلى أن استيقظت على صوت جرس الهاتف والثلج يملأ الشوارع.

كان آل يحوم عند الباب فى ارتباك. إنه قد يكون قاتلاً متسلسلاً أو مغتصباً أو مصاباً بالسل. ربما يكون أى شيء على الإطلاق.

قالت: "إن لدى أريكة تتحول إلى فراش. تستطيع استخدامها الليلة".

بعد دقيقة من التردد دخل المنزل.

سأل وهو ينظر حوله: "ماذا عن زوجك؟".

قالت: "أنا لست متزوجة"، بعد ذلك أدركت خطأها. "أعنى أنا لم أعد متزوجة".

شرع فى تفحصها وهو يقف ممسكاً بقبعته الصوفية فى يده فى حين تنتأ خصلات شعر مموجة وداكنة من رأسه. شعرت بأنها بطيئة الحركة ومع ذلك كانت متيقظة بسبب القهوة التى احتستها والإعياء، ثم تساءلت فجأة عن الصورة التى يراها بها - مازالت ترتدى زى المرضات، شعرها ظل غير ممشط لساعات، معطفها مفتوح، هذه الطفلة ترقد بين ذراعيها المتعبتين.

قال: "أنا لا أريد إزعاجك".

قالت: "إزعاجي؟ لولاك لكنت لا أزال فى ساحة الانتظار". صر بأسنانه فى ذلك الحين وذهب إلى شاحنته وعاد بعد بضع دقائق وهو يحمل حقيبة دفيل صغيرة مصنوعة من قماش القنب الأخضر الداكن.

"كان هناك من يراقب من النافذة بالأعلى. هل أنت واثقة من أننى لن أتسبب لك فى أية مشكلة هنا؟".

قالت كارولين: "تلك كانت لوسى مارتين". كانت فويب قد بدأت فى التحرك، لذا فقد أخذت الزجاجاة من فوق السخان وجربت اللبن فوق ذراعها وجلست. "إنها امرأة تهوى القيل والقال. ثق بى لقد ملأت يومها بهجة".

رفضت فويب أن تشرب وبدأت تنتحب فوقفت كارولين وجابت الغرفة وهى تهمهم. وفى الوقت نفسه بدأ آل على الفور فى العمل. ففى وقت قياسى كان قد سحب الأريكة باسطة الفراش ومرتباً إياه. وحينما هدأت فويب أخيراً، أومأت له كارولين وقالت هامسة: "تصبح على خير". أغلقت باب حجرة النوم وراءها بحزم. فقد خطر لها أن آل قد يلاحظ أن الغرفة ليس بها مهد.

أثناء الطريق كانت كارولين تعد خططاً، والآن سحبت درجاً من مزينتها وألقت بمحتوياته المرتبة فى كومة فوق الأرض. بعد ذلك طبقت فوطتين ووضعتهما بالقاع وفرشت فوقهما ملاءة

ووضعت فويب فى وسط الملاءات. وعندما قفزت إلى فراشها، التف الإجهاد حولها مثل الموج ونامت على الفور، نوم صعب خال من الأحلام. لم تسمع آل يغط بصوت عال فى حجرة المعيشة ولم تسمع كذلك لفحات الثلج تتحرك عبر ساحة الانتظار أو قعقة سيارات القمامة بالشارع. ولكن حينما تحركت فويب وثبت فوق قدميها فى لحظة. تحركت خلال الظلام وكأنها تتحرك تحت الماء، حيث كانت مجهدة ولكنها كانت متحمسة، فقامت بتغيير حفاضة فويب وسخنت زجاجتها وهى تركز على الرضاعة بين ذراعيها والمهام التى ينبغى عليها القيام بها - المهام العاجلة والمرهقة والمالحة - مهام عليها الآن القيام بها والتى لا يمكن لها أن تنتظر.

...

استيقظت كارولين على فيضان من الضوء ورائحة البيض واللحم. وقفت بعدما ارتدت روبرها وانحنت لتلمس وجئة الرضاعة. بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ حيث كان آل يضع زبداً فوق الخبز المحمص.

قال وهو ينظر لأعلى: "مرحباً". كان شعره ممشطاً ولكنه لا يزال غير أنيق. كان لديه بقعة صلعاء بمؤخرة فروة رأسه، ويرتدى ميدالية ذهبية متدلّية من سلسلة برقبتة. "أتمنى ألا تعارضى تصرفى وكأننى فى بيتى. أنا لم أتناول العشاء فى الليلة الماضية".

قالت كارولين: "إن رائحته شهية. أنا جائعة أيضاً". قال وهو يعطيها قدحاً من القهوة: "حسناً، إذن. لقد أحسنت صنيعاً عندما أعددت الكثير منها. إن شقتك منظمّة حقاً. لطيفة ومنظمة".

سألته: "هل تعجبك؟". كانت القهوة أغنى وأسود مما اعتادت أن تشرب. "أنا أفكر فى الانتقال".

وقد أدهشتها كلماتها ولكن بمجرد أن خرجت في الهواء بدت صحيحة. سقط الضوء فوق السجادة البنية وذراع الأريكة. تقطر الماء من الإفريز بالخارج. لقد ظلت توفر المال لسنوات وهي تتخيل نفسها في منزل كبير أو في مغامرة وها هي الآن: طفلة بغرفة نومها ورجل غريب يجلس عند طاولة طعامها وسيارتها متروكة في فيرسيل.

قالت وقد أدهشت نفسها ثانية: "أنا أفكر في الانتقال إلى بتسبرج".

قلب آل البيض بالملقعة ثم رفعه ووضعه في أطباق. "بتسبرج؟ مدينة رائعة. ما الذي سيجعلك تذهبين إلى هناك؟"

قال كارولين بينما كان يضع الأطباق فوق الطاولة ويجلس قبالتها: "إن أسرة أمي كانت تعيش هناك". وبدا في هذه اللحظة أنه لا نهاية لكل الأكاذيب التي يمكن للشخص روايتها بمجرد أن يبدأ بالفعل.

قال آل: "أردت فقط أن أعبر لك عن مدى أسفى لما حدث لوالد طفلك".

كانت كارولين قد نسيت أنها اخترعت زوجاً لذا فقد اندهشت حينما سمعت في صوت آل نبرة عدم تصديق بأنها كانت متزوجة من الأساس. فقد كان يعتقد أنها أنجبت سفاحاً. شرعاً في تناول الطعام دون أن يتحدث كثيراً مع القيام فقط بالتعليق من حين لآخر على الطقس وزحمة السير ووجهة آل التالية والتي كانت ناشفيل، تينيسى.

قالت كارولين: "أنا لم أذهب إلى ناشفيل من قبل".

قال آل: "حقاً؟ إذن تعالى معي الآن، أنت وطفلك أيضاً". كانت مزحة ولكن كان يكمن داخل المزحة عرض. عرض ليس لها ولكن لامرأة أنجبت دون زواج. ومع ذلك وللحظة تخيلت كارولين نفسها تخرج من الباب حاملة حقائبها دون أن تنظر خلفها قط.

قالت وهي تمسك بقدر القهوة: "ربما في المرة القادمة. إن لدى بعض الأمور أقوم بترتيبها هنا".

أوما آل، قال: "يا له من أمر مؤسف".

قالت: "ولكن شكراً لك على أية حال. أنا حقاً أقدر عرضك".

قال بجدية: "هذا من دواعي سروري" ثم نهض استعداداً للمغادرة.

أخذت كارولين تراقبه من النافذة بينما كان متجهاً إلى شاحنته وحينما تسلق الدرجات ليدخل العربة وحينما استدار ليلوح لها من الباب المفتوح. لوحته له بدورها وهي سعيدة لرؤية ابتسامته، ومندهشة من الشدة العنيفة التي شعرت بها في قلبها. راودتها رغبة في الركض وراءه وهي تتذكر الفراش الصغير بمؤخرة السيارة الذي كان ينام فوقه أحياناً والطريقة التي لمس بها جبهة فويب برفق. بالتأكيد رجل يعيش مثل هذه الحياة المنعزلة قادر على الحفاظ على أسرارها واحتواء أحلامها ومخاوفها. ولكنه أدار محرك السيارة وتحرك بحرص مغادراً ساحة الانتظار ومخترقاً الشارع الهادئ ثم مغادراً.

. . .

طوال الأربع والعشرين ساعة التالية، كانت كارولين تنام وتستيقظ حسب جدول رضاة فويب وتظل مستيقظة حتى تتناول الطعام فقط. كان ذلك غريباً؛ فإنها طالما كانت دقيقة بشأن الوجبات وتخشى الأكلات الخفيفة غير المنظمة وتعتبرها علامة على الشذوذ والانغماس في الملذات، ولكنها الآن كانت تأكل في أوقات غريبة: حبوب باردة من الصندوق، آيس كريم من العبوة مباشرة أثناء الوقوف في المطبخ. لقد بدا الأمر كما لو أنها دخلت نطاقاً من الشفق خاصاً بها والذي لا ينبغي عليها دخله التفكير

الزفاف. لكن كان هناك شيء غير طبيعي يشوب لهفتها ورغبتها في معرفة الأخبار السيئة وكانت كارولين دوماً تحاول البقاء بعيدة عنها.

قالت لوسى الآن وهي تربت فوق ذراع كارولين: "لقد رأيت ضيفك. يا إلهي! إنه رجل وسيم، أليس كذلك؟ أنا فقط لم أستطع الانتظار حتى أحصل على السبق".

جلست لوسى على الأريكة والتي كانت مطوية الآن وجلست كارولين فوق المقعد. كان باب حجرة النوم حيث كانت فويب نائمة مفتوحاً.

قالت لوسى: "إنك لست مريضة يا عزيزتى؛ لأنك غالباً ما تكونين بالعمل فى هذا الوقت من الصباح".

أخذت كارولين تدرس وجه لوسى المتلهف لمعرفة الأخبار وهي تعي أن أى شيء ستقوله لها سينتشر خلال المدينة. وأنه فى خلال يومين أو ثلاثة سوف يقابلها أحد فى متجر البقالة أو دار العبادة ويسألها عن الغريب الذى أمضى ليلة فى شقتها.

قالت كارولين: "كان هذا هو ابن عمى الذى رأيت ليلة أمس"، وقد اندهشت ثانية من هذه المقدرة الكبيرة على الكذب بمثل هذه السهولة وانسيابية أكاذيبها. وقد انهمرت عليها الأكاذيب دفعة واحدة ولم تطرف بعينيها وهي ترويها.

قالت لوسى وهي مخبطة بعض الشيء: "أنا فقط كنت أتساءل..."

أجابت كارولين: "أعلم". وبعد ذلك وفى مبادرة مذهلة أدهشتها فيما بعد قالت: "آل المسكين، إن زوجته بالمستشفى". اتكأت للأمام قليلاً وقالت هامة: "إنه أمر مؤسف حقاً يا لوسى. إنها فقط فى الخامسة والعشرين ولكنهم يعتقدون أنها مصابة بسرطان فى المخ. لقد كانت تصاب بالكثير من نوبات الدوار، لذا فقد أتى بها آل من سومرست لترى متخصصاً. وهما لديهما هذه

كثيراً فى عواقب قراراتها أو مصير الطفلة التى تنام فى درج مزينتها أو حتى مصيرها هي.

وفى صباح يوم الاثنين نهضت فى موعدا المعتاد واتصلت بالعبادة لتبلغ عن تغيبها. وقد أجابها روبى سنترز موظفة الاستقبال.

سألتها: "هل أنت بخير يا عزيزتى؟ إن صوتك يبدو بشعاً".

قالت كارولين: "إن ذلك بسبب الأنفلونزا على ما أعتقد. وأنا سوف أتغيب عن العمل بضعة أيام على الأرجح. هل هناك أى شيء جديد حدث؟"، هكذا سألت وهي تحاول أن تتحدث بنبرة طبيعية. "هل أنجبت زوجة دكتور هنرى طفلها؟".

قالت روبى: "حسناً، أنا لا أعرف". وقد تخيلت كارولين تقطيعتها التى تنم عن استغراقها فى التفكير ومكتبها المنظم والمتأهب لليوم والمزهرية الصغيرة التى تضم زهوراً بلاستيكية بالركن. "لم يأت أحد بعد، فيما عدا نحو مائة مريض. فيبدو أن الجميع مصابون بنفس الأنفلونزا التى أصبت أنت بها يا آنسة كارولين".

وفى اللحظة التى أغلقت فيها كارولين الخط كان هناك طرق على الباب الأمامى. إنها لوسى مارتين بدون شك. وقد اندهشت كارولين من تأخيرها.

كانت لوسى ترتدى ثوباً منقوشاً بزهور وردية كبيرة وبراقة ومزراً ذا أحرف وردية مكشكشة وخفين مجمعين. وحينما فتحت كارولين الباب، دخلت على الفور وهي تحمل نصف شريحة من خبز الموز مغلفة فى ورق بلاستيك.

كان الجميع يقولون إن لوسى لها قلب من ذهب ولكن وجودها فى حد ذاته أثار حفيظة كارولين. وكانت فطائر لوسى وكعكها وأطباقها الساخنة هى تذاكرها للدخول فى منتصف كل دراما: الجنائز والحوادث والولادات وحفلات

قالت كارولين: "نعم، نعم، هذا صحيح. لقد فقدنا شهيتهما ماماً"، واستعدت لاستقبال أحد أطباق لوسى الشهيرة.

...

طوال اليومين التاليين لم تغادر كارولين المنزل. فقد كان العالم يأتي إليها في صورة جرائد وتوصيل البقالة حتى عتبة بابها وبائع اللبن وصوت السيارات - تغير الطقس واختفى الثلج فجأة كما هب فجأة، وبدأ يذوب من فوق جدران المبانى ويتحول إلى قطرات ماء. وبالنسبة لكارولين، فإن تلك الأيام كانت تسير معاً في مجرى من الصور والانطباعات العشوائية: سيارتها الفورد فيرلين وقد أعيد شحن بطاريتها وتم جلبها إلى ساحة الانتظار؛ أشعة الشمس التي تتغلغل عبر النوافذ الغائمة؛ الرائحة الثقيلة للأرض المبللة؛ طائر أبو الحناء. وقد ساورها القلق عدة مرات ولكنها كانت تتفاجأ بينما تستعيد سكينتها حينما تجلس مع فويب. إن ما قالته للوسى كان صحيحاً: لقد كانت تحب النظر لهذه الطفلة. لقد أحبت الجلوس في أشعة الشمس واحتضانها. وقد حذرت نفسها من الوقوع في حبها، فهي مجرد مرحلة مؤقتة. وقد رأت كارولين ديفيد هنرى بما فيه الكفاية في العيادة لتدرك إلى أي مدى هو شخص عطوف. فحينما رفع رأسه من فوق مكتبه في هذه الليلة وتلاقت عيناهما رأت فيهما قدراً غير محدود من العطف. ولم يساورها أدنى شك بأنه سينتهج التصرف الصحيح بمجرد أن يفيق من الصدمة.

وفي كل مرة كان جرس الهاتف يرن فيها، كانت تجفل. ولكن مضت ثلاثة أيام دون أن تسمع منه شيئاً.

وفي صباح يوم الخميس، كان هناك طرق على الباب. أسرع كارولين لتفتح وهي تضبط حزامها حول ثوبها وتلمس شعرها. ولكنه كان فقط رجل توصيل الطلبات يحمل مزهريّة مليئة بالزهور: زهور حمراء ووردية شاحبة ذات عبير جميل. لقد

الطفلة الصغيرة. وقد طلبت منه أن يذهب ويبقى مع زوجته ليلاً ونهاراً إن تطلب الأمر وأن يترك الطفلة معي. وأعتقد أنه لأننى أعمل ممرضة فقد أخذنا هذا القرار وهما مطمئنان. أتمنى ألا يكون بكاؤها قد أزعجك".

طوال بضع لحظات كانت لوسى مذهولة لدرجة أبقتها صامتة وقد أدركت كارولين متعة - وقوة - في اختراع شيء ما من العدم.

"يا له من أمر مؤسف، ابن عمك المسكين وزوجته! كم يبلغ عمر الطفلة؟"

قالت كارولين: "فقط ثلاثة أسابيع" ثم خطرت لها فكرة فهبت واقفة. "انتظري هنا".

دخلت حجرة النوم ورفعت فويب من الدرج بينما كانت الملاءات مازالت ملفوفة حولها.

سألت وهي تجلس إلى جوار لوسى: "أليست جميلة؟".

قالت لوسى وهي تلمس إحدى يدي فويب الصغيرتين: "يا إلهي، إنها لطيفة للغاية!".

ابتسمت كارولين وهي تشعر بالفخر والسعادة. إن الملامح التي رأتها في غرفة الولادة - العينان المائلتان والوجه المفلطح بعض الشيء - قد أصبحت مألوفة الآن حتى أنها لم تعد تلاحظها. أما لوسى بعينيها غير المدربتين فلم تلاحظ هذه الملامح على الإطلاق. فكانت فويب مثل أي طفلة رقيقة وجميلة وحادة في مطالبها.

قالت كارولين: "أنا أحب النظر لها".

همست لوسى: "تلك الأم المسكينة. هل تتوقعين لها أن تعيش؟".

قالت كارولين: "لا أحد يعلم. الأيام فقط هي التي ستجعلنا نعرف".

قالت لوسى: "لا بد أنهما مدمران".

كانت من آل. كتب على البطاقة "شكراً لك على حسن استضافتك. ربما أستطيع رؤيتك في محطتي التالية".

أخذت كارولين الزهور للداخل ورتبتها فوق طاولة القهوة. وقد التقطت - وهي تشعر بالإثارة - جريدة *The Leader* والتي لم تقرأها منذ أيام ونزعت الرباط المطاطي وتصفحت المقالات دون تركيز. تصاعد حدة التوتر في فيتنام، وإعلانات اجتماعية عمّن استضاف من في الأسبوع الماضي، وصفحة لنساء محليات يرتدين قبعات الربيع الجديدة. وكانت كارولين على وشك الإلقاء بالجريدة بعيداً حينما استوقفها مربع داكن.

حفل تأبين

لابنتنا الحبيبة

فويب جراس هنرى

والتي ولدت وماتت في السابع من مايو ١٩٦٤

في دار عبادة ليكسنجتون

يوم الجمعة الموافق ١٣ مارس ١٩٦٤،

في التاسعة صباحاً

جلست كارولين ببطة. قرأت هذه الكلمات مرة ثم قرأتها ثانية. حتى أنها لمستها، وكأن هذا سيجعلها أكثر وضوحاً بشكل ما ويجعلها قابلة للتفسير. وبينما كانت الجريدة لا تزال في يديها وقفت وذهبت إلى حجرة النوم. كانت فويب نائمة في الدرج وبواسطة ذراعيها فوق الملاءات. ولدت وماتت. ذهبت كارولين ثانية إلى غرفة المعيشة واتصلت بالعيادة. رفعت روبي السماعه عند أول جرس للهاتف.

قالت: "لا أعتقد أنك تودين المجئ. إن العيادة هنا تشبه مستشفى الأمراض العقلية. إن كل البلدة مصابة بالأنفلونزا". ثم قامت بخفض صوتها: "هل سمعت يا كارولين عن أمر

الدكتور هنرى وطفليه التوأم؟ لقد أنجب طفلين. إن الصبي على ما يرام ورائع حقاً. أما الفتاة فقد ماتت عند ولادتها. أمر محزن حقاً".

شعرت كارولين بتصلب في لسانها وفكها ولكنها قالت: "لقد قرأت عن هذا في الجريدة. هلا طلبت من الدكتور هنرى الاتصال بي. أخبريه أن الأمر مهم وأننى قرأت الصحيفة. أخبريه بذلك يا روبي من فضلك". ثم أغلقت الخط وجلست تحديق فى شجرة الجميز وساحة الانتظار الممتدة خلفها.

وبعد ساعة، سمعت طرقاتاً على الباب.

قالت وهي ترشده إلى الداخل: "حسناً".

دخل ديفيد هنرى وجلس على أريكتها وكان ظهره مقوساً ويدير قبعته في يديه. جلست على المقعد قبالتها وشرعت فى التحديق له وكأنها لم تره من قبل.

قال: "لقد قامت نورا بنشر الإعلان". وحينما نظر لأعلى شعرت بدفقة من التعاطف إزاءه رغماً عنها حيث كانت جبهته مليئة بالخطوط وعيناه حمراوين وكأنه لم ينم منذ أيام. "لقد قامت بذلك دون أن تأخذ رأيي أولاً".

قالت كارولين: "ولكنها تعتقد أن ابنتها ميتة. هذا هو ما أخبرتها".

أوما ببطة: "لقد أردت أن أقول لها الحقيقة. ولكننى حينما فتحت فمى لم أستطع التفوه بها. ففى هذه اللحظة ظننت أننى أحميها من الألم".

فكرت كارولين فى الأكاذيب التى أخذت تتلوها واحدة تلو الأخرى قبل ذلك.

قالت برقة: "أنا لم أتركها فى لويسفيل". وأشارت ناحية باب غرفة النوم. "إنها فى الداخل نائمة".

نظر ديفيد هنرى للأعلى. فقدت كارولين شجاعته حيث إن وجهه قد تحول للون الأبيض؛ وهي لم تره يرتعد من قبل.

سأل وهو على وشك الوقوع فى الغضب: "لم؟ لماذا بحق الجحيم هى ليست هناك؟".

سألته وهى تتذكر المرأة الشاحبة وشعرها الذى كان يتساقط فوق مشمع الأرضية الباردة: "هل سبق لك الذهاب إلى هناك؟ هل رأيت هذا المكان؟".

قال مقطباً: "لا. ولكن هناك من زكاه لى، هذا كل ما فى الأمر. لقد أرسلت أشخاصاً آخرين إلى هناك قبل ذلك. ولم أسمع عنه أى شىء سلبى".

قالت كارولين وهى تشعر بالراحة: "إنه مريع". إذن هو لم يكن يعرف ماذا يفعل. وقد أرادت أن تكرهه ولكنها تذكرت الليالى العديدة التى سهر فيها بالعيادة يعالج المرضى غير القادرين على دفع مصروفات العلاج الذى يحتاجونه - مرضى من الريف ومن الجبال، والذين قطعوا هذه الرحلة الشاقة إلى ليكسنجتون وهم مفلسون ويحدوهم الأمل. والشركاء الآخرون بالعيادة لم يكونوا سعداء بهذا ولكن الدكتور هنرى لم يتوقف. إنه لم يكن رجلاً شريفاً، لقد كانت تعرف هذا. إنه لم يكن وحشاً. ولكن هذا - حفل تأبين لطفلة مازالت حية - كان أمراً مروعاً حقاً.

قالت: "لابد أن تخبرها".

كان وجهه مازال شاحباً ولكن حاسماً. قال: "لا. لقد فات الأوان الآن. افعل ما يحلو لك يا كارولين ولكننى لن أخبرها. لن أخبرها".

كان ذلك غريباً؛ لقد كرهته كثيراً بسبب هذا الكلمات، ولكنها شعرت كذلك برابطة قوية تجمعهما فى هذه اللحظة والتى لم تشعر بها مع سواه من قبل، لقد كان هناك شىء عظيم يجمعهما الآن، ومهما حدث فإنه سيظل يربط بينهما. أخذ يدها ولم تشعر بأن ذلك كان غريباً. رفعها إلى شفتيه

وقبلها. شعرت بضغط شفتيه فوق مفاصلها وأنفاسه الدافئة فوق جلدها.

ولو كانت تعبيرات وجهه حينما رفع رأسه ونظر إليها وترك يدها تنطوى على شىء آخر سوى الارتباك والألم لكانت فعلت الصواب. كانت ستلتقط سماعة الهاتف وتتصل بالدكتور بنتلى أو بالشرطة وتعترف بكل شىء. ولكن كانت الدموع تملأ عينيه.

قال وهو يحرر يدها: "إنها بين يديك. سوف أتركها لك. أنا واثق من أن الدار فى لويسفيل هى المكان الملائم لهذه الطفلة. أنا لم أتخذ هذا القرار بشكل اعتباطى. إنها سوف تكون بحاجة لعناية طبية لن تستطيع الحصول عليها فى أى مكان آخر. ولكننى سوف أحترم أى قرار تتوصلين إليه. وإن اخترت أن تتصلى بالسلطات، فسوف أتحمل المسؤولية كاملة. فأنت لن تتحملى أية عواقب. أعدك بذلك".

كانت تعبيرات وجهه يتخللها الحزن والهم. ولأول مرة كانت كارولين تفكر فيما وراء ما تراه أمامها وفيما وراء الطفلة التى تنام فى الحجرة المجاورة. فلم يخطر ببالها من قبل أن وظيفتيهما كانت فى خطر.

قالت ببطء: "لا أعلم. لابد أن أفكر أولاً. أنا لا أعرف ماذا أفعل".

أخرج محفظته وقام بإفراغها. ثلاثمائة دولار - وقد شعرت بالدهشة لأنه يحمل معه مثل هذا المبلغ.

قالت: "أنا لا أريد مالك".

قال: "إنه ليس لك. إنه للطفلة".

قالت كارولين وهى تدفع المال بعيداً: "فويب. إن اسمها فويب". فكرت فى شهادة الميلاد، والتى لم يملأ دكتور ديفيد هنرى بها سوى خانة التوقيع فى ذلك الصباح المطير. كيف سيكون من اليسير أن تكتب بها اسم فويب واسمها.

قال: "فويب". وقف ليغادر تاركاً النقود على الطاولة. "من فضلك يا كارولين لا تفعل شيئا دون أن تخبريني أولاً. هذا هو الشيء الوحيد الذى أطلبه منك. أن تقومى بتحذيرى أولاً بغض النظر عن أى قرار ستتخذه".

فى ذلك الحين غادر تاركاً كل شيء كما كان: الساعة فوق رف المستوقد، مربع الضوء فوق الأرض، الظلال الحادة للفروع العارية. فى غضون أسابيع قليلة سوف تنمو الأوراق الجديدة مغطية فروع الأشجار ومغيرة من شكل الظلال على الأرضية. لقد رأت كل هذا قبل ذلك ومع ذلك فقد بدت لها الغرفة مجهولة بشكل غريب الآن وكأنها لم تعيش فيها قط. على مدار السنوات، كانت قد اشترت أغراضاً قليلة للغاية لنفسها وكانت مقصدية للغاية متخيلة دوماً أن حياتها الحقيقية سوف تبدأ فى مكان آخر. الأريكة مربعة النقش والمقعد المتماشى معها - كانت تحب هذا الأثاث، فإنها قد اختارته بنفسها ولكنها رأت الآن أن بإمكانها التخلي عنه بسهولة. بإمكانها ترك كل شيء، هكذا كانت تفكر وهى تنظر حولها إلى لوحات المناظر الطبيعية ورف المجلات الأملود بجوار الأريكة وطاولة القهوة المنخفضة. لقد كانت شقتها تبدو غريبة فى عينيها شأنها شأن أى حجرة انتظار بأية عيادة بالبلدة. وعلى أية حال ماذا تفعل هنا بحق السماء طوال هذه السنوات سوى الانتظار؟

حاولت إسكات أفكارها وخرسها. بالطبع هناك سبيل آخر أقل درامية. هذا ما كانت أمها ستقوله لها وهى تهز رأسها طالبة منها عدم تقمص دور سارة برنارد. ظلت كارولين طوال سنوات تجهل من هى سارة برنارد هذه ولكنها كانت تدرك جيداً ماذا تقصد أمها: فأى تعبير مفرط عن العاطفة كان أمراً سيئاً بالنسبة لها مفسداً عليهم هدوء وسكينة أيامهم. لذا فقد قامت كارولين بتفحص جميع عواطفها كما يتفحص المرء معطفاً. وقد طرحها جانباً وتخيلت أنها ستعود إليها لاحقاً ولكنها

بالطبع لم تفعل ذلك، حتى أخذت الطفلة من بين ذراعى الدكتور هنرى. إذن فقد بدأ شيء ما والآن ليس باستطاعتها إيقافه. لقد كان خيطان مزدوجان يسريان خلالها: الخوف والإثارة. إنها تستطيع ترك هذا المكان اليوم. يمكنها بدء حياة جديدة فى مكان آخر. سوف ينبغى عليها القيام بذلك فى جميع الأحوال بغض النظر عن القرار الذى تتخذه بشأن الطفلة. فقد كانت تلك بلدة صغيرة، فإنها لا تستطيع الذهاب إلى متجر البقالة دون مصادفة أحد معارفها. وقد تخيلت عيني نوسى مارتن وهما تتسعان وسعادتها وهى تذيب أكاذيب كارولين وعاطفتها إزاء هذه الطفلة المنبوذة. فسوف يقول الناس: "يا لها من عانس عجوز مسكينة تتوق لإنجاب طفل هى الأخرى".

"سوف أتركها بين يديك يا كارولين". كان وجهه يبدو عجوزاً ومجعداً مثل ثمرة الجوز.

. . .

فى صباح اليوم التالى استيقظت كارولين مبكراً. كان يوماً جميلاً، فقامت بفتح النوافذ تاركة الهواء العليل ورائحة الربيع يدخلان. كانت فويب قد استيقظت مرتين أثناء الليل، وأثناء نومها كانت كارولين تحزم متعلقاتها وتنقلها إلى سيارتها فى الظلام. كان لديها القليل من المتعلقات كما اكتشفت، فلم تحزم سوى حقائب قليلة والتى ستدخل بسهولة فى حقيبة السيارة والمقعد الخلفى لها. إن بإمكانها السفر إلى الصين أو بورما أو كوريا فى لحظة. وقد أسعدها هذا. وقد أسعدها هذه القوة التى تملأها كذلك. وفى ظهيرة يوم أمس كانت قد أعدت كل الترتيبات: فشركة جودويل سوف تأخذ الأثاث، وسوف تتولى إحدى شركات النظافة أمر الشقة. كما أنها قد أوقفت خدمات المرافق وتوصيل الجرائد وكتبت رسائل لإيقاف حسابها فى البنوك.

التي يعتقد الجميع أنها ميتة بين ذراعيها؟ ماذا لو قاطعت هذا الحزن مقدمة لهم أحزاناً أخرى.

"إنك ترى جميع خطاياها وأثامها".

تحرك ديفيد هنري قليلاً عند تفوه رجل الدين بهذه الكلمات. ولأول مرة تدرك كارولين ما هي على وشك القيام به. انغلق حلقها وأصبحت أنفاسها متلاحقة. فقد بدا أن الحصى يضغط على حذائها وقد ارتعشت صورة الحشد بعينيها وظننت أنها قد تسقط. شرعت كارولين في مشاهدة ساقى النور الطويلتين المثنيتين وربضت فجأة فوق الطين. تخلل الريح حجاب نور القصير وقبعته التي لا حافة لها.

"إن ما نراه هو الزائل وما لا نراه هو الخالد".

كانت كارولين تراقب يد رجل الدين وحينما تحدث ثانية بدا أن كلماته غير موجهة إلى فويب ولكن إليها، نوع من الحقيقة المطلقة التي لا يمكن تغييرها.

"لقد دفنا جسدها في التراب، من التراب إلى التراب ومن الرماد إلى الرماد. بارك فيها الله وأنزل سكينة عليها".

سكت رجل الدين وتحركت الريح بين الأشجار وللمت كارولين بثتات نفسها ومسحت عينيها بمنديلها وهزت رأسها قليلاً. استدارت وذهبت إلى سيارتها حيث كانت فويب لا تزال نائمة وبصيص من أشعة الشمس يسقط على وجهها.

بعد كل نهاية توجد بداية. سرعان ما كانت تنحرف عند المنعطف عند مصنع النصب التذكارية وصفوف شواهد القبور متجهة إلى المنطقة الفاصلة بين الولايتين. يا له من أمر غريب. ألا يعد فآلاً سيئاً أن يوجد مصنع للنصب التذكارية بمدخل المدينة؟ ولكنها عبرته بالفعل وعندما وصلت إلى مفترق الطرق بالطريق السريع اختارت أن تتجه شمالاً إلى سينسيناتي ثم إلى بتسبرج متبعة نهر أوهايو إلى المكان الذي عاش فيه دكتور هنري

وقد انتظرت كارولين وهي تحتسى القهوة حتى سمعت الباب ينغلق بالأسفل وصوت محرك سيارة لوسى تدب فيه الحياة. وبعد ذلك وبسرعة حملت فويب ووقفت لدقيقة في مدخل شقتها التي أمضت فيها سنوات عديدة في أمل، سنوات بدت وكأنها دامت يوماً واحداً الآن وكأنها لم تحدث على الإطلاق. بعد ذلك أغلقت الباب بحسم وهبطت الدرج.

وضعت فويب في صندوقها بالمقعد الخلفي وقادت السيارة داخل البلدة، مارة أمام العيادة ذات الجدران الفيروزية والسقف البرتقالي، ومارة كذلك أمام البنك ومحل التنظيف الجاف ومحطة البنزين المفضلة لها. وحينما وصلت إلى دار العبادة، أوقفت السيارة بالشارع وتركت فويب نائمة بها. وكان الجمع المحتشد في القناء أكبر مما توقعت، وقد وقفت عند حافته الخارجية، قريباً بما فيه الكفاية لترى مؤخرة رقبة ديفيد هنري متوردة من البرد وشعر نوراً هنري الذهبي معقوداً بالطريقة المعتادة. ولم يلاحظ أحد كارولين. وقد غرس كعبها في الطين بحافة الرصيف. وقفت على أطراف أصابعها متذكرة المرأة التي كانت ترتدي سروالها الداخلي ويتساقط شعرها على الأرض.

تدفقت الكلمات بهواء الصباح الساكن.

"إن الليل والنهار أصبحا متماثلين بالنسبة لك".

ظلت كارولين مستيقظة طوال الليل. فقد وقفت بنافذة المطبخ تتناول المقرمشات في منتصف الليل. لقد أصبح ليلها ونهارها متماثلين، فنظام حياتها المعتاد والباعث على الراحة أصابة الدمار للأبد.

مسحت نوراً هنري عينيها بمنديل مزركش. تذكرت كارولين إمساكها ليدها بقوة بينما كانت تدفع طفلاً ثم الآخر والدموع التي كانت في عينيها هي أيضاً. لقد قال ديفيد هنري إن هذا سيدمرها. وماذا سيحدث إن تقدمت كارولين الآن حاملية الطفلة

جزءاً من ماضيه الغامض. أما الطريق الآخر الذى يؤدى إلى
لويسفيل ومؤسسة الأمراض العقلية فقد اختفى فى مرآة الرؤية
الخلفية.

قادت كارولين سريعاً وهى تشعر بالتهور وكان قلبها ممتلئاً
بإثارة بالغة. فماذا قد يفعله الفأل السيئ الآن؟ فبالرغم من كل
شئ، فقد كانت الطفلة الراقدة إلى جوارها ميتة فى عيون العالم
أجمع. وهى - كارولين جيل - على وشك الاختفاء من وجه
الأرض، هذا الأمر الذى جعلها تشعر بالانطلاق وكأن السيارة
نفسها قد بدأت تحلق عالياً فوق حقول أوهايو الجنوبية. وطوال
فترة بعد الظهيرة المشمسة تلك وأثناء سفرها شمالاً وشرقاً،
ركزت كارولين كل إيمانها على المستقبل. ولم لا؟ فلو كان الأسوأ
قد حدث لهما أمام أعين الجميع إذن فهما بالتأكيد قد تركا
الأسوأ وراءهما الآن.

فبراير ١٩٦٥

وقفت نورا حافية القدمين ومتوازنة فوق مقعد صغير فى غرفة تناول الطعام تثبت قصاصات فوق النجفة النحاسية. وكانت سلاسل من القلوب الورقية - وردية وممغنطة - تعوم فوق الطاولة وتتدلى عبر أنيتها الصينية والزهور الحمراء الداكنة والحواف المطلية بالذهب وغطاء المائدة المزركش والمناديل الكتانية. وبينما كانت تعمل، أصدر الفرن حفيفاً واندفعت شرائط من الورق الكريبي للأعلى محتكة بتنورتها ثم ساقطة على الأرض برفق ثانية وهى تـخـشـش.

كان بول - البالغ من العمر أحد عشر شهراً - يجلس فى الزاوية إلى جوار سلة عنب قديمة مملوءة بالمكعبات الخشبية. كان قد تعلم المشى منذ وقت قصير وطوال فترة بعد الظهيرة ظل يسلى نفسه بالركض بترنح فى منزلهم الجديد وهو يرتدى حذاءه الأول. كانت كل غرفة بمثابة المغامرة. وقد قام بإسقاط مسامير فى المشواة معجباً بصدى الصوت الذى تصدره كما جر

حقيبة من الدقيق عبر المطبخ تاركاً أثراً أبيض في أعقابها. وهو الآن يراقب القصاصات - بعينيه الواسعتين - والتي كانت جميلة وترفرف مثل الفراشات، ثم رفع نفسه فوق مقعد وترنح قليلاً نتيجة لذلك. التقط إحدى الشرائط الوردية وجذبها بعنف مؤرجحاً النجفة. بعد ذلك فقد اتزانته وسقط جالساً. وبعد أن أصابته الدهشة، بدأ في البكاء.

قالت نورا وهي تهبط لتحمله: "ماذا يا عزيزي، أنا هنا إلى جوارك" - ثم مررت يدها فوق شعره الداكن الناعم.

وفي الخارج أنارت المصابيح الأمامية لسيارة ثم اختفت وتم فتح باب السيارة وإغلاقه. وفي نفس الوقت بدأ جرس الهاتف يرن. حملت نورا بول إلى داخل المطبخ وأجابت الهاتف في نفس الوقت الذي طرق فيه أحدهم على الباب.

"مرحباً؟". ثم قامت بضغط شفتيها فوق جبهة بول والتي كانت رطبة وناعمة وهي تشب لتري لمن السيارة التي وقفت بالشارع. لم يكن من المفترض أن تعود برى قبل ساعة. همست: "طفلي الحبيب"، وبعد ذلك قالت في سماعة الهاتف ثانية "مرحباً؟".

"السيدة هنري؟".

كانت تلك هي المريضة من عيادة ديفيد الجديدة - فقد انضم لفريق عمل المستشفى منذ شهر - والتي لم تلتق بها نورا من قبل قط. كان صوتها دافئاً ورزينا: تخيلت نورا أنها امرأة في منتصف العمر، ضخمة وقوية البنية، شعرها ممشط في شكل يشبه خلية النحل. أما كارولين جيل - والتي أمسكت بيدها خلال الانقباضات المميتة، والتي كانت عيناها الزرقاوان وتحديقها المستمر ترتبط في ذهن نورا بتلك الليلة العصبية ذات العاصفة الثلجية - فقد اختفت ببساطة بطريقة غامضة تاركة فضيحة وراءها.

"أنا شارون سميث يا سيدة هنري. لقد تم استدعاء دكتور هنري للمشاركة في جراحة عاجلة وكان ذلك - كما رأيت بنفسى - وهو على وشك الرحيل والعودة للمنزل. كانت هناك حادثة شنيعة خارج طريق ليزتاون. بعض المراهقين، وجميعهم مصابون إصابات خطيرة وقد طلب منى الدكتور هنري الاتصال بك. إنه سوف يعود للمنزل بأقصى سرعة ممكنة".

سألت نورا: "هل قال كم من الوقت سيغيب؟". كان الجو عابقاً برائحة اللحم المشوى وبطاطس الفرن: إنها وجبة ديفيد المفضلة.

"لا، لم يفعل. ولكنهم يقولون إنها حادثة بشعة. بينى وبينك يا عزيزتى قد يستغرق الأمر ساعات".

أومأت نورا. ومن بعيد انفتح الباب الأمامى وانغلق. كان هناك وقع أقدام خفيفة ومألوفة في الردهة ثم في حجرة المعيشة وحجرة الطعام: لقد أتت برى مبكراً لتأخذ بول حتى يستطيع كل من نورا وديفيد تمضية الليلة بمفردهما قبل عيد الحب وعيد زواجهما.

وكانت نورا قد أعدت له مفاجأة وجلبت له هدية.

قالت قبل أن تغلق الخط: "شكراً لك. شكراً من أجل اتصالك".

سارت برى داخل المطبخ جالبة معها رائحة المطر. وأسفل معطف المطر الطويل كانت ترتدى حذاء برقبة يصل إلى ركبتيهما وكان فخذاها الطويلان والأبيضان مختفيين أسفل أقصر تنورة سبق لنورا رؤيتها. وكان قرطها الفضى المرصع باللون الفيروزي يتراقص وهو يشع ضوءاً. لقد أتت مباشرة من العمل - فكانت تدير مكتبا لإحدى المحطات الإذاعية - وكانت حقيبتها مليئة بالكتب والأوراق الخاصة بالدورات التي تأخذها.

قالت برى وهى تضع حقائبها فوق الطاولة وتنحنى لالتقاط بول: "واو! إن كل شيء يبدو رائعاً يا نورا. لا أستطيع أن أصدق ما فعلته بالمنزل فى هذا الوقت القصير".

قالت نورا: "لقد أبقانى هذا منشغلة". وكانت تفكر فى الأسابيع التى أمضتها فى لصق ورق الحائط وطلاء طبقات الدهان. لقد قررا الانتقال - هى وديفيد - ظناً منهما أن ذلك مثل الوظيفة الجديدة سوف يساعدهما على ترك الماضى وراءهما. وقد كرست نورا كل طاقتها فى هذا المشروع. ومع ذلك فإنه لم يساعدها بقدر ما كانت تأمل؛ فكثيراً ما يعاودها الشعور بالتيه. فمرتان فى هذا الشهر الأخير وحده قامت باستئجار جليسة أطفال من أجل بول وتركت المنزل وهو مطلقاً جزئياً ولفائف ورق الحائط ملقاة على الأرض. كانت تقود بسرعة كبيرة فى الطرق الريفية الضيقة إلى أن وصلت للمقبرة ذات البوابة الحديدية المزخرفة حيث دفنت ابنتها. وقد كانت شواهد القبر منخفضة وبعضها قديم للغاية وبال وكان شاهد قبر فويب بسيطاً ومصنوعاً من الجرانيت الوردى ومنقوشاً عليه بعمق أسفل الاسم تاريخ ميلادها ووفاتها. وفوق أرض الشتاء الباردة وبينما كانت الريح تتخلل شعرها بحدة، ربضت نورا فوق العشب الهش والمجمد. وقد شل الحزن حركتها حيث إنها شعرت بأسى بالغ لدرجة أنها كانت على وشك البكاء. ولكنها ظلت حيث هى لعدة ساعات قبل أن تقف وتنفض ملابسها وتعود أدراجها للمنزل.

الآن كان بول يلعب لعبة مع برى، فكان يحاول الإمساك بشعرها.

قالت له برى: "إن والدتك مذهلة حقاً. إنها تشبه ربة المنزل سوزى فى هذه الأيام، أليس كذلك؟ لا، لا، ليس القربى يا حبيبى"، ثم أمسكت بيد بول الصغيرة فى يدها.

كررت نورا والغضب يتسلل داخلها مثل الموجة: "ربة المنزل سوزى. ماذا تقصدين بهذا؟".

قالت برى: "أنا لا أقصد أى شيء". أخذت تصنع وجوهاً مضحكة لبول ثم رفعت رأسها فى دهشة: "حقاً يا نورا، هدنى من روعك".

قالت مجدداً: "مدبرة المنزل سوزى. أنا فقط أردت أن يبدو المنزل جميلاً فى عيد زواجى. ما العيب فى هذا؟".

تنهدت برى وقالت: "لا شيء. إن كل شيء يبدو رائعاً. ألم أقل لك ذلك؟ وأنا هنا لأخذ الطفل، هل تذكرين هذا؟ لم أنت غاضبة إلى هذه الدرجة؟".

أشاحت نورا بيدها: "لا عليك. إن ديفيد لديه جراحة عاجلة".

انتظرت قليلاً قبل أن تقول: "يا للحظ السيئ".

همت نورا بالدفاع عنه ثم توقفت. وضعت يديها فوق وجنتيها: "لماذا الليلة يا برى؟".

وافقتها برى قائلة: "إنه أمر مؤسف حقاً". تجعد وجه نورا وزمت شفتيها وضحكت برى قائلة: "بالله عليك. كونى أمينة مع نفسك. ربما لا يكون هذا هو خطأ ديفيد. ولكن هذا هو ما تشعرين به، أليس كذلك؟".

قالت نورا: "إنه ليس خطاه. لقد وقع حادث ولكن لا بأس. أنت محقة. إن ذلك أمر مؤسف حقاً".

قالت برى بصوت عطوف: "أعلم ذلك. أنا آسفة يا أختاه". بعد ذلك ابتسمت. "انظرى، لقد جلبت هدية لك ولديفيد. ربما تبهجك قليلاً".

نقلت برى بول إلى الذراع الآخر وبدأت تنقب فى حقيبتها المقلمة كبيرة الحجم مخرجة منها كتباً، وقطعة حلوى، وكومة من النشرات الإعلانية عن معرض سيقام قريباً، ونظارة شمس داخل عبوة جلدية بالية، وأخيراً زجاجة شراب

والتي كانت تتلألأ مثل العقيق الأحمر وهي تصب منها في كأسين.

قالت وهي تعطي نورا كأساً وترفع الآخر في الهواء: "إلى الحب. إلى السعادة الأبدية".

ضحكتنا معاً وشربنا. كانت الأمطار تتقطر داخل الميزاب. بعد سنوات من الآن سوف تتذكر نورا هذه الليلة، ذلك الإحباط والحزن، وأختها برى التي كانت تحمل تذكارات من عالم آخر؛ حذاءها اللامع وقرطها وحيويتها المتقدة مثل شعاع من الضوء. كم كانت هذه الأشياء جميلة في عيني نورا وكم كانت بعيدة المنال. حالة من الاكتئاب - فبعد سنوات من الآن ستدرك تلك الحالة من الضوء الغائم التي كانت تعيش فيها - ولكن لم يكن أحد يتحدث عنه في عام ١٩٦٥. لم يفكر فيه أحد. وبالطبع امرأة مثل نورا لا يجب أن تصاب به؛ حيث إن لديها منزلها وطفلها وزوجها الطبيب. من المفترض لها أن تكون سعيدة.

سألت برى وهي تضع كأسها فوق الطاولة: "هل قمتم ببيع منزلكم القديم؟ هل قبلتم العرض الذي تلقيتموه؟".

قالت نورا: "لا أعرف. إنه أقل مما توقعنا. ولكن ديفيد يود قبوله، فقط للانتهاء من هذا الأمر، ولكني مازلت مترددة. فقد كان منزلنا، وأنا مازلت أمقت التخلي عنه".

فكرت في منزلها الأول، يقف مظلماً وشاغراً بينما يوجد في أرض الفناء لافتة "للبيع"، وشعرت أن العالم يدور بها. أمسكت بالطاولة لموازنة نفسها وأخذت رشفة أخرى.

سألت نورا بقصد تغيير الموضوع: "إذن كيف حال حياتك العاطفية هذه الأيام. كيف تسير الأحوال مع هذا الشاب الذي تقابلي به - ما اسمه - جيف؟".

"آه، هذا الشاب". عبر تعبير مظلم وجه برى وهزت رأسها كما لو أنها ترغب في التخلص منه. "ألم أخبرك؟ لقد عدت إلى

المنزل منذ أسبوعين ووجدته في الفراش - في فراشي - مع تلك الفتاة اللطيفة التي عملت معنا في حملة المحافظ".

"أنا آسفة حقاً".

هزت برى رأسها: "لا تأسفي. فأنا لم أكن أحبه. نحن فقط كنا نلثم بعضنا البعض. على الأقل هذا ما كنت أعتقد".

"لم تكوني تحبينه؟"، كررت نورا هذه الجملة وهي تسمع وتمقت صوت أمها الذي ينم عن عدم الاستحسان والذي خرج من فمها. إنها لم ترغب في أن تكون هذا الشخص، تحتسى أقداحاً من الشاي في المنزل الساكن الذي ترعرعا فيه. ولكنها لم تكن ترغب كذلك في أن تصبح هذا الشخص الذي تتحول إليه تدريجياً، تجلس حزينة في عالم يبدو بلا معنى.

قالت برى: "لا، لم أكن أحبه. لقد ظننت لبرهة أنني قد أحبه. ولكن لم يعد هذا يهم. المهم أنه حول علاقتنا برمتها إلى روتين. وأنا أبغض ذلك أكثر من أي شيء آخر - أن أكون جزءاً من روتين".

وضعت برى كأسها الفارغ على الطاولة ونقلت بول إلى ذراعها الآخر. كان وجهها - غير المتبرج - رقيقاً وذا تكوين عظمي جميل؛ كانت وجنتاها وشفتاها متوردة.

قالت نورا: "أنا لا أستطيع أن أعيش بالطريقة التي تعيشين بها" منذ أن ولد بول وماتت فويب وهي تشعر بالحاجة لأن تكون متيقظة، وكأن لحظة من عدم الانتباه سوف تجعل كارثة تحل بهم. "أنا فقط لا أستطيع القيام بذلك - أكسر جميع القواعد. لا أكرث لأى شيء".

قالت برى في هدوء: "إن العالم لا ينتهى. إن هذا مذهل ولكنه حقيقى".

هزت نورا رأسها: "بل يمكن له أن ينتهى. وذلك فى أى لحظة، فيمكن أن يحدث أى شيء".

قالت برى: "إن لدى اقتراحاً. لماذا لا آخذ بول بأى حال من الأحوال؟ أعنى من يدرى فربما يعود ديفيد مبكراً للحاق بالعشاء. وماذا لو عاد فى منتصف الليل؟ لم لا؟ تستطيعين فى ذلك الحين إلغاء العشاء ودفع الأطباق بعيداً وممارسة الحب فوق طاولة الطعام".

"برى!".

ضحكت برى. "من فضلك يا نورا. أنا أحب أن آخذه".

قالت نورا: "إنه بحاجة لأن يأخذ حماماً".

قالت برى: "لا بأس. أعدك بالأدعه يغرق فى حوض الاستحمام".

قالت نورا: "إن ذلك ليس مضحكاً. ليس مضحكاً على الإطلاق".

ولكنها وافقت أخيراً وحزمت أشياء بول. كان شعره الناعم يلامس وجنة برى وعيناه الداكنتان تراقبانها فى جدية بينما كانت برى تغادر به من الباب الأمامى قبل أن تختفى. ظلت تنظر من النافذة حتى اختفت مصابيح سيارة برى الخلفية بالشارع آخذة معها طفلها. كان ذلك كل ما تستطيع فعله لمنع نفسها من الركض خلفهما. كيف سيكون بإمكانها أن تدع طفلاً ينمو ويخرج فى هذا العالم الخطير الذى لا يعلم أحد ما قد يحدث به، ظلت واقفة طوال عدة دقائق حيث وضعت رقاقة معدنية فوق اللحم وأطفأت الفرن. كانت الساعة السابعة. كانت زجاجة الشراب شبه فارغة. وفى المطبخ - والذى كان هادئاً للغاية لدرجة جعلت نورا تستطيع سماع دقات الساعة - قامت بفتح زجاجة أخرى - والتي كانت غالية وفرنسية - كانت قد اشترتها من أجل العشاء.

كان المنزل هادئاً للغاية. هل حدث أن بقيت وحيدة بالمنزل ولو لمرة واحدة منذ ولادة بول؟ لم تعتقد ذلك. فإنها قد تجنبته مثل لحظات الوحدة والعزلة تلك، لحظات السكون التى تعاودها

قالت لها برى: "أعلم. أعلم ذلك يا حبيبتي". وقد تلاشى الشعور بالغضب الذى كان يساورها منذ قليل وحل محله شعور بالامتنان. فأختها برى تنصت وتستجيب لها دوماً دون أن تريد شيئاً سوى تعبيرها الصادق عن تجربتها. "أنت محقة يا نورا، قد يحدث أى شىء فى أى وقت. ولكنك لست مسئولة إذا لم تسر الأمور على ما يرام. فلا يمكن لك تمضية بقية حياتك تمشين على رؤوس أصابعك محاولة تجنب الكوارث. فذلك لن يجدى نفعاً. وسوف ينتهى بك الحال وقد أضعت الحياة التى لديك".

لم تعرف نورا كيف تجيب على هذا، لذا فقد مدت ذراعيها لتأخذ بول والذى كان يتلوى بين ذراعى برى لشعوره بالجوع، وكان شعره الطويل - الطويل للغاية ولكن نورا لم تتحمل فكرة قصه له - يتحرك معه كلما تحرك وكأنه تحت الماء.

صبت برى مزيداً من الشراب لكلتيهما وأخذت تفاحة من سلة الفاكهة على الطاولة. قطعت نورا شرائح من الجبن والخبز والموز ورشتها فوق الصينية بمقعد بول العالى. كانت ترتشف شرابها أثناء عملها. وتدرجياً أصبح العالم من حولها أكثر وضوحاً وحيوية. لاحظت يدى بول اللتين كانتا تشبهان نجمة البحر الصغيرة - وهو يقوم بنثر الجزر فى شعره. وقد ألقى ضوء المطبخ بظلال خلال درابزين الشرفة الخلفية فوق الأعشاب، كان الضوء يتخذ نماذج مظلمة ومنيعة.

قالت نورا وهى تمنى لو كان باستطاعتها تصوير هذه اللحظات الزائلة والاحتفاظ بها للأبد: "لقد اشتريت كاميرا لديفيد بمناسبة عيد زواجنا. إنه يعمل بكبد منذ أن انتقل لهذه الوظيفة الجديدة. إنه بحاجة إلى بعض الترفيه. أنا لا أصدق أن عليه العمل الليلة".

وكانت تشعر بالليل المظلم لهذه المسافات ومقدرتها على جعلها تختفى.

ولكنها قوة فقدتها - على الأقل الآن وهي في أمس الحاجة لها. في بعض الأحيان حتى بعد ممارستهما العلاقة الحميمة في منتصف الليل وهما لا يزالان معا ويدق قلباهما مقابل بعضهما البعض فإنها كانت تنظر إلى ديفيد وتشعر بأذنيها مملوءتين بزئير الكون البعيد والمظلم.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة الآن. وكان العالم قد أصبح أكثر سكونا عن ذي قبل. عادت إلى المطبخ ووقفت عند الموقد وأخذت قضمات من اللحم المجفف. وقد تناولت أحد أصابع البطاطس من المقلاة مباشرة بعد أن غمرته في الغموس بالشوكة. وكان طبق جبن البروكلي قد تخرى وبدأ يجف؛ وقد تذوقته نورا أيضاً. وقد حرق فمها فتوجهت إلى كأسها. كان فارغاً. شربت كوباً من الماء - وهي تقف قبالة الحوض - ثم كوباً آخر وهي تمسك بحافة الطاولة لأن العالم لم يكن ثابتاً بالنسبة لها. قالت لنفسها "لقد أصبت بالدوار" وهي مندهشة وسعيدة من أجل هذا. فهي لم تسكر قط قبل ذلك بالرغم من أن برى عادت للمنزل ذات مرة من حفلة رقص وتقيأت فوق مشمع الأرضية. وقد أخبرت والدتها أنها تناولت شراباً فاسداً، ولكنها اعترفت لنورا بكل شيء: الزجاجية في الحقيبة الورقية البنية وأصدقائها المجتمعون بين الشجيرات وأنفاسهم التي كانت تكون سحباً صغيرة في الليل.

بدا الهاتف وكأنه على بعد مسافة كبيرة، وبينما كانت تسير، ساورها شعور غريب وكأنها تطفو خارج نفسها. أمسكت بعضادة الباب بيد واتصلت باليد الأخرى، وكانت تضع السماعه بين كتفها وأذنها. أجابت برى عندما رن أول جرس. قالت: "أعلم أنه أنت. إن بول بخير. لقد قرأنا كتاباً وأعطيته حماماً والآن هو نائم".

خلالها أفكارها عن ابنتها المفقودة. لقد ساعدتها قليلاً حفلة التابيين التي أقامتها في ساحة دار العبادة في شمس شهر مارس، ولكن نورا لا يزال يساورها هذا الشعور بوجود ابنتها وحضورها، كما لو أنها قد تستدير لتراها واقفة على الدرجات أو بالخارج فوق المرج.

ضغطت براحه يدها ضد الجدار وهزت رأسها لتخرج منها هذه الأفكار. وبعد ذلك - والكأس في يدها - سارت عبر المنزل بينما تصدر قدمها صوتاً أجوف فوق الأرضيات المصقولة حديثاً وهي تستعرض العمل الذي أنجزته. وفي الخارج كان المطر يهطل بانتظام عاملاً على إعتام أضواء المصابيح بالشارع. تذكرت نورا ليلة أخرى، ليلة تساقط الثلج. فقد أمسكها ديفيد من مرفقها وساعدها على ارتداء المعطف الأخضر والذي أصبح رثاً الآن ولكنها لا تستطيع التخلص منه. كان المعطف مفتوحاً حول بطنها الضخمة وتلاقت عيناها في ذلك الحين. كان خائفاً وجاداً ومشحوناً بالإثارة التي تشوبها العصبية والتوتر؛ في هذه اللحظة شعرت نورا أنها تعرفه كما تعرف نفسها.

ومع ذلك فقد تغير كل شيء. لقد تغير ديفيد. تلك الليالي التي كان يجلس فيها إلى جوارها على الأريكة يتصفح دورياته وجرائده ولن يتصفحها للأبد، فهو لم يعد متواجداً. في حياتها السابقة، حينما كانت تعمل عاملة تلغراف، كانت نورا تلمس المفاتيح والأزرار المعدنية الباردة وتنصت إلى أصوات الجرس البعيدة وصوت طرقعة الاتصال. كانت تقول "انتظر من فضلك" وكانت تسمع صدى الصوت الذي يصل متأخراً، والأشخاص الذين يتحدثون في نفس الوقت ثم يسكتون بسبب الليل الساكن الفاصل بينهم. في بعض الأحيان كانت تنصت إلى أصوات الأشخاص الذين تعلم أنها لن تقابلهم قط وهم يلقون على مسامعها أخبارهم الرسمية: ميلاد أو زفاف أو مرض أو وفاة.

قالت نورا: "آه، حسناً، رائع". وكانت قد عقدت العزم على أن تخبر برى كيف تشعر الآن وكيف أن العالم يدور حولها ولكن بدا لها ذلك الآن بشكل ما سراً.

قالت برى: "ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟".

قالت نورا: "أنا بخير. إن ديفيد لم يعد بعد ولكنني بخير". أغلقت الخط سريعاً وصبت لنفسها كأساً آخر من الشراب ودخلت الشرفة حيث رفعت رأسها صوب السماء. كان هناك ضباب خفيف بالجو. الآن بدا أن الشراب يتحرك داخلها مثل الحرارة أو الضوء وينتشر عبر أطرافها إلى أطراف أصابع يديها وقدميها. وحينما استدارت، بدا لها أن جسمها يطفو مرة أخرى وكأنها تخرج مغادرة إياه. تذكرت سيارتهما وهي تسافر في طرق المدينة الثلجية وكأنها تحلق في السماء وكيف أنها انحرفت قليلاً قبل أن يستعيد ديفيد السيطرة عليها. كان الناس محقين، فهي لا تستطيع تذكر ألم المخاض ولكنها لم تنس قط هذا الشعور الذي راودها بالسيارة بأن العالم يدور وينزلق وكيف كانت يداها تمسكان بلوحة أجهزة القياس الباردة، بينما كان ديفيد يقف بطريقة نظامية عند كل إشارة.

تساءلت أين هو وظهرت الدموع في عينيها فجأة: ولماذا تزوجته بأى حال من الأحوال؟ لماذا أرادها إلى هذا الحد؟ تلك الأسابيع التالية للقائهما كان يأتي إلى شقتها كل يوم ويقدم لها الورد ويأخذها للعشاء وفي جولات بالسيارة عبر المدينة. وفي عشية رأس السنة رن جرس الباب وذهبت لتفتح متوقعة أن تجد برى أمامها. لكنها بدلاً من ذلك فتحت لتجد ديفيد، كان وجهه متورداً من فرط البرودة وكان يحمل فوق ذراعيه صناديق مغلقة. كان الوقت متأخراً كما قال ولكنه طلب منها أن تذهب معه في رحلة بالسيارة.

قالت: "لا، أنت مجنون!"، ولكن طوال الوقت كانت تضحك من جموحه، ضحكت وعادت للخلف ودعته للدخول، هذا

الرجل الذى وقف على عتبة بيتها وهو يحمل الزهور والهدايا. كانت مندهشة ومسرورة في الوقت ذاته. لقد مرت عليها لحظات وهي تراقب الآخرين يذهبون إلى حفلات نادى الفتيات، أو أوقات كانت تجلس فيها فوق مقعدها بالحجرة الخالية من النوافذ لشركة الهاتف في حين كانت الزميلات يخططن لحفلات زفافهن بجميع تفاصيلها بداية من الصديريات التى سيرتدينها إلى نعناع الحفل، بينما كانت هي تؤمن في هدوء وتحفظ بأنها ستبقى بدون زواج طوال حياتها. ومع ذلك كان ديفيد وسيماً ويعمل طبيباً ويقف في مدخل شقتها ويقول: "تعالى من فضلك، إن هناك شيئاً خاصاً أريدك أن تريه".

كانت ليلة صافية وكانت النجوم متوهجة في السماء. جلست نورا على مقعد سيارة ديفيد القديمة الفينيل العريض. كانت ترتدي ثوباً أحمر صوفياً وشعرت بأنها جميلة، وكان الهواء منعشاً وبارداً وكانت يدا ديفيد فوق عجلة القيادة بينما تشق السيارة طريقها عبر الظلام خلال البرد والطرق التى تضيق أكثر فأكثر إلى أن وصل إلى مكان مفتوح لم تستطع التعرف عليه. أوقف السيارة بجوار طاحونة دقيق قديمة. خرجا من السيارة بينما كان صوت الماء المتدفق يحيط بهما. فكان الماء الأسود يعكس ضوء القمر ويتساقط فوق الأحجار عاملاً على دوران عجلة الطاحونة الضخمة. كان المبنى معتماً أسفل السماء المعتمة، والنجوم الباهتة، وكان الهواء مليئاً بأصوات تدفق الماء وسريانه.

سأل ديفيد وهو يصيح فوق الجدول: "هل تشعرين بالبرد؟"، ضحكت نورا وهي ترتعد وقالت: "لا، لا، أنا بخير".

صاح وصوته يرن ويتساقط مثل مياه الشلال: "ماذا عن يدك؟ إنك لم تجلبى قفازاً".

كانت الكاميرا مدمجة وذات حجم متوسط. وقد ظلت نورا تفكر طوال أسابيع في هدية مناسبة حتى رأت هذه الكاميرا بين المعروضات في متجر سيرز. كانت مصنوعة من الكروم الأسود البراق وذات أقراص معقدة ورافعة وأرقام منقوشة حول الحلقات، كانت تلك الكاميرا تشبه أدوات ديفيد الطبية. وقد أمطرها البائع - الشاب والمتلهف للبيع - بوابل من المعلومات التقنية عن الثقوب وعدسات الزاوية العريضة. وكانت تلك المصطلحات تتدفق فوقها مثل الكثير من الماء ولكنها أحبت وزن الكاميرا بين يديها وتركيبها اللطيف والطريقة التي بدا بها العالم دقيقاً حينما نظرت خلال عدستها.

وقد قامت بتردد الآن بدفع الرافعة الفضية. ضغطت على الزر والذي أصدر صوتاً عالياً دوى بالغرفة حينما تحرر مصراع الكاميرا. أدارت القرص الصغير دافعة الفيلم للأمام - وقد تذكرت استخدام البائع لهذه العبارة "ادفعي الفيلم للأمام" بينما كان صوته يرتفع قليلاً وسط ضوضاء المتجر. نظرت خلال العدسة إلى المائدة المحطمة مرة أخرى ثم أدارت قرصين مختلفين لضبط التركيز. وهذه المرة حينما ضغطت على المصراع، انفجر الضوء عبر الجدار. بعد أن طرقت بعينيها أدارت الكاميرا وتفحصت المصباح الذي أصبح الآن أسود ومزبداً. استبدلته مما عمل على حرق أصابعها ولكنها الآن لم تكن تشعر بالألم. وقفت ونظرت في الساعة، كانت التاسعة وخمساً أربعين دقيقة مساءً.

كانت الأمطار تهطل برفق وانتظام. كان ديفيد قد ذهب إلى العمل سيراً على الأقدام، وقد تخيلته يمشي مجهداً عائداً إلى المنزل خلال الشوارع المظلمة. وفي اندفاع ارتدت معطفها وأخذت مفاتيح سيارتها - فقد قررت الذهاب إلى المستشفى ومفاجأته. كانت السيارة باردة. خرجت من الممر الضيق وهي تتلمس طريقها بحثاً عن الحرارة، وقد استدارت في الاتجاه الخاطئ

صاحت بدورها: "أنا بخير"، ولكنه كان بالفعل قد أخذ يديها بين يديه ووضعهما على صدره وبدأ يدفنهما بين قفازيه والصوف المرقط لمعطفه.

قالت له: "إن المكان جميل هنا!" فضحك. بعد ذلك اتكأ للأسفل وقبلها تاركاً يديها ووضعا يديه داخل معطفها ثم أعلى ظهرها. ظل الماء يتدفق محدثاً صدى أثناء سقوطه فوق الصخور. صاح بصوت بدا أنه جزء من الليل ويسرى مثل جدول الماء حيث كانت كلماته واضحة ومع ذلك صغيرة وضئيلة وسط الأصوات الأخرى: "نورا! هل تتزوجيني؟".

ضحكت تاركة رأسها يسقط للخلف بينما هواء الليل يتدفق فوقها.

صاحت وهي تضغط بيديها ضد معطفه ثانية: "نعم، أتزوجك!".

وضع خاتماً بإصبعها، كان خاتماً رفيعاً مصنوعاً من الذهب الأبيض والذي كان يلائم إصبعها تماماً وكان يطوق ماسته المركزية حجران صغيران من الزمرد. وقد قال لاحقاً إنه اختاره لأنه يتلاءم مع لون عينيها والمعطف الذي كانت ترتديه حينما التقيا للمرة الأولى.

كانت بالداخل الآن تقف عند باب حجرة الطعام وتدير هذا الخاتم حول إصبعها. سقطت القصاصات الورقية. وقعت إحداها فوق وجهها وسقطت الأخرى في كأسها. أخذت نورا تراقب وهي مأسورة انتشار البقعة ببطء للأعلى. كانت البقعة كما لاحظت تحمل نفس لون المناديل القماشية. إنها ربة المنزل سوزي في الواقع، لقد كان وصفاً مناسباً لها. تناثر الشراب من كأسها فوق غطاء المائدة كذلك مبقعاً التغليف المقلم للهدية التي اشترتها لديفيد. التقطتها وفي حركة متهورة مزقت التغليف من فوقها، قالت لنفسها: "أنا حقاً مخمورة مغيبة".

كعادتها. لكن حتى بعدما أدركت خطأها فقد ظلت تسير في نفس الشوارع الضيقة المظرة التي تؤدي إلى منزلهم القديم حيث كانت قد زينت غرفة الطفل وهي تنتظره في لهفة، وحيث كانت تجلس في الظلام لإرضاع بول. وكانت قد اتفقت مع ديفيد على الانتقال ولكن الحقيقة هي أنها لا تستطيع تحمل فكرة بيع هذا المكان. فهي مازالت تذهب إلى هناك كل يوم تقريبا. فمهما كانت الحياة التي عرفتتها ابنتها ومهما كانت التجربة التي عايشتها معها، فقد حدثت في هذا المنزل.

وفيما عدا كونه مظلماً فقد بدا المنزل كما هو دون أى تغيير: الشرفة الأمامية ذات العواميد البيضاء الأربعة، الحجر الجيري المنحوت، والمصباح الوحيد. وكان يوجد إلى جواره منزل السيدة مايكل والذي يبعد عنه فقط بضعة ياردات، وكانت الآن تتحرك داخل مطبخها تغسل الأطباق وتحقق بالليل؛ وكان هناك كذلك السيد بينيت يجلس في مقعده وستائر غرفته مفتوحة والتلفاز يعمل. كانت نورا شبه مؤمنة - بينما كانت تصعد الدرجات - أنها مازالت تعيش هنا ولكنها فتحت الباب لتجد أمامها غرماً عارية وشاغرة وصغيرة. وبينما كانت تسير داخل المنزل البارد بذلت نورا جهداً كبيراً لتصفية ذهنها. فقد بدا تأثير الشراب قوياً للغاية الآن فقد كانت تعاني صعوبة في ربط اللحظات ببعضها البعض. كانت تمسك بكاميرا ديفيد في إحدى يديها. كان هناك خمس عشرة صورة متبقية ومصباح وميض إضافي في جيبها. التقطت صورة للنجفة وهي تشعر بالرضا حينما أضاء المصباح لأنها الآن ستظل محتفظة بالصورة معها؛ فإنها لن تستيقظ في منتصف الليل في خلال عشرين عاماً دون أن تستطيع تذكر هذا التفصيل، تلك الدلائل الذهبية الجميلة.

شرعت في السير من غرفة لأخرى وهي لاتزال تترنح ولكن يحركها الحافز، فكانت تلتقط صوراً للنوافذ والمصابيح

والتجزيعات الدائرية للأرضية. فقد بدا لها الأمر مهماً أن تسجل كل تفصيل. وبينما كانت بغرفة المعيشة انزلق أحد المصابيح الفارغة من يدها وتحطم وحينما عادت أدراجها بالغرفة، اخترق الزجاج كعبها. أخذت تنظر لبرهة لقدمها الراقدة داخل الجورب وهي سعيدة ومندهشة من درجة تأثير الشراب عليها - فإنها لابد أن تكون قد تركت حذاءها المبلل عند الباب الأمامي، من باب العادة. تجولت داخل المنزل مرتين إضافيتين وهي تلتقط صوراً لمفاتيح الكهرباء والنوافذ والمخنة حيث كان الغاز يصعد للطابق الثاني. وكان ذلك فقط وهي في طريقها للطابق السفلي حينما أدركت أن قدمها كانت تنزف تاركة بقعاً دموية فوق الأرض: قلوب مقيقة وأشكال دموية صغيرة. شعرت نورا بالصدمة وبالسعادة أيضاً لأجل هذا الدمار الذي استطاعت إحداثه.

وجدت حذاءها وغادرت المنزل. كان كعبها يخفق وهي تدخل السيارة بينما كانت الكاميرا لا تزال تتدلى من معصمها. لاحقاً لن تتذكر الكثير عن هذه الجولة بالسيارة، فقط الشوارع الضيقة المظلمة والريح التي تتخلل أوراق الشجر وانعكاس الضوء على البركة والماء الذي يتطاير أسفل إطارات سيارتها. ولن تتذكر اصطدام المعدن بالمعدن، بل فقط التطاير المفاجئ والمفزع للصفحة المبللة بفعل المطر معلقة طوال دقيقة طويلة قبل أن تبدأ في السقوط. وقد تذكرت أنها اصطدمت بغطاء محرك السيارة وقد خرجت لتكسر حاجب الريح الزجاجي؛ لقد تذكرت قفز السيارة فوق الحاجز الحجري وتوقفها أسفل شجرة البلوط. ولم تتذكر اصطدام حاجب الريح ولكنه كان يبدو مثل شبكة العنكبوت، فكانت خيوط معقدة تتشعب منه وكانت رقيقة وجميلة ودقيقة. وعندما وضعت يدها على جبهتها جاءت ملطخة بالدم.

قالت بعدما أصبحت أكثر حرصاً على ما تقول: "لا أنا بخير حقاً. سوف أعود للمنزل الآن. سوف يعتنى زوجى بهذا الجرح. إنه حقاً بسيط".

تردد الرجل طوال دقيقة - وكانت أضواء الشارع تعكس لوناً فضياً فى شعره - قبل أن يهز كتفيه ويومئ ويصعد مجدداً فوق الحاجز الحجري. قادت نورا بحرص وببطء مستخدمة إشارات الانحراف بالشارع الشاغر وفى مرآة الرؤية الخلفية رأت أنه وهو عاقد ذراعيه ويراقبها إلى أن انحرقت واختفت.

كان العالم هادئاً بينما كانت تقود عائدة أدراجها خلال الشوارع المألوفة وقد بدأت آثار الشراب فى الانحسار. كانت جميع مصابيح منزلها الجديد مضاءة بالأعلى والأسفل وكان الضوء يتسرب للخارج مثل السائل، شئ تدفق بشدة ولا يمكن احتواؤه بعد الآن. أوقفت السيارة عند المنزل وخرجت ووقفت لدقيقة فوق العشب الرطب بينما يسقط المطر ويتقطر فوق شعرها ومعطفها. وفى الداخل، لمحت ديفيد يجلس فوق الأريكة. كان بول بين ذراعيه نائماً بينما تستقر رأسه فوق كتف ديفيد. فكرت كيف تركت كل شئ فى حالة من الفوضى، الشراب المسكوب والقصاصات المتدلية واللحم الذى فسد. ارتدت معطفها وهرعت أعلى الدرجات.

قابلها ديفيد عند الباب وهو لا يزال يحمل بول: "نورا! نورا، ماذا حدث لك؟ إنك تنزفين".

قالت وهى ترفض يد ديفيد التى امتدت لمساعدتها: "أنا بخير. أنا بخير". كانت قدمها مجروحة ولكنها كانت سعيدة بهذا الألم الحاد الذى كان يقابل الخفقان فى رأسها، فقد بدا أنه يجرى خلالها مباشرة فى خط ويحافظ على ثباتها. كان بول نائماً وكانت أنفاسه منتظمة وبطيئة. وضعت راحة يدها برفق فوق ظهره الصغير.

سألت: "أين برى؟".

لم تخرج من السيارة. كانت صفيحة القمامة تتدحرج فى الشارع. وكانت أشكال داكنة - قطط - تحوم حول القمامة المبعثرة. أضيئت المصابيح فى المنزل الذى يوجد على يمينها وخرج منه رجل يرتدى روبا وخفا والذى هرع نحو الرصيف إلى السيارة.

قال وهو ينحن للأسفل لينظر عبر النافذة التى أنزلتها ببطة: "هل أنت بخير؟". لفح هواء الليل البارد وجهها. "ماذا حدث هنا؟ هل أنت بخير؟ إن جبهتك تنزف"، ثم أخرج منديلاً من جيبه.

قالت نورا وهى تبعد منديله الذى كان مجعداً بطريقة تثير الشك فى مدى نظافته: "إنه جرح بسيط". وضعت راحة يدها برفق فوق جبهتها ثانية ومسحت خطأ آخر من الدم. وقد ارتطمت الكاميرا التى مازالت تتدلى من رسغها بعجلة القيادة. أخرجتها من يدها ووضعتها بحرص فوق المقعد إلى جوارها. قالت للغريب "إنه عيد زواجى. إن كعبي ينزف كذلك".

سأل الرجل: "هل أنت بحاجة لرؤية طبيب؟". قالت نورا: "إن زوجى طبيب". وشرعت فى مراقبة تعبيرات وجه الرجل المتشككة مدركة أنها ربما لم تكن تتحدث بشكل منطقي ومترابط من قبل وربما أنها لا تتكلم بشكل مترابط الآن. قالت بحزم: "إنه طبيب. سوف أذهب إليه".

قال الرجل: "هل أنت واثقة أن باستطاعتك القيادة؟ لماذا لا تتركين السيارة هنا وتدعيني أتصل بالإسعاف؟".

ترغرت عيناها بالدموع لأجل كل هذا العطف الذى أغرقها به ولكنها فى ذلك الحين تخيلت ما قد يحدث، السرينة والأضواء والأيدى الرقيقة، كيف سيأتى ديفيد مسرعاً ليجدها فى غرفة الطوارئ مجمدة الملابس وتنزف وتترنح من أثر الشراب: فضيحة وعار.

قال: "أتمنى ألا تكون إصابة الشخص الآخر سيئة"، وقد تخيلت أنه ربما يقول نفس الشيء للمرضى الذين يأتون إلى عيادته: بعض المزاح والكلام التافه الذى يهدف إلى تشتيت المريض عن العمل الذى يقوم به.

قالت وهى تفكر فى الرجل ذى الشعر الفضى الذى كان ينحنى أمام نافذتها: "لم يكن هناك أحد فى خطر. لقد مرت قطعة أمامى وأفزعتنى مما أدى إلى انحراف السيارة". وأضافت بينما كان يضع مطهراً: "ولكن حاجب الريح - آه! ديفيد، إن هذا يؤلم".

قال وهو يضع يده فوق كتفها لدقيقة: "لن يستمر الألم طويلاً". بعد ذلك ربض أمام حوض الاستحمام وأخذ قدمها فى يده.

رأته وهو يخرج الزجاج. كان حريصاً وهادئاً، ومستغرقاً فى أفكاره. وقد أدركت أنه يعتنى بأى مريض بنفس هذه الطريقة المحترفة.

همست وهى مشتاقة لإزاحة الحاجز بينهما، هذا الحاجز الذى قامت هى ببنائه: "أنت تعاملنى بعطف كبير".

هز رأسه وتوقف عما كان يفعل ونظر للأعلى. كرر كلامها ببطء: "أعاملك بعطف شديد. لماذا ذهبت إلى هناك يا نورا، إلى منزلنا القديم؟ لماذا لا تحاولين النسيان؟".

قالت على الفور وقد فاجأتها الثقة والحزن اللذان يملآن صوتها: "لأنه يمثل لى آخر مكان تركناها فيه".

وفى تلك اللحظة التى سبقت إدارته لوجهه، ظهر على وجه ديفيد تعبير ينم عن التوتر والغضب والذى كبّحه سريعاً.

"ماذا تريد منى أن أفعل أكثر من هذا؟ لقد ظننت أن هذا المنزل سيجعلنا سعداء. إن بإمكانه أن يجعل أى أحد سعيداً يا نورا".

قال ديفيد: "لقد ذهبت للبحث عنك". نظر إلى حجرة الطعام وتبعته هى تحديقته ورأت العشاء المحطم والقصاصات التى تغرق الأرضية. "حينما لم تعودى إلى المنزل أصبت بالذعر واتصلت بها، فأحضرت بول وذهبت للبحث عنك".

قالت نورا: "لقد ذهبت إلى المنزل القديم. وقد اصطدمت بصفيحة قمامة". وضعت يدها فوق جبهتها وأغلقت عينيها.

قال بهدوء: "لقد كنت تشربين".

"كنت أتناول الشراب مع العشاء. فأنت قد تأخرت".

"إن هناك زجاجتين فارغتين يا نورا".

"لقد كانت برى هنا. لقد انتظرنا طويلاً".

أوماً. "إن هؤلاء الأولاد الليلة، هؤلاء الذين أصيبوا فى الحادث؟ لقد كان الشراب يملأ مكان الحادث. لقد أصبت بالذعر يا نورا".

"أنا لم أكن مخمورة".

رن جرس الهاتف فأخذت السماعة والتى كانت ثقيلة فى يدها. كانت برى، كان صوتها ناعماً ورقيقاً كالماء تريد أن تعرف ماذا حدث. قالت نورا محاولة التحدث بهدوء ووضوح: "أنا بخير". كان ديفيد يراقبها ويدرس الخطوط الداكنة على راحة يدها حيث استقر الدم وجف. وضعت أصابعها فوقها ثم استدارت.

قال برفق حينما أغلقت الخط وهو يلمس كتفها: "تعالى إلى هنا".

صعدا الدرج معاً. وبينما كان ديفيد يضع بول فى مهده، خلعت نورا جوربها وجلست على حافة حوض الاستحمام. بدا لها العالم فى ذلك الحين أوضح وأكثر ثباتاً، وقد طرقت أمام الأضواء الساطعة محاولة ترتيب أحداث الليلة على النحو الصحيح. وحينما جاء ديفيد إليها، أبعد شعرها عن جبهتها وكانت ملامح وجهه رقيقة ودقيقة وشرع فى تنظيف الجرح.

وقد جعلتها هذه النبوة تشعر بالخوف؛ فإنها قد تفقده هو أيضاً. خفقت قدمها وكذلك رأسها وأغلقت عينيها لبرهة وتخيلت هذا الموقف الذى يعايشانه حالياً بسببها. فهي لا تريد أن تظل محبوسة دوماً فى ظلام هذه الليلة الساكنة بينما يقف ديفيد بعيداً عنها دون أن تستطيع الوصول إليه.

قالت: "حسناً. سوف أتصل بالسمسار العقارى. يجب أن نقبل هذا العرض".

انسدل ستار على الماضى بينما كانت تتحدث، وتكون حاجز هش وضعيف مثل الثلج. وسوف ينمو ويزداد قوة. سوف يصبح غير قابل للاختراق. شعرت نورا بهذا وهو يحدث وخافت من ذلك، ولكنها الآن كانت تخاف مما قد يحدث إن انهار أكثر من أى شىء آخر. نعم، إنهم سوف ينتقلون ويمضون قدماً فى طريقهم. تلك ستكون هديتها لديفيد وبول.

وسوف تظل ذكرى فويب حية فى قلبها.

لف ديفيد قدمها فى منشفة ثم جلس على كعبيه.

قال بمزيد من الرقة الآن بعد أن أذعنت: "اسمعى، أنا لا أحب أن نعود إلى هناك ثانية، ولكن باستطاعتنا ذلك. فإن كنت تريدين ذلك حقاً يمكننا أن نبيع هذا المنزل ونعود لمنزلنا القديم". قالت: "لا. إننا نعيش هنا الآن".

قال: "ولكنك تعيسة. من فضلك لا تكونى تعيسة. أنا لم أنس يا نورا. لم أنس عيد زواجنا ولم أنس ابنتنا ولم أنس أى شىء".

قالت: "آه يا ديفيد. لقد تركت هديتك فى السيارة". كانت تفكر فى الكاميرا، أقراصها الدقيقة. كان مكتوباً على عبوتها بحروف بيضاء مائلة "حافضة الذكريات"؛ وهذا هو السبب - كما أدركت - الذى جعلها تشتريها، حتى تقوم بتسجيل كل لحظة، حتى لا تنسى أبداً.

قال وهو ينهض: "لا بأس. انتظري هنا".

هرع أسفل الدرج. ظلت تجلس على حافة الحوض طوال دقيقة ثم وقفت ومشت مترنحة عبر الردهة حتى وصلت لغرفة بول. كانت السجادة زرقاء داكنة وسميكة أسفل قدميها. وكانت قد رسمت سحباً فوق الجدران الزرقاء الشاحبة وعلقت مجموعة من النجوم فوق المهد. كان بول ينام أسفل النجوم والغطاء مدفوع بعيداً، بينما كانت يدها الصغيرتان مبسوطتين. قبلته برفق ودثرته واضعة إصبعها الإبهام داخل راحة يده. كان قد كبر الآن وبدأ يسير ويتحدث. تلك الليالى منذ عام مضى حينما كانت ترضع بول وكان ديفيد يملأ المنزل بالنرجس البرى، أين ذهبت؟ تذكرت الكاميرا وكيف أنها سارت خلال منزلهم الشاغر والحماسة والعزم يملأها لتسجيل كل تفصيل.

أتى ديفيد إلى الغرفة ووقف وراءها: "نورا! أغلقى عينيك". أومض خط بارد فوق جلدتها. نظرت للأسفل لترى زمرداً، سلسلة طويلة من الأحجار الداكنة، معلقة فى حبل ذهبى فوق رقبتها. وقد قال إنه اشتراه لأنه يتلاءم مع الخاتم، ولأنه يتلاءم مع عينيها.

همست وهى تلمس الذهب الدافئ: "إنه جميل يا ديفيد". وضع يديه فوق كتفيها فى ذلك الحين، وللحظة كانت تقف مجدداً وسط صوت الماء المتدفق للطاحونة والسعادة تغمرها شأنها شأن الليل. قالت لنفسها: "لا تتنفسى. لا تتحركى". ولكن هذا لم يوقف أى شىء. ففى الخارج كان المطر يسقط برفق وكانت البذور تتحرك فى الأرض السوداء المبللة. تنهد بول وتحرك فى فراشه أثناء نومه. إنه سوف يستيقظ غداً وينمو ويتغير. إنهم سوف يعيشون حياتهم يوماً بيوم، بحيث يأخذهم كل يوم خطوة أبعد عن ابنتهم المفقودة.

استيقظت لتجد نفسها واقفة وهي تحمل فويب بين ذراعيها،
والتي لحسن الحظ وبشكل إعجازي لم تصب بضرر.
أصدرت الدرجات صريراً ثم ألواح الأرضيات وبعد ذلك
اقترب الصوت وانفتح الباب الأرجواني ليتدفق الهواء البارد
بالداخل. دخلت دورو التي كانت ترتدى روبا حريراً أسود فوق
رداء نومها، وكان شعرها الرمادي ينسدل حول كتفيها.
سألت: "هل حالتها سيئة؟ إن سعالها مروع حقاً. هل أحضر
السيارة؟".

"لا أعتقد هذا. ولكن هل يمكنك أن تغلقى الباب؟ فالبخار
يساعدها على التحسن".

أغلقت دورو الباب وجلست على حافة حوض الاستحمام.
قالت كارولين بينما أنفاس فويب تصطدم برقبتها: "لقد
أيقظناك. أنا آسفة".

هزت دورو كتفيها: "أنت تعرفين كيف حالى والنوم. لقد
كنت مستيقظة أقرأ".

سألت كارولين: "هل قرأت أى شيء مثير؟" مسحت بطرف
روبها زجاج النافذة؛ كان ضوء القمر يسقط فوق الحديقة أسفل
ثلاثة طوابق ويملاً الزجاج مثل الماء.

"إنها مجلات علمية. جميعها ممل للغاية، حتى بالنسبة لى.
لقد كان هدفى هو النوم".

ابتسمت كارولين. كانت دورو حاصلة على دكتوراه فى
الفيزياء؛ وكانت تعمل فى القسم الذى كان والدها يرأسه
بالجامعة. ليو مارش، رجل نابغ وشهير، والذى كان فى
الثمانينات من عمره الآن، وكان قوى البنية ولكن يعانى من
هفوات بالذاكرة والمشاعر. ومنذ أحد عشر شهراً مضت، قامت
دورو باستئجار كارولين لمجالسته.

كانت تلك الوظيفة بمثابة الهدية، كانت تعرف ذلك. فإنها
كانت قد خرجت من قناة فورت بيت إلى أعلى الجسر العالى فوق

مارس ١٩٦٥

اندفع الماء من الدش وتصاعدت الأبخرة مكونة ضباباً
على المرآة والنافذة، وسحباً فوق القمر الشاحب. كانت كارولين
تذرع الحمام الأرجوانى الصغير جيئةً وذهاباً وهي تحمل فويب.
كانت تتنفس بسرعة وكانت ضربات قلبها متلاحقة. همست
كارولين: "أرجو أن تتحسن حالتك يا حبيبتى" ومررت يدها فى
شعرها الأسود الناعم. "أرجو أن تتحسن حالتك يا حبيبتى".
وقفت وهي متعبة ونظرت إلى القمر، كان بصيص من ضوءه
يتخلل أفرع شجرة الجميز، وقد شرعت فويب فى السعال ثانية
بشكل عميق من داخل صدرها. أصبح جسدها أكثر تصلباً أسفل
يدى كارولين بينما كانت تسعل الهواء من حلقها المتقلص بشكل
حاد ويصاحبه صفير. لقد كانت مصابة بحالة تقليدية من
الخناق. مررت كارولين يدها على ظهر فويب والذى كان أكبر من
يدها بقدر بسيط. وعندما انتهت نوبة السعال، بدأت تسير ثانية
حتى لا تنام وهي واقفة من فرط التعب. فأكثر من مرة هذا العام

نهر مونونجاليا الذى تبزغ خلاله القلال الزمردية وحيث ظهرت مدينة بتسبرج أمامها فجأة متألقة وكبيرة وجميلة حتى أنها تنهدت وأبطأت القيادة خوفاً من فقدان السيطرة على السيارة.

وطوال شهر طويل، ظلت تعيش فى فندق رخيص على حافة المدينة بينما تقوم برسم دوائر حول الوظائف الخالية ومراقبة مواردها المالية وهى تتضاءل. وبحلول الوقت الذى تقدمت فيه لهذه الوظيفة، كان شعورها بالنشاط والخفة قد تحول إلى زعر. دقت الجرس ووقفت بالشرفة تنتظر. كانت نباتات النرجس البرى الصفراء البراقّة تتمايل داخل عشب الربيع الطويل؛ وبالمنازل المجاور كانت امرأة ترتدى سترة منزلية مقلمة تزيع السخام من فوق عتبتها. والأشخاص بهذا المنزل لم يكتروا لهذا؛ كان مقعد السيارة الخاص بفويب يستقر فوق الرمال التى تكونت أمام الباب على مدى عدة أيام. وكان الغبار متراكماً مثل الثلج الأسود مما جعل آثار أقدام كارولين تبدو واضحة للغاية خلفها.

وحينما فتحت دوروثى مارش - التى كانت نحيفة وطويلة وترتدى حلة رمادية - أخيراً الباب تجاهلت كارولين تحديقها فى فويب ورفعت مقعد السيارة وخطت داخل المنزل. جلست على حافة مقعد غير ثابت. كانت وسائده القرمزية القطيفة قد بهت لونها لتصبح وردية فيما عدا بعض الأماكن الداكنة بالقرب من خشبات قائمة التنجيد. جلست دوروثى مارش قبالتها على أريكة مصنوعة من جلد أصبح مشققاً الآن ومدعومة من أحد جانبيها بقالب حجرى. أشعلت سيجارة. وطوال دقائق عدة أخذت تدرس كارولين، عينيها الزرقاوين المليئتين بالذكاء والحيوية. لم تقل أى شيء على الفور. بعد ذلك قامت بتنقية صوتها وهى تنفث الدخان.

قالت: "لأكون صريحة معك، أنا لم أكن أعرف أن معك طفلة رضية".

أخرجت كارولين سيرتها الذاتية: "لقد ظللت أعمل ممرضة طوال خمسة عشر عاماً. وأنا أتمتع بقدر كبير من الخبرة فى هذا المجال".

أخذت دوروثى مارش الأوراق فى يدها الحرة وتفحصتها. "نعم، يبدو أنك تتمتعين بقدر كبير من الخبرة. ولكن سيرتك لا تتضمن أين كنت تعملين قبل ذلك. إنك لست دقيقة".

ترددت كارولين. فقد أجابت بعشر إجابات مختلفة على هذا السؤال فى عشر مقابلات عمل مختلفة فى الأسابيع القليلة الماضية ولكنها جميعاً لم تجد نفعاً.

قالت بتهور: "هذا لأننى هربت. هربت من والد فويب. ولهذا لا أستطيع أن أخبرك من أين أنا، ولا أستطيع أن أعطيك أية مرجعيات. وهذا هو السبب الوحيد الذى يجعلنى بدون عمل الآن. أنا ممرضة ممتازة وستكونين محظوظة حقاً إن عملت لديك وبهذا الراتب الذى تعرضينه على".

عندما سمعت هذه العبارة الأخيرة ضحكت دوروثى مارش ضحكة حادة ومفاجئة. "يا لها من عبارة جريئة! يا عزيزتى، إنها وظيفة تشمل الإقامة. فما الذى يجعلنى أخاطر من أجل شخص غريب تماماً لا أعرف عنه شيئاً؟".

قالت فى إصرار وهى تفكر فى غرفة الفندق ذات ورق الحائط المقشر والسقف المبقع، تلك الغرفة التى لا تستطيع دفع أجرتها ولو لليلة إضافية أخرى: "سوف أبدأ العمل الآن مقابل مكان للإقامة والطعام. فسوف أعمل لديك طوال أسبوعين وبعد ذلك تقريرين إن كنت ستبقيننى فى العمل أم لا".

ظلت السيجارة تحترق فى يد دوروثى مارش. نظرت إليها ثم أطفأتها فى منفضة رماد السجائر الممتلئة.

قالت: "ولكن كيف ستستطيعين تدبر أمورك؟ خاصة أن لديك طفلة؟ إن أبى ليس صبوراً. إنه لن يكون مريضاً صبوراً، هذا ما أوكدته لك".

أجابتها كارولين: "أسبوع واحد. وإن لم يعجبك عملي في خلال هذا الأسبوع فسوف أغادر".

والآن مضى عام تقريباً. وكانت دورو تقف في الحمام المليء بالبخار. كان منقوشاً على كمي روبها الأسود الحريري طيور استوائية براقّة والتي تمتد حتى مرفقيها. "دعيني آخذها. إنك تبدين متعبة يا كارولين".

كان لون فويب وأزيها قد تحسناً؛ فأصبحت وجنتاها متوردتين قليلاً، أعطتها كارولين لدورو شاعرة ببرودة مفاجئة بعد ذلك.

سألت دورو: "كيف حال ليو اليوم؟ هل ضايقتك؟".

ظلت كارولين صامتة لدقيقة. كانت متعبة للغاية، فقد سافرت طويلاً خلال هذا العام وقد تغيرت حياتها المنعزلة تماماً. فبطريقة ما وصلت إلى هذا الحمام الأرجواني الصغير، وأصبحت أما لفويب، ومرافقة لرجل عبقرى مصاب بتشوش ذهني، وصديقة لهذه المرأة دورو مارش، بعد أن كانتا غريبتين عن بعضهما البعض منذ عام مضى، امرأتان ربما تكونان قد مرتا ببعضهما قبل ذلك في الطريق دون أن تنظر إحداهما للأخرى مرة أخرى، امرأتان أصبحت حياتهما منسوجتين معاً بفعل متطلبات حياتيهما.

"لقد رفض أن يأكل، واتهمني بأنني وضعت مسحوق تنظيف في البطاطس المهروسة. لذا فقد كان يوماً تقليدياً".

قالت دورو برقة: "إن الأمر ليس شخصياً كما تعرفين. إنه لم يكن يوماً على هذا الحال".

أغلقت كارولين صنبور الماء وجلست على حافة حوض الاستحمام الأرجواني.

أومأت دورو للنافذة المليئة بالبخار. كانت يدا فويب شاحبتين مثل النجوم فوق روبها. "قديماً كان ذلك هو فناء منزلنا، هناك عند التل. قبل أن يأخذه ليحولوه إلى طريق سريع. وكانت طيور البلشون تعيش في الأشجار، هل كنت تعرفين ذلك؟ وقد قامت أُمي بزراعة نبات النرجس البري في أحد فصول الربيع، والتي بدت مثل مئات المصابيح. كان أبى يعود من العمل في القطار كل يوم في السادسة، وكان يذهب إلى هناك مباشرة ويقطف لها بعض الزهور. إنك لا تعرفين كيف كان".

قالت كارولين برقة: "أعرف ذلك".

ساد الصمت لدقيقة. كان ماء الصنبور يتدفق والبخار يتصاعد.

قالت دورو: "أعتقد أنها نامت. هل ستكون بخير؟".

"نعم، أعتقد هذا".

قالت دورو بنبرة أكثر جدية الآن: "ماذا بها يا كارولين؟ أنا لا أعرف شيئاً عن الرضع يا عزيزتي بل ولا أستطيع أن أستشعر أن ثمة ما يسوء بها. إن فويب جميلة ولطيفة ولكن هناك ما يسوء بها، أليس كذلك؟ لقد بلغت عامها الأول تقريباً وما زالت تتعلم فقط كيف تجلس".

نظرت كارولين إلى القمر عبر المرأة المغطاة بالبخار وأغلقت عينيها. حينما كانت فويب رضية بدا سكونها وكأنه هدية ونعمة أكثر من أي شيء آخر وتركت كارولين نفسها تؤمن بأنها طفلة طبيعية. ولكن بعد انقضاء ستة أشهر عندما كانت فويب تنمو ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لسنها وكانت حركات ذراعيها بطيئة، حينما كانت تستطيع تتبع سلسلة من المفاتيح وتلوح بذراعيها أحياناً ولكنها لا تستطيع قط مد يدها للإمساك بها، حينما لم تتعلم كيف تجلس وحدها - بدأت كارولين تأخذ فويب إلى المكتبة في يوم إجازتها. وعند طاولات البلوط الضخمة لمكتبة الكارنيجي وفي الحجرات الواسعة جيدة التهوية وعالية

السقف كانت تكدس الكتب والمقالات إلى جوارها وتقرأ وتخوض رحلات مقيمة داخل سجلات المستشفيات وعبر الحالات التي عاشت فترات قصيرة بلا أمل. كان ذلك شعوراً غريباً وكأن حفرة تزداد اتساعاً في معدتها مع كل كلمة تقرأها. ومع ذلك كانت فويب تجلس أمامها في مقعد السيارة تبتسم وتلوح بيديها وتتنهد، إنها طفلة رضية وليست حالة مرضية.

أجبرت نفسها على أن تقول: "إن فويب مصابة بمتلازمة داون. هذا هو المصطلح العلمي لمرضها".

قالت دورو: "أنا آسفة للغاية يا كارولين. هذا هو السبب الذي تركت لأجله زوجك، أليس كذلك؟ لقد قلت إنه لم يردّها. أنا آسفة للغاية يا عزيزتي".

قالت وهي تمد ذراعيها لتأخذ فويب ثانية: "لا تأسفي. إنها جميلة".

"نعم، هذا صحيح. ولكن ماذا سيحدث لها يا كارولين؟". كانت فويب دافئة وثقيلة بين ذراعيها وكان شعرها الأسود الناعم ينسدل فوق بشرة شاحبة. وقد لمست كارولين - التي كانت تطوقها وكأنها تحميها - وجنتها برفق.

"ما الذي سيحدث لأي منا؟ أعني أصدقيني القول يا دورو، هل تخيلت قط أن حياتك ستسير على هذا المنوال؟".

أشاحت دورو بوجهها الذي تسلسل إليه تعبير ينم عن الحزن. فمنذ عدة أعوام مات خطيبها أثناء قيامه بمغامرة القفز من فوق جسر إلى النهر. وقد أحزنت وفاته دورو للغاية ولم تتزوج بعد ذلك ولم تنجب الأطفال الذين كانت مشتاقة لإنجابهم.

قالت أخيراً: "لا. ولكن هذا أمر مختلف".

"لماذا؟ لماذا هو مختلف؟".

قالت دورو وهي تلمس ذراع كارولين: "دعينا لا نخوض هذا النقاش الآن يا كارولين. فأنت متعبة وكذلك أنا".

وضعت كارولين فويب في مهدها بينما دوى وقع أقدام دورو على الدرج. وقد بدت أثناء نومها في الضوء الباهت الصادر عن مصباح الشارع كأى طفلة أخرى، مستقبلها غير محدد المعالم مثل أرض قاع المحيط وزاخر بالاحتمالات. كانت السيارات تجرى فوق الطريق الذي كان ذات مرة الفناء الذي تلعب فيه دورو في طفولتها، بينما تتراقص أضواء مصابيحها على الحائط، وقد تخيلت كارولين طيور البلشون وهي تحلق عالياً من الحقل المستنقى بينما أجنحتها ترفرف في ضوء الفجر الذهبي الباهت. "ماذا سيحدث لها؟". كثيراً ما ترقد كارولين على فراشها ليلاً وتطرح على نفسها نفس هذا السؤال.

وفي حجرتها كانت الستائر - التي قامت والدّة دورو بحبكها وتعليقها على النوافذ منذ عقود مضت - تلقى بظلال رقيقة؛ وكان ضوء القمر قوياً بما فيه الكفاية لتتمكن من القراءة بواسطته. وعلى المكتب كان هناك ظرف يحتوى على ثلاث صور لفويب وإلى جواره ورقة مطوية مرتين فتحتها كارولين وشرعت في قراءة ما كانت قد كتبتّه.

عزيزى دكتور هنرى:

أكتب لك لأخبرك أننا بخير، أنا وفويب. إننا بأمان وسعداء. إن لى وظيفة جيدة. وفويب بوجه عام هى طفلة وافرة الصحة بالرغم من أنها تعاني مشكلات تنفسية عديدة. لقد أرسلت لك صوراً لها. وحتى الآن هى لم تعان من أية مشكلات مع قلبها.

إنها لابد أن ترسل هذا الخطاب - لقد كتبتّه منذ أسابيع ولكن فى كل مرة تذهب لإرساله تفكر فى فويب، لمسة يديها الناعمة أو أصوات الهديل التى تصدرها حينما تكون سعيدة، ومن ثم لا تستطيع القيام بذلك. والآن وضعت الخطاب مرة أخرى واستلقت

وغطت فى النوم سريعاً. وقد رأت فى منامها أنها فى غرفة انتظار العيادة ذات النباتات المتدلية التى تحرك الرياح أوراقها واستيقظت فى فزع وهى لا تدري أين هى. قالت وهى تمسك بالملاءات الباردة: "هنا. أنا هنا".

...

عندما استيقظت كارولين فى الصباح كانت الغرفة مليئة بأشعة الشمس وموسيقى آلة البوق. وكانت فويب فى مهدها تمتد يديها للأعلى وكأن النغمات كانت أشياء صغيرة مجنحة كالفرشات يمكنها الإمساك بها. ارتدت كارولين ملابسها وألبست فويب وأخذتها للطابق السفلى وتوقفت بالطابق الثانى حيث كان ليو مارش يستكن فى مكتبه الأصفر المشمس بينما تتكدس الكتب فوق سرير النهار الذى يرقد فوقه وهو يشبك يديه خلف رأسه ويحملك فى السقف. نظرت إليه كارولين بينما هى واقفة عند المدخل - فلم يكن مسموحاً لها بدخول هذه الغرفة إلا إذا تمت دعوتها أولاً - ولكنه لم يتعرف عليها. كان رجلاً مسناً وأصلع وذا شعر رمادى خفيف كالأهداب ولا يزال يرتدى الملابس التى كان يرتديها فى اليوم السابق ويستمتع إلى الموسيقى التى دوت من مذياعه وتهز المنزل.

صاحت قائلة: "هل تريد إفطارك؟".

لوح بيده لها قاصداً بأنه سيجلبه لنفسه. هبطت كارولين طابقاً آخر إلى المطبخ ووضعت إناء القهوة على الموقد. وحتى هنا كانت أصوات الأبواق مسموعة. وضعت فويب فى مقعدها العالى وأطعمتها صلصة التفاح وبيضاً وجبن الحلوم. وقد أعطتها الملعقة ثلاث مرات وفى كل مرة كانت تسقط فوق الصينية المعدنية.

قالت كارولين بصوت عالٍ: "لا عليك"، ولكن ضربات قلبها تسارعت. فقد دوى صوت دورو فى أذنيها: "ماذا سيحدث

لها؟". إنها فى شهرها الحادى عشر وينبغى عليها أن تكون قادرة على الإمساك بالأشياء الصغيرة.

نظفت المطبخ وذهبت إلى غرفة الطعام لتقوم بطقى الملابس المغسولة والتى كانت عابقة برائحة الريح. كانت فويب ترقد فوق ظهرها بحظيرتها النقالة تربت على الحلقات والألعاب التى علقتها كارولين فوقها. ومن حين لآخر كانت كارولين تترك عملها وتذهب لضبط الأشياء البراقة آملة أن تكون فويب قد أدارتها بعد أن أغواها بريقها.

وبعد نصف ساعة تقريباً توقفت الموسيقى فجأة، وعلى وقع أقدام ليو على الدرجات والذى كان يرتدى حذاء جلدياً ملمعاً برباط - بينما كانت رقعة من كاحله العارى تبرق أسفل بنطاله - والذى كان أصغر كثيراً من مقاسه الفعلى. ورويدا رويدا أصبح أمامها - رجل طويل كان فيما مضى قوى البنية ولكن الآن أصبح الجلد يترهل فوق جسده النحيل.

قال وهو يشير إلى الملابس المغسولة: "آه، حسناً. لقد كنا بحاجة إلى خادمة".

سألت: "أأجلب لك إفطارك؟".

"سوف آتى به لنفسى".

"تفضل إذن".

صاح من المطبخ: "سوف أطرلك بحلول وقت الغداء".

قالت ثانية: "تفضل إذن".

سمعت صوت الآنية وهى تسقط وصوت الرجل العجوز وهو يسب. وقد تخيلته كارولين وهو ينحنى لدفع مجموعة أواني الطهى ثانية فى خزانة المطبخ. لابد أن تذهب لمساعدته - لا، يجب أن تتركه لحاله. فى أسابيعها الأولى بالعمل كانت تخشى أن ترد عليه بوقاحة، تخشى ألا تقفز ذاهبة إليه حينما ينادى عليها، إلى أن أخذتها دورو جانباً وقالت لها: "انظرى، إنك لست خادمة. أنت تجيبين حينما أنادى عليك ولكن ليس عليك

أن تجيبه كلما أشار لك. إنك تبلين حسناً كما أنك تعيشين هنا أيضاً، وحينها أدركت كارولين أن فترة اختبارها قد انتهت. جاء ليو وهو يحمل صحناً من البيض وكوباً من عصير البرتقال.

قال قبل أن تتحدث: "لا تقلقى، لقد أطفأت الموقد اللعين. والآن سوف أصعد لتناول إفطاري فى هدوء". قالت كارولين: "انتبه لكلامك".

تمت بكلمات غير مفهومة وصعد الدرجات. توقفت عن العمل الذى تقوم به واغرورقت عيناها بالدموع فجأة وشرعت فى مراقبة طائر الكردينال الذى حط فى شجرة الليك خارج النافذة ثم طار مبتعداً. ما الذى تفعله هنا؟ ما الذى دفعها لاتخاذ هذا القرار المصيرى، والإتيان إلى هذا المكان الذى لا رجعة منه، وما الذى سيحدث لها فى النهاية؟

بعد دقائق قليلة، ارتفع صوت الأبواق ثانية فى الطابق اندلوى ورن جرس الباب مرتين. رفعت كارولين فويب من الحظيرة النقالة.

قالت وهى تمسح عينيها برسغها: "لقد أتت. حان وقت التدريب".

كانت ساندرا تقف بالشرفة وحينما فتحت كارولين الباب دخلت مندفعة وهى تحمل تيم بذراع وتسحب حقيبة قماشية كبيرة بالذراع الأخرى. كانت طويلة وذات تكوين عظمى عريض وقوية؛ جلست على الفور فى منتصف السجادة وقامت بتفريغ اللعب المكسدة فى كومة على الأرض.

قالت: "آسفة لأننى تأخرت. إن زحمة السير شنيعة بالخارج. ألا تقودك الإقامة هنا على الطريق السريع للجنون. لو كنت مكانك لأصبت بالجنون. على أية حال انظري إلى ما وجدته. انظري إلى كل تلك الألعاب - بلاستيكية وذات ألوان مختلفة. إن تيم يعشقها".

جلست كارولين على الأرض كذلك. وشأنها شأن دورو كانت ساندرا صديقة لم يكن من المحتمل أن تقابلها كارولين فى حياتها القديمة. فهما قد تقابلا فى أحد أيام يناير الباردة فى المكتبة حينما أغلقت كارولين فى يأس كتاباً بعد أن ملت من كلام الخبراء والإحصائيات المقيتة. حينها رفعت ساندرا رأسها والتي كانت تجلس على بعد طاولتين وإلى جوارها كومة الكتب الخاصة بها ذات الأغلفة ورسومات العمود الفقرى المألوفة لكارولين للغاية. *أنا أعلم تماماً كيف تشعرين. فانا غاضبة لدرجة أننى أود أن أكسرن نافذة".*

وبعدها بدأتا تتحدثان فى حرص أولاً ثم بألفة بالغة. فابن ساندرا - تيم - كان فى الرابعة من عمره تقريباً. وهو مصاب بمتلازمة داون كذلك ولكن ساندرا لم تكن تعرف ذلك. كل ما لاحظته أنه أبطأ نمواً من إخوته الثلاثة الآخرين، ولكن بالنسبة لساندرا فإن ببطء النمو لم يكن يعنى أى شىء وليس مؤشراً على أى شىء. فبوصفها أما تحمل على عاتقها الكثير من الأعباء فقد توقعت ببساطة أن يفعل تيم ما فعله أطفالها الآخرون، ولو استغرق منه ذلك فترة أطول فلا بأس. وقد استطاع المشى فى الثانية من عمره وتدريب على استخدام المرحاض فى الثالثة. وقد صدم التشخيص أسرتها، ولكن اقتراح الطبيب - بضرورة وضع تيم فى مؤسسة علاجية - أغضبها للغاية.

كانت كارولين تنصت إليها باهتمام بالغ وكان قلبها يرفرف مع كل كلمة.

تركنا المكتبة وذهبتا لاحتساء القهوة. ولن تنسى كارولين قط هذه الساعات، والإثارة التى شعرت بها، وكأنها كانت تستيقظ من حلم طويل وبطىء. وقد تساءلتا عما قد يحدث إن افترضتا ببساطة أن طفليهما سيفعلان كل شىء. ربما ليس بسرعة وربما ليس بالطريقة التى تصفها الكتب. ولكن ماذا إن قاما بمحو مخططات النمو والتطور هذه ذات المنحنىات والنقاط المحددة

والدقيقة؟ ماذا لو احتفظنا بتوقعاتهما وتطلعاتهما ولكن بدون الجدول الزمني؟ ما الضرر في ذلك؟ لماذا لا تجربان؟ نعم، لماذا لا؟ بعد ذلك بدأتا تلتقيان هنا وفي منزل ساندرا الذي يجعله أولادها الأكبر وصعاب المراس صاخبا. كانتا تجلبان الكتب واللعب، الأبحاث والحكايات، وخبراتهم الخاصة - كارولين بوصفها ممرضة وساندرا بوصفها معلمة وأماً لأربعة أطفال. وكان قدر كبير من هذه الخبرة قائماً على الفطرة السليمة. فإن كانت فويب بحاجة إلى تعلم الدحرجة، فضعى كرة براءة بعيداً عن متناول يدها، وإن كان تيم بحاجة لتنمية مهارة التناسق فأعطيه مقصاً غير حاد وورقة براءة ودعيه يقص. كان التقدم بطيئاً وفي بعض الأحيان غير مرئى. ولكن بالنسبة لكارولين فإن هذه الساعات بثت فيها الحياة مجدداً. قالت ساندرا: "تبددين متعبة اليوم".

أومات كارولين: "كانت فويب مصابة بالخناق ليلة أمس. لا أعلم إلى متى ستستطيع الصمود. أية أخبار عن أذن تيم؟". قالت ساندرا وهي تتكى للخلف: "لقد أعجبني الطبيب الجديد". كانت أصابعها طويلة وكييلة، ابتسمت إلى تيم وأعطته كوباً أصفر. "بدا متعاطفاً معي. فهو لم يقم فقط بصرفنا. ولكن الأخبار ليست جيدة. إن تيم لا يسمع جيداً، وهذا في الغالب هو السبب الذي يجعله بطيئاً في تعلم الكلام". أضافت وهي تعطيه الكوب الذي أسقطه "ها هو يا حبيبي هيا اجعل الآنسة كارولين وفويب تشاهدان ما بإمكانك فعله".

لم يبد تيم اهتماماً بالكوب حيث كان تركيزه منصباً على زغب السجادة حيث كان يمرر يديه عليه مراراً وتكراراً وهو سعيد ومأسور. ولكن ساندرا كانت حازمة وهادئة وقوية العزم. وأخيراً أخذ الكوب الأصفر وضغط بطرفه على وجنته لدقيقة ثم وضعه على الأرض وبدأ يركب الآخرين فوقه بانياً برجاً.

وطوال الساعتين التاليتين ظللتا تلعبان مع طفليهما وتحدثان. كان لساندرا آراء قوية حول كل شيء ولم تكن تخشى التصريح بما يجول في ذهنها. كانت كارولين تحب الجلوس في غرفة المعيشة والتحدث إلى هذه السيدة الذكية والجريئة - أم لأم. وفي هذه الأيام كانت كارولين تشتاق كثيراً لأمها والتي ماتت منذ عشر سنوات تقريباً متمنية لو كان باستطاعتها الاتصال بها وطلب نصيحتها أو الذهاب إليها ورؤيتها وهي تحمل فويب بين ذراعيها. هل ساور والدتها كل هذه المشاعر - الحب والإحباط - بينما كانت كارولين تكبر؟ لا بد من هذا، وفجأة فهمت كارولين طفولتها بشكل مختلف. هذا القلق المستمر من شلل الأطفال - والذي كان يمثل حياً بطريقتها الخاصة. وكد والدها في العمل وتركيزه على أحوالهم المادية ليلاً - كان هذا يمثل حياً كذلك.

وهي ليست لديها أمها الآن ولكن لديها ساندرا ولقاءاتهما الصباحية معاً التي تتطلع إليها طوال الأسبوع. كانتا تقصان حكايات من حياتهما وتتشاركان في الإفطار والاقتراحات في فن التربية، وتضحكان معاً بينما تحاول فويب الوصول إلى الكرة اللامعة ورغماً عنها تتدحرج. وقد حاولت كارولين مرات عديدة في هذا الصباح - والقلق مازال يملكها - تدلية مفاتيح سيارتها أمام فويب. وقد برقت عاكسة ضوء الصباح وقامت فويب بفتح يديها الصغيرتين، ولوحت بأصابعها التي بدت مثل نجوم البحر. كانت تمد يديها ناحية المفاتيح كما تمدها ناحية نغمات الموسيقى وذرات الضوء. ولكن مهما حاولت لم يكن باستطاعتها الإمساك بها.

قالت ساندرا: "في المرة القادمة. انتظري وسترين. سوف تنجح في القيام بذلك".

وفي الظهيرة ساعدتها كارولين على وضع أشياءها في السيارة ثم وقفت في الشرفة وهي تحمل فويب بين ذراعيها، كانت متعبة ولكن سعيدة أيضاً، ولوحت لساندرا وهي تقود سيارتها

عبر الشارع. وحينما دخلت المنزل كان جهاز تسجيل ليو يكرر نفس الفواصل الموسيقية الثلاث مراراً وتكراراً.

قالت لنفسها وهي تتسلق الدرج: "رجل عجوز مشاكس. يا له من أحقق عجوز".

قالت في سخط وهي تدفع الباب لتفتحه: "ألا تستطيع خفض الصوت؟". ولكن التسجيل كان دائراً في غرفة شاغرة. لقد اختفى ليو.

بدأت فويب تبكي وكأن لديها جهاز استشعار داخلي بالتوتر والقلق. لا بد أن يكون قد تسلل من الخلف بينما كانت تساعد ساندرا. يا إلهي إنه ماكر حتى بالرغم من أنه أحياناً ما يضع حذاءه في الثلاجة هذه الأيام. لقد كان يستمتع بخداعها بهذه الطريقة بشدة. فإنه قد تسلل هارباً ثلاث مرات قبل ذلك، وكان عارياً تماماً في إحداها.

هرعت كارولين للأسفل وأدخلت قدميها في حذاء دورو والذي كان صغيراً للغاية وبارداً. ألبست فويب سترتها ووضعتها في عربة الأطفال بينما خرجت هي دون أن ترتدى واحداً. كان النهار قد أصبح معتماً بفعل السحب الرمادية المنخفضة. كانت فويب تنئن وتضرب بيديها. سارتا أمام المرائب ثم إلى الزقاق. تمتعت كارولين قائلة وهي تلمس رأسها: "أعلم. أعلم يا حبيبتي. رأت أثر لقدم ليو في كسرة ثلج ذائبة، كان نعل حذائه واضحاً مما جعلها تهذا وتشعر بالراحة. لقد سلك هذا الطريق إذن وكان يرتدى ملابسه.

حسناً، على الأقل يرتدى حذاءه.

في نهاية البناية، أنتت إلى الدرجات المائة وخمسة التي تقود إلى كونيغ فيلد. كان ليو هو من أخبرها بعددها في إحدى الليالي أثناء تناول العشاء حينما كان مزاجه معتدلاً. الآن كان بأسفل الدرجات الأسمنتية الطويلة ويدها تتدليان إلى جواره وشعره الأبيض يقف لأعلى ويبدو مرتبكاً للغاية وتائها وحزيناً مما

جعل غضبها يتشتت ويخبو. لم تكن كارولين تحب ليو مارش؛ فإنه لم يكن شخصاً محبوباً. ولكن كان يتخلل شعورها بالكراهية هذا إزاءه مشاعر أخرى بالتعاطف. ففي لحظات مثل هذه، كانت ترى كيف ينظر العالم إليه ويرى رجلاً عجوزاً وشائخاً ومنسياً بدلاً من أن يرى كيف كان فيما مضى.

استدار ورآها وبعد دقيقة اختفى الارتباك من وجهه.

صاح: "راقبي هذا! راقبي هذا يا امرأة وابكي!".

وسريعاً وغير آبه للثلج الذي كان يوجد في منتصف الدرج، ركض ليو نحوها بعدما ملأه قدر متبقى من الأدرينالين والحاجة بالحماسة.

قال بعدما وصل إلى القمة: "أنا واثق من أنك لم يسبق لك رؤية أى شيء مثل هذا".

قالت كارولين: "أنت محق. لم يسبق لى هذا. وأتمنى ألا أراه ثانية".

ضحك ليو وكانت شفاته ورديتين وسط جلده الأبيض الشاحب.

قال لها: "لقد هربت منك".

"إنك لم تذهب بعيداً".

"كان باستطاعتي ذلك. لو كان لدى عقل. في المرة القادمة".

نصحته كارولين قائلة: "في المرة القادمة خذ معطفاً معك".

قال بينما أخذها يسيران: "في المرة القادمة سأختفى في تمبوكتو".

قالت والتعب يملكها: "فلتقم بذلك". كان نبات الزعفران بلونيه الأرجواني والأبيض يتلألأ بين العشب البراق، كانت فويب تبكي بشكل جدى الآن. وقد ارتاحت لأنها أعادت ليو في عهدتها ثانية ولأنها وجدته بخير وكانت ممتنة لعدم وقوع كارثة. كان ذلك ليصبح خطأها إن ضل الطريق أو أصابه مكروه

وذلك لأنها كانت تصب كل تركيزها على فويب التى ظلت لأسابيع الآن تمتد يدها للإمساك بالأشياء ولكنها تعجز عن ذلك". سارا أقداماً قليلة أخرى فى صمت. قال ليو: "إنك امرأة ذكية". توقفت عند الطوب مندهشة. "ماذا؟ ماذا قلت؟".

نظر إليها بطريقة عقلانية بعينيه الزرقاوين اللتين تشبهان عيني دورو.

"لقد قلت إنك ذكية. لقد وظفت ابنتى ثمانى ممرضات مختلفات قبلك. ولم تستمر معنا أى منهن أكثر من أسبوع واحد. ولكنك مختلفة عنهن. أنا واثق من أنك لم تكونى تعرفين هذا". قالت كارولين: "لا، لم أكن أعرف".

...

لاحقاً، حينما كانت كارولين تنظف المطبخ وتخرج القمامة فكرت فى كلمات ليو. قالت لنفسها وهى تقف بالزقاق أمام صفحة القمامة: "إنك ذكية". كان الهواء رطباً وبارداً. كانت أنفاسها تكون سحباً صغيرة. قالت أمها فى رد حاد: "إن الذكاء لن يجلب لك زوجاً". ولكن حتى التفكير فى كلام أمها لم يقلل سعادة كارولين بأول كلام لطيف يقوله لها ليو.

وقفت كارولين طوال دقيقة فى الهواء البارد وهى ممتنة من أجل هذا السكون. كانت الجراجات متعاقبة الترتيب واحداً تلو الآخر أسفل التل. وبالتدريج أصبحت مدركة لوجود شخص فى أسفل الزقاق. رجل طويل يرتدى بنطال جينز وسترة بنية، واللذين كانا باهتى اللون حتى أنهما أصبحا جزءاً آخر من بيئة آخر الشتاء المحيطة. ثمّة شئ ما يشوبه - شئ ما حول الطريقة التى يقف بها ويحدق بجديّة إليها - جعلت كارولين تشعر بالتوتر. وضعت الغطاء المعدنى مكانه مجدداً وعقدت ذراعيها

أمام صدرها. كان يسير نحوها الآن - رجل ضخم عريض المنكبين ويمشى سريعاً. لم تكن سترته بنية بالمرّة ولكن مربعة النقش وذات خطوط حمراء. أخرج قبعة حمراء من جيبه وقام بارتدائها. وقد شعرت كارولين بالراحة لذلك بالرغم من أنها لم تعرف السبب.

نادى قائلاً: "مرحباً. كيف حال سيارتك الفيرلين الآن؟". تضاعف ترقبها وخوفها واستدارت لتتنظر إلى المنزل، الذى كان يعلو داخل السماء البيضاء. نعم، كانت هناك دورة مياهها حيث وقفت ليلة أمس تراقب القمر فوق المرجة. كانت هناك نافذتها التى كانت مفتوحة جزئياً كى يدخل هواء الربيع البارد وكانت الريح تحرك الستائر الشريطية. وحينما استدارت ثانية كان الرجل يقف على بعد بضعة أقدام فقط منها. وتعرفت عليه وأدركت ذلك فى جسدها وفى الراحة التى شعرت بها قبل أن تستطيع صياغتها فى شكل أفكار. بعد ذلك كان الأمر غريباً لدرجة أنها لم تستطع تصديقه.

قالت: "كيف بحق السماء —"

قال آل وهو يضحك: "لم يكن الأمر سهلاً!". وقد أصبح له الآن لحية ناعمة وكانت أسنانه البيضاء تبرق. وكانت عيناه السوداوان دافئتين ومسرورتين ومبتهجتين. تذكرت اللحم الذى وضعه فى طبقها وتلويحه لها من كابينة القيادة الفضية لسيارته وهو يقود مبتعداً. "إنك امرأة من الصعب اقتفاء أثرها. ولكنك قلت بتسبرج. وقد صادف أننى أتوقف هنا كل أسبوعين. وقد تحولت عملية البحث عنك إلى هواية بالنسبة لى". ابتسم. "لا أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك لتسلية نفسى".

لم تجبه كارولين. لقد كانت مسرورة لرؤيته ولكنها كانت مرتبكة أيضاً. فطوال عام تقريباً لم تدع نفسها تفكر طويلاً أو كثيراً فى الحياة التى كانت تعيشها وتركتها وراءها ولكنها الآن أقحمت نفسها عليها بقوة وحدة: رائحة سائل التنظيف

قال: "لقد استغرقت منى عملية البحث عاماً كاملاً. فإن كنت قلقة بشأن أى شخص آخر يحاول اقتفاء أثرى تذكى هذا. أنا كنت أعرف من أين أبدأ وكان الحظ حليفي. فقد بدأت فى السؤال بالفنادق التى أعرفها، فكنت أسأل عن امرأة معها طفلة رضيعة وفى كل مرة كنت أذهب إلى مكان مختلف وفى الأسبوع الماضى توصلت إلى اكتشاف مفيد. فقد تذكرتك الموظفة التى تعمل فى المكان الذى كنت تقيمين فيه، وهى ستتقاعد الأسبوع القادم بالمناسبة". رفع إصبعيه الإبهام والسبابة بالقرب من بعضهما البعض. "لقد كنت على بعد هذه المسافة الصغيرة من فقدانك للأبد".

أومات كارولين وهى تتذكر المرأة التى كانت تجلس وراء المكتب وشعرها الأبيض المعقود بحرص بطريقة تشبه خلية النحل، وقرطها يبرقان فى أذنيها. وقد ظل هذا الفندق إرثاً عائلياً طوال خمسين عاماً. كانت الحرارة مرتفعة طوال الليل وكانت الجدران رطبة دائماً مما أدى إلى تقشير ورق الحائط. وكانت تلك المرأة التى تجلس خلف المكتب تقول وهى تضع المفتاح فوق المكتب إن المرء لا يعرف قط من يمكنه أن يدخل عبر هذا الباب.

أشار آل ناحية السيارة الفيرلين الزرقاء.

قال: "لقد علمت أننى سأجدك لحظة أن رأيت هذه السيارة. كيف حال طفلتك؟".

تذكرت ساحة الانتظار الشاغرة، وكل هذا الضوء الذى انسكب فوق الثلج واختفى، والطريقة التى لمس بها جبهة فويب برقة بالغة.

سمعت نفسها تسأل: "هل تود الدخول؟ لقد كنت على وشك إيقافها. سوف أعد لك بعض الشاي".

اصطحبته كارولين فوق الرصيف الضيق ثم أعلى الدرج حتى وصلا إلى الشرفة الخلفية. تركته بغرفة المعيشة وتسقلت الدرجات وهى تشعر بدوار وعدم اتزان وكأنها أدركت فجأة أن

والشمس فى غرفة الانتظار وشعورها بعد العودة إلى شقتها المرتبة والهادئة بعد يوم طويل وإعدادها لوجبة متواضعة لنفسها وجلسها لقراءة كتاب أثناء الليل. لقد تخلت عن هذه المتع بكامل إرادتها؛ تخلت عنها من أجل حياة جديدة ارتمت فى أحضانها والشوق يملؤها. الآن كان قلبها يثب وأخذت تحديق بجموح فى الزقاق وكأنها سترى فجأة ديفيد هنرى أيضاً. وقد أدركت فجأة أن هذا هو السبب الذى جعلها لا ترسل الخطاب. فماذا لو أراد استعادة فويب - أو أرادت نورا ذلك؟ ملأها هذا الاحتمال بقدر موجع من الخوف.

سألت كارولين: "كيف قمت بذلك؟ كيف وجدتني؟ لماذا؟".

اندهش آل وهز كتفيه: "لقد توقفت فى ليكسنجتون كى أراك. ولكن المنزل كان شاغراً، وقد تم طلاؤه. وقد أخبرنى جارك أنك قد رحلت منذ ثلاثة أسابيع. وأعتقد أننى لا أحب الألغاز وذلك لأننى لم أتوقف عن التفكير فيك". سكت وكأنه يفكر فيما إذا كان ينبغى أن يواصل حديثه أم لا. "علاوة على ذلك فقد أعجبت بك يا كارولين، وقد ظننت أنك واقعة فى مشكلة نظراً للطريقة التى رحلت بها. لقد كان جلياً أنك غارقة فى المشكلات من وقوفك فى ساحة الانتظار هذا اليوم. وقد اعتقدت أنه بإمكانى مساعدتك. وقد اعتقدت أنك ربما تكونين بحاجة لهذه المساعدة".

قالت: "أنا بأفضل حال. إذن، ماذا تعتقد الآن؟".

ولم تقصد أن تخرج منها الكلمات بهذه الطريقة - جارحة وقوية. وسادت فترة صمت قبل أن يتحدث آل ثانية.

قال آل: "أعتقد أننى استوعبت بعض الأمور بطريقة خاطئة". هز رأسه. "لقد ظننت أنه تولد بيننا إعجاب متبادل".

قالت كارولين: "هذا صحيح. أنا فقط مصدومة، هذا هو كل ما فى الأمر. لقد اعتقدت أنه سيكون باستطاعتي قطع علاقتى بكل معارفى".

نظر إليها حينئذ وتلاقت عيناها.

الكوكب أسفلها قد استدار فى الفضاء مغيراً عالمها بلا رجعة مهما حاولت بكد أن تحافظ عليه فى مكانه. غيرت حفاضة فويب ورشت بعض الماء على وجهها فى محاولة لتهدئة نفسها. كان آل يجلس على الطاولة فى غرفة الطعام ينظر خارج النافذة. وحينما هبطت الدرج استدار وابتسم ابتسامة عريضة. مد يديه ليأخذ فويب على الفور وهو يتعجب من أنها كبرت كثيراً الآن وأصبحت جميلة للغاية. شعرت كارولين بالسعادة وضحكت فويب فى بهجة بينما يسقط شعرها الأسود على وجنتيها. وضع آل يده فى جيبه وأخرج ميدالية بها بلاستيك شفاف يغطى حروفاً فيروزية تقول "جراند أول أويرى". لقد حصل عليها فى ناشفيل. كان قد قال لها: "تعالى معى" منذ عدة أشهر مازحاً ولكنه فى نفس الوقت لم يكن يمزح على الإطلاق.

وها هو ذا، لقد سافر كل هذه المسافة للبحث عنها.

كانت فويب تصدر أصواتاً رقيقة وتمد يديها. كانت يداها تحتكان برقبة آل وياقته وقيصه الداكن مربع النقش. فى البداية لم تدرك ماذا كان يحدث، ولكنها فجأة أدركته. فكل ما كان يقوله آل كان يتقهقر للوراء ويندمج مع وضع أقدام ليو بالأعلى وصوت زحمة السير بالخارج، تلك الأصوات التى ستذكرها كارولين للأبد بوصفها جالبة للحظ.

كانت فويب تمد يديها للإمساك بالميدالية. ولم تكن تضرب فى الهواء كما فعلت هذا الصباح ولكنها استخدمت صدر آل كمصدر للدعم، وكانت يداها الصغيرتان تحكان وتحكان بالميدالية حتى تمكنت من غلق قبضتها بقوة حولها. وبينما كانت سعيدة لنجاحها، جذبت الميدالية بعنف من خيطها جاعلة آل يرفع يده نتيجة لذلك.

لمست كارولين رقبتها كذلك مستشعرة شعلة السعادة المتدفقة منها. قالت لنفسها: "نعم يا حبيبتي. أمسكى بها. أمسكى بالعالم".

مايو ١٩٦٥

كانت نورا تسير أمامه، تتحرك بخفة، وتنعكس ألوان ملابسها الدنيم البيضاء بين الأشجار بحيث كانت تظهر وتختفى. حجر الجيود الخشن، وحفريات مدفونة فى الطفل الصفحى. كان أحدها فيما سبق رأس سهم. وقد كان يمسك بكل واحدة من هذه الأشياء لدقيقة وهو معجب بوزنها وشكلها وبرودتها فى راحة يده قبل أن يدسها فى جيبه. عندما كان صبياً، كانت أرفف حجرته ممتلئة دوماً بالأحجار التى لم يستطع التخلص منها حتى الآن حيث إنها كانت تمثل ألغازاً واحتمالات عديدة - كان يجمعها حتى بالرغم من صعوبة الانحناء وهو يحمل بول فى الحمالاة المعلقة والكاميرا تصطدم بساقه.

وعلى بعد مسافة كبيرة، توقفت نورا لتلوح لهما ثم بدت أنها اختفت داخل حائط حجر رمادى اللون. ظهرت فجأة مجموعة من الأشخاص الآخرين الذين يرتدون قبعات كرة سلة

التي ابتاعتها والدتها من المدينة. كانت دائماً تتغنى بصوت خفيض بنغمات قامت بتأليفها وكان شعرها شاحباً، شبه أبيض اللون، مثل مخيض اللبن. وطوال أشهر بعد وفاتها، كان يستيقظ ليلاً معتقداً أنه سمع صوتها الصغير يغنى مثل الريح الذي يتخلل شجر الصنوبر.

سأل المرأة بجدية وهو يترك يدها: "لقد قلت إنك تعانين من هذه الحالة طوال حياتك".

قالت: "هذا صحيح. وقد أخبرني الأطباء أنها ليست خطيرة، فقط مزعجة".

قال: "حسناً، أعتقد أنك ستكونين بخير. ولكن لا تحملى نفسك أكثر من طاقتها".

شكرته ولمست رأس بول وقالت: "انتبه لهذا الصغير الآن". أوماً ديفيد وواصل مسيرته حامياً رأس بول بيده الحرة وظل يتسلق فيما بين الجدران الحجرية الرطبة. كان مسروراً - فكان أمراً جيداً أن يستطيع مساعدة الناس الذين يحتاجون إلى هذه المساعدة وأن يقدم لهم العلاج - وهو الشيء الذي بدا أنه لا يستطيع تقديمه لهؤلاء الذين يحبهم. ربت بول برفق على صدره ممسكاً بالظرف الذي كان قد دسه في جيبه: خطاب من كارولين جيل، وصل هذا الصباح إلى مكتبه. كان قد قرأه مرة واحدة سريعاً ثم أخفاه حينما رأى ثورا محاولاً إخفاء توتره. كان الخطاب يقول: "إننا بخير، أنا وفويب. حتى الآن هي لا تعاني من أية مشكلات بقلبيها".

الآن أمسك بأصابع بول الصغيرة بين أصابعه برفق. نظر ابنه للأعلى بعينييه الواسعتين في فضول فشر بنهر من الحب يتدفق نحوه.

قال ديفيد مبتسماً: "أحبك أيها الفتى الصغير. ولكن لا تأكل هذا، حسناً؟".

زرقاء متماثلة والذين خرجوا واحداً تلو الآخر من نفس هذا الجدار الرمادي. وحينما اقترب ديفيد، أدرك أن الدرجات التي تقود إلى الجسر الحجري الطبيعي كانت توجد هناك، ولكنها كانت فقط بعيداً عن مرمى البصر. قالت له امرأة تهبط الدرجات محذرة: "من الأفضل أن تنتبه لخطواتك. فالمكان هنا شديد الانحدار لدرجة لا تتخيلها وهو زلق كذلك". سكنت وهي تلهث ووضعت يدها على قلبها.

توقف ديفيد الذي لاحظ شحوبها وقصر نفسها: "إننى طبيب يا سيدتى. هل أنت بخير؟".

قالت وهي تلوح بيدها الحرة: "تسارع ضربات القلب. أنا أعانى من تلك الحالة طوال حياتى".

أخذ رسغها الممتلئ واستشعر نبضها الذي كان سريعاً ولكن منتظماً والذي بدأ يصبح أبطأ بينما كان يقيس تسارع ضربات القلب: إن الناس كثيراً ما يستخدمون هذا المصطلح لوصف أى حالة تسارع فى نبضات القلب ولكنه علم على الفور أن هذه المرأة لم تكن حالتها خطيرة. بخلاف حالة أخته التي كانت تصاب بانقطاع النفس والدوار والتي كانت تضطر للجلوس فى كل مرة تبذل فيها مجهوداً بسيطاً كالركض فى غرفتها. قال الطبيب فى مورجان تاوون وهو يهز رأسه: "مشكلة قلبية". وهو لم يكن أكثر تحديداً من ذلك، ولم يكن ذلك مهماً؛ حيث لم يكن فى إمكانه فعل شيء. وبعدها بسنوات حينما التحق بكلية الطب، تذكر ديفيد أعراضها وكان يقرأ فى وقت متأخر من الليل ليتوصل إلى تشخيصه الخاص: ضيق فى الشريان الأورطى أو ربما خلل فى صمام القلب. وفى أى من الحالتين، كانت جون تتحرك ببطء وتصارع كى تتنفس، وكانت حالتها تزداد سوءاً مع مر السنين، وقد أصبح جلدها شاحباً وضارباً إلى الزرقة فى الأشهر السابقة لموتها. وقد كانت تحب الفراشات وتقف ووجهها متجه للشمس وعيناها مغلقتان وتأكل الجيلي منزلى الصنع من الأطباق الصغيرة

حرق بول فيه بعينه السوداوين الواسعتين ثم أدار رأسه ووضع خده على صدر ديفيد وكان يشع حرارة. كان يرتدى قبعة بيضاء منقوشاً عليها بط أصفر قامت نورا بحياتها في الأيام الهائلة المليئة بالترقب بعد الحادث. ومع حياتها لكل بطة كان ديفيد يشعر بمزيد من الراحة. فإنه قد رأى كم الحزن الكامن في قلبها بعدما قام بتحريض الفيلم الذي كان بكاميرته الجديدة: الحجرات الشاغرة بمنزلهما القديم، أطر النوافذ، والظلال القوية لدرابزين السلم والأرضيات المائلة. وآثار أقدام نورا الدموية. وقد قام بالتخلص من هذه الصور والنيجاتيف وكل شيء ولكنها مازالت تطارده. وكان يخشى أن تظل تطارده للأبد. فإنه قد كذب على زوجته، لقد تخلى عن ابنتهما. لذا فقد عرف أن تلك العواقب المروعة متعذر تجنبها وعادلة. ولكن مرت الأيام، فقد مضى نحو ثلاثة أشهر الآن وبدأ أن نورا عادت لسابق عهدها. فكانت تعمل بالحديقة، أو تضحك بالهاتف مع صديقاتها، أو ترفع بول من حظيرته النقالة بذراعيها النحيلتين الجميلتين. وقد أخبر ديفيد نفسه بأنها سعيدة.

الآن، كان البط يقفز في مرج مع كل خطوة عاكساً الضوء بينما كان ديفيد على وشك الانتهاء من الدرجات الضيقة واصلاً إلى الجسر الحجري. كانت نورا التي ترتدى بنطالاً قصيراً من الدنيم وقميصاً أبيض بلا أكمام تقف في منتصف الجسر بينما تلامس أطراف حذائها الخفيف الحافة الحجرية. وببطء، وكأنها راقصة، فتحت نورا ذراعيها وتقوست للخلف وأغلقت عينيها وكأنها تسلم نفسها للسماء.

نادى ديفيد: "نورا! هذا خطير!"

ضرب بول بيديه الصغيرتين فوق صدر ديفيد. وقد قال: "دو" حينما سمع ديفيد يقول "خطير"، وكانت تلك هي الكلمة التي يصف بها أشياء عديدة مثل المخارج الكهربائية والدرجات والمدفأة والمقاعد والآن هذا المكان المنحدر أسفل والدته.

صاحت نورا بينما تدع ذراعيها تسقطان: "إنه مكان رائع!". استدارت مسببة انزلاق بعض الحصى أسفل قدميها. "تعال وشاهد بنفسك!".

وبحرص سار فوق الجسر وذهب ليقف إلى جوارها عند الحافة. وكانت أجسام صغيرة للغاية تتحرك ببطء على الطريق بالأسفل حيث كان يجري فيما سبق نهر قديم. الآن كانت التلال الخضراء ممتدة أمامهم، مائة درجة مختلفة من اللون الأخضر أسفل السماء الزرقاء الصافية. أخذ نفساً عميقاً وهو يصارع شعوراً بالدوار، وكان خائفاً من أن ينظر حتى إلى نورا. لقد أراد أن يحيمها من الشعور بالفقدان والألم؛ ولم يعرف أن هذا الشعور سوف يظل يلاحقها بالرغم من ذلك مثل مجرى مائي. كما أنه لم يتوقع أيضاً أنه سيشعر بكل هذا الحزن والذي اندمج مع أحزان ماضيه. وحينما تخيل الابنة التي تخلى عنها، رأى وجه أخته، وشعرها الشاحب وابتسامتها الجادة.

قال وهو يأخذ خطوتين للخلف: "دعيني ألتقط صورة لك. تعال إلى منتصف الجسر، فالضوء أفضل هناك".

قالت وهي تضع يديها في خصرها: "بعد دقيقة، فالمكان هنا جميل للغاية".

قال: "يا إلهي، نورا، إنك تجعليني أتوتر".

قالت وهي تدفع برأسها للخلف دون أن تنظر إليه: "إنك تشعر بالقلق طوال الوقت. أنا بخير".

لم يجب وكان يشعر برئتيه تتحركان وعدم انتظام في أنفاسه. وقد ساوره نفس هذا الشعور حينما فتح خطاب كارولين والذي أرسلته إلى مكتبه القديم ولصقت طابع إرسال فوقه. وكان عليه ختم بريد توليدو، أوهايو. وقد أرفقت ثلاث صور لفويب، رضية ترتدى ثوباً وردياً. وكان عنوان المرسل ليس في توليدو وإنما في كليفلاند. كليفلاند، إنه مكان لم يذهب إليه قط، مكان كانت كارولين جيل فيما يبدو تعيش فيه مع ابنته.

قال ثانياً أخيراً: "دعينا نبتعد عن هذا المكان. دعيني ألتقط لك صورة".

أومأت ولكنه حينما وصل إلى المركز الآمن للجسر واستدار، كانت نورا مازالت بالقرب من الحافة تواجهه وذراعاها معقودتان وتبتسم.

قالت: "التقطها هنا. اجعلها تبدو وكأنني أسير على الهواء".

ربض ديفيد وأخذ يعبث بأقراص الكاميرا بينما تشع الحرارة من الصخور الذهبية العارية. كان بول يتلوى في حمالته وبدأ يثير جلبه. وسوف يتذكر ديفيد كل هذا - تلك الأمور التي لم يلاحظها ولم يسجلها - حينما يقوم بتحريض الصورة لاحقاً. لقد حدد نورا داخل إطار العدسة بينما تتحرك الرياح في شعرها وتبدو بشرتها سمراء قليلاً ووافرة الصحة بينما يتساءل عن الأشياء التي أخفتها عنه.

كان هواء الربيع دافئاً وذا عبير رقيق. عادا أدراجهما معاً وهما يمران أمام مداخل كهوف ونباتات الوردية الأرجوانية وإكليل الغار الجبلي. قادتهما نورا عبر الطريق الرئيسي وخلال الأشجار متبعة خليجاً صغيراً إلى أن خرجوا إلى مكان مشمس كانت نورا تتذكره لأجل نمو ثمار الفراولة به. كانت الرياح تتحرك بخفة في العشب الطويل وكانت الأوراق الخضراء الداكنة لنباتات الفراولة تومض فوق الأرض. وكان الهواء علقاً برائحة الفاكهة وهديل الحشرات والحرارة.

أخرجوا ما كان معهما من طعام: جبن ومقرمشات وعناقيد عنب. جلس ديفيد على الملاء ممسكاً برأس بول فوق صدره وهو يفك الحمالة بينما كان يفكر في الده الذي كان قصيراً وقوياً وممتلئ الجسم ويمتلك أصابع ماهرة كانت تغطي يدي ديفيد بينما كان يعلمه كيف يرفع فأساً أو يحلب بقرة أو يدق مسماراً في أحد ألواح خشب الأرز. والده الذي كانت تصدر منه دوماً

رائحة العرق والرايتنج والأرض السوداء المخبئة للمناجم حيث كان يعمل شتاءً. حتى حينما كان ديفيد مراهقاً وكان يعيش بالمدينة طوال الأسبوع للذهاب إلى مدرسته الثانوية أحب العودة إلى المنزل ليجد والده هناك يدخن بالشرفة.

قال بول: "نور". وبمجرد أن تحرر من حمالته خلع أحد فردي حذائه. أخذ يدرسها بجدية ثم ألقى بها على الفور وزحف تجاه العالم الأخضر خلف الملاء. رآه ديفيد يأخذ بعض الأعشاب الضارة ويضعها في فمه بينما ارتسمت نظرة دهشة على وجهه من ملمسها. وقد تمنى فجأة وبقوة أن يكون والداه لا يزالان على قيد الحياة لمقابلة ابنه.

قال برقة وهو يسمح للعب الأخضر من ذقن بول: "طعمه سيئ، أليس كذلك". كانت نورا تتحرك إلى جواره بهدوء وفاعلية تخرج الأنينة الفضية والمناديل القماشية. ظل ينظر بالاتجاه الآخر؛ حيث إنه لم يردّها أن تراه مشحوناً بالعاطفة بهذه الطريقة. أخرج حجر الجيود وأمسكه بول بكلتا يديه وقلبه.

سألت نورا: "هل من الآمن أن يضع هذا في فمه"، وأتت لتجلس إلى جواره، على مقربة كبيرة منه حتى أنه استطاع استشعار دفئها ورائحة العرق والصابون الصادرة منها.

قال وهو يأخذ الحجر ويعطى بول مقرمشات بدلاً منه: "على الأرجح لا". كان حجر الجيود دافئاً ورطباً. ضربه بقوة فوق الصخر فاتحاً إياه وكاشفاً عن قلبه البلوري الأرجواني.

تمت نورا وهي تديره في يدها: "جميل للغاية". قال ديفيد: "بحور قديمة. لقد دخل الماء ثم تبلور على مر القرون".

تناولا الطعام ببطء ثم قطفا فراولة ناضجة والتي كانت دافئة بفعل أشعة الشمس وطرية. تناولها بول بقبضة يده بينما ينساب العصير فوق رسغيه. حلق صقران ببطء مكونين دائرة في السماء

الزرقاء. قال بول وهو يرفع ذراعاً سميكة ليشير بها "يدي".
ولاحقاً حينما نام بول وضعته نورا على ملاءة فى الظل.
قالت نورا وهى تسند ظهرها على جلمود: "إن هذا لطيف.
فقط ثلاثتنا يجلسون تحت أشعة الشمس".

كانت قدماها عاريتين فأخذهما بين يديه وشرع فى تدليكهما
- عظام رقيقة تختبئ تحت الجلد.
قالت وهى تغلق عينيها: "هذا لطيف حقاً. إنك ستجعلنى
أنام".

قال: "ابقى مستيقظة. أخبرينى بم تفكرين".
"لا أعرف. تذكرت فقط هذا الحقل الصغير الذى كان يوجد
إلى جوار مزرعة الماشية. فحينما كنت أنا وبرى صغيرتين كنا
ننتظر أبانا هناك. كنا نجمع كومات كبيرة من نبات السوش
وكوين آن. وكانت أمى تضع الزهور فى مزهريات بكل أرجاء
المنزل".

قال ديفيد وهو يضع قدمها ويأخذ الأخرى: "هذا لطيف
كذلك". مرر إبهامه برفق فوق الندبة البيضاء الرفيعة التى
تركها زجاج مصباح الكاميرا فى قدمها.

"أحب أن أفكر بك هناك". كان جلد نورا ناعماً. تذكر الأيام
المشمسة فى طفولته قبل أن تمرض جون حينما كانت أسرته
تذهب لجمع نبات الجنسنج، وهو نبات هش ينمو مختبئاً فى
الضوء المعتم بين الأشجار. وقد التقى والداه فى رحلة مثل هذه.
وكان يمتلك صورة زفافهما، والتى قدمتها له نورا فى يوم
زفافهما هما داخل إطار خشبى جميل. كانت أمه ذات بشرة
ناعمة وشعر مموج وخصر نحيف وابتسامة رقيقة مألوفة. وكان
والده ذا لحية ويقف خلفها وهو يمسك بقبعته فى يده. وقد تركا
المحكمة بعد الزفاف وذهبا إلى الكوخ الذى بناه والده على الجبل
وكان يطل على حقولهما. قال: "كان والدائ يحبان الخروج من

المنزل. كانت أمى تزرع النباتات فى كل مكان. فكان هناك سلسلة
من نبات الأرسيمية عند الجدول بالقرب من منزلنا".
"كنت أود حقاً مقابلتهما. لابد أنهما كانا فخورين للغاية
بك".

"لا أعلم، ربما. لقد كانا سعيدين لأن حياتى كانت أسهل".
قالت ببطء وهى تفتح عينيها وتنظر إلى بول الذى كان ينام
فى سكرينة بينما يسقط ضوء مرقش فوق وجهه: "سعيدان. ولكنى
أعتقد أنهما كان حزينين كذلك؟ كنت لأصبح حزينة أيضاً إن كبر
بول ورحل بعيداً عنى".

قال وهو يومئ: "نعم. لقد كانا فخورين وحزينين. إنهما لم
يحببا المدينة. ولقد زارانى مرة واحدة فقط فى بتسبرج". وقد
تذكرهما وهما يجلسان فى ارتباك فى شقته المكونة من غرفة
واحدة بينما تجفل أمه فى كل مرة يعلو فيها صوت صافرة
القطار. كانت جون قد ماتت فى هذا الوقت، وبينما كانا
يحتسيان القهوة ببطء تذكر أنه أدرك حينها كيف أنهما كانا لا
يدريان ماذا يفعلان بوقتتهما بعدما أصبحا لا يعتنيان بجون. فقد
كانت مركز حياتهما لفترة طويلة. "لقد مكثا معى ليلة واحدة
فقط. وبعد وفاة أبى ذهبت أمى لتعيش مع أختها فى ميتشيجان.
وكانت ترفض السفر بالطائرة كما أنها لم تتعلم القيادة. وأنا لم
أرها سوى مرة واحدة بعد ذلك".

قالت نورا وهى تمسح خطأ من القذارة من فوق ربلة ساقها:
"هذا أمر مؤسف حقاً".

قال ديفيد: "هذا صحيح. مؤسف للغاية". فكر فى جون
والطريقة التى كان يتحول بها شعرها إلى اللون الذهبى تحت
أشعة الشمس ورائحة جلدها - صابون ودفع وشئ معدنى مثل
العملة - التى كانت تعبق المكان حينما يربضان جنباً إلى جنب
ليحفرا فى الأرض باستخدام العصا. وقد أحبها للغاية، ضحكتهما
العذبة. كان يمقت الرجوع إلى المنزل ليجدها مستلقية على

حشية من القش بالشرقة فى الأيام المشمسة بينما يرتسم على وجه أمه تعبير ينم عن القلق وهى تجلس إلى جوار جسد ابنتها النحيل وتغنى برقة وتقشر الذرة أو البازلاء.

نظر ديفيد إلى بول الذى كان ينام بعمق فوق الملاء ويدير رأسه إلى الجانب بينما يتموج شعره الأسود الطويل فوق رقبتة الرطبة. لن يكبر بول - كما حدث لديفيد - وهو يعانى من فقدان أخته. لن يضطر أن يناضل من أجل أن يعيش حياة كريمة لأن أخته لم تستطع ذلك.

وقد صدمت هذه الفكرة - وقسوتها الكبيرة - ديفيد وأراد أن يعتقد أنه قد فعل الصواب عندما أعطى ابنته لكارولين جيل. أو أنه كانت لديه على الأقل الأسباب الصحيحة. ولكن ربما لم تكن لديه هذه الأسباب. ربما لم يكن بول هو الذى يحميه فى هذه الليلة ذات العواصف الثلجية وإنما كان يحمى نموذجاً تائهاً لنفسه.

قالت نورا: "إنك تبدو شارد الذهن تماماً".

تحرك مقرباً منها حتى استند على الجلمود هو أيضاً. قال: "كان والداى لديهما تطلعات كبيرة بشأنى. ولكنها كانت تختلف عن تطلعاتى".

قالت نورا وهى تحتضن ساقها: "نفس ما حدث معى أنا وأمى. لقد أخبرتنى أنها ستأتى لزيارتنا فى الشهر القادم. هل أخبرتك بذلك؟ لقد حصلت على رحلة جوية مجانية".

"هذا جيد. إن بول سيبقيها منشغلة".

ضحكت نورا. "هذا صحيح. إنه هو الذى سيجعلها تأتى".

سأل: "بم تحلمين يا نورا؟ ما هى أحلامك لبول؟"

لم تجب نورا على الفور. قالت أخيراً: "أعتقد أنني أريده أن يكون سعيداً. فمهما كانت الأمور التى ستجعله سعيداً أريد منه الحصول عليها. وأنا لا يهمنى ما هى هذه الأشياء طالما أنه

سيكبر ليصبح رجلاً صالحاً وصادقاً مع نفسه. وكريماً وقوياً مثل والده".

قال ديفيد فى تملل: "لا. أنت لا تريدينه أن يصبح مثلى". نظرت إليه بجدية ودهشة. "لماذا لا؟".

لم يجب. وبعد دقيقة طويلة من التردد تحدثت نورا ثانية. سألت ليس بطريقة عدوانية ولكن بطريقة تعكس انشغالاً. فكر بالغ وكأنها تحاول التوصل إلى الإجابة أثناء تحدثها. "أقصد فيما بيننا يا ديفيد".

لم يجب حيث كان يصارع دفقة مفاجئة من الغضب. لماذا عليها إثارة الموضوع مجدداً؟ لماذا لا تترك الماضى وحاله وتمضى قدماً؟ ولكنها تحدثت مرة أخرى.

"لقد تغيرت حياتنا منذ مولد بول ووفاة فويب. ومع ذلك فأنت مازلت تعزف عن التحدث عنها. الأمر يبدو كما لو أنك تريد محو حقيقة وجودها".

"ماذا تريدين منى أن أقول يا نورا؟ بالطبع تغيرت حياتنا منذ ذلك الحين".

"لا تغضب يا ديفيد. إن ذلك بمثابة استراتيجية، أليس كذلك؟ حتى لا أتحدث عنها ثانية. ولكن ذلك لن يردعنى. إن ما أقوله صحيح".

تنهد.

قال أخيراً: "لا تفسدى هذا اليوم الجميل يا نورا".

قالت مبتعدة عنه: "أنا لا أفعل ذلك". رقدت فوق الملاء وأغلقت عينيها. "أنا مستمتعة للغاية بهذا اليوم".

ظل يراقبها لدقيقة بينما تتخلل أشعة الشمس شعرها الذهبى ويرتفع صدرها وينخفض برقة مع كل نفس. أراد أن يلمس بيده عظام ضلوعها وتقبيّلها حيث تلتقى هذه العظام التى تمتد مثل الأجنحة.

قال: "نورا، أنا لا أدري ماذا أفعل. أنا لا أعرف ماذا تريد".

قالت: "لا. أنت لا تعرف".

"بإمكانك أن تخبريني".

قالت فجأة دون أن تفتح عينيها: "أعتقد أن بإمكانى هذا وربما سأفعل. هل كانا يحبان بعضهما البعض". كان صوتها لا يزال ناعما وهادئا ولكنه استشعر بعض التوتر فى الهواء. "والدك والدتك".

قال ببطء وبحرص محاولاً فهم مغزى السؤال: "لا أعرف. إنهما كانا يحبان بعضهما البعض ولكنه كان يغيب كثيراً عن المنزل. كما قلت لك، لقد عاشا حياة صعبة".

قالت نورا وشعر ديفيد برجفة فى قلبه: "إن أبى أحب أمى أكثر مما أحبته هى. لقد أحبها ولكن بدا أنه عجز عن إظهار هذا الحب بطريقة تفهمها. لقد كانت تعتقد أنه غريب الأطوار وسخيف بعض الشيء. كان هناك الكثير من الصمت فى منزلى والذى كان يتصاعد. نحن نعانى من نفس حالة الصمت هذه فى منزلنا كذلك". بدأ يفكر فى ليا ليهما الهادئة بينما تميل رأسها فوق القبعة البيضاء ذات النقوش التى تأخذ شكل البط.

قال: "إنه صمت حميد".

"أحياناً".

"وفى أحيان أخرى؟".

قالت وهى تستدير لتستلقى على جانبها وتلتقى عيناها مع عينيها: "أنا مازلت أفكر فيها يا ديفيد. أبنتنا. كيف عساها ستكون؟".

لم يجب، وبينما كان يراقبها، بكت فى هدوء وهى تغطى وجهها بيديها. وبعد دقيقة ذهب إليها ولمس ذراعها؛ مسحت الدموع من عينيها.

سألت بحزم الآن: "ماذا عنك؟ ألا تفتقدها أيضاً؟".

قالت بصدق: "نعم. أنا أفكر فيها طوال الوقت".

وضعت نورا يدها على صدره والتى مرت فوق الخطاب الذى كان قد خبأه فى جيبه، وخلعت له قميصه.

أمسك يدها ولكن حتى حينما وضع ذراعه حولها كان يفكر: *أنا أحبك. أحبك للغاية ولكننى كذبت عليك.* حينذاك تضاعفت المسافة بينهما وازدادت عمقا بالرغم من أنها لم تكن تتعدى بضعة ملليمترات متحولة إلى كهف كبير يقف عند حافته. ابتعد عنها عائداً إلى الضوء والظل حيث مورت سحابة فوقه وكانت الصخرة تشع دفئا على ظهره. سألت وهى تربت على صدره: "ما الأمر؟ يا إلهى يا ديفيد ما الأمر؟".

"لا شيء".

قالت: "ديفيد. ديفيد من فضلك".

تردد وكان على وشك الاعتراف بكل شيء ولكنه لم يستطع. "مشكلة فى العمل. مريض. لا أستطيع أن أبعد هذه الحالة عن تفكيرى".

قالت: "دعك منه. لقد سئمت وتعبت من عملك".

كانت الصقور ترتفع عالياً مع التيارات الهوائية والشمس دافئة للغاية. كل شيء كان يسير فى دوائر عائداً فى كل مرة إلى نفس النقطة. لا بد أن يخبرها؛ ملأت الكلمات فمه: *أحبك. أحبك للغاية ولكننى كذبت عليك.*

قالت نورا وهى تجلس: "أريد طفلاً آخر يا ديفيد. إن بول كبير بما فيه الكفاية الآن وأنا مستعدة".

تفاجأ ديفيد للغاية حتى أنه لم يتحدث لمدة دقيقة.

قال أخيراً: "إن بول يبلغ عاماً واحداً فقط".

"ماذا إذن؟ أخبرنى الناس أنه من الأيسر شراء الحفاضات وكل مستلزمات الأطفال مرة واحدة".

"من هم هؤلاء الناس؟".

يعد ديفيد يؤمن أنه بمنأى عن سوء الحظ. كان من غير المحتمل من الناحية الإحصائية أن ينجب طفلاً آخر مصاباً بمتلازمة داون ولكن كان هذا ممكناً، فأى شيء كان ممكناً، وهو لا يستطيع خوض مثل هذه المخاطرة.

"ولكن إنجاب طفل آخر يا نورا لن يصلح الأمور. إن ذلك ليس سبباً صحيحاً".

بعد دقيقة من الصمت، وقفت منفضة يديها على بنطالها القصير ثم تقدمت في غضب خلال الحقل.

كان قميصه يرقد مجعداً إلى جواره وتخرج منه حافة خطاب أبيض. لم يأخذه ديفيد؛ حيث إنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. فكان الخطاب مختصراً وبالرغم من أنه نظر إلى الصور مرة واحدة فقط، فإنها كانت واضحة في ذهنه وكأنه هو من التقطها بنفسه. كان شعر فويب أسود وجميلاً مثل شعر بول. وكانت عيناها بنيتين وتلوح بيديها الممتلئتين في الهواء وكأنها تحاول إمساك شيء ما خارج مجال الكاميرا. فربما كانت كارولين هي من التقطت الصور. كان قد رآها في حفل التأبين، طويلة ووحيدة وترتدى معطفها الأحمر، وقد ذهب مباشرة إلى شقتها بعد ذلك دون أن يعلم تحديداً ماذا ينوي أن يفعل حيث إن كل ما يريده هو رؤيتها. ولكنها في ذلك الوقت كانت قد رحلت. كانت شقتها تبدو كما هي تماماً، الأثاث الخفيض والجدران البسيطة، الصنبور الذي يقطر في دورة المياه. ومع ذلك كان المكان والخزانات فارغة وفي المطبخ كان هناك ضوء خفيف ينسكب فوق مشمع الأرضية الأسود والأبيض، وقد وقف ديفيد ينصت إلى ضربات قلبه.

الآن كان يرقد فوق ظهره والسحب تتحرك فوقه لتلقى عليه ظلاً ثم ضوءاً. لم يحاول البحث عن كارولين، وبما أن خطابها لا يشتمل على عنوان مرسل يمكن الاستفادة منه فإنه لا يمكنه أن يعرف من أين يبدأ. وقد قال لها: "إنها بين يديك الآن". ولكنه

تنهدت: "كنت أعرف أنك سترفض".

أجاب ديفيد بحرص: "أنا لم أرفض".

لم تجب.

قال: "إن التوقيت غير مناسب. هذا هو كل ما في الأمر".

"بلى، لقد رفضت، ولكنك لا تود الاعتراف بالأمر".

ظل صامتاً وتذكر كيف كانت نورا تقف على مقربة كبيرة من حافة الجسر. تذكر كذلك صور اللاشيء التي التقطتها، والخطاب في جيبه. كل ما كان يريده أن تبقى حياتهما كما هي تماماً، وألا يتغير عالمهما، ويستمر هذا الاتزان الهش.

قال برقة: "إننا سعداء كما نحن. لماذا تريدان قلقله القارب؟".

أشارت إلى بول الذي كان ينام في هدوء وسكينة على ملاءته: "ماذا عن بول؟ إنه يفتقدها".

أجاب ديفيد بحدة: "إنه لا يستطيع تذكرها".

قالت نورا: "تسعة أشهر. ينموان وقلباهما متقابلان. كيف لا يتذكرها، بشكل ما؟".

قال ديفيد: "إننا لسنا مستعدين. أنا لست مستعداً".

"إن الأمر ليس متعلقاً بك وحدك. إنك متغيب عن المنزل طوال الوقت. ربما أنا التي تفتقدها يا ديفيد. في بعض الأحيان استشعر قربها الشديد، وكأنها في الغرفة المجاورة وأنني نسيته. أعلم أن هذا يبدو ضرباً من الجنون ولكنه حقيقي".

لم يجب بالرغم من أنه يعلم تماماً ماذا تقصد. كان الهواء عابقاً برائحة الفراولة. كانت أمه تعد معلبات من الفاكهة على الموقد الخارجي محرقة الخليط الرغوى حتى يتحول إلى عصير وبعد ذلك تملأ البرطمانات وتضعها فوق الرف لتبرق مثل الجواهر. وقد أكل هو وجون هذه المربى في الشتاء سارقين ملاعق منها عند إغفال أمهما عنهما بينما هما مختبئان أسفل غطاء الطاولة للعقها حتى ينظفاها. وقد قتل موت جون روح أمهما ولم

كان يفكر فى هذا الأمر فى لحظات غريبة: وهو وحده فى عيادته الجديدة، أو وهو يحمض الصور ليرى أشكالاً تبزغ فوق أوراق بيضاء، أو وهو راقد هنا على هذه الصخرة الدافئة فى حين سارت نورا مبتعدة وهى شاعرة بالغضب والألم.

كان متعباً وشعر بأنه يغط فى النوم. وكانت الحشرات تطن فى أشعة الشمس مما جعله يخاف قليلاً من النحل. كانت الحجارة فى جيبه تضغط على ساقيه. فى بعض الأحيان حينما كان طفلاً كان يجد والده جالساً على المقعد الهزاز بالشرفة تحوطه أشجار الحور المتلألئة والملتئنة بحشرات الحباحب. وفى إحدى هذه الليالى أعطاه والده حجراً ناعماً، رأس فأس كان قد وجده أثناء حفر خندق. قال له: *أكثر من الفسى عام، تخيل هذا يا ديفيد. لقد كانت تمسك به أياد أخرى منذ قديم الأزل ولكن تحت نفس هذا القمر.*

وكان ذلك فى إحدى الليالى. وكانت هناك هذه الأيام حينما كانا يخرجان معاً لاصطياد الثعابين المجلجلة. من الغسق وحتى الفجر كانا يسيران عبر الغابات وهما يحملان العصى المتشعبة والقماش يتدلى من فوق أكتافهما وصندوق معدنى يتأرجح فى يد ديفيد.

وقد بدا لديفيد دوماً أن الوقت يتوقف فى هذه الأيام وأن الشمس تظل للأبد فى كبد السماء وأن أوراق الأشجار الجافة تتحرك أسفل أقدامهما. وكان العالم حينها يقتصر عليه هو وأبوه والثعابين ولكنه كان ممتداً أيضاً حيث كانت السماء مفتوحة حولهما والتي كانت تغدو أعلى وأكثر زرقة مع كل خطوة، وحيث كان كل شىء يصبح أبطأ حينما يرصد حركة وسط ألوان الغبار والأوراق الجافة، وحيث تصبح الأشكال المعينة الظهر مرئية فقط حينما تتحرك الأفعى. وقد علمه والده كيف ينتظر فى سكون وهو يراقب العينين الصفراوين واللسان الخفاق. وفى كل مرة يتخلص فيها ثعبان من جلده تستمر المجلجلة فترة أطول،

وتستطيع أن تدرك من درجة ارتفاع المجلجلة فى سكون الغابة عمر الأفعى ومدى حجمها والمبلغ الذى سيجنيانه من ورائها. وبالنسبة للثعابين الكبيرة والتي تطلبها حدائق الحيوان والعلماء وفى بعض الأحيان محبو الثعابين، فإنهم قد يتلقون فى مقابل الواحد منها خمسة دولارات.

سقط الضوء عبر الأشجار مكوناً أشكالاً على أرض الغابة وكان هناك صوت الريح. بعد ذلك يعلو صوت المجلجلة وتظهر الرأس الخلفية للثعبان وترتفع ذراع والده القوية لتقحم العصا المتشعبة عند رقبة الثعبان. وقد امتدت الشوكة لتضرب بقوة فى الأرض الرطبة فيما تصبح الأفعى جامحة وغاضبة. وباستخدام إصبعيه القويين، يرفع والده الثعبان ويمسكه من خلف فكاه المفتوح بارداً وجافاً ويتلوى مثل السياط. يضع الثعبان فى حقيبة قماشية ويغلقها ويلقى بها فى الصندوق المعدنى ويغلق الغطاء. ودون أن يتحدث، كانا يمضيان قدماً وهما يعددان فى ذهنيهما نقود الثعابين. وكانت هناك أوقات - فى الصيف وآخر الخريف - حينما كانا يجنيان حتى ٢٥ دولاراً بهذه الطريقة. وقد كانا يستخدمان هذه النقود لشراء الطعام، وعندما كانا يذهبان للطبيب فى مورجان تاون، كانا يدفعان له من هذه النقود كذلك.

ديفيد.

جاءه صوت نورا ضعيفاً وملحاً عبر الماضى البعيد والغابة ثم ضوء النهار. نهض على مرفقيه فرآها تقف عند الحافة البعيدة لحقل الفراولة الناضجة وتنظر بجديّة لشيء فى الأرض دون حراك. شعر بدفقة من الأدرينالين والخوف تتسلل إليه. إن الثعابين المجلجلة تحب الأماكن المشمسة مثل هذا الذى كانت تقف فيه؛ فقد كانت تضع بيضها فى أرض الغابات المتعفنة والخصبة. نظر إلى بول الذى كان نائماً بهدوء فى الظل ثم نهض وركض والشوك يחדش كاحليه والفراولة تنفجر برقّة أسفل قدميه ثم دس يده داخل جيب بنطاله الجينز وأغلق قبضته حول

حجر كبير. وحينما اقترب بما فيه الكفاية ليرى الخط الداكن للثعبان ألقى عليه الحجر بأقصى قوة ممكنة. تقوس الحجر ببطء فى الهواء واستدار. سقط قبل الثعبان مسافة ست بوصات وانشق ليبرق قلبه الأرجوانى.

سألت نورا: "ماذا تفعل بحق السماء؟".

كان قد وصل إليها فى ذلك الحين. نظر للأسفل وهو يلهث. إنه لم يكن ثعباناً بالمرّة ولكن عصا داكنة ترقد ضد زند خشبى. قال مرتبكاً: "اعتقدت أنك ناديت على".

"لقد فعلت". أشارت إلى مجموعة من النباتات الشاحبة والتي توجد خلف خط الظل مباشرة. "نبات الأرسيمة - مثل هذا الذى كانت والدتك تزرعه. إنك تخيفنى يا ديفيد".

قال وهو يشير إلى العصا ويهز رأسه مرة أخرى محاولاً نسيان الماضى: "لقد ظننت أنه ثعبان. الحية المجلجلة. كنت أحلم على ما أعتقد. لقد ظننت أنك بحاجة للمساعدة".

بدت مندهشة وقام هو بهز رأسه ليفيق من حلمه. شعر بأنه شديد الغباء فجأة. كانت العصا هى مجرد عصا ليس أكثر. بدا اليوم طبيعياً بشكل غريب. فكانت الطيور تغرد وبدأت الأوراق تتحرك مجدداً فوق الأشجار.

سألت: "لماذا كنت تحلم بالثعابين؟".

قال: "لقد اعتدت اصطيادهم. من أجل المال".

كررت كلامه مندهشة: "من أجل المال؟ المال من أجل ماذا؟". عادت المسافة بينهما، هوة من الماضى لا يستطيع عبورها. مال من أجل الطعام ومن أجل هذه الرحلات إلى المدينة. لقد أتت من عالم مختلف، إنها لن تفهم ذلك قط.

قال: "كان هذا المال من أجل تعليمى".

أومأت وبدا أنها ترغب فى طرح مزيد من الأسئلة ولكنها لم تفعل ذلك.

قالت وهى تفرك كتفها: "هيا بنا... دعنا فقط نأتى ببول ونعود للمنزل".

سارا عبر الحقل وحزما أشياءهما. حملت نورا بول وحمل هو سلة الرحلة.

...

بينما كانا يسيران، تذكر والده وهو يقف فى عيادة الطبيب وأوراق المال الخضراء تسقط مثل أوراق الشجر على مكتب السكرتيرة. ومع سقوط كل ورقة، كان ديفيد يتذكر الثعابين وحركة أجراسهما التى تشبه السياط وأفواههما التى تنفتح على شكل حرف "V" وبرودة أجسامهما أسفل أصابعه وأوزانهما. أموال الثعابين. لقد كان صبيّاً - فى الثامنة أو التاسعة من عمره - وكان ذلك من الأشياء التى يستطيع القيام بها.

ذلك وحماية جون. فكانت أمه تقول له محذرة وهى تنظر للأعلى من أمام الموقد: "انتبه لأختك. أطعم الدجاج ونظف القنينة وانتزع الأعشاب الضارة من الحديقة. وانتبه لجون".

وكان ديفيد يفعل ذلك ولكن ليس باتقان. فقد كان يراقب جون ولكن لا يمنعها من الحفر فى القاذورات ووضعها فى شعرها. ولم يكن يواسيها حينما كانت تتعثّر بحجر وتسقط خادشة مرفقها. فكان حبه لها مغزولاً بعمق مع مشاعر الاستياء حتى أنه عجز عن حل خيوط الشعورين من بعضها البعض. لقد كانت مريضة طوال الوقت بسبب قلبها الضعيف ونزلات البرد التى كانت تصاب بها فى كل موسم والتى جعلتها تلهث من أجل أن تتنفس. ومع ذلك فحينما كان يعود من مدرسته وهو يحمل الكتب فوق ظهره كانت جون دوماً هى من تنتظره، وهى التى كانت تنظر فى وجهه وتعرف كيف كان يومه، وهى التى كانت تود أن تعرف كل شىء عنه. كانت أصابعها صغيرة وكانت تحب التربيت عليه، بينما يتلاعب النسيم بشعرها الناعم الطويل.

تجب أمه ولكن بعد برهة، أومأت ونهضت مغلقة سترتها بإحكام مرة أخرى. "ديفيد، أريدك أن تجلب الكتاب المقدس وتأتي معي إلى هناك وتقرأ الكلمات. فانا أريد أن يقرأها أحد على النحو الصحيح". وهكذا سارا عبر التل معاً. وكان الظلام قد حل حينما وصلا إلى هناك ووقف هو أسفل أشجار الصنوبر حيث كانت الريح تتحرك فوقه وكان مصباح الكيروسين الذي يقرأ على ضوءه يومض. كان يفكر بينما يقرأ الكلمات "إن الله هو من يحميني. وأنا لا أريد. ولكنني أريد. أريد". وقد بكت أمه وسارا في صمت فوق التل إلى المنزل حيث كتب خطاباً لأبيه ليعلمه بما حدث. وقد أرسله في يوم الاثنين حينما عاد إلى المدينة ذات الأضواء البراقة. وقف خلف الطاولة وألقى الخطاب بصندوق البريد الخشبي البالي.

...

حينما وصلا إلى السيارة أخيراً توقفت نورا لتفحص كتفها والذي كان وردياً داكناً بفعل أشعة الشمس. كانت ترتدى نظارة شمس وحينما نظرت إليه لم يستطع قراءة التعبير المرتسم على وجهها.

قالت: "ليس عليك أن تعيش دور البطل". خرجت هذه الكلمات بسلاسة وحرفية مما جعله يدرك أنها كانت تفكر فيها وربما تتدرب عليها طوال الطريق. "أنا لا أحاول أن أكون بطلاً".

قالت وهي تشيح بوجهها: "حقاً؟ بلى، إنك تحاول ذلك. ولكن ذلك خطئي أيضاً. لأنني طوال فترة طويلة كنت أريد أن ينقذني أحد. أنا أعرف هذا. ولكنني لست بحاجة لهذا بعد الآن. إنك لست مضطراً لحمايتي طوال الوقت الآن. أنا أبغض هذا".

بعد ذلك أخذت مقعد السيارة واستدارت مرة أخرى. وفي أشعة الشمس الرطبة، امتدت يد بول للإمساك بشعرها. وشعر

و ذات مرة حينما عاد من مدرسته في عطلة نهاية الأسبوع وجد الكوخ شاغراً في حين كانت خرقة معلقة فوق حوض الاستحمام ونسمات باردة تتخلل الهواء. جلس بالشرفة وهو يشعر بالجوع والبرد منتظراً. وبعد مضي فترة طويلة - قرب الغسق - لمح والدته تسير فوق التل وهي عاقدة ذراعيها. لم تتحدث حتى وصلت للعتبة وحينما نظرت إليه وقالت: "ديفيد، إن أختك ماتت - جون ماتت". كان شعر أمه مشدوداً للخلف بإحكام وكان هناك وريد ينبض بصدغها وكانت عيناها حمراوين من البكاء. كانت ترتدى سترة رمادية مغلقة وقالت: "لقد رحلت عنا يا ديفيد". وحينما وقف واحتضنها انهارت وبكت فقال: "متى" فأجابته: "منذ ثلاثة أيام، يوم الثلاثاء. كان ذلك في وقت مبكر من الصباح. كنت قد خرجت لجلب بعض الماء. وعندما عدت كان المنزل هادئاً فعلمت على الفور. علمت أنها رحلت. لقد توقفت عن التنفس". احتضن أمه ولم يجد شيئاً ليقوله. فالألم الذي شعر به كان عميقاً للغاية، علاوة على ذلك فقد كان فاقداً للحس لدرجة أعجزته عن البكاء، وضع ملاءة حول كتفي أمه. أعد لها كوباً من الشاي وخرج لتفقد الدجاج ووجد البيض الذي لم تجمععه فقام بجمعه. أطعم الدجاج وحلب البقرة. قام بهذه الأشياء المعتادة ولكنه حينما دخل المنزل كان لا يزال قاتماً والهواء ساكناً وجون مازالت غير موجودة.

قالت أمه بعد وقت طويل من الظلال التي كانت تجلس بها: "ديفيد، لا تذهب للمدرسة بعد الآن. تعلم شيئاً يفيدك في هذا العالم". شعر بالاستياء من كلامها هذا؛ فقد أراد أن تكون حياته ملكه هو وحده دون أن يتخللها هذا الظل وهذا الفقدان. شعر بالذنب لأن جون كانت ترقد تحت التراب حيث تغطيها القاذورات بينما لا يزال هو واقفاً هنا؛ لقد كان حياً وكانت الأنفاس تدخل وتخرج من رئتيه، كان يستطيع الشعور بها والشعور بضربات قلبه كذلك، قال: "سوف أصبح طبيباً"، ولم

ديفيد بالذعر بل وبالدوار أيضاً، دون أن يدري لماذا ساوره هذا الشعور. كما شعر بالغضب من نفسه، وأيضاً من كارولين التي لم تفعل ما طلبه منها والتي زادت من سوء الموقف. جلست نوراً المقعد الأمامي وأغلقت الباب وراءها. أدخل يده في جيبه بحثاً 'المفاتيح وبدلاً من ذلك أخرج آخر حجر جيود والذي كان 'ناعماً. كان دافئاً في راحة يده وقد أخذ يفكر في كل 'يحتويها العالم. طبقات الحجارة المخبأة أسفل سطح الأرض؛ تلك الأحجار الغائمة ذات القلوب الخفية البراقه.

مايو ١٩٧٠

١

قالت نورا للمعلمة وهى تراقب بول يجرى عبر العشب الجديد لفناء اللعب: "إنه مصاب بحساسية ضد النحل". تسلق فوق أعلى أرجوحة وجلس لبرهة فى حين كانت أكمامه البيضاء تخفق مع الريح ثم هبط للأسفل فى سعادة وهو يصطدم بالأرض. وكانت نباتات الأزالية الصحراوية متفتحة والهواء دافئ مثل الجلد ويمتلئ بطنين الحشرات والطيور. "إن أباه مصاب بهذه الحساسية أيضا. إنها خطيرة حقا".

قالت الأنسة ثروكمورتون: "لا تقلقى. إننا سننتبه إليه جدا".

كانت الأنسة ثروكمورتون صغيرة، فقد تخرجت لتوها فى الجامعة، وذات شعر أسود ونحيلة وتملؤها الحماسة. كانت ترتدى تنورة طويلة وحذاء بدون كعب وكانت عيناها دوماً على مجموعات الأطفال التى تلعب فى الحقل. وكانت تبدو حازمة

وعطوفة ويقظة. ومع ذلك لم تكن نورا تثق تماماً أنها تتقن عملها.

قالت في إصرار: "لقد أخذ نحلة. نحلة ميتة كانت ترقد على عتبة النافذة. وبعد ثوان كان ينتفخ مثل البالون".

كررت الآنسة ثروكمورتون وقد نفذ صبرها بعض الشيء: "لا تقلقى يا سيدة هنري". كانت بالفعل تتحرك مبتعدة - وأصبح صوتها النقى مواسياً مثل الجرس لمساعدة فتاة صغيرة دخل رمل في عينيها.

مشّت نورا ببطء تحت شمس الربيع الجديد وهى تراقب بول. كان يطارد طفلاً آخر ويحاول الإمساك به وكانت وجنتاه متوردتين ويجرى وذراعه متدلّيتان على جانبيه - كان ينام بهذه الطريقة أيضاً حينما كان رضيعاً. كان شعره أسود ولكن بخلاف ذلك، كان يشبه نورا - كما كان الناس يقولون - حيث له نفس التكوين العظمى ولون البشرة الجميل. كانت ترى نفسها فيه وكانت ترى ديفيد فيه كذلك؛ حيث كان يمتلك فكه وشكل أذنيه والطريقة التى يحب الوقوف بها وذراعيه المطويتين وهو يستمع إلى المعلمة. ولكن بول كان يتمتع بشخصيته الخاصة كذلك. كان يحب الموسيقى ويتمتع بأغان قام بتأليفها بنفسه طوال اليوم. فبالرغم من أنه كان فى السادسة من عمره فقط إلا أنه قام بالفعل بالغناء منفرداً فى المدرسة حيث كان يتقدم للأمام ببراعة وثقة أدهشتا نورا؛ حيث علا صوته العذب والواضح مثل جدول الماء فى قاعة الاستماع.

الآن توقف وربض إلى جوار صبي صغير آخر والذى كان يزيل أوراق الشجر من ماء البركة باستخدام عصا. كانت ركبته اليمنى مجروحة والضمادة التى يضعها فوقها منزوعة بعض الشيء. كانت أشعة الشمس تتلألأ داخل شعره الأسود القصير. ظلت نورا تراقبه وهو منغمس بجدية فى المهمة التى يقوم بها وسعيد

بحقيقة تواجده فى الحياة البسيطة. بول، ابنها. هنا فى هذا العالم.

"نورا هنرى! تماماً الشخص الذى كنت أود مقابلته". استدارت لترى كاي مارشال ترتدى بنطالاً وردياً ضيقاً وسترة وردية وحذاء بدون كعب جلدياً ذهبى اللون وقرطاً ذهبياً براقاً. كانت تدفع وليدها الجديد فى عربة من الأملود وبصحبتها ابنتها الأكبر إليزابيث التى ولدت بعد بول بأسبوع فى الربيع المفاجئ الذى تلا العاصفة الثلجية المفاجئة. كانت إليزابيث فى هذا الصباح ترتدى ثوباً وردياً مرقشاً وحذاءً جلدياً أبيض مفتوحاً. ودون انتظار، تركت الفتاة أمها وركضت نحو الأرجوحات بالفناء.

قالت كاي وهى تراقبها وهى تذهب: "إنه يوم جميل. كيف حالك يا نورا؟".

قالت نورا: "أنا بخير"، وقاومت رغبتها فى لمس شعرها وأدركت بحدة أنها ترتدى ملابس بسيطة مكونة من قميص أبيض وتنورة زرقاء، ولا ترتدى أية مجوهرات. وبغض النظر عن المكان أو الوقت اللذين تراها فيهما تكون كاي مارشال دوماً على هذه الحال: هادئة ولطيفة ومهندمة بشدة وكان أطفالها يرتدون ملابس رائعة ويتصرفون بشكل لائق. لقد كانت كاي تنتمى لهذا النوع من الأمهات الذى تخيلت نورا أنها ستكونه - تتعامل مع كل موقف باسترخاء وهدوء غريزى. كانت نورا معجبة بها ولكنها كانت تحسدها أيضاً. بل إنها فى بعض الأحيان ضبطت نفسها تفكر فى أنها لو كانت مثل كاي وأكثر هدوءاً وشعوراً بالأمان لكان زواجها أصبح أفضل وكانت هى وديفيد سيشعران بمزيد من السعادة.

كررت كلامها وهى تنظر للطفلة التى كانت تحقق فيها بعينين فضوليتين: "أنا بخير. انظري كيف كبرت أنجيلا!".

وبشكل تلقائي، انحنت نورا وحملت الطفلة، ابنة كاي الثانية، والتي كانت ترتدى ثوباً وردياً جميلاً يتلاءم مع ثوب أختها. كانت خفيفة ودافئة بين ذراعي نورا وشرعت في التربيت على وجنتي نورا بيديها الصغيرتين وهي تضحك. شعرت نورا بالسعادة متذكرة الشعور الذي كان بول يجعلها تشعر به؛ ومتذكرة رائحة الصابون واللبن التي كانت تصدر من جلده الناعم. نظرت عبر فناء اللعب، كان بول يجري ثانية حيث كان يلعب لعبة المطاردة. الآن بعد أن التحق بالمرسة أصبحت له حياته الخاصة. فإنه لم يعد يحب الجلوس فوق ساقها واحتضانها إلا حينما يكون مريضاً أو يريد أن تقرأ له قصة قبل النوم. وقد بدا مستحيلاً لها أنه قد كبر الآن وأصبح يقود دراجة ثلاثية ويدفع العصي في بركة الماء ويغنى بشكل جميل.

قالت كاي: "إن عمرها عشرة أشهر الآن. هل تصدقين هذا؟".

قالت نورا: "لا. إن الوقت يمر بسرعة كبيرة".

سألت كاي: "هل سمعت عما حدث في الحرم الجامعي؟".

أومأت نورا. "لقد اتصلت بي برى ليلة أمس وأخبرتني".

كانت تقف وهي ممسكة بسماعة الهاتف في يد بينما تضع الأخرى على قلبها وهي تشاهد الأخبار المروعة بالتلفاز: أربعة تلاميذ لقوا مصرعهم رمياً بالرصاص في ولاية كنت. وحتى في ليكسنجتون، ظلت الأجواء يسودها التوتر طوال أسابيع، وكانت الجرائد مليئة بأخبار الحرب والاعتراضات والتوتر التي تنم عن أن العالم في حالة من التغيير الجذري.

قالت كاي: "أمر مرعب"، ولكنها قالتها بنبرة هادئة وتنطوي على عدم استحسان أكثر من الفزع، نفس النبرة التي قد تستخدمها للتحدث عن طلاق شخص ما. أخذت أنجيلا وقبلت جبهتها ووضعتها برفق ثانية في عربتها.

قالت نورا موافقة: "أعرف ذلك". استخدمت نفس النبرة ولكن بالنسبة لها بدت أجواء التوتر شخصية للغاية، انعكاساً لما ظل يحدث بقلبها طوال سنوات. وطوال دقيقة شعرت بغبطة مفاجئة حادة أخرى. فكانت كاي تعيش حياة بريئة لا تعاني فيها من فقدان أحد حيث تؤمن بأنها ستكون دوماً بأمان؛ لقد تغير عالم نورا حينما ماتت فويب. فقد تحولت بهجتها إلى حزن - نتيجة لخسارتها واحتمال معاناتها من خسارة أخرى والذي يطاردها في كل لحظة الآن. وكان ديفيد ينصحها دوماً بالاسترخاء والاستعانة بخادمة لمساعدتها وألا ترهق نفسها كثيراً. وكان يصاب بالضيق من مشروعاتها واجتماعاتها وخطوطها. ولكن لم يكن بإمكان نورا ألا تبقى بالمنزل دون أن تفعل شيئاً؛ فذلك كان يجعلها تشعر بالتوتر. لذا كانت تقوم بإعداد اجتماعات وتملاً أيامها، وكانت تشعر بأنها إن تخلت عن يقظتها ولو للحظة واحدة فإن كارثة سوف تحل بهم. ويزداد هذا الشعور في وقت متأخر من الصباح، وكانت دائماً ما تحتسى كوباً من الشراب في هذا الوقت لتهدئتها خلال فترة بعد الظهر. فقد كانت تحب أن تشعر بالهدوء وهو ينتشر بداخلها مثل الضوء. وقد كانت تخبئ زجاجات الشراب بحرص من ديفيد.

قالت كاي: "على أية حال أحب أن أشكرك على دعوتنا إلى حفلتك. إننا نحب أن نأتي ولكننا سوف نتأخر قليلاً. هل تريد أن أجلب أي شيء معي؟".

قالت نورا: "فقط أنتم. إن كل شيء جاهز تقريباً. فيما عدا أنه على العودة إلى المنزل والتخلص من عشب الدبور".

اتسعت عينا كاي بعض الشيء. لقد كانت تنتمي لأسرة تعيش منذ فترة طويلة في ليكسنجتون وكان لديها "أناس" يعملون لديها كما كانت تطلق عليهم. أناس يعتنون بحوض السباحة وأناس يعتنون بالمرجة وأناس يعملون بالمطبخ. كان ديفيد يقول دوماً إن ليكسنجتون تشبه حجر الجير الذي شيدت

فوقه طبقات مختلفة من الناس، مكان كل شخص في التسلسل الهرمي محدد وثابت منذ الأزل.

"عش دبور؟ يا لك من مسكينة!"

قالت نورا: "نعم. يوجد العش فوق المرآب".

وقد شعرت بالسعادة لأنها صدمت كاي - حتى ولو بشكل خفيف؛ فقد كانت تشعر بالترقب لهذه المهمة التي أمامها. دبابير. أدوات التخلص من عش. وقد أملت نورا أن تستغرق تلك المهمة فترة الصباح بأكملها. فإنها إن لم تستغرق هذه الفترة فقد تجد نفسها تقود سيارتها - كما فعلت كثيراً في الأسابيع الأخيرة - بسرعة وقوة في حين يتطاير الغبار خلفها. وبإمكانها الوصول إلى نهر أوهايو في أقل من ساعتين. كانت قد ذهبت أيضاً إلى لويسفيل أو مايسفيل وإلى سينسيناتي. كما كانت توقف سيارتها عند جرف النهر وتخرج من السيارة وتشاهد النهر الممتد أسفلها بلا نهاية.

دق جرس المدرسة وبدأ الأطفال يتجمعون بالداخل. بحثت نورا عن رأس بول الأسود وشاهدته وهو يختفي. قالت كاي وهي ترسل بالقبلات إلى إليزابيث: "لقد أحببت غناء طفلينا معا. إن بول يمتلك صوتاً جميلاً. إنه موهوب حقاً".

قالت نورا: "إنه يحب الموسيقى. طالما أحببها".

كان هذا صحيحاً. فذات مرة حينما كان في شهره الثالث بينما كانت تتحدث في الهاتف مع صديقة لها بدأ فجأة الدندنة بأصوات غير مميزة، شلال من الأصوات التي انسكبت داخل الغرفة مثل الأزهار التي تسقط داخل شعاع من الضوء مما جعلها تقطع حديثها تماماً.

"إن هذا هو الشيء الآخر الذي أردت التحدث معك بشأنه يا نورا. إن تلك الحملة لجمع التبرعات التي أقيمها الشهر المقبل. سوف نعرض خلالها مسرحية سندريلا وقد أعلنت عن حاجتي للكثير من الأطفال للعب دور جنود المشاة. وقد فكرت في بول".

ورغماً عنها شعرت نورا بسعادة بالغة. فقد فقدت الأمل في تلقي مثل هذه الدعوة منذ سنوات بعد فضيحة زواج بولي وطلاقها.

قالت مستفسرة: "جندي مشاة؟".

قالت كاي معترفة: "حسناً، هذا هو أفضل دور. ليس مجرد جندي مشاة. إن بول سوف يغني. إنه غناء ثنائي مع إليزابيث". قالت نورا: "نعم". كان صوت إليزابيث عذبا ولكن ضعيفا. كان يبدو أنها تتظاهر بالبهجة وهي تغني حيث كانت عيناها المتوترتان تجوبان الجمهور. فصوتها لن يكون قوياً بدون بول.

"سوف يسعد الجميع إن شاركنا معنا".

أومات نورا ببطء وهي تشعر بالإحباط والضيق من نفسها للاهتمام بهذا الأمر. ولكن صوت بول كان صافياً وقوياً، وسيحب لعب دور جندي المشاة. وعلى الأقل فإن هذا الحفل سوف يشغل وقتها بعض الشيء، مثل إزالة عش الدبابير.

قالت كاي: "رائع! أتمنى ألا تمانعي ذلك. فقد سمحت لنفسى بحجز ملابس سهرة لبول. كنت أعلم أنك ستوافقين!". نظرت إلى ساعتها وأبدت استعدادها للرحيل. قالت وهي تلوح بيدها وهي تسير مبتعدة وتدفع العربة: "لقد سعدت بلاقائك".

كان الغناء شاعراً. برق غلاف قطعة حلوى ونظرت إلى دولااب الهواء عبر أعشاب الربيع ونباتات الأزالية الصحراوية الوردية. سارت نورا عبر الأرجوحات البراقة متوجهة إلى سيارتها. فقد ناداها النهر بمنحنياته الباعثة على الهدوء. ساعتان وسوف تكون هناك. فكان إغراء القيادة السريعة والرياح القوية والماء صعب المقاومة، وملحاً حتى أنها في الإجازة المدرسية الأخيرة شعرت بالصدمة حينما وجدت نفسها في لويسفيل بينما يشعر بول بالذعر في المقعد الخلفي، وكان شعرها تذروه الرياح وآثار الشراب قد أوشكت على الانسحاب. قالت وهي تقف ممسكة بيد بول الصغيرة وتنظر إلى النهر الطينى المتعرج: "ها هو النهر".

الآن سوف نذهب إلى حديقة الحيوان". هكذا أعلنت وكأنها كانت تخطط لذلك من البداية.

غادرت المدرسة وقادت سيارتها إلى المدينة عبر الشوارع التي تحوطها الأشجار من كلا الجانبين، مارة على البنك ومتجر المجوهرات والشوق يملؤها. أبطأت حينما مرت أمام شركة "وورلد ترافل". فأمس أجرت مقابلة عمل هناك. فإنها قد قرأت الإعلان في الجريدة وأتت إلى المبنى الخفيض ذي الطوب الأصفر واللوحات الساحرة في النوافذ: شواطئ ومبان براقية، وسماوات حية وألوان. ولم ترد الوظيفة حقاً حتى ذهبت إلى هناك. فبينما كانت تجلس وهي مرتدية ثوبها الكتاني الضيق ومحتضنة حقيبتها البيضاء فوق ساقبها شعرت بأنها تحتاج إلى هذه الوظيفة أكثر من أي شيء آخر. كان مالك هذه الوكالة رجلاً يدعى بيت وارين وكان يبلغ من العمر خمسين عاماً، وكان أصلع من قمة رأسه وكان ينقر بقلمه الرصاص على لوحة المشبكي ويمزج بشأن الويلدكاش. وقد أثارت إعجابه - كما أدركت - حتى بالرغم من أن دراستها كانت في اللغة الإنجليزية وأنها لا تمتلك أي خبرة. ومن المفترض أن تعرف نتيجة المقابلة لليوم.

وخلفها أطلق شخص ما آلة التنبيه. أسرع نورا. وكان هذا الطريق يخترق المدينة ويتقاطع مع طريق سريع. ولكن حينما اقتربت من الجامعة، كانت هناك زحمة سير. كانت الشوارع مليئة بالناس حتى أنها أبطأت إلى حد الزحف ثم اضطرت إلى التوقف تماماً. خرجت من السيارة وتركتها. ومن بعيد من داخل أعماق الحرم الجامعي أتت أصوات مرتفعة وترنيمية مليئة بالحماسة والحيوية والتي كانت تشبه إلى حد ما البراعم التي تتفجر متفتحة فوق الأشجار. وقد بدا أن تملأها وشوقها قد انحسرا بفعل هذه اللحظة، فقامت بالذوبان داخل تكديس الناس. كانت تملأ الهواء رائحة العرق وزيت البتشول وكانت أشعة الشمس دافئة على ذراعيها. فكرت في المدرسة الابتدائية التي

تبعد ميلاً واحداً، والنظام السائد هناك، كما فكرت في نبرة صوت كاي مارشال التي كانت تعكس عدم استحسان ومع ذلك فقد مضت قدماً في طريقها. كانت الأكتاف والأذرع والشعر تصطدم بها. بدأ الزحام ينحسر حيث كان هناك حشد مجتمع عند مبنى تدريب فيلق ضباط الاحتياط، حيث وقف شابان على الدرجات أحدهما يحمل بوقاً. توقفت نورا أيضاً متلهفة إلى رؤية ما يحدث. أحد الشابين - والذي كان يرتدي حلة ورابطة عنق كان يمسك بالعلم الأمريكي عالياً والذي كان يرفرف بخطوطه الحمراء. وبينما كانت تراقب مد الشاب الآخر والذي كان حسن الهندام كذلك قبضته بالقرب من حافة العلم. كانت السنة النار غير مرئية في البداية ولكنها سرعان ما انتشرت داخل القماش وارتفعت أسفل أوراق الشجر وزرقة السماء.

شاهدت نورا ذلك يحدث وكأنه بالتصوير البطيء. ومن خلال الهواء المضطرب، رأت برى تتحرك عبر محيط الحشد بالقرب من المبنى توزع منشورات. كان شعرها الطويل منسدلاً وراء ظهرها في ذيل فرس والذي كان يتأرجح على قميصها الأبيض القروي. كانت نورا تعتقد أنها جميلة للغاية وشرعت في مراقبة تعبيرى العزم والإثارة اللذين يرتسمان على وجه أختها في اللحظة السابقة لاختفائها. تصاعدت الغيرة داخلها ثانية، مثل السنة اللهب: الغيرة من برى، من ثققتها بنفسها وحريتها. شقت نورا طريقها عبر الحشد.

رأت أختها مرتين أخريين - وميض شعرها الأصفر ووجهها - قبل أن تصل إليها أخيراً. في ذلك الحين كانت برى تقف على الحاجز الحجري تتحدث إلى شاب ذي شعر أحمر، بدا حديثهما جاداً للغاية حتى أنها حينما لمست نورا أخيراً ذراع برى استدارت وهي مندهشة للحظة طويلة قبل أن تتعرف على أختها.

قالت: "نورا؟". وضعت يدها على صدر الرجل ذى الشعر الأحمر بشكل واثق وحميمى جعل قلب نورا ينقبض. قالت برى: "تلك هى شقيقتى. نورا، هذا هو بارك".

أوماً دون أن يبتسم وصافح نورا وهو يقيمها.

قالت نورا بينما يتنامى إلى إدراكها ثانية ملابسها والتي كانت غير مناسبة هنا كما كانت غير مناسبة فى فناء المدرسة وذلك لأسباب مختلفة تماماً: "لقد أضرموا النار فى العلم".

ضاقت عينا مارك البنيتين قليلاً وهز كتفيه.

قال: "لقد حاربوا فى فيتنام. لذا أعتقد أن لديهم الأسباب التى تدفعهم إلى ذلك".

"لقد فقد مارك نصف قدمه فى الحرب فى فيتنام".

وجدت نورا نفسها تنظر للأسفل إلى حذاء مارك والذى كان يرتفع حتى كاحليه.

قال وهو ينقر قدمه اليمنى: "النصف الأمامى. الأصابع ثم جزء من القدم".

قالت نورا وهى محرجة للغاية: "أرى ذلك".

سألت برى: "هل يمكن يا مارك أن تتركنى للحظة؟".

نظر إلى الحشد المتحرك: "إننى المتحدث التالى".

قالت: "لا بأس. سوف آتى على الفور"، ثم أخذت يد نورا وشدتها بضعة ياردات بعيداً ليدخلا أسفل مجموعة من أشجار الكتلية.

سألت: "ماذا تفعلين هنا؟".

قالت نورا: "لا أعرف. لقد اضطررت أن أتوقف حينما شاهدت هذا الحشد".

أوماً برى بينما كان قرطها الفضى يبرق. "إن الأمر رائع، أليس كذلك؟ لا بد أن هناك خمسة آلاف شخص هنا. لقد كنا نأمل أن يأتى خمسمائة. إن ذلك بسبب ما حدث فى ولاية كنت. تلك هى النهاية".

تساءلت نورا: "نهاية ماذا؟"، بينما كانت أوراق الأشجار ترفرف حولها. فى مكان ما كانت الآنسة ثروكمورتون تنادى على الأطفال، ويجلس بيت وارين خلف بطاقات السفر البراقة يكتب التذاكر. والدبابير تطير بكسل فى الجو الشمس عند المرباب. هل يمكن للعالم أن ينتهى اليوم؟

سألت: "هل هذا صديقك؟ هل هو من كنت تتحدثين معى عنه".

أوماً برى وهى تبتسم ابتسامة خاصة.

"أنت واقعة فى الحب!".

قالت برى برقة وهى تنظر إلى مارك: "أعتقد هذا. أعتقد أن هذا صحيح".

قالت نورا وقد أفرعها صوت أمها الذى انعكس فى صوتها: "حسناً، أتمنى أن يحسن معاملتك". ولكن برى كانت سعيدة للغاية حتى أنها لم تفعل شيئاً سوى الضحك.

قالت: "إنه يحسن معاملتى. هل أستطيع إحضاره فى نهاية الأسبوع؟ فى حفلك؟".

قالت نورا وهى غير واثقة تماماً: "بالتأكيد".

"رائع. آه يا نورا، هل حصلت على تلك الوظيفة التى كنت تريدونها؟".

كانت أوراق الأشجار تتحرك بفعل الريح وخلفهما يتمايل الحشد ويتموج.

أجابت نورا وهى تفكر فى المكتب الجميل ورائع الألوان: "لا أعرف بعد". وفجأة بدت لها طموحاتها تافهة للغاية.

قالت برى: "ولكن كيف سارت المقابلة؟".

"كانت جيدة. أنا فقط لست واثقة من أننى أريد هذه الوظيفة حقاً. هذا هو كل ما فى الأمر".

دفعت برى خصلة شعر خلف أذنها وقطبت جبينها.

وقفت نورا لدقيقة أسفل أشجار الكتلة وهى تشعر بغضب تعلم أن لا مبرر له. ماذا بها؟ كيف لها أن تحسد كاي مارشال فى دققة ثم تحسد برى فى الدققة التالية لأسباب مختلفة تماماً؟

شقت طريقها خلال الحشد حتى سيارتها. وبعد هذا الشغب والتظاهر بدت شوارع المدينة عادية بشكل مشؤوم. لقد مر وقت طويل؛ إن لديها ساعتين فقط قبل أن تذهب لتأتى ببول. ليس وقتاً كافياً للذهاب إلى النهر. فى المنزل وداخل المطبخ الشمس صبت نورا لنفسها كأساً من الشراب. كان الكوب صلباً وبارداً فى يدها وبرقت بداخله مكعبات الثلج. وفى حجرة المعيشة توقفت أمام صورتها وهى تقف على جسر حجري طبيعى. حينما تذكرت هذا اليوم - تلك النزهة - لم تفكر قط فى هذه اللحظة. بدلاً من ذلك تذكرت العالم الممتد أسفلها، الشمس والهواء على جلدتها. قال ديفيد فى إصرار: "دعنى ألتقط لك صورة" فاستدارت لتجده جاثماً ومصمماً على تسجيل لحظة لم تحدث حقاً. وقد شعرت بالأسف لأنها كانت محقة بشأن هذه الكاميرا. فقد دفعه افتقانه بها والذى وصل إلى حد الهوس إلى بناء حجرة مظلمة فوق المرآب.

ديفيد. كيف يتسنى مع مرور السنوات أنه أضحى أكثر غموضاً لها وكذلك أكثر ألفة؟ لقد ترك زوجاً من الأحجار الكهرومائية على الخزانة أسفل الصور. حملتهما نورا فى راحة يدها وهى تنصت إلى الساعة وصوت حركة عقاربها فى حجرة المعيشة. أصبح الحجران أكثر دفئاً فى يدها وبث فيها نعومتها شعوراً بالراحة والسكينة. كانت تجد الأحجار فى كل مكان، فى جيب ديفيد، ومتناثرة على المزيانة، وداخل أظرف على المكتب. وفى بعض الأحيان كانت ترى ديفيد وبول فى الفناء الخلفى، ورأسهما منحنيتان فوق حجر ما. وأثناء مراقبتهما كان قلبها يمتلئ دوماً بنوع من السعادة التى يتخللها القلق. فكانت مثل

"لماذا لا؟ أمس فقط كنت تريد هذا الوظيفة بشدة. كنت متحمسة للغاية. إنه ديفيد، أليس كذلك؟ هو الذى قال لك إنك لا تستطيعين العمل".

شعرت نورا بالضيق وهزت رأسها. "إن ديفيد لا يعلم. برى، إنه فقط مكتب صغير. عمل ممل وببيروقراطى. إنك لن ترضى بهذه الوظيفة أبداً".

قالت برى فى عدم صبر: "أنا لست أنت. وأنت لست أنا. لقد كنت تريد هذه الوظيفة يا نورا. من أجل المكانة الاجتماعية، بحق السماء من أجل الاستقلال".

لقد كان هذا صحيحاً، كانت تريد الوظيفة ولكنه كان صحيحاً كذلك أن الغضب تآجج بها ثانية: إن برى التى تقف هناك تشعل مظاهرات تريد تقييدها فى وظيفة تبدأ فى التاسعة وتنتهى فى الخامسة.

"إننى سوف أنسخ فقط على الآلة الكاتبة دون أن أسافر. لن يكون ذلك قبل سنوات حينما أسافر. إنها ليست الحياة التى تخيلتها لنفسى يا برى".

"ولكن دفع الكنيسة الكهربائية هى الحياة التى تريدونها؟". فكرت نورا فى الريح الجامحة فى أوهايو تهب على بعد ثمانين ميلاً فقط. ضغطت شفيتها معاً ولم تجب.

"إنك تثيرين جنونى يا نورا. لماذا أنت خائفة من التغيير؟ لماذا لا تعيشين حياتك وتنطلقين فى العالم؟".

قالت: "أنا أعيش حياتى. أنت لا تملكين أدنى فكرة كيف أعيشها".

"إنك تدفين رأسك فى الرمال. هذا هو ما أراه".

"إنك لا ترين شيئاً سوى الرجل المناسب التالى".

"حسناً. لقد انتهينا هنا". أخذت برى خطوة واحدة للأمام واختفت على الفور داخل الحشد.

هذه اللحظات نادرة؛ فكان ديفيد منشغلاً للغاية هذه الأيام. وقد أرادت نورا أن تقول له: "مضى بعض الوقت مع ابنك، فهو يكبر بسرعة".

وضعت نورا الحجرين في جيبها وأخذت شرابها للخارج. وقفت أسفل العش الورقي تشاهد الدبابير تطير في دوائر ثم تختفي بالداخل. ومن حين لآخر كان دبور يطير بالقرب منها حيث تجذبه رائحة الشراب العذبة. كانت ترتشف وتراقب. كانت عضلاتها وخلاياها ترتخي وكأنها ابتلعت دفء اليوم. أنهت شرابها ووضعت الكوب على ممر السيارة وذهبت للإتيان بقفاز الحديقة والقبة ملتفة حول دراجة بول. لقد كبر بالفعل عليها؛ لابد أن تحزمها بعيداً مع باقى الأشياء: ملابسها وهو رضيع والملابس التي أصبحت صغيرة عليه. إن ديفيد لا يريد مزيداً من الأطفال، والآن بعد أن دخل بول المدرسة توقفت عن التجادل معه بشأن هذا الأمر. فكان من الصعب تخيل العودة إلى استخدام الحفاضات ورضاعات الثانية بعد منتصف الليل بالرغم من أنها كثيراً ما تشتاق إلى حمل رضيع آخر بين ذراعيها: مثل أنجيلا هذا الصباح، دفنها ووزنها الخفيف. كم كانت كاي محظوظة دون أن تعلم هذا.

ارتدت نورا قفازيها وخرجت تحت أشعة الشمس مجدداً. لم تكن تعرف الكثير عن الدبابير أو النحل، فيما عدا أنها تعرضت للدغ حينما كانت في الثامنة من عمرها، تلك اللدغة التي ظلت تؤلمها طوال ساعة ثم برأت. وحينما التقط بول النحلة الميتة من فوق عتبة النافذة ثم صرخ متألماً لم تشعر بالذعر على الإطلاق. فقد وضعت الثلج على المكان المتورم، واحتضنته حضناً طويلاً في أرجوحة الشرفة؛ فكل شيء سيكون على ما يرام. ولكن سرعان ما زاد احمرار وتورم يده، ذلك التورم الذى انتشر بسرعة. أصبح وجهه منتفخاً فنادت على ديفيد والخوف يملأ صوتها. وقد أدرك على الفور ماذا كان يحدث والحقنة التي لابد

لبول أن يأخذها. وفى غضون دقائق، بدأ بول يتنفس بشكل طبيعى مرة أخرى. قال ديفيد: "كل شيء على ما يرام". وكان هذا صحيحاً ولكن هذه الحادثة جعلتها تتجمد خوفاً. ماذا لو لم يكن ديفيد بالمنزل؟

ظلت تراقب الدبابير لبضع دقائق وهى تفكر فى المتظاهرين فوق القل والعالم غير الآمن والذى لا يثبت طويلاً على نفس الحال. لقد ظلت دوماً تفعل ما هو متوقع منها. فإنها قد التحقت بالجامعة وعملت بوظيفة متواضعة ثم تزوجت زيجة جيدة ومع ذلك فمنذ ميلاد طفليها - بول الذى يهبط على الأرجوحة وذراعه تحلقان فى الهواء وفويب الحاضرة الغائبة التى تأتياها فى أحلامها وتقف فى مكان بعيد أمامها دوماً - لم تعد نورا تستطيع فهم العالم بنفس الطريقة. فقد جعلتها خسارتها تشعر بقلّة الحيلة وقد قاومت هذا الشعور بشغل نفسها طوال الوقت.

والآن تفحصت الأدوات بتأنٍ. إنها سوف تتعامل مع هذه الحشرات بنفسها. كانت المجرفة طويلة الذراع ثقيلة فى يديها. رفعتها ببطء ووجهت ضربة قوية وجريئة للعش، فاقتحم النصل العش الورقى بسهولة. وقد أسعدتها قوة تلك الضربة الأولى. ولكن حينما سحبت المجرفة للخلف تدفقت الدبابير فى غضب وحسم من العش المحطم متجهة ناحيتها. وقد لدغها أحدهم فى مرفقها والآخر فى وجنتها. ألقت المجرفة وركضت للداخل مغلقة الباب وراءها ووقفت وظهرها متكئ على الباب وهى منقطعة النفس.

وفى الخارج حلق السرب فى دائرة وهو يطن فى غضب حول العش المحطم. بعض الدبابير وقفت على عتبة النافذة بينما تتحرك أجنحتها الرقيقة بخفة. وبينما كانت تتجمع فى غضب، تذكرت نورا التلاميذ الذين رأتهم هذا الصباح، فكرت فى نفسها. ذهبت إلى المطبخ وصبت لنفسها كأساً آخر واضعة بعضاً من الكحول على وجنتها ورسغها حيث بدأت اللغات تتورم. كان

الشراب يملؤها بإحساس بالدفع والقوة والحيوية. مازال أمامها ساعة قبل أن يحين وقت الذهاب للإتيان ببول. قالت بصوت مرتفع: "حسناً أيتها الدبابير اللعينة. لقد نلت كفايتي منكم الآن".

كان هناك مبيد حشرى بالخزانة فوق المعاطف والأحذية والمكنسة الكهربائية - المكنسة الإلكترونية المعدنية الزرقاء الجديدة تماماً. تذكرت نورا برى وهى تدفع بعيداً شعرها الذهبى من فوق وجنتيها. "دفع المكنسة الكهربائية - تلك هى الحياة التى تريدونها؟".

كانت نورا قد قطعت نصف المسافة إلى الباب قبل أن تأتيتها هذه الفكرة.

كانت الدبابير مشغولة تحاول بالفعل إعادة بناء العش وبدا أنهم لم يلاحظوا نورا حينما خرجت ثانية حاملة المكنسة الإلكترونية. كانت الآلة ترقد فوق ممر السيارة - فى ذلك المكان الذى لا تنتمى إليه - كدب معدنى أزرق. ارتدت نورا قفازيها ثانية ثم ارتدت قبعتها وسترتها. لفت وشاحاً حول وجهها. قامت بتشغيل المكنسة وتركبتها تطن لدقيقة، ذلك الصوت الذى بدا ضعيفاً فى هذا المكان المفتوح، قبل أن ترفع فم الخرطوم. وبجراحة وضعته داخل ما تبقى من العش. أخذت الدبابير تطن وتخرج غاضبة - وقد آلتها وجنتها وذراعها بمجرد رؤيتهم - ولكن سرعان ما امتصتهم المكنسة. لوحت بالخرطوم فى الهواء - وكأنه صولجان سحرى - جامعة الحشرات الغاضبة ومحطمة العش الضعيف. وخلال وقت قصير كانت قد جمعت كل الحشرات. تركت المكنسة دائرة فى حين بحثت عن طريقة لتغطية فم الخرطوم؛ فلم تكن تريد لهذه الدبابير الثائرة أن تفر هاربة. غرست الخرطوم فى الرمال ولكن بدأت الآلة تصدر صوتاً طناناً. بعد ذلك لاحظت أن ماسورة السحب بالسيارة تلائم فوهة

الخرطوم تماماً. وهى شاعرة بالرضا ويغمرها إحساس بالإنجاز، أغلقت نورا الآلة وولجت للداخل.

وعند حوض دورة المياه - بينما تتخلل أشعة الشمس النوافذ الباردة - خلعت وشاحها وقبعتها وبدأت تتفحص صورتها بالمرآة. عينان خضراوان وشعر أصفر ووجه أرهقه القلق. كان شعرها مفروداً وجلدها يمتلئ بحبات العرق. وقد ظهر حبار أحمر فوق وجنتيها. مضت برفق داخل شفتها متسائلة عما سوف يفعله ديفيد حينما ينظر إليها. متسائلة من هى حقاً، من هى هذا المرأة التى تحاول الانسجام مع كاي مارشال فى لحظة والتجاوب مع أصدقاء برى فى اللحظة التالية، التى تقود بجموح إلى النهر، دون أن تذهب قط إلى مكان يشبه المنزل؟ أى هذه الشخصيات كان ديفيد يرى؟ أم أنها كانت امرأة مختلفة تماماً التى كانت تنام إلى جواره كل ليلة؟ إنها هى نعم ولكن ليس كما ترى نفسها. وليس كما كانت ترى نفسها أيضاً أو حتى ترى الرجل الذى تزوجته كل ليلة حينما يعود إلى المنزل ويعلق سترته بحرص فوق المقعد ويفتح جريدة المساء.

جفت يديها وذهبت لتضع ثلجاً فوق وجنتها المتورمة. كان العش يتدلى محطماً وفارغاً من إفريز المرآب. كانت المكنسة الإلكترونية رابضة فى الممر وموصولة إلى ماسورة السحب الخاصة بالسيارة من خلال خرطومها الطويل المثنى، حبل سرى فضى يبرق فى الشمس. تخيلت ديفيد يعود للمنزل ليجد الدبابير قد اختفت والفناء الخلفى مزيناً وتجهيزات الحفل مكتملة. سوف يندهش - كما تمنى - ويشعر بالسعادة.

نظرت إلى ساعتها. لقد حان وقت إحضار بول. وعند درجات السلم الخلفية وقفت نورا وهى تنقب داخل حقيبتها عن مفاتيح المنزل. علت ضوضاء غريبة من ممر السيارة جعلتها تنظر للأعلى. كانت نوعاً من الطنين، وفى البداية ظنت أن الدبابير تمكنت من الهرب. ولكن لم يكن هناك أى شىء يحلق بالهواء

الأزرق. وقد أصبح الطنين أزيزاً ثم تصاعدت رائحة الأوزون الكهربائية ورائحة الأسلاك المحترقة. وكان كل هذا صادراً - كما أدركت نورا بدهشة بطيئة - عن الإلكترولكس. هرعت أسفل الدرج. خطت فوق الطريق في حين كانت يدها ممتدة عبر هواء الربيع حينما انفجرت الإلكترولكس فجأة وطارت بعيداً عنها عبر المرجة الخضراء إلى أن اصطدمت بشدة بالسور حتى أنها كسرت لوحاً خشبياً. سقطت الآلة الزرقاء بين نباتات الوردية في حين يتصاعد الدخان منها مكوناً سحباً زيتية وكانت تأن مثل حيوان جريح.

وقفت نورا ساكنة ويدها ممتدتان للأمام ومجمدة في مكانها مثل إحدى صور ديفيد تحاول تفسير ما حدث. وقد انكسر جزء من ماسورة سحب السيارة، وحينما رأت هذا استوعبت ما حدث: لا بد أن أبخرة الجازولين تجمعت في موتور المكنسة الكهربائية الذي كان لا يزال ساخناً مما أدى إلى انفجارها. فكرت نورا في بول المصاب بحساسية ضد النحل، هذا الصبي الذي يمتلك صوتاً يشبه الفلوت، والذي ربما كان واقفاً الآن في الممر إن كان بالمنزل.

وبينما كانت تحقق أمامها، خرج دبور من ماسورة السحب وطار مبتعداً.

بشكل ما، رأت نورا أن ما يحدث يفوق قدرتها على التحمل. وعلى الرغم من جهدها المضني وبراعتها، سوف تهرب الدبابير. عبرت المرجة. وبحركة سريعة لا يشوبها تردد فتحت الإلكترولكس ومدت يدها عبر الدخان وجذبت الحقيبة الورقية المليئة بالغبار والحشرات وألقت بها على الأرض وبدأت تدوس عليها، وكأنها ترقص رقصة قوية. أحدثت ثقباً بأحد جوانب الحقيبة الورقية فخرج منه دبور ولكنها داسته بقدمها سريعاً. لقد كان بول هو من تحارب لأجله، ولكن أيضاً من أجل بعض الثأر لنفسها. كانت برى قد قالت لها: "أنت خائفة من التغيير.

لماذا لا تعيشين حياتك فقط؟". ولكن كيف تعيش حياتها؟ أخذت نورا تتساءل طوال اليوم: كيف تعيش حياتها؟ لقد كانت تعرف الإجابة عن هذا السؤال فيما سبق: فقد كانت ابنة وطالبة وعاملة تلغراف، تلك الأدوار التي قامت بأدائها بسهولة. بعد ذلك أصبحت خطيبة أحدهم ثم زوجة شابة ثم أما واكتشفت أن تلك الكلمات كانت صغيرة بدرجة لا تعكس حجم التجربة الحقيقي.

وحتى بعدما أصبح من الواضح أن جميع الدبابير داخل الحقيبة قد ماتت ظلت نورا ترقص فوق الفوضى بشكل جامح وجاد. كان ثمة شيء ما يحدث، لقد تغير شيء ما في العالم وفي قلبها. في هذه الليلة - أثناء احتراق مبنى ROTC بالحرم الجامعي وتصاعد ألسنة اللهب في ليل الربيع الدافئ - سوف تحلم نورا بالدبابير والنحل، بالطنانات الكبيرة الحالة وهي تسبح عبر الحشائش الطويلة. وفي اليوم التالي سوف تستبدل المكنسة الكهربائية دون أن تخبر ديفيد شيئاً عن الحادث. وسوف تقوم بإلغاء اشتراك بول بحفل كاي لجمع التبرعات، وسوف تقبل هذه الوظيفة. مكانة اجتماعية نعم ومغامرة وحياة خاصة بها.

كل هذا سوف يحدث. ولكن في اللحظة الحالية لم تكن تفكر في شيء سوى حركة قدميها، وقد تحولت الحقيبة ببطة إلى كومة قذرة من الأجنحة والزباني. ومن مسافة بعيدة، زأر صوت المتظاهرين وسافر عبر هواء الربيع حيث كانت تقف. نبض الوريد بصدغها. ما كان يحدث هناك كان يحدث هنا أيضاً، في سكون فناء منزلها الخلفي، في الفراغات السرية لقلبها: انفجار لن تعود الحياة كسابق عهدها بعده.

خلق دبور بالقرب من نبات الأزالية الصحراوية وطار مبتعداً في غضب. هبطت نورا من فوق الحقيبة الورقية الندية. سارت عبر المرجة وهي شاعرة بالدوار وتمسك بمفاتيحها. استقلت سيارتها وكأنه يوم عادى تماماً وقادتها لتأتي بابنها.

جثم على الأرض وبسط ذراعيه فارتدى بول بينهما ووضع رأسه بخفة فوق كتف ديفيد بينما كان هُلب قصة شعره الجديدة ناعماً وشائكاً ضد رقبة ديفيد. كان بول نحيلًا وقويًا، صبيًا هادئًا ومطيئًا. قبل ديفيد جبهته وندم على اللحظة التي غضب فيها وهو معجب بمعظم كتف ابنه، الرائع والمثالي والذي كان يمتد مثل الأجنحة أسفل طبقات من الجلد والعضلات.

سأله وهو يجلسه على ركبتيه: "حسنًا. ما الأمر المهم؟ ما الأمر المهم الذي أفسد صوري؟".

قال بول: "انظر يا أبى! انظر ماذا وجدت!". فتح قبضته الصغيرة. كان بها العديد من الأحجار المنبسطة، أقراص رفيعة ذات ثقب في منتصفها، والتي كانت فى حجم الأزرار.

قال ديفيد وهو يلتقط واحدة: "إنها رائعة. أين وجدتتها؟". "أمس. حينما ذهبت مع جاسون إلى مزرعة جده. إن هناك خليجاً صغيراً ولا بد أن تكون حريصاً لأن جاسون رأى أفعى نحاسية الرأس الصيف الماضى، ولكن الجو الآن بارد للغاية، الأمر الذى يجعل ظهور الثعابين مستحيلاً، لذا فقد تحركنا بحرية وقد وجدت هذه عند حافة النهر مباشرة".

"رائع". مرر ديفيد يده على الأحافير؛ والتي كانت خفيفة ورقيقة وعمرها آلاف السنوات، والتي كانت تحفظ الوقت بشكل أوضح من أى صورة. "إن تلك الأحافير كانت جزءاً من زنبق الماء يا بول. فمنذ أمد بعيد كانت مساحة كبيرة من كنتاكي تقع أسفل المحيط".

"حقاً؟ رائع. هل هناك صورة لها فى كتب الأحجار؟". "ربما. حسنًا، سوف نرى ذلك بمجرد أن أنظف المكان. ما أخبار تجهيزات الحقل؟"، ثم ذهب إلى باب الحجرة المظلمة ونظر للخارج. كان يوماً ربيعياً جميلاً، كان الهواء ناعماً ودافئاً وكان نبات القرانىا مزدهراً حول محيط الحديقة. كانت نورا قد

"أبى؟ أبى".

حينما سمع صوت بول وخطواته السريعة الخفيفة على درجات المراتب، رفع ديفيد عينيه من فوق الورقة التي كان قد وضعها لتوه فى مطروف الأفلام الفوتوغرافية.

قال بصوت مرتفع: "انتظر! فقط لدقيقة يا بول". ولكن بينما كان يتحدث انفتح الباب وتسلسل الضوء داخل الغرفة.

"اللعنة!". رأى ديفيد الورقة تسود سريعاً والصورة تتبخّر نتيجة لهذا الضوء المفاجئ. "اللعنة يا بول لقد قلت لك مليون مرة ألا تدخل والمصباح الأحمر مضاء؟".

"آسف. أنا آسف يا أبى".

أخذ ديفيد نفساً عميقاً. كان بول فى السادسة من عمره فقط وقد بدا ضئيل الحجم للغاية وهو يقف عند الباب. "لا بأس يا بول. تعال. آسف لأننى صحت فيك هكذا".

قالت وهي تنظر إلى الساعة: "ارتد ملايسك". جففت يديها بفضة. "ولكن أولاً ضع هذا الطبق في الثلاجة بالأسفل، حسناً؟ إن تلك ممتلئة بالفعل. شكراً لك".

أخذ ديفيد الطبق في حين كان الزجاج بارداً بين يديه. قال: "يا لها من أشياء كثيرة تقومين بها. لماذا لا تستأجرين أحداً ينظم هذه الحفلات نيابة عنك؟".

وقد كان يقصد بذلك إعفاءها من كل هذا الجهد ولكن نورا توقفت وهي تقطب.

قالت: "لأنني أستمتع بهذا. التخطيط والطهي - كل هذه الأمور. لأنني أستمتع كثيراً بصنع شيء جميل من لا شيء. إن لدى العديد من المواهب سواء لاحظت هذا أم لا".

"إن هذا ليس ما قصدته". تنهد ديفيد. لقد كانا هذه الأيام يشبهان كوكبين يدوران حول نفس الشمس غير متعارضين ولكنهما لا يقتربان أيضاً من بعضهما البعض. "أنا فقط أعنى أنك يجب أن تحصى على بعض المساعدة. استأجري شركة تنظيم حفلات. إننا ميسورو الحال ونستطيع أن ندفع لها".

قالت وهي تهز رأسها وتخطو للخارج: "إن الأمر ليس له علاقة بالمال".

وضع الطبق بعيداً وصعد للأعلى ليحلق ذقنه. تبعه بول وجلس على حافة حوض الاستحمام وبدأ يثرثر ويضرب كعبيه بالبورسلين. لقد أحب مزرعة جد جاسون، وقد ساعد في حلب البقرة هناك، كما سمح له جد جاسون بشرب بعض اللبن الذي كان لا يزال دافئاً ومذاقه يشبه العشب.

صنع ديفيد رغوة فوق الصابونة باستخدام فرشاة ناعمة وهو يستمتع بالإنصات. كانت الشفرة تنزلق فوق جلده مكونة فراغات نظيفة وعاكسة هباءات من الضوء المرتعش على السقف. طوال دقيقة بدا العالم بأكمله معلقاً: هواء الربيع الناعم ورائحة الصابون وصوت ابنه المتحمس.

أعدت الطاولة وغطتها بأقمشة براقية. كما أعدت الأطباق والشراب والمقاعد وفوط المائدة والزهریات. كما وضعت سارية نوار حول شجرة حور توجد بمنتصف الفناء الخلفي والتي كانت مزينة بشرائط براقية. كانت قد صنعت تلك بنفسها أيضاً. وقد عرض عليها ديفيد المساعدة. ولكنها قالت له: "ابق أنت خارج الأمر. هذا أفضل ما تستطيع القيام به". لذا فقد فعل ذلك.

عاد ثانية إلى الغرفة المظلمة والتي كانت باردة ومخبأة ويضيئها مصباح أحمر وتصدر منها رائحة الكيماويات.

قال بول: "إن أمي ترتدى ملابسها وليس من المفترض لي أن أتسخ".

قال ديفيد: "نظام صارم"، واضعاً المثبت والمظروف فوق رف عال بعيداً عن متناول بول. "اذهب أنت للمنزل. وسوف آتي أنا فوراً. وسوف نبحت عن زنبق الماء هذا".

ركض بول أسفل الدرج؛ رآه ديفيد يعبر المرحلة بينما يغلق باب المنزل وراءه. غسل الصواني ووضعها لتجف ثم أخرج الفيلم من المظروف ووضعها بعيداً. كان الجو ساكناً وهادئاً وبارداً في الغرفة المظلمة فوق هناك بضع ثوان قبل أن يلحق ببول. وفي الخارج، كانت مفارش المائدة ترفرف بفعل النسيم. وكانت سلال الربيع المغزولة من الورق والمملوءة بزهور الربيع تزين كل طبق. أمس - في يوم عيد الربيع - أخذ بول سلالاً تشبه هذه إلى الجيران أيضاً معلقاً إياها على الباب الأمامي وطارقاً إياه، ثم ركض ورأى الجيران وهم يكتشفونه. فكرة نورا: فنّها وطاقاتها وخيالها.

كانت في المطبخ ترتدى مئزراً فوق حلة حريرية مرجانية اللون ترتب البقدونس والطماطم الصغيرة فوق طبق اللحم.

سألها: "هل كل شيء جاهز؟ إن المكان يبدو رائعاً في الخارج. هل يوجد ما أستطيع فعله؟".

المكتب رفض إعطاءه اسم المالك أو عنوانه. قال ديفيد: "سوف أقف هنا وأنتظر إذن"، فقام الرجل بهز كتفيه قائلاً: "تفضل. من الأفضل أن تحضر بعض الطعام. فقد تمر أسابيع قبل أن نفتح بعضاً من صناديق البريد هذه".

وفي النهاية استسلم وعاد للمنزل سامحاً لأيام بالمرور يوماً بعد يوم في حين كانت فويب تكبر بعيداً عنه. وفي كل مرة كان يرسل فيها النقود، كان يرفق ملحوظة يطلب فيها من كارولين أن تخبره أين تعيش ولكنه لم يضغط عليها أو يستأجر محققاً خاصاً، كما أراد أحياناً أن يفعل. فقد شعر أنها لابد أنها ترغب في أن يعثر عليها. وقد آمن أنه أراد إيجادها. وآمن أنه بمجرد قيامه بهذا - بمجرد إصلاحه للأمور - فإنه سوف يخبر نورا بالحقيقة.

لقد آمن بكل هذا وكان يستيقظ كل صباح ويسير في المستشفى. كان يجرى العمليات ويتفحص الأشعات ويعود للمنزل ليجز الأعشاب ويلعب مع بول؛ كانت حياته ممتلئة. وبالرغم من ذلك وكل بضعة أشهر ودون سبب محدد يستيقظ من نومه من أحلام يرى فيها كارولين جيل تحرق فيه من عند باب العيادة أو عبر الفناء في دار العبادة، فسيستيقظ مرتعداً ويرتدى ملابسه ويذهب إلى العيادة أو إلى الحجرة المظلمة حيث يكتب مقالاته أو يغمر صورته في المواد الكيميائية مشاهداً الصور تبزغ من لا شيء. قال بول: "أبي، لقد نسيت أن تبحث عن الأحافير في كتاب الأحجار. لقد وعدتني".

قال ديفيد معيداً نفسه إلى الحاضر وضابطاً أنشطته رابطة عنقه: "هذا صحيح. هذا صحيح يا بني، لقد وعدتكم".

ذهباً معاً للطابق السفلي إلى المختلى الصغير وفتحاً الكتب المألوفة على المكتب. كان الأحفور من طائفة الزنابق، وهو حيوان بحري صغير ذو جسم يشبه الزهرة. أما الأحجار التي تشبه الأزهار فقد كانت صفائح تكون عمود السويقة. وضع يده برفق

قال ديفيد: "لقد كنت أحلب الأبقار"، جفف وجهه ومد يده ليأخذ قميصه. "كنت أستطيع توجيه خط من اللبن مباشرة في فم القطة".

"إن هذا هو ما يفعله جد جاسون! أنا أحب جاسون. وكنت أتمنى أن يكون أخى".

شاهد ديفيد أثناء ربطه لرابطة عنقه انعكاس صورة بول في المرآة. وفي صمت المكان بالرغم من أنه لم يكن صامتاً تماماً - فكان صنبور الحوض يقطر وكانت الساعة تتك برقة ويعلو صوت احتكاك القماش بالقماش - انصب تفكيره على ابنته. فكل بضعة أشهر كان يذهب لمكتب البريد ليجد خطاباً منسوخاً بخط يد كارولين. وبالرغم من أن الرسائل القليلة الأولى جاءت من كليفلاند، فالآن أصبح كل خطاب يأتي بختم بريدي مختلف. وفي بعض الأحيان كانت كارولين ترفق رقماً بريدياً جديداً لمكان مختلف ومدينة مختلفة، وحينما كانت تقوم بذلك كان ديفيد يرسل لها بالمال. لم يعرفا بعضهما البعض جيداً ومع ذلك فقد أصبحت خطاباتهما له على مدار السنين أكثر حميمية. فلابد أنها قامت بقطع الخطابات الأخيرة من دفتر يومياتها، كانت تبدأها بعزيزي ديفيد أو فقط ديفيد، وكانت أفكارها تتلاحق في سلسلة متتابعة. وفي بعض الأحيان كان يحاول التخلص من خطاباتهما دون أن يفتحها ولكن كان ينتهي به الحال دوماً بجلبها من القمامة وقراءتها سريعاً. وقد احتفظ بها في خزانة الملفات في الغرفة المظلمة حتى يستطيع أن يعلم دوماً أين هي. وحتى لا تستطيع نورا الوصول إليها.

وذاً مرة - منذ سنوات حينما بدأت هذه الخطابات تصله - قاد ديفيد سيارته إلى كليفلاند قاطعاً هذه المسافة التي تبلغ ثمانى ساعات. سار خلال شوارع المدينة طوال ثلاثة أيام يتفحص دليل الهاتف ويسأل في كل مستشفى. وفي مكتب البريد الرئيسى لمس الباب النحاسى الصغير رقم ٦٢١ بأطراف أصابعه ولكن رئيس

فوق ظهر بول مستشعراً جلده الذى كان دافئاً وحيماً والفقرات الرقيقة أسفل جلده مباشرة.

قال بول: "سوف أذهب إلى أمى". أمسك بالأحافير وركض عبر المنزل حتى خرج من الباب الخلفى. أخذ ديفيد مشروباً ووقف عند النافذة. كان عدد من الضيوف قد وصل وكانوا متناثرين عبر المرجة، الرجال يرتدون معاطف زرقاء داكنة والنساء مثل زهور الربيع البراقة يرتدين أثواباً وردية وصفراء وزرقاء فاتحة. كانت نورا تتحرك بينهم تحتضن النساء وتصافح الرجال وتقدم الناس لبعضهم البعض. لقد كانت هادئة للغاية حينما رآها ديفيد أول مرة، هادئة ومنطوية على نفسها وحذرة. لم يكن ليتخيلها قط هكذا، اجتماعية للغاية وتنظم حفلاً تعد جميع تفاصيله. وبينما كان يراقبها، امتلأ ديفيد بنوع من الحنين. لماذا؟ للحياة التى ربما حظيا بها. بدت نورا سعيدة للغاية، فكانت تضحك بالمرجة. ومع ذلك فقد علم ديفيد أن هذا النجاح لن يكون كافياً، ولو حتى ليوم واحد. فبحلول المساء سوف تكون قد انتقلت إلى الشئ التالى، وإن استيقظ ليلاً ومرر يده على ظهرها متمنياً إثارتها فسوف تتململ وتمسك بيده فى يدها وتستدير للجانب الآخر دون أن تستيقظ.

كان بول على الأرجوحة الآن يطير مرتفعاً فى السماء الزرقاء. كان قد ارتدى الأحافير الزنبقية حول رقبتة بعد أن صنع منها سلسلة طويلة؛ كانت تعلو وتسقط وتقفز فوق صدره الصغير، وفى بعض الأحيان تصطدم بسلاسل الأرجوحة.

نادت نورا بينما انتقل صوتها بوضوح إلى النافذة المفتوحة: "بول. اخلع هذا من رقبتك يا بول، إنه خطير".

أخذ ديفيد شرابه وذهب للخارج. قابل نورا بالمرجة. قال برقة وهو يضع يده على ذراعها: "اتركيه. لقد صنعها بنفسه".

"أعلم. لقد أعطيته السلك. ولكن باستطاعته ارتداؤها فيما بعد. فإن سقط أثناء لعبه وتشابكت هى مع شئ ما فقد تخنقه". كانت متوترة للغاية، ترك يده تسقط.

قال متمنياً محو خسارتهما وما فعلته ل كليهما: "إن هذا احتمال بعيد. لا شئ سوف يحدث له يا نورا".

"أنت لا تعلم هذا".

"إن ديفيد محق يا نورا".

أتى الصوت من الخلف. استدار ليرى برى والتى كان جموحها ومشاعرها وجمالها يتحركون مثل الريح داخل منزلهم. كانت ترتدى ثوباً ربيعياً مصنوعاً من قماش رقيق شفاف والذى بدا أنه يطفو حولها حينما تتحرك وتمسك بيد شاب أقصر منها: كان حليق الشعر ذا شعر أحمر قصير ويرتدى حذاءً مفتوحاً وياقة مفتوحة.

أصرت نورا وهى تستدير أيضاً: "برى، سوف يتشابك هذا العقد مع شئ ما ويؤدى إلى اختناقه".

قالت لها برى بينما طار بول عالياً داخل السماء ورأسه مثنية للوراء والشمس على وجهه: "إنه يتأرجح. انظري إليه، إنه سعيد للغاية. لا تجعليه ينزل ويتوتر من دون داع. إن ديفيد محق. لن يحدث شئ".

أجبرت نورا نفسها على الابتسام: "لا؟ إن العالم قد ينتهى. لقد قلت هذا أمس".

قالت برى: "ولكن ذلك كان أمس". لمست ذراع نورا وتبادلتا نظرة طويلة وترابطتا لدقيقة بطريقة استبعدت كل شخص آخر. شاهدهما ديفيد والحنين يملؤه حتى وافته ذكرى مباغته له هو وأخته حينما كانا يختبئان أسفل طاولة المطبخ يختلسان النظر من خلال ثنيات المفروش ويكتمان ضحكتاهما. تذكر عينيها ودفع ذراعيها ومتعة صحبتها.

كرر ديفيد: "محتج إذن"، بينما شرع في مراقبة نورا وهي تسير مبتعدة ويتحرك النسيم بخفة خلال كمي ثوبها الحريري. قال مارك: "هذا صحيح". كان يتحدث بجدية بالغة ولكنة مألوفة ذكرت ديفيد بصوت أبيه والذي كان منخفضاً ولحنياً. "السعى الذي لا ينتهى وراء المساواة والعدل".

قال ديفيد بعد أن تذكره فجأة: "لقد كنت بنشرة الأخبار ليلة أمس، كنت تلقى خطبة ما. إذن لابد أنك سعيد بشأن الحريق".

هز مارك كتفيه: "لست سعيداً ولست آسفاً. لقد حدث وهذا هو كل ما فى الأمر. كل ما علينا هو المضى قدماً".

سألت برى وهي تحقق بعينيها الخضراوين فى ديفيد: "لماذا أنت عدائى بهذه الطريقة يا ديفيد؟".

قال ديفيد مدركاً وهو يتحدث أنه بالفعل كان عدائياً: "أنا لست عدائياً". كما أدرك كذلك أنه بدأ يمد ويطيّل حروفه اللينة متحدثاً بلغة مألوفة وانسيابية كالماء. "أنا فقط أجمع معلومات"، ثم سأل مارك: "من أين أنت؟".

"ويست فيرجينيا. بالقرب من إكينز. لماذا؟".

"مجرد فضول. فقد كانت أسرّتى تعيش هناك".

قالت برى: "لم أكن أعلم هذا عنك يا ديفيد. لقد ظننت أنك من بتسبرج".

كرر ديفيد: "كانت أسرّتى تعيش بالقرب من إكينز. منذ عهد بعيد".

كان مارك ينظر إليه بحذر أقل الآن: "هل هذا صحيح؟ هل كانوا يعملون بالفحم؟".

"أحياناً فى الشتاء. كانوا يمتلكون مزرعة. حياة شاقة ولكنها ليست بنفس مشقة العمل بالفحم".

"هل ظلوا محتفظين بأرضهم؟".

سأل ديفيد: "ماذا حدث أمس؟" دافعاً بعيداً هذه الذكرى. تجاهلته برى ووجهت كلامها لأختها.

قالت: "آسفة يا أختاه. كانت الأمور متأزمة بعض الشيء أمس. لقد كنت على غير طبيعتى".

قالت نورا: "أنا آسفة أيضاً. أنا سعيدة لأنك جئت إلى الحفل".

سأل ديفيد مرة أخرى: "ماذا حدث أمس؟ هل كنت عند الحريق يا برى؟". لقد استيقظ هو ونورا ليلاً على أصوات صفارات الإنذار والرائحة الخانقة للدخان وتوهج غريب فى السماء. خرجا ليقفا مع الجيران فى المرجة الهادئة الداكنة بينما

ابتلت كواحلهم بالندى أثناء احتراق مبنى ROTC بالحرم الجامعى. وطوال أيام كانت الاحتجاجات تنمو ويملاً التوتر

الأجواء، غير مرئى ولكن حقيقى، فى حين أنه بالمدن على ضفتى شاطئى ميكونج سقطت القنابل وركض السكان وهم يحملون

أطفالهم المحتضرين بين أيديهم. وعند نهر أوهايو الآن يرقد أربعة تلاميذ بعد أن لقوا حتفهم. ولكن لم يتخيل أحد أن يحدث

هذا فى ليكسنجتون، كنتاكى: قنابل المولتوف ومبنى يحترق

ورجال الشرطة ينتشرون فى الشوارع.

استدارت برى إليه بينما يتأرجح شعرها فوق كتفيها وهزت رأسها: "لا، أنا لم أكن هناك ولكن مارك كان هناك". ابتسمت

للشاب الواقف إلى جوارها وأمسكت بذراعه. "هذا هو مارك بيل".

أضافت نورا: "إن مارك حارب فى فيتنام. إنه هنا للاحتجاج على الحرب".

قال ديفيد: "آه، مثير للشغب".

قالت نورا مصححة إياه وهي تشير ناحية المرجة: "بل محتج. ها هى كاي مارشال. هلا أذنتم لى؟".

"نعم". فكر ديفيد في المنزل الذى لم يره منذ نحو خمسة عشر عاماً.

"لقد باع أبى المنزل. وحينما مات بالمناجم بعدها بخمس سنوات لم يكن لدينا مكان لنذهب إليه". ابتسم مارك فى مرارة وفكر للحظة ثم سأل قائلاً: "هل ذهبت مرة أخرى إلى هناك؟".

"ليس منذ فترة طويلة. ماذا عنك؟".

"لا. بعد حرب فيتنام ذهبت إلى الجامعة. مورجان تاون، قانون الخدمة بالجيش المعدل. وقد كان الأمر غريباً حقاً، أعنى عودتى. فقد كنت أنتمى ولا أنتمى إن كنت تفهم ما أرمى إليه. فحينما رحلت لم أكن أعتقد أن ذلك كان بإرادتى. ولكن اتضح لى بعد ذلك أن الأمر كان كذلك".

أوما ديفيد وقال: "أعلم. أعلم ما تقصد".

قالت برى بعد دقيقة طويلة من الصمت: "حسناً. كلاهما هنا الآن. لقد أصبحت عطشة للغاية الآن. مارك؟ ديفيد؟ هل يريد أى منكما شراباً؟".

قال مارك وهو يمد يده ليصافح ديفيد: "سوف آتى معك يا برى. يا له من عالم صغير. أنا سعيد لمقابلتك".

قالت برى وهى تجذبه بعيداً: "إن ديفيد هذا لغز كبير. فقط اسأل نورا".

راقبهما ديفيد وهما يذوبان فى الحشد البراق. كان لقاءً عابراً ولكنه مع ذلك أشعره بالتوتر وكأنه انكشف، فقد علا ماضيه مثل أمواج البحر. فى كل صباح كان يقف لدقيقة عند باب عيادته يتأمل عالمه البسيط والنظيف: الأدوات المنظمة، القماش الأبيض الطويل الزاهى فوق طاولة الفحص. فهو من جميع المقاييس كان ناجحاً، وبالرغم من ذلك فلم يغمره قط من قبل شعور بالفخر والثقة. كان والده قد قال وهو يغلق باب الشاحنة ويقف على الحاجز الحجرى عند محطة الحافلة فى اليوم الذى غادر فيه ديفيد راحلاً إلى بتسبرج: "أعتقد أن هذه هى النهاية. فأنت

سوف تمضى فى طريقك فى العالم ولن يكون لديك وقت لأمثالنا بعد ذلك". وقد شعر ديفيد وهو يقف على الحاجز الحجرى بينما تتساقط أوراق الشجر من حوله بحقيقة كلمات والده: فبغض النظر عن ماهية نواياه ومدى حبه لهما فإن الحياة سوف تحمله بعيداً.

سألت كاي مارشال: "هل أنت بخير يا ديفيد؟". كانت تسير بجانبه وهى تحمل مجموعة من زهور التيوليب الوردية الشاحبة، وكانت كل بتلة رقيقة كحافة رثة الإنسان: "إنك تبدو شارد الذهن للغاية".

قال: "مرحباً يا كاي". لقد ذكرته قليلاً بنورا، حيث كانت بعض الوحدة تتحرك دوماً أسفل مظهرها السطحى البراق. فذات مرة بعد احتساء الكثير من الشراب فى حفلة أخرى تبعته كاي إلى ردهة مظلمة وأحاطته بذراعيها وقبلته. وقد فاجأه أنه أيضاً قام بتقبيلها. وقد مرت هذه اللحظة وبالرغم من أنه كثيراً ما فكر فى لمسة شفيتها المفاجئة لشفتيه إلا أنه فى كل مرة يراها فيها كان يتساءل إن كان ذلك قد حدث بالفعل.

"إنك تبدين متألقة كدأبك دوماً يا كاي". رفع كأسه إليها. ابتسمت وضحكت ثم سارت مبتعدة.

ذهب إلى المرآب البارد ثم صعد الدرج حيث أخذ الكاميرا من الخزانة ووضع بها فيلماً جديداً. علا صوت نورا فوق الصوت الحشد، فتذكر ملمس جلدها حينما وضع يده عليه فى هذا الصباح، والتقوس الناعم لظهرها. تذكر اللحظة التى تشاركتها مع برى، كيف كانتا مترابطتين، هذا النوع من الترابط الذى لن يجمعهما معاً فقط. قال لنفسه وهو يضع الكاميرا حول رقبته: "أنا أرغب. أنا أرغب".

تحرك حول محيط الحفل وهو يبتسم ويرحب بالآخرين ويصافحهم وينأى بعيداً عن الحوارات ليلتقط صوراً للحفل. توقف أمام تيوليب كاي وهو يركز عليها عن كثب ويفكر كيف

قال: "إنه حفل جميل". ودون تفكير أمسك بمعصمها ورفعها إلى شفتيه وقبل مكان لدغة الدبور. أخذت تراقبه وعيناها مليئتان بالدهشة والسعادة ثم سحبت يدها على الفور. قالت برقة: "ديفيد، بحق السماء، ليس هنا، ليس الآن". نادى بول: "أبى"، فاستدار ديفيد محاولاً تحديد مكان ابنه. "أبى، أمى، انظروا إلى!".

قالت نورا وهى تشير عبر المرجة: "إنه فوق شجرة الميس. انظر هناك للأعلى. كيف فعل هذا؟".

نادى ديفيد وهو يلوح له: "أنا أراك يا بول! لا بد أنه تسلق فوق الأرجوحة".

قالت نورا: "انزل فوراً". ثم قالت لديفيد: "إنه يثير أعصابى".

قال ديفيد: "إنه طفل. والأطفال يتسلقون الأشجار. سوف يكون بخير".

قال بول: "أبى، أمى! ساعدانى"، ولكن حينما نظرا إليه كان يضحك.

سألت نورا: "هل تذكر حينما كان يفعل ذلك فى متجر البقالة. هل تذكر حينما كان يتعلم الكلام، كيف اعتاد أن يصيح "النجدة" فى منتصف المتجر؟ كان الناس يعتقدون أننى اختطفته".

قال ديفيد: "لقد فعل ذلك فى العيادة مرة. هل تذكرين؟". ضحكا معاً. شعر ديفيد بالسعادة.

قالت بعدما وضعت يدها على ذراعه: "ضع الكاميرا جانباً". قال: "حسناً، سأفعل".

سارت برى نحو سارية النوار والتقطت شريطاً أرجوانياً. وقد انضم عدد من المدعوين إليها وفعلوا مثلها. توجه ديفيد ثانية إلى المرآب وهو يشاهد النهايات المرفرفة للشرائط. سمع صوتاً مفاجئاً وصوت تحرك أوراق الشجر ثم على صوت انكسار فرع شجرة.

تشبه حقاً النسيج الرقيق للثنتين وكيف سيكون من المشوق وضع صور لكليهما إلى جوار بعضهما البعض، فقد كان يظن أن الجسم هو - بطريقة غامضة - انعكاس مثالى للعالم. غمرته هذه الفكرة بينما ابتعدت أصوات الحفل وكان يركز على الزهور، وقد أجفل حينما وضعت نورا يدها على ذراعه.

قالت: "ضع الكاميرا جانباً. من فضلك يا ديفيد، إنه حفل". قال: "إن زهور التيوليب هذه رائعة الجمال"، ولكنه كان عاجزاً عن إيضاح أفكاره وعن الصياغة فى كلمات سبب إعجابه بهذه الزهور.

كررت قائلة: "إنه حفل. فإما أن تفوته وتظل تلتقط صوراً أو يمكنك الإتيان بشراب والانضمام إلى المدعوين".

قال: "إن معى الشراب. ليس هناك من هو متضايق لأننى ألتقط بعض الصور يا نورا".

"أنا متضايقة. هذا سلوك وقح".

كانا يتحدثان بهدوء وأثناء الحوار برمته لم تتوقف نورا عن التبسم. كان تعبير وجهها هادئاً، وكانت تومئ وتشير للمرجة. ومع ذلك فكان باستطاعة ديفيد استشعار التوتر الذى يشع منها وكنتم غضبه.

قالت: "لقد عملت بكد. لقد نظمت كل شىء. لقد طهوت كل الطعام. أنا حتى تخلصت من الدبابير. لماذا فقط لا تستمتع بالحفل؟".

سأل باحثاً عن موضوع آمن وهو ينظر إلى الإفريز النظيف والناعم للمرآب.

أرته معصمها المصاب بحبار أحمر صغير: "أمس. لقد تخلصت منه سريعاً ووحدى بسبب الحساسية المصاب بها أنت وبول".

وببطء ورفق رفع بول. كان ابنه خفيفاً للغاية بين ذراعيه. تفرق الضيوف ليدعوه يمر. وضع بول فى المقعد الخلفى وأخذ ملاءة من حقيبة السيارة ودثره بها. قالت نورا وهى تجلس بالمقعد الأمامى إلى جواره: "سوف آتى أيضاً".

"ماذا عن الحفل؟".

قالت: "إن هناك الكثير من الطعام والشراب. وهم سيستطيعون خدمة أنفسهم بأنفسهم".

قاد السيارة عبر هواء الربيع المنعش حتى المستشفى. ومن وقت لآخر كانت نورا تتذكر فى حلق ليلة الولادة، وكيف أنه كان يقود ببطء وبطريقة مملة عبر الشوارع الشاغرة، ولكنه لم يستطع أن يسرع كذلك اليوم. مروا أمام مبنى ROTC والذي كان لا يزال يدخن. فكان الدخان يتصاعد مثل الشرائط السوداء. وكانت أشجار القرانيا تتفتح على مقربة منه، حيث كانت البتلات شاحبة وهشة بجوار الجدار الأسود.

قالت نورا برقة: "إن العالم ينهار. هذا هو ما أشعر به".

نظر ديفيد إلى بول فى مرآة الرؤية الخلفية وقال: "ليس الآن يا نورا". كان بول هادئاً ولا يشتكى، ولكن الدموع كانت تنهمر على وجنتيه الشاحبتين.

وفى غرفة الطوارئ، استخدم ديفيد نفوذه لتسريع عملية التسجيل وأخذ الأشعة. ساعد بول على الاستلقاء على الفراش وترك نورا تقرأ له قصصاً من كتاب أخذته من حجرة الانتظار وذهب لياخذ الأشعات. وحينما أخذها من الفنى رأى يديه ترتعدان، فسار بالردهات وهو صامت للغاية فى فترة ما بعد الظهر من يوم السبت الجميل هذا متجهاً إلى مكتبه. أغلق الباب وراءه وطوال دقيقة وقف ديفيد وحده فى الظلام يحاول لملم شتات نفسه. كان يعلم أن الجدران خضراء ضاربة إلى الزرقة وأن الأوراق متناثرة فوق المكتب. كان يعرف هذه الأدوات المعدنية

شاهد برى ترفع يديها والشريطة تنزلق من بين أصابعها حينما مدت يديها فى الهواء المفتوح. ساد الصمت للحظة طويلة ثم صرخت نورا. استدار ديفيد ليرى بول يسقط فوق الأرض مصدرًا صوتًا مكتومًا ثم وثب مرة على ظهره مما أدى إلى انحلال عقد الزنبق المائى على الأرض. ركض ديفيد وهو يشق طريقه عبر المدعويين وربض إلى جواره. كانت عينا بول الداكنتان مليئتين بالخوف. أمسك بيد ديفيد وهو يحاول بصعوبة أن يتنفس.

قال ديفيد وهو يمرر أصابعه على جبهة بول: "لا بأس. لقد سقطت من فوق الشجرة وفقدت توازنك، هذا هو كل ما فى الأمر. فقط استرخ. خذ نفساً آخر وسوف تكون على ما يرام".

قالت نورا وهى تربض إلى جوارهما وهى ترتدى ثوبها القرمزى: "هل هو بخير. بول، عزيزى، هل أنت بخير؟".

لهث بول وسعل ووقفت الدموع فى عينيه. وحينما تحدث ثانية قال: "إن ذراعى تؤلمنى". كان شاحباً وكان هناك وريد أزرق رفيع مرئى بجبهته، واستطاع ديفيد أن يرى أنه يحاول ألا يبكى. "إن ذراعى تؤلمنى بشدة".

سأل ديفيد مستخدماً نبرة هادئة: "أى ذراع؟ هل يمكنك أن ترينى مكان الألم؟".

كانت ذراعه اليسرى هى التى تؤلمه وحينما رفعها ديفيد بحرص مدعماً المرفق والرسغ صرخ بول متألماً.

قالت نورا: "ديفيد! هل هى مكسورة؟".

قال بهدوء: "حسناً أنا لست متأكداً" وذلك بالرغم من أنه كان شبه متأكد من أنها مكسورة. وضع ذراع بول برفق على صدره ثم وضع يداً على ظهر نورا لمواساتها. "بول، سوف أحملك إلى السيارة. وبعد ذلك سوف نذهب إلى عيادتى، حسناً؟ سوف أريك جميع أشعائى".

تبيين التكوين العظمى للمقدم، محولة أصابع قدمه إلى شيء غامض وشبهى. وأثناء شعوره بالبهجة أخذ يدرس الصولجانات والمصابيح ذات الضوء الظلى والتي كانت هى أصابع قدميه وكعبيه.

وكانت تلك - بالرغم من أنه لم يدرك ذلك إلا بعد سنوات - لحظة حاسمة. فحينها أدرك أن هناك عوالم أخرى غير مرئية ومجهولة تقع حتى خلف نطاق الخيال، وكان هذا الإدراك بمثابة الإلهام بالنسبة له. وفى الأسابيع التالية بينما كان يشاهد الغزلان تجرى والطيور تحلق وأوراق الشجر ترفرف والأرانب تبزغ فجأة من تحت الأرض بدأ ديفيد يحدق بشدة، محاولاً رؤية أبنيتهم الخفية كما شرع فى التحديق فى جوف كذلك - والتي كانت تجلس على درجات الشرفة بهدوء تقشر البازل أو الذرة وهى تباعد بين ساقيهما فى تركيز. كانت تشبهه ومع ذلك لا تشبهه، وما كان يميز بينهما كان يعد لغزاً كبيراً.

أخته، تلك الفتاة التى أحببت الريح والتي كانت تضحك لرؤية الشمس على وجهها وتخاف من الشعابيين. لقد ماتت فى سن الثانية عشرة، ولم تصبح الآن شيئاً سوى مجرد ذكرى - لا شيء الآن سوى عظام.

وابنته - البالغة ست سنوات من عمرها - تسير فى العالم ولكنه لا يعرفها.

وحينما عاد إليهما كانت نورا تضع بول فوق ساقيهما بالرغم من أنه كان كبيراً لمثل هذا التدليل، وكان رأسه يرتاح على كتفها. وكانت ذراعه ترتعد نتيجة للاختلاجات الخفيفة الناتجة عن الكدمات.

سألت على الفور: "هل هى مكسورة؟".

قال ديفيد: "أخشى هذا. تعالى وألقى نظرة".

وضع الأشعة على طاولة الضوء وأشار إلى الخطوط السوداء للكسر.

والكرومية والتي كانت مصفوفة فى صوان داخل الخزانات زجاجية الأبواب. ولكنه لم يستطع رؤية شيء. رفع يده ولمس أنفه براحتة، ولكن حتى من هذه المسافة القريبة لم يستطع رؤية يده، بل استطاع فقط استشعارها.

تلمس بيده الطريق حتى مفتاح المصباح ورفع. نبض المصباح الكهربائى فوق الجدار ثم امتلأ بضوء أبيض أعاد الألوان الحقيقية للأشياء. وأمام المصباح كان يوجد النيجاتيف الذى قام بتحميضه فى الأسبوع الماضى: مجموعة من الصور لوريث بشرى، مأخوذة بشكل متسلسل، فى تعاقب فى ظل ضوء خاضع لسيطرة محكمة، مع تغير درجة التباين بشكل دقيق فى كل صورة. وما أثار ديفيد هو درجة الدقة التى حققها، وكيف أن هذه الصور كانت تشبه أشياء أخرى أكثر مما كانت تشبه أحد أجزاء جسم الإنسان: فروع البرق وهى تضرب الأرض، أنهار سوداء متحركة، بحور واسعة.

كانت يده ترتعدان. أرغم نفسه على أخذ عدة أنفاس عميقة، ثم أنزل النيجاتيف وعلق أشعة بول أسفل المشابك. عظام ابنه الصغيرة، صلبة ولكن رقيقة، تبزغ بوضوح شديد. تتبع ديفيد الصورة المليئة بالضوء بأطراف أصابعه. كانت عظام ابنه الصغير جميلة، معتمدة ولكن تبدو هنا وكأنها امتلات ضوءاً، صور شفافة تطفو فى ظلام حجرته، والتي كانت قوية ورقيقة كفروع شجرة متشابكة الأغصان.

كان التلف بسيطاً: كسور أفقية بعظم الزند والكعبرة. وتلك كانت عظام متوازية؛ وكان الخطر الأكبر هو أن هناك احتمالاً أن تندمج هذان العظمتان معاً أثناء الالتئام.

أطفا ضوء المصباح العلوى وعاد للردهة ثانية وهو يفكر فى العالم الخفى داخل الجسم. منذ سنوات فى أحد متاجر الأحذية بمورجان تاون، حينما كان والده يقيس أحذية برقبة طويلة كان يريد لها للعمل، وقطب حينما رأى ورقة السعر، وقف هو فوق آلة

يقول الناس: "هناك عظام بالخزانة" والتي تعنى وجود سر عائلى فاضح، و "جاف العظام" أى كسول، و "هناك عظمة بيننا" أى هناك شيء نتنازع عليه. ولكن العظام كانت حية؛ فقد كانت تنمو وتصلح نفسها بنفسها؛ فأى كسر بها يبرأ من تلقاء نفسه.

قالت نورا وهى تساعد على إعادة بول إلى طاولة الفحص: "لقد كنت شديدة الحرص أثناء تعاملى مع النحل. أقصد الدبابير لقد تخلصت من الدبابير والآن هذا".

قال ديفيد: "لقد كان مجرد حادث".

قالت وهى على وشك البكاء: "أعلم. تلك هى المشكلة". لم يجبهها ديفيد. أخرج المواد اللازمة لصنع الجبيرة. والآن كان يركز على وضع الجبس. مضى وقت طويل قبل أن يفعل ذلك - فعادة ما كان يقوم بضبط العظام وترك الباقي للممرضة - ولكنه وجد هذا الأمر باعثاً على الراحة. كانت ذراع بول صغيرة مما سهل وضع الجبيرة والتي كانت بيضاء مثل قشرة البيضة ومغرية مثل ورقة بيضاء. وفى خلال بضعة أيام سوف يصبح لونها رمادياً معتماً وتمتلئ بالفقوش الطفولية البراقة.

قال ديفيد: "ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر قبل أن نفك الجبيرة". قالت نورا: "أى فترة الصيف بأكملها".

سأل بول: "ماذا عن دورى البيسبول للصغار؟ ماذا عن السباحة؟".

قال ديفيد: "البيسبول ممنوع وكذلك السباحة. أنا آسف".

"ولكن من المفترض أن أشارك أنا وبول فى دورة البيسبول".

قال ديفيد بينما كان بول يبكى: "أنا آسف".

قالت نورا: "لقد قلت لن يحدث شيء، والآن أصيب بكسر فى ذراعه. كان يمكن أن يكون هذا الكسر برقبته. أو ظهره".

شعر ديفيد بالتعب فجأة والألم من أجل بول والغضب من نورا.

"نعم كان من الممكن أن يحدث هذا، ولكنه لم يحدث. لذا توقفت عن هذا، حسناً؟ فقط توقفت عن هذا يا نورا".

أصبح بول ساكناً الآن وكان ينصت بجدية وهو مدرك لتغيير نبرة صوتهما. وقد تساءل ديفيد عما سيتذكره بول عن هذا اليوم؟ فبعدما تخيل ديفيد ابنه فى مكان ما فى المستقبل، فى مكان ما حيث يمكنه أن يحتج وينتهى به الأمر بأن يتلقى رصاصة فى رقبته، شارك نورا خوفها. لقد كانت محقة. كان يمكن أن يحدث أى شيء. وضع يده على رأس بول؛ حيث كان شعره خشناً ضد راحة يده.

قال بول: "أنا آسف يا أبى. أنا لم أقصد إفساد صورك".

تذكر ديفيد بعد لحظة من الارتباك هذا الوقت الذى اشتاط فيه غضباً حينما تسلل الضوء إلى الغرفة المظلمة وكان بول يقف واضعاً يده على مفتاح المصباح وخائفاً من أن يتحرك.

لمس وجنة بول: "لا، لا. أنا لست غاضباً منك لأجل هذا. إن تلك الصور ليست مهمة. أنا فقط كنت متعباً هذا الصباح".

وضع بول إصبعه على حافة الجبيرة.

قال ديفيد: "أنا لم أقصد إخافتك. فأنا لست غاضباً منك".

"هل أستطيع استخدام السماعة؟"

"بالطبع". وضع ديفيد السماعة فى أذن بول وربض، ثم وضع القرص المعدنى على قلبه.

ومن طرف عينه رأى نورا تراقبهما. فبعيداً عن الجو المبهج للحفل كانت تحمل حزنها كحجر أسود فى راحة يدها. كان يتمنى لو كان باستطاعته مواساتها ولكن لم يستطع التفكير فى شيء ليقوله. وقد تمنى لو أن لديه نوعاً من الأشعة التى توضح مكنون القلب البشرى؛ وذلك ليستخدمها مع قلب نورا وقلبه.

قال برقة: "أتمنى لو كنت أسعد. أتمنى لو كان هناك شيء بإمكانى فعله".

قالت: "ليس عليك أن تقلق. ليس على".

تنفس ديفيد بعمق حتى يستطيع بول سماع ذلك فى السماعه.
"أهذا صحيح؟"

"نعم. لقد حصلت على وظيفة بالأمس".
"وظيفة؟"

"نعم. وظيفة جيدة". أخبرته كل شىء عنها فى ذلك الحين:
وكالة سفریات، عمل صباحى. وهى ستستطيع العودة إلى المنزل
فى وقت ملائم كى تذهب للإتيان ببول من المدرسة. وبينما كانت
تتحدث شعر ديفيد وكأنها تفر مبتعدة عنه. قالت نورا بحدة
أدهشته: "أنا على وشك الإصابة بالجنون حيث إن لدى الكثير
من وقت الفراغ. سيكون ذلك أمراً جيداً".

قال: "حسناً، لا بأس. إن كنت تريدونها بشدة فأنا لا
أمانع". دغدغ بول ومد يده جالباً منظاره، قال: "هيا انظر فى
أذنى. حاول أن تتبين إن كانت هناك أية طيور بهما".

ضحك بول ووضع المعدن البارد على شحمه أذن ديفيد.

قالت نورا: "كنت أعلم أن هذا الأمر لن يعجبك".

"ماذا تعنين؟ لقد قلت لك إننى لا أمانع".

"أعنى نبرة صوتك. لا بد أن تستمع لنفسك".

قال محاولاً الحفاظ على هدوء نبرة صوته من أجل بول:

"حسناً، ماذا تتوقعين؟ من الصعب عدم رؤية هذا بوصفه نقداً".

قالت: "سوف يكون نقداً فقط إن كان موجهاً لشخصك. ولكن
ليس هذا ما قصدته. إن الأمر لا علاقة له بك. إن له علاقة
بالحرية، له علاقة بتأسيس حياة خاصة بى. أتمنى لو تستطيع
فهم هذا".

قال: "الحرية؟"، بات متأكداً من أنها كانت تتحدث إلى
أختها ثانياً. "أنت تعتقدين أننى حر يا نورا؟".

سادت فترة صمت طويلة وقد شعر بالسعادة حينما قطعها
بول.

"لا توجد طيور يا أبى، فقط زراف".

"حقاً؟ كم عددها؟".

"سنة".

"سنة! يا إلهى! من الأفضل أن تفحص الأذن الأخرى".

قالت نورا: "ربما لن يعجبنى هذا العمل ولكننى على الأقل
سأكون قد جربت".

قال بول: "لا توجد طيور ولا زراف، فقط أفيال".

قال ديفيد وهو يأخذ المنظار: "أفيال فى قناة أذنى. من
الأفضل أن تعود للمنزل على الفور". أرغم نفسه على التبسم
وربض ليحمل بول والذى كان يضع جبيرة جديدة. وبينما كان
يشعر بوزن ابنه وذراعه العارية الملتفة حول رقبتة، ترك ديفيد
نفسه يتساءل عما ستكون عليه حياتهم إن كان قد اتخذ قراراً
مختلفاً منذ ست سنوات. كان الثلج يهطل وكان يقف فى هذا
السكون وحيداً وفى لحظة حاسمة واحدة قام بتغيير كل شىء.
كانت كارولين جيل قد كتبت له فى آخر خطاباتها "ديفيد، إن
لدى صديقاً حميماً الآن. إنه لطيف للغاية، وفويب بخير، إنها
تحب الإمساك بالفراشات والغناء".

قال لنورا بينما كانا يقفان فى الردهة بانتظار المصعد: "أنا
سعيد لأنك حصلت على وظيفة. أنا لا أعنى أن أكون متزمتاً.
ولكنى لا أعتقد أن الأمر ليس له علاقة بى".

تنهدت ثم قالت: "لا. إنك لن تصدق هذا، أليس كذلك".

"ماذا تعنين؟"

قالت نورا: "إنك تظن أنك مركز الكون - تلك النقطة الساكنة
التي يدور حولها كل شىء آخر".

جمعاً أشياءهما ودخلا المصعد. وفى الخارج كان اليوم لايزال
جميلاً، فى تلك الفترة المتأخرة من فترة ما بعد الظهر حيث
كان الجو صحواً ومشمساً. وبحلول الوقت الذى عادوا فيه إلى
المنزل كان الضيوف قد غادروا. فقط برى ومارك هما من تبقيا
وكانا يحملان أطباق الطعام إلى داخل المنزل. كانت شرائط سارية

النوار ترفرف بفعل الريح. وكانت كاميرا ديفيد ترقد فوق الطاولة، وأحافير بول مكومة إلى جوارها. توقف ديفيد يتفحص المرجة حيث كانت المقاعد متناثرة. فيما سبق كان كل هذا العالم مختبئاً أسفل بحر ضحل. حمل بول إلى داخل المنزل ثم أعلى الدرجات. أعطاه بعض الماء والأسبرين القابل للمضغ بطعم البرتقال الذي كان يحبه وجلس بجواره على الفراش يمسك يده. كانت صغيرة للغاية ودافئة وتنفض حيوية. وحينما تذكر الصور المملوءة بالضوء لعظام بول امتلأ ديفيد بشعور بالدهشة. هذا هو ما أراد أن يسجل بكاميرته: تلك اللحظات النادرة التي بدا فيها العالم مترابطاً ومتوحداً، كل شيء مسجل في صورة عابرة. صورة تحمل جمالاً وأملًا وحركة - نوع من الشعر الفضي، تماماً كما أن جسم الإنسان هو شعر مكون من دم ولحم وعظم.

قال بول: "اقرأ لي قصة يا أبى". قام ديفيد بالاعتدال في جلسته على الفراش واحتضن بول بين ذراعيه مقلباً صفحات قصة "جورج الفضولي" والذي ذهب إلى المستشفى إثر إصابته بكسر في ساقه. وبالأسفل كانت نورا تتحرك عبر الحجرات لتنظيفها. وقد انفتح الباب الزجاجي وانغلق ثم انفتح وانغلق ثانية. وقد تخيلها تسير عبره وهي ترتدى حلتها متوجهة لعملها الجديد وحياة تستبعده. كانا في وقت متأخر من فترة بعد الظهر، لذا فقد ملأ ضوء ذهبى الغرفة. قلب الصفحة واحتضن بول مستشعراً دفئه وأنفاسه. رفع النسيم الستائر. وفي الخارج كان نبات القرانى يكون سحابة براقّة أمام الألواح الخشبية الثقيلة للسور. توقف ديفيد عن القراءة وهو يشاهد البتلات البيضاء تسقط وتنجرف بعيداً. شعر بالراحة والتوتر عندما رأى مدى جمالها محاولاً ألا يلاحظ أنها بدت من بعيد مثل الثلج.

يونيو ١٩٧٠

قالت دورو ملاحظة: "حسناً، إن فويب بدون شك لديها شعرك".

لمست كارولين مؤخرة عنقها وهي تفكر. كانتا بالجانب الشرقى من بتسبرج فى مبنى مصنع قديم والذي أصبح الآن حضانة تقدمية. سقط الضوء خلال النوافذ الطويلة مظهرًا ذرات من الغبار ونماذج على ألواح الأرض الخشبية، والتي علقت بالخصلات السمراء المحمرة فى ضفائر فويب الرفيعة بينما كانت تقف أمام صندوق خشبي كبير ملئ بالعدس كانت تحبه فى برطمانات. فى سن السادسة كانت ممثلة الجسم وذات ركبتين بهما غمازتان وابتسامة تنم عن الفوز. وكانت عيناها تتخذان شكل اللوز ومائلتين بعض الشيء ولونهما بنياً داكناً. كانت يداها صغيرتين. فى هذا الصباح كانت ترتدى ثوباً مقلماً باللونين الوردى والأبيض، والذي اختارته وارثته بنفسها - بشكل عكسى. كانت ترتدى سترة وردية كذلك والتي أشارت

تناثر العدس فوق الأرض حينما ألقى الصبي بمجرفته وركض في الردهة. تبعته فويب - بينما تطير ضفائرها في الهواء - متجهين إلى الغرفة الخضراء ذات الحوامل وأوعية الطلاء. قالت دورو: "لقد أفادها هذا المكان كثيراً".

أومات كارولين: "أتمنى لو كان بإمكان المجلس التعليمي رؤيتها هنا".

"إن لديك حجة قوية ومحامياً بارعاً. سوف يسير الأمر على ما يرام".

نظرت كارولين في ساعتها. لقد تطورت صداقتها مع ساندرنا لتكون قوة سياسية، واليوم أكثر من خمسمائة شخص يطالبون المجلس التعليمي بضم أطفالهم إلى المدارس العامة. وكانت فرص النجاح في ذلك مرتفعة ولكن كارولين كانت متوترة للغاية. فالكثير يترتب على هذا الأمر.

مر طفل بسرعة أمام دورو وكاد يتعثر ولكنها أمسكت به برفق من كتفيه. كان شعر دورو الأبيض الآن يتناقض تناقضاً صارخاً مع عينيها السوداوين وبشرتها الداكنة. كانت تسبح كل صباح وتمارس الجولف ومؤخراً أصبحت كارولين تضبطها تضحك لنفسها كما لو أنها تخفى سرا.

قالت كارولين وهي ترتدى معطفها: "كانت لفظة جميلة منك أن تأتي اليوم وتغطي غيابي".

لوحث دورو بيدها. "إنه شيء بسيط. أنا في الواقع أفضل أن أكون هنا على أن أصارع مع القسم حول ورق أبي". كان صوتها يشوبه القلق ولكن ارتسمت ابتسامة على شفتيها.

"من واقع معرفتي بك أعتقد أنك واقعة في الحب".

ضحكت دورو. قالت: "يا له من إحراز جرىء. وبمناسبة التحدث عن الحب، هل آل سيأتي اليوم؟ إنه يوم الجمعة".

كانت نماذج الضوء والظل المنعكسين على شجر الجميز مهدئة للأعصاب للغاية، مثل الماء المتحرك. نعم، لقد كان اليوم

بشأنها جلبة كبيرة في هذا الصباح. كان ليو - والذي توفي منذ عام الآن - يتمتم دوماً قائلاً: "لقد أخذت منك حدة أعصابك" بينما كانت كارولين تندesh من هذا التعليق؛ ليس لأنه من المستحيل أن يكون هناك أي رابط جيني بينهما ولكن لأن هناك من نعتها بأنها امرأة حادة الأعصاب.

سألت كارولين دورو وهي تمرر أصابعها في شعرها وتدفعه خلف أذنها: "هل تعتقدين هذا؟ هل تعتقدين أن شعرها مثل شعري؟".

"نعم بالتأكيد".

كانت فويب تقحم يديها عميقاً في العدس القطيفي الآن وهي تضحك مع الصبي الصغير الواقف إلى جوارها. رفعت يديها وهي مليئة بالعدس ثم تركته ينساب من بين أصابعها؛ بينما أمسك الصبي بكوب بلاستيكي أصفر لالتقاطه.

وبالنسبة للأطفال الآخرين في هذه الحضانة كانت فويب فتاة تتصرف على سجيبتها، صديقة تحب اللون الأزرق ومصاصات الثلجات والدوران في دوائر؛ فهنا لم يلاحظ أحد ما بها من اختلافات. في الأسابيع الأولى كانت كارولين تراقب ما يحدث في قلق، وهي ناقمة من التعليقات التي كثيراً ما تسمعها في الملاعب أو متجر البقالة أو عيادة الطبيب. "يا له من عار يا إلهي، إنك تعيشين أسوأ كوابيسي". ومرة أخرى تسمع "على الأقل فهي لن تعيش طويلاً. فتلك نعمة في حد ذاتها". بغض النظر عن كون هذه التعليقات حمقاء أو تنم عن الجهل أو القسوة، فإنها كانت تلمس وترأ حساساً في قلب كارولين. ولكن هنا كان المعلمون صغاراً ومتحمسين، والآباء قد حذوا حذوهم: قد يكون على فويب بذل مزيد من الجهد، وقد تكون أبطأ، ولكنها شأن أي طفل آخر سوف تتعلم.

اعتدت عليك، واعتدت على الصحبة. لا تغادري. سوف نعيش حياتنا معاً يوماً وراء يوم".

قادت كارولين السيارة عبر المدينة التي أصبحت تعشقها، تلك المدينة الرملية الجميلة ذات الأبنية المرتفعة والجسور المزخرفة والحدائق الواسعة والأحياء زمردية اللون. وجدت مكاناً لإيقاف السيارة بالشارع الضيق فأوقفتها ودخلت المبنى، والذي أصبح أسود اللون بفعل عقود من دخان الفحم. سارت عبر الردهة ذات السقف العالي والأرضية الفسيخاء المعقدة ثم صعدت طابقين. كان الباب الخشبي مبقعاً ببقع داكنة وبه لوح زجاجي غائم وأرقام نحاسية محفورة : ٣٠٤ ب. أخذت نفساً عميقاً - إنها لم تصب بمثل هذا التوتر منذ الاختبارات الشفهية - ثم دفعت الباب لتفتحه. وقد أدهشتها حالة الغرفة المتردية. فكانت طاولة البلوط الكبيرة مخدوشة والنوافذ غائمة جاعلة اليوم يبدو كئيباً ورمادياً. كانت ساندرا تجلس بالفعل مع نصف دسته من الآباء الآخرين من مجلس الآباء. شعرت كارولين بدفقة من السعادة. كانتا تقيمان لقاءات ثنائية مع أناس كانت هي وساندرا قد قابلتهم في متاجر البقالة والحافلات، ثم ذاع الخبر وبدأ الناس يتصلون. كان محاميهم - رون ستون - يجلس إلى جوار ساندرا والتي كانت تجمع شعرها الذهبي للخلف بإحكام وكان وجهها حاداً وشاحباً. جلست كارولين على المقعد الذي يوجد إلى جوارها.

قال هامسة: "تبدين متعبة".

أومأت ساندرا: "إن تيم مصاب بالأنفلونزا. وهي لا تبرا. وقد أتت أمي من ماكيسبورت للعناية به".

وقبل أن تتمكن كارولين من التفوه بكلمة انفتح الباب ثانية وبدأ رجال من المجلس التعليمي يدخلون وهم يمزحون مع بعضهم البعض ويتصافحون. وحينما جلس الجميع وبدأ الاجتماع وقف رون ستون ونقى صوته.

هو الجمعة ولكن كارولين لم تر آل طوال الأسبوع ولم تسمع منه. فهو عادة ما يتصل بها من الطريق، من كولومبس أو أتلانتا أو حتى شيكاغو. كان قد طلب منها الزواج مرتين هذا العام؛ في كل مرة كان يثب فيها قلبها سعادة، وفي كل مرة كانت ترفض. وقد تجادلا بشأن هذا الأمر في زيارته الأخيرة حيث قال شاكياً: "إنك تضعين حاجزاً بيننا" ثم غادر غاضباً دون أن يقول لها إلى اللقاء.

"إننا فقط صديقان مقربان أنا وآل. إن الأمر ليس بهذه السهولة".

قالت دورو: "لا تكوني سخيفة. لا يوجد ما هو أبسط من ذلك".

فكرت كارولين: "إنه هي واقعة في الحب". قبلت وجنة فويب الناعمة ومضت مستقلة سيارة ليو البويك القديمة: كانت سوداء، واسعة، تجعل من يستقلها يشعر أنه داخل قارب. في العام الأخير من حياته أصبح ليو ضعيفاً للغاية وكان يمضي معظم أوقاته جالساً في مقعده الوثير بالقرب من النافذة وهو يحمل كتاباً فوق ساقيه ويحدق في الشارع. وفي أحد الأيام وجدته كارولين جالساً بترهل بينما يقف شعره الرمادي بطريقة غريبة وكان جلده - بل حتى شفتاه - شاحباً. وقد علمت أنه قد مات قبل حتى أن تلمسه. خلعت عنه نظارته ووضعت أطراف أصابعها فوق جفنيه مغلقة إياهما. وبمجرد أن أخذوا جثمانه جلست على مقعده محاولة تخيل كيف كانت حياته، فروع الشجرة تتحرك في صمت خارج النافذة، وقع أقدامها وأقدام فويب والتي كانت تحدث صدى بسقفه. قالت بصوت عال في الغرفة الشاغرة: "يا إلهي، يا ليو، أنا آسفة لأنك كنت تشعر بالوحدة".

وبعد جنازته ازدحم المنزل بأساتذة الفيزياء ونباتات الغردينيا وعرضت كارولين أن ترحل ولكن دورو رفضت. لقد

ذبابه كانت محشورة في الألواح الزجاجية للنافذة القديمة في الطنين. فكرت كارولين مجدداً في فويب - تلك الطفلة اللطيفة، تلك الطفلة التي تعثر على الأشياء المفقودة والتي تستطيع العد إلى خمسين وترتدى ملابسها بنفسها وتسرد الأبجدية، فتاة ربما تجد صعوبة في الكلام ولكنها تستطيع قراءة حالة كارولين المزاجية في لحظة.

قالت الأصوات: "ميزانية محدودة، عيب على المدارس والموارد المالية وانتقاص من فرص الأطفال الأكثر نبوغاً".

شعرت كارولين باليأس. إن هؤلاء الرجال لن يروا فويب قط، إنهم لن يروا شيئاً سوى أنها متأخرة وبطيئة في التحدث واتقان المهارات الجديدة. كيف يمكنها أن تريحهم ابنتها الجميلة: فويب وهي تجلس على السجادة في غرفة المعيشة وتصنع برجاً من المكعبات بينما ينسدل شعرها الناعم حول أذنيها وترسم نظرة تركيز على وجهها؟ فويب التي تضع الأسطوانة ٤٥ في جهاز التسجيل وتنصت وهي مأسورة للموسيقى بينما ترقص برقة على الأرضيات البلوط. أو يد فويب الصغيرة الناعمة التي تضعها فجأة على ركبتيها حينما تراها مستغرقة في التفكير أو مشتتة بسبب العالم وهمومه. فهي تقول "هل أنت بخير يا أمي؟"، أو "أنا أحبك". فويب وهي تعلو كتفى آل في ضوء المساء والتي تعانق كل شخص تقابله. فويب أثناء انخراطها في نوبات الغضب والعناد أو وهي ترتدى ملابسها بنفسها هذا الصباح وهي فخورة بنفسها.

تركز الحديث حول الطاولة على الأرقام والإحصائيات واستحالة التغيير. وقفت كارولين وهي ترتعد. وضعت أمها الميته يدها على فمها مصدومة وكارولين نفسها لم تصدق ما يحدث، وكيف غيرتها حياتها وكيف أصبحت. ولكن لم تكن هناك رجعة. مجموعة من المتأخرين ذهنياً حقاً! وضعت يديها

بدأ حديثه بكلمات مألوفة: "من حق كل الأطفال أن يتعلموا". وكان الدليل الذي قدمه واضحاً ودقيقاً: النمو المنتظم والمهام المنفذة. ومع ذلك فقد شاهدت كارولين الوجوه أمامها وهي تصاب بالجمود وتصبح مُقنعة. فكرت في فويب وهي تجلس ليلة أمس على الطاولة تمسك بالقلم في يدها وتكتب حروف اسمها معكوسة فوق الصفحة بأكملها بشكل متذبذب. بدأ رجال المجلس يخلطون الأوراق وقاموا بتنقية أصواتهم. وحينما سكت رون ستون بدأ شاب ذو شعر أسود مموج يتحدث.

"إن تعاطفك مع هؤلاء الأطفال محل إعجاب منا جميعاً يا سيد ستون. فنحن أعضاء الهيئة نقدر كل شيء تقوله ونقدر جهود هؤلاء الآباء. ولكن هؤلاء الأطفال متأخرون ذهنياً، هذه هي خلاصة القول. إن إنجازاتهم - بالرغم من أهميتها - حدثت داخل بيئة آمنة بصحبة معلمين قادرين على منح مزيد من الانتباه. فيبدو ذلك نقطة جوهرية".

تقابلت عينا كارولين وساندرا. فكانت تلك الكلمات مألوفة كذلك.

رد رون ستون قائلاً: "متأخرون ذهنياً هو مصطلح ازدرائى. إن هؤلاء الأطفال متأخرون نعم، لا أحد ينكر هذا، ولكنهم ليسوا أغبياء. فلا أحد في هذه الغرفة يعرف ما قد يستطيع هؤلاء الأطفال فعله. والسبيل الوحيد الذى يمكنهم من خلاله أن ينمو ويتطوروا - شأنهم شأن جميع الأطفال - هو بيئة تعليمية خالية من القيود. إننا فقط نطالب بالمساواة اليوم".

قال رجل آخر نحيل وذو شعر رمادى متفرق: "نعم المساواة. ولكننا لا نمتلك الموارد الكافية. لتحقيق المساواة سيكون علينا قبولهم جميعاً، عدد كبير من المتأخرين ذهنياً والذين سيشكلون عبئاً على النظام. فلتلق نظرة".

مرر نسخاً من تقرير وبدأ في تحليل النفقات. أخذت كارولين نفساً عميقاً. لن يجدى نفعاً أن تفقد أعصابها الآن. بدأت

على الطاولة وانتظرت. وواحد تلو الآخر من الرجال توقف عن الحديث وساد الصمت المكان.

قالت كارولين: "إن الأمر لا علاقة له بالأرقام بل بالأطفال. إن لدى طفلة تبلغ ستة أعوام. وهى تستغرق مزيداً من الوقت لإتقان المهام الجديدة، هذا صحيح. ولكنها تعلمت القيام بكل شيء مثل أى طفل آخر، تعلمت أن ترحف وتسير وتتحدث وتستخدم دورة المياه وترتدى ملابسها بنفسها وهو الأمر الذى فعلته هذا الصباح. إن ما أراه هو طفلة تريد أن تتعلم، والتى تحب كل من تراه. كما أرى غرفة مليئة بالرجال يبدو أنهم نسوا أننا فى بلد يعد بتوفير التعليم للجميع - بغض النظر عن قدراته".

طوال دقيقة لم يتحدث أحد. كانت النافذة الطويلة تصر برفق بفعل النسيم. كان الطلاء قد بدأ يتقشر فوق الجدران ذات اللون البيج.

كان صوت الرجل ذى الشعر الداكن رقيقاً.

"إننا جميعاً نتعاطف معك. ولكن ما مدى احتمالات إتقان ابنتك أو أى من هؤلاء الأطفال أية مهارات أكاديمية؟ وماذا سيكون تأثير هذا على ثقتها بنفسها؟ لو كنت مكانك لقممت بتعليمها حرفة تقديمية مفيدة".

قالت كارولين: "إنها فى السادسة من عمرها. إنها ليست مستعدة لتعلم حرفة".

كان رون ستون يراقب هذا الحوار بجدية والآن تحدث.

قال: "فى الواقع إن هذا الحوار برمته خارج عن موضوعنا الأساسى". فتح حقيبته وأخرج مجموعة من الورق. "إن تلك ليست فقط قضية أخلاقية. إنه القانون. إن ذلك التماس وقعه هؤلاء الآباء بالإضافة إلى خمسمائة آخرين. وهو سيتم إضافته إلى دعوى قضائية مقدمة بالنيابة عن هؤلاء الأسر للسماح لأطفالهم بالالتحاق بمدارس بتسبرج الحكومية".

قال الرجل ذو الشعر الرمادى وهو ينظر من فوق الوثيقة: "إن هذا هو قانون الحقوق المدنية. لا يمكنك استخدام هذا. إن ذلك ليس له علاقة بحرفية أو روح القانون".

قال رون ستون وهو يغلق حقيبته: "أدرس هذه الوثائق، وسنكون على اتصال".

وفى الخارج على الدرجات الحجرية القديمة كان الجميع منشغلين فى التحاور مع بعضهم البعض؛ كان رون مسروراً ومتفائلاً للغاية ولكن الآخرين كانوا متحمسين ويحتضنون كارولين لشكرها على خطبتها. ابتسمت واحتضنتهم أيضاً شاعرة بأنها مستنزفة وبعاطفة كبيرة إزاء هؤلاء الأشخاص: ساندرا التى مازالت تأتى كل أسبوع لتتناول القهوة معها، كولين التى جمعت هى وابنتها الأسماء للالتماس، كارل هذا الرجل الطويل المغم بالحيوية والذى مات ابنه الوحيد صغيراً نتيجة لإصابته بمضاعفات بالقلب ذات علاقة بمتلازمة داون والذى منحهم مكاناً فى مستودع السجاد الخاص به لعملهم. لم تكن تعرف أياً منهم منذ أربع سنوات فيما عدا ساندرا ومع ذلك فهى تضى معهم الآن أوقاتاً عديدة وخاصة فى أوقات متأخرة من الليل، وقد خاضوا صراعات عديدة معاً وحققوا انتصارات قليلة - وهم يتحلون جميعاً بقدر كبير من الأمل.

وبينما كانت لا تزال متوترة نتيجة الخطبة، قادت سيارتها عائدة إلى الحضانة. قفزت فويب من دائرة الأطفال وركضت تجاه كارولين محتضنة ركبتيها. كانت تصدر منها رائحة اللبن والشوكولاتة وكان هناك بعض القذارة على ثوبها. كان شعرها مثل السحابة الناعمة أسفل يد كارولين. أخبرت كارولين دورو باختصار ما حدث، والكلمات القبيحة - عبء النفقات - التى مازالت تدور فى ذهنها. لمست دورو - التى كانت متأخرة على عملها - ذراعها. "سوف نتحدث أكثر الليلة".

كانت الرحلة إلى المنزل جميلة، فقد تفتحت الأوراق على الأشجار ونباتات الليلى مثل زبد النار فوق التلال. كانت تمطر في الليلة السابقة، ولكن السماء الآن أصبحت زرقاء براقية. أوقفت كارولين السيارة في الزقاق وهي محبطة لرؤيتها أن آل لم يعد بعد. ومعاً سارت هي وفويب أسفل الظل الوامض للأشجار عبر طنين النحل. بدأت فويب تدور على العشب الناعم وذراعاها مبسوطتان ورأسها مثني للخلف ووجهها للشمس.

راقبتها كارولين وهي مازالت تحاول إبعاد توتر وقسوة الصباح جانباً. كان هناك سبب كى تتحلى بالأمل ولكن بعد كل سنوات الصراع هذه لتغيير مفاهيم العالم تعلمت كارولين كيف تبقى حذرة.

ركضت فويب ووضعت يديها حول أذن كارولين هامسة بسر فيها. لم تستطع كارولين سماع ما قالتها، فكل ما سمعته كان الهواء الخارج من فمها في حماسة وبعد ذلك ركضت فويب تحت أشعة الشمس ثانية وهي تدور في ثوبها الوردى الشاحب. لمست أشعة الشمس خصلات كهربائية في شعرها الداكن وتذكرت كارولين نورا هنرى أسفل أضواء العيادة البراقية. وطوال لحظة أصابها القلق والشك.

توقفت فويب عن الدوران وهي تبسط ذراعيها للحفاظ على توازنها. بعد ذلك صاحت وركضت عبر المرحلة وأعلى الدرج حيث كان آل واقفاً ينظر للأسفل، وهو يمسك بعبوة مغلقة في غلاف براق بيد من أجل فويب ومجموعة من زهور الليلك في اليد الأخرى والتي علمت كارولين أنها لها.

خفق قلبها بشدة. لقد ظل يتقرب منها بصبر ومثابرة عند عتبتها أسبوعاً بعد أسبوع مقدماً لها حفنة من الزهور أو هدية أخرى مبهجة، بينما ترتسم السعادة على وجهه بشكل يجعلها لا تستطيع صرفه. ومع ذلك فهي تنأى بنفسها عنه ولا تثق بحبه هذا الذى جاءها فجأة من هذا المصدر غير المتوقع. والآن كانت

تقف وهي شاعرة بدفقة من البهجة. كم كانت خائفة من ألا يأتى مجدداً!

قال وهو يربض لاحتضان فويب التى لفت ذراعيها حول رقبتة مرحبة به: "إنه يوم جميل". كانت العبوة تحتوى على شبكة فراشة ذات يد خشبية مزينة والتى أخذتها على الفور وركضت تجاه مجموعة من نباتات الكوبية الزرقاء. "كيف سار الاجتماع؟"

أخبرته بما حدث بينما كان ينصت ويهز رأسه. قال: "حسناً، إن المدرسة ليست للجميع. بالطبع أنا لا أتفق معك تماماً فيما تقومين به ولكن فويب فتاة لطيفة ولا يجب عليهم إبعادها".

قالت كارولين: "أود أن تحظى بمكان فى العالم". وقد أدركت فجأة أن ليس حب آل لها هو ما كان يقلقها بل حبه لفويب. "عزيزتى، إن لها مكاناً فى العالم. إنه هنا. ولكن نعم أعتقد أنك محقة. أعتقد أن لك كل الحق أن تحاربى من أجلها بشدة".

قالت ملاحظة الظلال أسفل عينيه: "أتمنى أن تكون قد حظيت بأسبوع أفضل". قال وهو يجلس على الدرج إلى جوارها وبعدما التقط عصا شرع فى تقشيرها: "نفس العمل الروتينى". ومن بعيد علا صوت الجزازات وغناء راديو فويب "أحبنى، أحبنى يا دو". "لقد اجتزت ٥٣٩٨ ميلاً هذا الأسبوع. إنه رقم قياسى، حتى بالنسبة لى".

فكرت كارولين بأنه سوف يسألها ثانية. تلك هى اللحظة، فقد كان متعباً من الطريق ومستعداً للاسترخاء والاستقرار وسوف يسألها. شاهدت يديه تتحركان برشاقة وسرعة وتنزعان اللحاء، مما جعل قلبها يقفز. فى هذه المرة ستوافق. ولكن آل لم يتحدث. فقد استمر الصمت فترة طويلة حتى أنها اضطرت أخيراً أن تقطعه.

قالت مشيرة إلى الفضاء العشبي حيث كانت فويب تركض وتكون الشبكة أقواساً براقاً في الهواء: "إن تلك هدية جميلة". قال آل: "لقد صنعها صديق لي في جورجيا. رجل لطيف. إن لديه مجموعة كاملة منها والتي نحتها لأحفاده. كنا نتحدث في متجر البقالة. إنه يجمع أجهزة راديو قصيرة الموجة وقد دعاني للتوقف ورؤيتها. وقد أمضينا الليلة بأكملها نتحدث أنا وهو. الآن هذه هي ميزة حياة التنقل. آه نعم"، بدأ يفتش في جيوب بنطاله ثم أخرج ظرفاً أبيض. "ها هو بريدك من أتلانتا".

أخذت كارولين المظروف دون تعليق. بالداخل كانت هناك عدة أوراق مالية من فئة المائة دولار مطوية بنظام داخل ورقة بيضاء. لقد جلبها آل من كليفلاند، ممفيس، أتلانتا، أكرون: مدن كان يمر عليها. وقد أخبرته ببساطة أن المال كان من أجل فويب، من والدها. وتقبل آل هذا دون تعليق، ولكن مشاعر كارولين كانت أكثر تعقيداً. ففي بعض الأحيان كانت تحلم بأنها تسير عبر منزل نورا هنري تأخذ أشياء من الأرفف والخزانات وهي تملأ حقيبة قماشية بينما هي سعيدة حتى ترى نورا هنري تقف عند النافذة وهي شاردة وحزينة. ثم تستيقظ وهي ترتعد وتنهض وتعد لنفسها بعض الشاي وتجلس في الظلام. وحينما يأتي هذا المال كانت تضعه في البنك ولا تفكر فيه حتى يأتي المظروف التالي. وقد ظلت تقوم بذلك طوال خمس سنوات والآن قد وفرت نحو ٧٠٠٠ دولار.

كانت فويب لاتزال تركض وتطارد الفراشات والطيور وذرات الضوء بينما تعلو النغمات الموسيقية من الراديو. كان آل يعبث بالقرص.

"الشيء اللطيف في هذه المدينة هو أنك تستطيعين أن تستمعي فيها إلى موسيقى لطيفة. في بعض المدن الصغيرة المعزولة التي أقيم بها كل ما تستطيعين الحصول عليه هو أفضل

أربعين أغنية. يصبح ذلك مملاً بعد فترة". بدأ يدندن بأغنية "البطريق بيجن".

قالت كارولين: "لقد اعتاد والدي الرقص على هذه الأغنية"، وللحظة كانت تجلس على درجات منزل طفولتها - غير مرئية - تراقب والدتها التي ترتدي ثوباً طويلاً وهي ترحب بالضيوف عند الباب. "أنا لم أفكر فيهما منذ سنوات. ولكن بين الحين والآخر كانا يرفعان السجادة من غرفة المعيشة في ليلة السبت ويدعوان بعض الأزواج ويشرعون في الرقص".

قال آل: "لا بد أن نذهب للرقص في بعض الأحيان. هل تحبين الرقص يا كارولين؟"

شعرت كارولين بالحماسة تتسلل إليها. لم تستطع تحديد مصدرها: شيء له علاقة بغضبها هذا الصباح واليوم النابض بالحياة ودفء ذراع آل إلى جوارها. جعلت الريح أوراق الحور ترفرف كاشفة عن الأجزاء التحتية منها.

سألت بعدما وقفت ومدت له يدها: "لم الانتظار؟". أصيب بالارتباك ولكنه وقف ووضع يده على ذراعها وشرعاً في التحرك فوق المرجة على نغمات الموسيقى، بينما تسير السيارات بسرعة خلفهما. توغلت أشعة الشمس في شعرها، وكان العشب ناعماً أسفل قدميهما اللتين يغطيها جورب - وتحركا معاً في انسيابية كبيرة وهما يدوران ويتمايلان، بينما يذوب التوتر الذي أصابها في الاجتماع مع كل خطوة. ابتسم آل وهو يجذبها نحوه أكثر بينما تضرب أشعة الشمس رقبتها.

فكرت وهما يدوران مجدداً: "سوف /وافق". انتشرت البهجة بسبب أشعة الشمس وضحكات فويب ويد آل الدافئة فوق ظهرها. تحركا بالعشب وهما يتمايلان مع الموسيقى ويتحدان من خلالها. كانت السيارات المسرعة خلفهما حقيقية وباعثة على الراحة مثل المحيط. وكانت هناك أصوات أخرى تتخلل الموسيقى وهذا اليوم البراق. لم تلاحظها كارولين

في البداية. ولكن آل أدارها فتوقفت عن الرقص. كانت فويب رابضة على العشب الناعم الدافئ عند نبات الكوبية وهي تبكي بشدة أعجزتها عن التحدث بينما تمسك بيدها. ركضت كارولين وربضت فوق العشب وشرعت في تفحص الدائرة المتورمة على يد فويب.

قالت: "إنها لدغة نحلة. إنها تؤلم يا حبيبتي، أليس كذلك؟".

دست وجهها في شعر فويب الدافئ. كان جلدها ناعماً ويعلو صدرها وينخفض وأسفله كان يستقر قلبها. هنا كان يكمن الشيء الذي لا يمكن قياسه أو حتى شرحه: كانت فويب تقتصر على سجيته وحدها. إنك لا تستطيع تصنيف إنسان. إنك لا تستطيع أن تفترض أنك تعرف ماذا حدث أو ما سوف يحدث بالحياة.

قالت وهي تمرر يدها على شعر فويب: "كل شيء على ما يرام يا حبيبتي".

ولكن نحيب فويب كان يتخلله أزيز يشبه الخناق الذي عانت منه وهي رضية. كانت راحة يدها تتورم؛ وكذلك يدها وأصابعها. شعرت كارولين بالسكينة تنمو بداخلها حتى بالرغم من نهوضها برفق واستدعائها لآل.

صاحت بينما كان صوتها مرتفعاً وغريباً: "أسرع يا آل، إنها مصابة بالحساسية".

رفعت فويب والتي كانت ثقيلة بين ذراعيها ثم توقفت في ارتباك لأن مفاتيحها كانت في حقيبتها بالمطبخ ولم تستطع أن تتبين كيف يمكنها أن تفتح الباب وهي تحمل فويب والتي كانت تنن بشكل أقوى الآن. لكن أتى آل الآن وأخذ فويب وركض إلى السيارة وجاءت كارولين بالمفاتيح وحقيبتها. قادت سيارتها بسرعة عبر شوارع المدينة. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المستشفى كانت فويب تلهث وتتلاحق أنفاسها بسرعة.

غادروا السيارة عند المدخل وأمسكت كارولين بأول ممرضة رأتها.

"إنها حالة حساسية. نحن بحاجة لرؤية طبيب الآن." كانت الممرضة أكبر سناً وممتلئة الجسم بعض الشيء وكان شعرها مسترسلاً حتى كتفها وملتفاً نحو الداخل. قادتهم عبر مجموعة من الأبواب المعدنية حيث وضع آل فويب برقة على النقالة. كانت فويب تصارع كي تتنفس الآن وأصبحت شفتها زرقاوين بعض الشيء. كانت كارولين أيضاً تعاني من صعوبة في التنفس وامتلاً صدرها بالخوف. أرجعت الممرضة شعر فويب للوراء ولمست بأصابعها النبض في رقبتها. بعد ذلك راقبتها كارولين وبدأت ترى فويب مثلما رآها دكتور هنري في ليلة العاصفة الثلجية منذ فترة بعيدة. رأت الممرضة تنظر إلى العينين المنحرفتين واليدين الصغيرتين اللتين كانتا تمسكان بالشبكة بشدة وهي تركض خلف الفراشات، ورأت عينيها تضيقان قليلاً. ومع ذلك، فلم تكن مستعدة.

قالت الممرضة وهي تنظر للأعلى بينما تلاقت عيناها مع عيني كارولين: "هل أنت واثقة؟ هل أنت واثقة حقاً من أنك تريدني منى استدعاء طبيب؟".

وقفت كارولين في مكانها دون حراك. تذكرت رائحة الخضراوات المسلوقة واليوم الذي قادت فيه سيارتها بصحبة فويب والتعبيرات الجامدة على وجوه رجال المجلس التعليمي. وسريعاً تحول خوفها إلى غضب جامح وقوى. رفعت يدها لتصفع وجه الممرضة الجامد ولكن آل أمسك بمعصمها.

قال للممرضة: "استدعي الطبيب حالاً".

وضع ذراعه حول كارولين ولم يتركها حتى حينما استدارت الممرضة وابتعدت وحتى حينما ظهر الطبيب، إنه لم يتركها إلا حينما بدأت حالة فويب تستقر وعاد اللون الوردي بعض الشيء إلى وجنتيها. بعد ذلك ذهبوا معاً إلى حجرة الانتظار وجلسا فوق

المقاعد البلاستيكية بارتفاعية اللون وهما يمسكان بأيدي بعضهما البعض في حين كانت الممرضات يتحادثن وتأتى الأصوات من نظام الاتصال البينى ويعلى صوت الرضع. قالت كارولين: "كان يمكن أن تموت". فقدت هدوءها وبدأت ترتعد.

قال آل بحزم: "ولكنها لم تمت".

كانت يد آل دافئة وكبيرة وباعثة على الراحة. لقد كان صبوراً كل هذه السنوات، فكان يأتى ثانية وثانية قائلاً إنه يتعرف على الشيء الجيد حينما يراه، قائلاً إنه سينتظر. ولكنه رحل أسبوعين هذه المرة وليس أسبوعاً واحداً. كما أنه لم يتصل من الطريق. وبالرغم من أنه أخضر لها زهوراً كعادته يوماً إلا أنه لم يجدد عرض الزواج منذ ستة أشهر. يمكنه أن يقود سيارته ويرحل ولا يعود قط، ولا يعطيها فرصة أخرى كي توافق. رفعت يده وقبلت راحتها والتي كانت صلبة وغليلة وممتلئة بالخطوط. استدار وهو مفزوع من الأفكار التى راودته وكان مرتبكاً وكأنه تعرض للدغ هو الآخر.

كانت نبرة صوته رسمية: "كارولين. هناك شيء أود قوله". "أعلم". وضعت يده على قلبها وأمسكت بها هناك. "يا إلهى يا آل، كم كنت حمقاء. بالطبع أوافق على الزواج منك".

يوليو ١٩٧٧

سألت نورا: "هكذا؟".

كانت ترقد على الشاطئ وأسفل ساقها كانت الرمال تنزلق وتتحرك. فكل مرة كانت تأخذ فيها نفساً عميقاً وتحرره كانت الرمال تتحرك أسفلها. كانت الشمس ساخنة للغاية وكأنها صحن معدني فوق جلدها. لقد ظلت هناك منذ أكثر من ساعة تتخذ وضعيات مختلفة، في حين بدت لها عبارة "تغيير الوضع" وكأنها توبيخ ساخر حيث إن ذلك هو ما كانت تتوق إلى القيام به ولكنها لم تستطع. كانت تلك هي إجازتها بالرغم من كل شيء - فقد فازت برحلة لأسبوعين في أوروبا لقيامها بتحقيق أعلى معدلات بيع للرحلات في ولاية كنتاكي العام الماضي - وها هي ذا الآن: الرمل يلتصق بالعرق على ذراعيها ورقبتها بينما ترقد ساكنة وهي محشورة بين الشمس والشاطئ.

ولإلهاء نفسها أخذت تحقق في بول الذي كان يركض بطول الشاطئ، والذي بدا كدرة في الأفق. كان في الثالثة عشرة من

عمره الآن وقد كبر ليصبح شاباً في هذا العام الأخير. فقد أصبح طويلاً يافعا وكان يركض كل صباح وكأنه يرغب في الهروب من حياته.

كانت الأمواج ترتطم بببطء في الشاطئ. وكان المد يدور ويقذف بالأمواج، وسرعان ما سوف يخبو ضوء الظهيرة مما سيجعل من المستحيل على ديفيد التقاط الصورة التي يرغبها حتى الغد. طارت خصلة من شعرها على شفثتها واستقرت هناك ولكن نورا أرغمت نفسها على عدم الحراك.

قال ديفيد وهو جاثم فوق كاميرته ويلتقط مجموعة سريعة من الصور: "جيد. نعم، عظيم، هذا وضع ممتاز".

قالت: "أنا أشعر بالحر".

"فقط بضعة دقائق أخرى. لقد أوشكنا على الانتهاء". كان يجلس على ركبتيه الآن بينما تبدو فخذه شاحبتين فوق الرمال. كان يعمل بكد كما كان يمضي ساعات طويلة في الغرفة المظلمة يعلق الصور لتجف على الحبل الذي قام بملئه من الجدار للجدار. "فكرى في البحر، والأمواج، وفي الرمال. إنك جزء من هذا يا نورا. سوف ترين هذا في الصور. سوف أريك".

رقدت ساكنة أسفل الشمس تشاهده يعمل بينما تتذكر الأيام الأولى من زواجهما حينما كانا يخرجان للتمشية في ليالي الربيع وهما يمسكان بيدي بعضهما البعض بينما يملأ الهواء رائحة نباتات صريمة الجدى والياقوتية. هم كانت تحلم - حينما كانت أصغر - وهي تسير في ضوء الغسق الناعم؟ ليست هذه الحياة بالتأكيد. وقد برعت نورا في مجال السياحة على مدار الخمس سنوات الماضية فقد نظمت المكتب وبالتدريج بدأت تسافر في رحلات عبر البحار. كما أصبح لها قائمة عملاء ثابتة وتعلمت البيع ودفع منشورات الدعاية البراقة فوق مكتبها واصفة بالتفصيل أماكن حلمت قبل ذلك فقط بالذهاب إليها. وقد أصبحت خبيرة في حل أزمت اللحظة الأخيرة: الحقائق المفقودة

والجوازات التي تم تبديلها. وفي العام الماضي حينما قرر بيت وارين التقاعد أخذت نفساً عميقاً واشترت مكتب السياحة. الآن أصبح ملكها بداية من المبنى الطوبى إلى صناديق تذاكر السفر بالخزانة. كانت أيامها محمومة ومزدحمة ومشبعة - وكل ليلة كانت تعود إلى المنزل في حالة من الصمت.

قالت حينما انتهى ديفيد أخيراً وهي تقف وتنفض الرمل من فوق ساقها وذراعيها وشعرها: "أنا لا أفهم. لماذا تلتقط صوراً لي بينما كل ما تريده هو أن أخفى داخل المنظر الطبيعي؟".

قال ديفيد بعدما رفع عينيه من فوق معداته: "إن الأمر له علاقة بالرسم المنظوري". كان شعره جامحاً ووجنتاه وساعده قد اكتسبت لونا أحمر ناتجاً عن شمس الظهيرة. ومن بعيد استدار بول وكان في طريقه للعودة. "إن الأمر له علاقة بالتوقعات. فالناس سوف ينظرون إلى هذه الصورة ويرون شاطئاً وكثباناً رملية دائرية. وبعد ذلك سيلمحون شيئاً غريباً وكذلك شيئاً مألوفاً في منحنيات جسدك أو أنهم سيقروا العنوان ويبحثون ثانية عن المرأة التي لم يروها في المرة الأولى وحينها سيجدونك". كان صوته عميقاً، وكان الهواء الخارج من المحيط يتحرك خلال شعره الأسود. وقد شعرت بالحزن لأنه كان يتحدث عن التصوير كما كان يتحدث سابقاً عن الطب وعن زواجهما، لغة ونبرة صوت أثارتا الماضي وقامتاً بملئها بالحنين. سألتها برى ذات مرة: "هل أنت وديفيد تتحدثان عن أمور مهمة أم أمور تافهة؟". وقد شعرت نورا بالصدمة حينما أدركت أن العديد من حواراتهما كانت تدور حول أشياء روتينية مثل شئون المنزل وجدول حياة بول.

كانت الشمس ساطعة على شعرها والتصق الرمل على الجلد الناعم بين ساقها. كان ديفيد منشغلاً في فك الكاميرا الخاصة به ووضعها جانباً. وقد أملت نورا أن تساعد ههما هذه الإجازة على استرجاع الصلة الوطيدة التي تشاركا فيها فيما سبق. وهذا هو ما

دفعها لقضاء هذه الفترة الطويلة راقدة تحت الشمس الحارقة حاملة نفسها على السكون في حين ظل ديفيد يلتقط صورة بعد الأخرى، ولكنهما هناك منذ ثلاثة أيام الآن ولم يتغير شيء في حياتهما سوى المكان. فقد وجد ديفيد لنفسه أعمالاً يقوم بها؛ فهو إما يلتقط صوراً أو يصطاد. كما كان يقرأ في المساء ويتأرجح فوق الأرجوحة الشبكية، وكانت نورا تذهب للتمشية وتأخذ قيلولات عديدة وتسكع وتذهب للتسوق من متاجر السياح البراقة مرتفعة الأسعار في المدينة. وكان بول يعزف على جيتاره ويركض.

نظرت نورا بعينيها إلى المنحنى الذهبي للشاطئ وحينما اقترب جسم العداء رأت نورا أنه لم يكن بول. فقد كان الرجل الذي يركض طويلاً ونحيلًا، ربما في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره. كان يرتدى بنطالاً قصيراً من النايلون الأزرق ذي بریم تزيين وعاري النصف العلوي وكانت كتفاه واللتان اكتسبتا سمرة من الشمس بهما حرق يبدو مؤلماً. وحينما اقترب منهما أبطأ ثم توقف وهو يضع يديه على فخذه ويتنفس بصعوبة.

قال: "كاميرا لطيفة"، ثم قال وهو ينظر مباشرة إلى نورا: "صورة جميلة". كان قد بدأ يصبح أصلع بعض الشيء؟ وكانت عيناه بنيتين داكنتين. استدارت وهي تشعر بحرارتها حينما بدأ ديفيد في التحدث: أمواج وكثبان رملية، رمال وجسد بشري، شكلان متضاربان في صورة واحدة.

بدأت تحديق في الشاطئ. هناك - بالكاد يمكنها أن تراه - كان يركض شخص آخر، والذي كان ابنها. كانت الشمس ساطعة للغاية. وطوال بضع ثوان شعرت بالدوار، وكان ضوءاً فظيلاً صغيراً يلعب خلف جفنيها حينما نظرت إلى حواف الأمواج. هوارد: تساءلت من أين هو، ومن أين له بمثل هذا الاسم. كان هو وديفيد يتحدثان بجديّة الآن حول الثقوب والمرشحات.

قال بعدما استدار لإشراك نورا في الحوار: "إذن أنت مصدر الإلهام لهذه الدراسة".

قالت وهي تنفض الرمل من فوق معصمها: "أعتقد هذا. ولكن الأمر شاق بعض الشيء على الجلد"، بعد ذلك أدركت فجأة أن ثوب السباحة الجديد هذا يتركها شبه عارية. كانت الريح تتحرك فوقها وتنخلل شعرها.

قال هوارد: "لا، إن لديك بشرة جميلة". اتسعت عينا ديفيد - نظر إليها وكأنه لم يرها من قبل - وشعرت نورا ببهجة غامرة ونوع من الانتصار. أرادت أن تقول: "أترى؟ إن لدى بشرة جميلة". ولكن جدية تحديق هوارد بها أوقفها.

قالت نورا: "لابد أن ترى أعمال ديفيد الأخرى". أشارت إلى الكوخ الذي يوجد أسفل النخل وتتدفق من شرفته تعريشات نبات البوغنفيلية. "لقد أتى بحقيقة أوراقه". كانت كلماتها بمثابة جدار فاصل ولكنها كانت أيضاً دعوة.

قال هوارد وهو يستدير ليواجه ديفيد ثانية: "يا له من أمر مثير. أنا معجب حقاً بدراستك".

قال ديفيد: "ما المانع؟ انضم إلينا في الغداء".

ولكن هوارد كان لديه اجتماع بالمدينة الساعة الواحدة. قالت نورا: "ها قد أتى بول". كان يركض بسرعة شديدة على حافة الماء قاطعاً الياردات المائة الأخيرة بينما تلعب ذراعه وساقاه في الضوء والحرارة. أخذت نورا تفكر كيف يصبح العالم مشرقاً كما اعتاد أن يكون فيما مضى عند وجوده أمامها. قالت لهوارد: "ابننا، إنه عداء أيضاً".

قال هوارد: "إن لياقته جيدة". اقترب بول وبدأ يبطئ. وبمجرد أن وصل إليهم ربح عن يديه وركبتيه ساحباً أنفاساً عميقة داخل رثتيه.

قال ديفيد وهو ينظر لساعته: "لقد قطعت المسافة في وقت جيد". قالت نورا لنفسها: "لا تفعل هذا"، ففيما يبدو لم يكن

قال هوارد: "نعم التحول. أرغب في رؤية هذا. سوف آتى على العشاء".

ظل ديفيد وهوارد يتحدثان لبضع دقائق في حين سار بول على الأمواج لتبريد جسمه، وبعد ذلك غادر هوارد. بعدها ببضع دقائق بينما كانت نورا تقف في المطبخ تقطع الخيار إلى شرائح لإعداد الغداء أخذت تشاهده وهو يسير على الشاطئ، هناك ثم يختفى، هناك مرة أخرى حينما يرفع النسيم الستارة. تذكرت الحرق الداكن على كتفيه، عينيه وصوته المتسمين بالعمق. كان الماء يتدفق داخل الأنابيب أثناء استحمام بول، كما كان هناك صوت حفيف الورق حيث كان ديفيد يرتب صورته في غرفة المعيشة. وقد بدا مهووساً بذلك الأمر على مر السنوات وهو يرى العالم دوماً ويراه كما لو أنه ينظر من وراء كاميرا. إن ابنتهما المفقودة مازالت تحوم بينهما؛ لقد نحتت حياتهما نفسها حول غيابها. وقد تساءلت نورا حتى في بعض الأوقات إن كانت هذه الخسارة هي الشيء الرئيسي الذي يبقيهما معاً. وضعت شرائح الخيار في إناء السلطة وبدأت تقشر الجزر. كان هوارد يشبه الثقب من هذا البعد ثم اختفى. تذكرت كيف كانت يدها كبيرتين، راحتا يديه والأجزاء المتصلبة بهما. قال: "بشرة جميلة" ولم تتركها عيناه.

بعد الغداء نام ديفيد في الأرجوحة الشبكية واستلقت نورا على الفراش أسفل النافذة. تسلسل نسيم المحيط للداخل؛ وقد شعرت بالحيوية وكأنها موصولة بالرمل والبحر عن طريق هذه الرياح. كان هوارد مجرد شخص عادي، شبه مهزول وقد بدأ يصبح أصلع الشعر، ومع ذلك فقد جذبها بشكل غامض ربما بسبب وحدتها العميقة. وقد تخيلت برى وهى تمازحها وتضحك.

فقد كانت ستقول: "حسناً، لماذا لا؟ حقاً يا نورا، لماذا لا؟".

ديفيد يرى كيف يرفض بول اقتراحاته بشأن مستقبله. "لا تفعل هذا". ولكن ديفيد لم يسكت. "أمقت أن أراه يفوت على نفسه فرصة احتراف لعبة تناسبه. انظر إلى طوله. فكر فيما يمكنه أن يفعل بالملعب. ولكنه لا يهتم إطلاقاً بلعبة كرة السلة".

نظر بول للأعلى وهو يكشف بينما شعرت نورا بدفقة من غضب مألوف تتسلل إليها. لماذا لا يستطيع ديفيد أن يتفهم أنه كلما ضغط عليه ليمارس كرة السلة زادت مقاومته؟ فإذا أراد من بول ممارسة هذه اللعبة فلا بد له أن يعزف عن التحدث بشأن هذا الأمر.

قال بول وهو يقف معتدلاً: "أنا أحب العدو".

قال هوارد وهو يضافحه: "من يمكن أن يلومك، حينما يكون في إمكانك الركض بهذه الطريقة؟".

صافحه بول وهو يشع سعادة. قال لها منذ لحظات: "إن لديك بشرة جميلة". وقد تساءلت نورا إن كان وجهها جميلاً كذلك.

اقترحت باندفاع بعدما أثارت إعجابها معاملته الرقيقة لبول: "لماذا لا تتناول العشاء معنا". كانت جائعة وتشعر بالعطش كما أن الشمس قد أصابتها بالدوار. قالت: "بما أنك لا تستطيع أن تأتى على الغداء، تعال وتناول العشاء معنا. أحضر زوجتك بالطبع وأسررتك. فنحن سوف نضرم ناراً ونطهى طعاماً على الشاطئ".

قطب هوارد وهو ينظر إلى الماء اللامع. شبك يديه ووضعهما خلف رأسه وتمدد. قال: "للأسف، أنا هنا وحدى. أنا على وشك الانفصال عن زوجتى".

قالت نورا: "أنا آسفة" بالرغم من أنها لم تكن كذلك.

قال ديفيد: "تعال على أية حال. إن نورا تقيم حفلات عشاء رائعة. سوف أريك باقى السلسلة التى أعمل بها - إن الأمر كله يدور حول الإدراك والتحول".

قالت نورا وهى تغير وضعيتها ناظرة خارج النافذة إلى الرمال المتحركة والمربكة متلهفة أن تجد أختها أمامها لتوبيخها: "أنا امرأة متزوجة".

"نورا، بحق السماء، إنك لن تعيشى إلا مرة واحدة. لماذا لا تحظين ببعض المتعة؟".

وقفت نورا وسارت برقة على الألواح الخشبية القديمة البالية وأعدت لنفسها كأساً من الشراب. جلست على أرجوحة الشرفة تستمتع بالنسيم وتشاهد ديفيد وهو يغط فى النوم، هذا الشخص الذى أصبحت لا تعرفه فى هذه الأيام. وقد علت نغمات جيتار بول فى الهواء الرقيق. وقد تخيلته جالساً عاقداً ساقيه على الفراش الدقيق ورأسه مثنى فى تركيز فوق الجيتار الجديد الذى كان يحبه والذى أهده له ديفيد فى عيد ميلاده الأخير. كانت آلة جميلة، وكان الجزء الأمامى منها مصنوع من خشب الأبنوس والجزء الخلفى والجوانب مصنوعين من خشب الورد وذا نواقل نحاسية. لقد حاول ديفيد مع بول. إنه يضغط عليه بشدة فى مسألة الرياضة، كان هذا صحيحاً، ولكنه أيضاً كان يخصص وقتاً لأخذ بول لصيد السمك أو للركض فى الغابات، فى بحثهما الذى لا ينتهى عن الصخور. وقد أمضى ساعات يدرس هذا الجيتار ويطلبه من شركة فى نيويورك، وقد كان وجهه مليئاً بالسعادة حينما رفعه بول من الصندوق. نظرت إلى ديفيد الآن، ينام بالجانب الآخر من الشرفة، بينما تتحرك عضلة فى وجنته. همست: "ديفيد" ولكنه لم يسمعها. قالت بصوت أعلى: "ديفيد" ولكنه لم يتحرك.

وفى الرابعة نهضت بشكل حالم. اختارت ثوباً مزيناً بالزهور ومكشكشاً عند الخصر وذا حمالتين رفيعتين. ارتدت منزراً وبدأت تطهو طعاماً بسيطاً، ولكن مترفاً: محار مغلى مع المقرمشات على الجانب، ذرة، سلاطة خضراء طازجة، سرطانات بحر صغيرة اشترتها هذا الصباح من السوق والتى مازالت

محفوفة داخل دلو من ماء البحر. وبينما كانت تتحرك فى المطبخ الصغير متخذة من أوانى الكعك أوانى للشواء ومستبدلة الأوريغانو بالمردقوش بتوابل السلاطة، كانت تنورتها القطنية تتحرك بخفة فوق فخذيها ووركها. وكان الهواء الدافئ مثل الأنفاس يصطدم بذراعيها. دست يديها داخل حوض من الماء البارد لتغسل أوراق الخس ورقة ورقة، وقد عمل ديفيد وبول لإضرام نار فى المشواة نصف الصدئة والتي كانت ثقبوها مرقعة بورق الألومنيوم. وكانت هناك أطباق ورقية على الطاولة المكشوفة وأكواب بلاستيكية حمراء مملوءة بالشراب. وسوف يتناولون المحار بأيديهم وسوف ينساب الزبد على راحة أيديهم.

سمعت صوته قبل أن تراه، نبرة أخرى، منخفضة عن نبرة صوت ديفيد وتتسم بأنها خارجة أكثر من الأنف، وكان ذا لكمة شمالية محايدة، وقد تدفق داخل الغرفة هواء منعش بارد مع كل كلمة يقولها. جففت نورا يديها بفوطه المطبخ وذهبت إلى الباب الأمامى.

الرجال الثلاثة - وقد أدهشها أنها رأت بول رجلاً ولكنه كان يقف وكتفه محاذاً لكتف ديفيد، شبه بالغ ومستقل، وكان جسمه لم يكن جزءاً منها قط - كانوا يقفون على الرمل خلف الشرفة مباشرة. كانت المشواة تصدر روائح الدخان والراتينج ويرسل الفحم حرارة متموجة فى السماء. وقد وقف بول والذى كان عارى النصف العلوى وهو يضع يديه فى جيبى بنطاله القصير ويجيب بإيجاز عن الأسئلة التى تعترض طريقه. وهما لم يريها - زوجها وابنها، حيث كانت أعينهما مثبتة على النار والمحيط والذى كان ناعماً مثل الزجاج المعتم فى هذه الساعة. كان هوارد الذى يواجههما هو الذى رفع وجهه وابتسم لها.

وطوال لحظة وقبل أن يستدير الآخران وقبل أن يرفع هوارد زجاجة الشراب ويعطيها له تلاقت عيناها، وهو الأمر الذى لا يمكن إثباته لاحقاً، لحظة اتحاد عرضة لأية عوامل يفرضها

عليها المستقبل. ولكنها كانت حقيقية. عيناه الداكنتان، وجهه ووجهها اللذان تفتحا في سعادة وأمل، بينما يتحطم العالم من حولهما كالأمواج المتكسرة.

استدار ديفيد وهو يبتسم وانتهت اللحظة فجأة.

قال هوارد وهو يعطيها الزجاجاة: "إنه أبيض". اندهشت نورا حينما لاحظت كم كان شخصا عاديا والطريقة السخيفة التي نمت بها سوائفه حتى منتصف وجنتيه. المعنى الخفى للحظة السابقة - هل يمكن أن يكون كل هذا مجرد خيال؟ - ولت الآن. "أتمنى أن تكون مناسبة".

قالت: "إنها رائعة. لقد طهوت محاراً". نعم كان مجرد حوار عادي. لقد مضت تلك اللحظة الآن وأصبحت هي حاليا مضيفة كريمة تتحرك مؤدية دورها في ثوبها. كان هوارد ضيفها؛ وقد قدمت له مقعدا من الأملود ومشروبا. وحينما عادت ثانية حاملة زجاجات الشراب ودلوا من الثلج فوق صينية، كانت الشمس قد وصلت إلى حافة الماء. وقد تكتلت السحب عاليا في ظلال هوائية وردية وقرمزية.

تناولوا الطعام بالشرفة وقد حل الظلام سريعا وأشعل ديفيد الشمع الذي كان موضوعا فوق الدرايزين. وخلف الدرايزين بدأت حركة المد وكانت الأمواج تتدافع فوق الرمال. وفي الضوء الوامض علا صوت هوارد وانحسر وعلا ثانية. كان يتحدث عن صندوق آلة كاميرا قام بصنعه. وقد كان عبارة عن صندوق من خشب الماهوجنى والذي يحجب كل الضوء باستثناء نقطة صغيرة واحدة. وهذا الثقيب كان يلقي بصورة صغيرة للعالم فوق مرآة وهذه الآلة هي الاختراع السابق للكاميرا؛ وبعض الرسامين - كان فيرمير أحدهم - قد استخدموها لتحقيق مستوى غير عادي من التفصيل في أعمالهم. وكان هوارد يسعى لتحقيق نفس الهدف أيضا.

أنصتت نورا والليل يغمرها بينما تأسرها لغته المجازية: العالم مرسوم على جدار داخلي أسود، أشخاص صغيرة مسلط

عليهم الضوء ولكن يتحركون. كان ذلك مختلفاً عن جلساتها مع ديفيد حينما يبدو أن الكاميرا تمنعها من الحراك وكأنها توقف الزمن من حولها. وقد أدركت وهي ترتشف شرابها في الظلام أن هذه هي المشكلة الكامنة في قلب كل شيء. ففي مكان ما بالطريق تعثرت هي وديفيد. إنهما يحوطان بعضهما البعض الآن بينما هما ساكنان في مداريهما المختلفين. تغيرت دفة الحوار وسرد هوارد حكايات عن الوقت الذي أمضاه في فيتنام حيث كان يعمل مصورا للجيش يسجل المعارك. قال حينما أبدى بول إعجابه: "معظم هذا العمل كان مملا في الواقع. معظمه كان يقتصر على الذهاب والإتيان بنهر ميكونج على متن قارب. ولكن بالرغم من ذلك فكان نهرا غير عادي وكان المكان غير عادي".

بعد العشاء ذهب بول لغرفته. وبعدها ببضع دقائق تدفقت نغمات جيتاره والتي اختلطت بأصوات الأمواج. لم يكن يرغب أن يأتي في هذه الرحلة؛ فبسببها تخلص عن أسبوع في معسكر موسيقى، كما أن لديه حفلا مهما يشترك بالعزف فيه بعد بضعة أيام فقط من الموعد المقرر لعودتهم. ولكن ديفيد أصر على مجيئه؛ فلم يكن يأخذ طموحات بول الموسيقية محمل الجد. فلا بأس أن يتخذها هواية ولكن ليس مهنة. ولكن بول كان يعشق العزف على الجيتار ويود الذهاب إلى جيلارد. وكان ديفيد - والذي عمل جاهدا ليوفر لهم كل سبل الحياة المترفة - يغضب في كل مرة يثار فيه هذا الموضوع. الآن نغمات بول كانت تسقط في الهواء مجنحة وجميلة ولكن مقطوعة بعض الشيء أيضا مثلما يشق السكين الجلد.

وقد انتقل الحديث من البصرييات إلى الضوء النقي لوادي نهر هدسون حيث كان هوارد يعيش، وجنوب فرنسا التي كان يحب السفر إليها. شرع في وصف الطريق الضيق الرملى المرتفع وحدائق نباتات الشمس. كان عبارة عن صوت فقط، ليس أكثر من مجرد ظل إلى جوارها، ولكن كلماته تحركت خلالها كما تتحرك

الشعيرات الرمادية في شعرها والتي لم تؤمن أن بإمكان أى أحد رؤيتها سواها بينما تغمض عينيها نصف إغماضة فى الضوء الساطع لدورة المياه. ولكن يبقى الأمر صحيحاً. لقد أتى هوارد للتحديث بشأن التصوير مع ديفيد، هذا هو كل ما فى الأمر.

خرجت من المنزل وهى تحمل حقيبة القمامة متوجهة إلى سلة القمامة. كانت الرمال باردة بعض الشيء أسفل قدميها العاريتين، وكان الهواء بنفس درجة دفء بشرتها. سارت نورا إلى حافة المحيط ووقفت تحديق فى النجوم البيضاء. وخلفها انفتح الباب الزجاجى وانغلق. فقد خرج ديفيد وهوارد وشرعا فى السير خلال الرمال والظلام.

قال ديفيد: "شكراً لتوليك أعمال التنظيف". وضع يده على ظهرها مما جعلها تتوتر وتبذل جهداً كى لا تبتعد عنه. "أنا آسف لأننى لم أساعدك. أعتقد أننا انخرطنا فى الحوار. إن هوارد لديه بعض الأفكار الجيدة".

قال هوارد مشيراً إلى مئات الصور التى التقطها ديفيد: "فى الحقيقة أنا الذى أسرتنى صورك". التقط أحد جذوع الخشب وألقاها بقوة. وقد سمعوا صوت الارتطام بالماء وابتلاع الأمواج لها.

وخلفهم كان المنزل يشبه المصباح الذى يشع ضوءاً ساطعاً ولكن ثلاثتهم وقفوا فى ظلام دامس حتى أن نورا كانت تستطيع بالكاد رؤية وجه ديفيد وهوارد ويديها. فكانت ترى فقط ظلالاً وأصواتاً متحررة من الأجساد فى الليل. كان الحوار يتعرج ويعود لينصب مجدداً على التقنية والعملية. ظنت نورا أنها قد تصرخ. وضعت إحدى قدميها العاريتين خلف الأخرى، قاصدة الاستدارة والمغادرة، حينما مرت يد فجأة على فخذاها. توقفت فى فزع. انتظرت. فى لحظة مرت أصابع هوارد برفق على ثوبها، بعد ذلك كانت يده تدخل جيبها، وكأنها دفء فجائى على جلدها.

موسيقى بول، بطريقة ما داخلها وخارجها فى نفس الوقت. صب ديفيد المزيد من الشراب وقام بتغيير الموضوع، بعد ذلك نهضوا ودخلوا حجرة المعيشة ذات الأضواء الباردة. أخذ ديفيد مجموعة من صورهِ الأبيض والأسود من حقيبة أوراقهِ وانخرط هو وهوارد فى نقاش جاد حول خصائص الضوء.

شرعت نورا فى التسكع. إن الصور التى كانوا يتناقشون بشأنها كانت جميعاً لها: ساقها، جلدها، يداها، شعرها. ومع ذلك فقد كانت مستبعدة من الحوار: مجرد شيء ليس كائناتاً بشرياً. ومن حين لآخر حينما تذهب لأحد المكاتب فى ليكسنجتون كانت تجد صورة غريبة وفى نفس الوقت مألوفة - منحنى ما فى جسمها أو مكان زارته هى وديفيد مجرداً من معناه الأصلى ومحولاً: صورة لها تتخذ شكلاً تجريبياً، مجرد فكرة. وقد حاولت باتخاذ هذه الوضعيات لديفيد - أن تقلل من الجواجز التى أصبحت تفصل بينهما. خطأها أو خطؤه - لا يهم حقاً. ولكن عند مشاهدتها لديفيد الآن وهو منغمس فى شروحه أدركت أنه لا يراها حقاً ولم يرها منذ سنوات.

تأجج الغضب بداخلها تاركاً إياها ترتعد. استدارت وخرجت من الغرفة. منذ اليوم الذى تخلصت فيه من الدبابير وهى لا تشرب كثيراً، ولكنها الآن ذهبت إلى المطبخ وصبت لنفسها بعض الشراب فى كوب بلاستيكى. وفى كل مكان حولها كانت توجد الآنية القذرة وزبد متخثر والقشور الحمراء النارية للمحار. يا لها من الكثير من الأعمال التى ستضطر إلى القيام بها مقابل متعة قصيرة! فى العادة كان ديفيد هو من يغسل الأطباق ولكن الليلة ربطت نورا منيراً حول خصرها وملأت الحوض ووضعت باقى المحار فى الثلاجة. وفى حجرة المعيشة استمرت الأصوات تعلو وتنخفض مثل البحر. فيم كانت تفكر حينما ارتدت هذا الثوب، وحينما انجذبت لصوت هوارد؟ لقد كانت نورا هنرى، زوجة ديفيد، والدة بول، ابن أوْشك على البلوغ. لقد كان هناك بعض

قال ديفيد لاحقاً حينما دلفا داخل المنزل: "أنا معجب بهذا الرجل". كان المطبخ نظيفاً الآن، وقد اختفت جميع الأدلة على فترة بعد الظهيرة الحاملة.

كانت نورا تقف في النافذة تنظر إلى الشاطئ المظلم وتستمتع إلى صوت الأمواج بينما كانت يداها مدسوستين بعمق داخل جيبي ثوبها.

قالت: "نعم، وأنا أيضاً".

. . .

في صباح اليوم التالي استيقظ بول وديفيد قبل شروق الشمس للذهاب إلى الشاطئ واستقلال قارب الصيد. ظلت نورا راقدة في الظلام بينما كانا يستعدان - في حين كانت الملاءة القطنية البيضاء تلامس جلدها برقة - وهي تنصت إليهما يتحركان بخفة في غرفة المعيشة في محاولة لعدم إصدار أية ضوضاء. بعد ذلك سمعت صوت وقع الأقدام ثم محرك السيارة ثم الصمت وصوت الأمواج. ظلت راقدة هناك فاترة الهمة حتى تكون خط من الضوء حيث تلتقي السماء بالمحيط. بعد ذلك أخذت حماماً وارتدت ملابسها وأعدت لنفسها قحداً من القهوة. تناولت نصف ثمرة جريب فروت وغسلت أطباقها ووضعتهما بعيداً وسارت خارجة من المنزل. كانت ترتدي بنظالا قصيراً وقميصاً فيروزياً مطبوعاً فوقه صور لطيور البشروس. كانت فردتا حداثها الخفيف مربوطتين معاً ويتأرجحان من يدها. كانت قد غسلت شعرها وتركت هواء المحيط يجففه بينما كانت تسدله حول وجهها.

كان كوخ هوارد والذي يبعد ميلاً على الشاطئ يشبه تماماً كوخها. كان يجلس بالشرفة منكباً فوق صندوق خشبي داكن. كان يرتدي بنظالا قصيراً أبيض وقميصاً مربع النقش من قماش مدراس غير مغلق الأزرار. كانت قدماه - مثل قدميها - عاريتين. وقف حينما اقتربت.

كتمت نورا نفسها. كان ديفيد يتحدث عن الصور. كانت لاتزال ترتدي مئزرها وكان الظلام حالكا. بعد دقيقة استدارت قليلاً ففتح هوارد يده على ملابسها الخفيفة فوق معدتها.

قال هوارد بصوت منخفض ورقيق: "حسناً، هذا صحيح. فأنت سوف تقلل من درجة الوضوح إن استخدمت هذا الفلتر. ولكن التأثير يستحق بدون شك".

زفرت نورا النفس الذي أخذته ببطء شديد متسائلة إن كان بإمكان هوارد الشعور بنبضات قلبها السريعة. كان الدفء يشع من أصابعه، مما جعلها تمتلئ بدفقة من الحنين والتي أشعرتها بالألم. ارتفعت الأمواج ثم انحسرت ثم ارتفعت مجدداً. وقفت نورا ساكنة وهي تستمع لأنفاسها المتلاحقة.

قال هوارد: "والآن مع وجود صندوق الكاميرا تكون قد اقتربت خطوة من العملية. إن الطريقة التي يضع بها العالم داخل إطار رائعة حقاً. أتمنى لو تأتي إلى منزلي لرؤيته. هلا أتيت حقاً؟"

قال ديفيد: "سوف آخذ بول للصيد غداً في عمق البحر. ربما اليوم التالي".

قالت نورا بصوت خافت: "سوف أعود للمنزل".

قال ديفيد: "إن نورا تصاب بالملل".

قال هوارد بينما يضغط بيده أسفل بطنها بقوة وبسرعة بطريقة تشبه رفرفة الجناح وبعدها أخرجها من جيبيها: "تعالى غدا إن شئت. فأنا سوف أقوم ببعض الرسومات باستخدام صندوق الكاميرا".

أومأت نورا دون أن تتحدث متخيلة بؤرة الضوء الصغيرة تتلألأ عبر الظلام ملقاة بصور رائعة على الجدار.

غادر بعد بضع دقائق مختفياً على الفور في الظلام.

قال: "هل ترغبين في بعض القهوة؟ لقد كنت أراقبك وأنت تسيرين على الشاطئ".

قالت: "لا، شكراً لك".

"هل أنت واثقة؟ إنها قهوة أيرلندية. ذات رجة صغيرة إن كنت تفهمين ما أعنيه".

"ربما بعد قليل". تسلقت الدرج ومررت يدها فوق الصندوق الماهوجنى المصقول. "هل هذا هو صندوق الكاميرا؟".

قال: "نعم. فلتلق نظرة".

جلست على المقعد والذي مازال دافئاً نتيجة جلوسه عليه ونظرت خلال الثقيب. كان العالم هناك، الشاطئ الممتد وسلسلة الصخور، شراع يتحرك ببطء في الأفق. كانت الريح تتحرك في أشجار الصنوبر، كل شيء يبدو صغيراً ومفصلاً، داخل إطار محدد ومع ذلك كان حياً وليس ساكناً. نظرت نورا للأعلى بعد ذلك ووجدت أن العالم قد تغير كذلك: الزهور المرسومة بحدة فوق الرمل، المقعد ذو الخطوط البراقية، والرجل والمرأة اللذان يسيران على حافة الماء. كل شيء نابض بالحيوية ومفزع أكثر مما كانت تدرك.

قالت: "يا إلهي. هذا مذهش. يبدو العالم دقيقاً للغاية وغنياً. أنا حتى أستطيع رؤية الريح تتحرك بين الأشجار".

ضحك هوارد: "إنه رائع، أليس كذلك، كنت أعلم أنه سيحوز إعجابك".

فكرت في بول وهو رضيع، حينما كان فمه يستدير مثل حرف "O" بينما كان يرقد في مهده يحدق في دهشة بالغة. انحنيت ثانية لترى العالم مصغراً ثم نظرت للأعلى لتجده قد تغير. فقد تحرر من الإطار الأسود المحيط، وحتى الضوء كان يتموج في حيوية. قالت هامسة: "إنه جميل. أنا لا أستطيع تحمل مدى جماله".

قال هوارد: "أعلم. هيا، ادخلي فيه، دعيني أرسمك".

نهضت وسارت على الرمل الساخن والمتوهج. استدارت ووقفت أمام هوارد، والذي كان منحنيًا فوق الثقيب، تشاهد يده تتحرك فوق لوحة الرسم. كان شعرها يلعب - وقد أصبحت الشمس بالفعل مثل يد مسطحة ساخنة - وتذكرت الوضعيات التي اتخذتها في اليوم السابق واليوم السابق له. كم مرة وقفت بهذه الطريقة، الموضوع والأداة كذلك، لاستثارة أو الحفاظ على شيء غير موجود بالفعل بينما جميع أفكارها محبوسة؟

إنن فقد وقفت الآن، امرأة قد تحولت إلى نسخة مصغرة مثالية من نفسها، كل جزء منها مسلط عليه الضوء بمرآة. وكانت رياح المحيط الدافئة والرطوبة تحرك شعرها في حين تتحرك يدا هوارد ذات الأصابع الطويلة والأظافر المشدبة سريعاً وهو يرسمها مثبتاً صورتها على الصفحة. تذكرت الرمال وهي تتحرك أسفل فخذيها وهي تتخذ وضعية ثابتة أمام كاميرا ديفيد وكيف أنهما تحدثا عنها لاحقاً، هوارد وديفيد، ليس ككائن بشري في الغرفة ولكن كصورة أو شكل. وحينما تذكرت هذا بدا لها أن جسمها أصبح ضعيفاً فجأة كما لو أنها ليست المرأة الكفاء صاحبة الإنجازات التي اصطحبت مجموعة من المسافرين إلى الصين وعادت بهم، ولكن كشخص قد ينجرّف مع أول دفقة من الريح. بعد ذلك تذكرت يد هوارد التي كانت تدفئ جيبها وجسمها. تلك اليد التي تتحرك الآن، التي ترسمها.

مدت يدها تجاه خصرها وأمسكت بحافة قميصها. وببطء ولكن دون تردد أخرجتها من رأسها وتركبتها تسقط على الرمال. وبالشرفة توقفت يد هوارد عن الرسم بالرغم من أنه لم يرفع يده من فوق الورقة. وقد توقفت العضلات الصغيرة في ذراعيه وكتفيه عن الحركة. فتحت نورا سحاب بنطالها القصير. وخلعته. حتى الآن لم يكن هناك شيء غير مألوف، فقط نفس ثوب السباحة الذي ارتدته كثيراً قبل ذلك. ولكنها تجردت منها. وقفت وهي تشعر بالشمس والرياح تتحرك فوق جلدها.

رفع هوارد رأسه ببطء من فوق صندوق الكاميرا وبدأ يحدق بها.

وطوال لحظة كانت تشعر وكأنها فى كابوس، هذا الإحساس بالذعر والخزى حينما تدرك فى منتصف حلم ما - أثناء التسوق أو داخل حديقة مزدحمة - أنها نسيت ارتداء ملابسها. مدت يدها لالتقاط ثوب السباحة.

همس هوارد: "لا، لا تفعلى هذا". فتوقفت منتصبه. "إنك جميلة للغاية". نهض فى ذلك الحين بحرص وببطء وكأنها كانت عصفوراً قد يفزعه فيطير. ولكن نورا وقفت ساكنة للغاية، حاضرة داخل جسمها، وشاعرة وكأنها مكونة من الرمال، رمال تقابل النار وعلى وشك التحول لتصبح ناعمة وبراقة. عبر هوارد الأقدام القليلة من الشاطئ. بدا وكأنه قطع وقتاً طويلاً للغاية لعبور هذه المسافة، كانت قدماه تغوصان فى الرمل الدافئ. وحينما وصل إليها أخيراً توقف دون أن يلمسها، فقط كان يحدق فيها. تحركت الريح داخل شعرها وقام بدفع خصلة شعر من فوق شفتيها واضعاً إياها برفق شديد خلف أذنها.

قال: "أنا لا أستطيع التقاط هذه الصورة. ما أنت عليه فى هذه اللحظة. لا أستطيع التقاط هذا قط".

ابتسمت نورا ووضعت راحة يدها على صدره مستشعرة قماش قميصه المدراس وبشرته الدافئة، وطبقات العضلات والعظم. عظم الصدر، كما تذكرت تلك الأيام التى كانت تدرس فيها العظام لفهم عمل ديفيد. نصاب القس وقطعة القص الوسطى اللذان كانا يشبهان السيف. الضلوع الحقيقية والزائفة، خطوط الاتحاد.

وضع يديه برفق حول وجهها. تركت يدها تسقط. ومعاً وبدون تحدث سارا تجاه الكوخ الصغير. لاحتمال رؤية أحدهم لها. كانت الألواح الخشبية بالشرفة تتحرك برفق أسفل قدميها. كان

القماش فوق صندوق الكاميرا ملقى بعيداً ورأت برضا بالغ أن هوارد قد رسم الشاطئ والأفق، الأحجار المتناثرة والأشجار، كل ذلك فى خطوط رائعة. وهو كان قد رسم شعرها، سحابة ناعمة، لا شكل لها، ولكن هذا هو كل ما رسمه. فحيث كانت تقف كانت الصفحة بيضاء. كانت ملابسها ترقد فوق الشاطئ مثل أوراق الشجر وهو قد نظر للأعلى ليراها واقفة هناك.

فقد استطاعت مرة واحدة أن تكون هى من يوقف الوقت. بدت الغرفة معتممة بعد ضوء الشاطئ، وكان العالم يبدو بالناظفة وكأنه موجود داخل إطار كما كان يبدو تماماً فى عدسة صندوق الكاميرا، متألّقا وناصباً بالحيوية حتى أنه جعل عينيها تسيلان بالدموع. جلست على حافة الفراش. وقضيا الليلة معاً.

ولاحقاً سوف تشعر بالدهشة ليس لأنها قامت بهذه الأمور أو أى من تلك اللاحقة، ولكن لأنها فعلتها على فراش هوارد أسفل النافذة المفتوحة ذات الإطار المشابه لإطار صورة بالكاميرا. كان ديفيد قد غادر، مبحراً بعيداً فى البحر بصحبة بول كى يصطادا ومع ذلك فقد يمر أى شخص ويراهما.

ومع ذلك فإنها لم تتوقف عما تفعله، الآن أو لاحقاً. فهى كانت مجبرة على التعامل معه وكأنه باب مفتوح على احتمالات عديدة، على ما كانت تؤمن أنه الحرية. والغريب أنها وجدت أن سرها هذا جعل من الأسهل بالنسبة لها تقبل المسافة الفاصلة بينها وبين ديفيد. كانت قد ذهبت إلى هوارد مرات عديدة أخرى حتى بعدما لاحظ ديفيد كثرة خروجها للتمشية والمسافات البعيدة التى كانت تقطعها. بل إنها لم تتوقف حتى حينما عثرت فى بنطال هوارد بينما كانت ترقد على فراشه أثناء إعداده مشروبين لهما على صورة لزوجته المبتسمة وأطفاله الثلاثة داخل

خطاب يقول: "إن أمي بصحة أفضل ونحن جميعاً نفتقدك
وننتظر رؤيتك في الأسبوع المقبل".

كان هذا في فترة بعد الظهيرة، بينما تبرق أشعة الشمس
على الماء المتحرك والحرارة تتصاعد من الرمال. كانت مروحة
السقف تطلق في الغرفة المعتمة بينما كانت تمسك بالصورة
وتحديق في مشهد طبيعي داخل خيالها. في الحياة الواقعية
كانت مثل هذه الصورة لتجرحها وتؤلمها ولكنها هنا لم تشعر
بشيء. وضعت نورا الصورة مكانها وألقت السرير وال ثانية على
الأرض. فهنا لم يكن ذلك مهماً. فما كان مهماً هو الحلم فقط
والضوء. وقد ظلت تقابله طوال العشرة أيام التالية.

سبتمبر ١٩٧٧

١

ركض ديفيد فوق الدرجات إلى داخل ردهة المدرسة
متوقفاً لدقيقة لالتقاط أنفاسه وتحديد وجهته. لقد تأخر للغاية
على حفل بول الموسيقى. كان قد خطط لمغادرة المستشفى مبكراً
ولكن وصلت سيارة الإسعاف حاملة زوجين عجوزين بينما كان
في طريقه للخارج: كان الزوج قد سقط من فوق سلم على زوجته.
وقد انكسرت ساقه وذراعها؛ وكانت الساق بحاجة إلى صفيحة
معدنية ودعامات. اتصل ديفيد بنورا سامعاً الغضب في صوتها،
والذي لم يكثر له كثيراً لأنه كان غاضباً هو أيضاً، بل إنه حتى
شعر بالسعادة لأنه أزعجها. لقد تزوجته وهي تعلم جيداً طبيعة
عمله. وقد ساد الصمت بينهما طوال دقيقة طويلة قبل أن يغلق
الخط.

وكان بالأرضية التريسة ظل وردي خفيف، وكانت الخزانات
المرصوفة بجوار الجدران بالردهة زرقاء اللون. وقف ديفيد
ينصت سامعاً فقط صوت أنفاسه لدقيقة ثم علا صوت التصفيق

الذى اندفع على أثره إلى الباب الخشبي الثنائى فى نهاية الردهة المؤدى إلى قاعة الاستماع. جذب باباً ليفتحه ودلف للداخل وهو يجوب المكان بعينييه. كان المكان ممتلئاً بالناس؛ بحر من الرؤوس السوداء والتي تتدفق إلى الأسفل حتى بداية خشبة المسرح ذات الأضواء البراقة. بدأ يبحث وسطها عن نورا. وقد أعطته امرأة شابة برنامجاً، وبينما كان صبى يرتدى بنطال جينز يصعد خشبة المسرح ويجلس بجوار آلة الساكسفون أشارت إلى الاسم الخامس من الأسفل. تنفس ديفيد الصعداء وشعر بتوتره يتبخّر. كان بول هو العازف رقم سبعة؛ لقد وصل فى الوقت المناسب.

بدأ عازف الساكسفون فى العزف بتركيز وعاطفة، ولكنه لم وتراً خاطئاً أصدر صوتاً يشبه الصراخ والذى جعل ديفيد يرتعد. مسح الجمهور مرة أخرى بعينييه ووجد نورا تجلس فى المنتصف بالقرب من الصف الأمامى بينما يوجد مقعد شاغر إلى جوارها. إذن فقد فكرت فيه، فهى على الأقل حجزت له مقعداً. ولم يكن واثقاً من أنها ستفعل ذلك، إنه لم يعد واثقاً من أى شىء الآن. حسناً لقد كان واثقاً من أنه يشعر بالغضب وبالذنب الذى أبقاه صامتاً عما رآه فى أوروبا، كانت هذه الأشياء بدون شك تقف حائلاً بينهما. ولكنه لم يكن يملك أدنى فكرة عما يوجد فى قلب نورا، أو رغباتها، أو دوافعها.

انتهى عازف الساكسفون من العزف ووقف وانحنى للجمهور. وأثناء التصفيق، شق ديفيد طريقه للأسفل خلال الممر المظلم، متسلقاً فوق المقاعد المأهولة بالفعل ليصل إلى مكانه بجوار نورا.

قالت وهى ترفع معطفها: "ديفيد. أخيراً وصلت".

قال: "كانت جراحة عاجلة يا نورا".

"أعلم، أعلم، أنا معتادة على هذا. إنه بول من أقلق بشأنه".

قال ديفيد: "أنا أقلق بشأن بول كذلك. ولهذا السبب أنا

هنا".

قالت بصوت حاد: "نعم حقاً. هذا صحيح".

كان بإمكانه استشعار غضبها والذى كان مثل الأمواج. كان شعرها الذهبى القصير مصففاً بشكل رائع وكان وجهها يمتلئ بالظلال الكريمية والذهبية وترتدى ثوباً من الحرير الطبيعى كانت قد ابتاعته أثناء رحلتها الأولى إلى سنغافوره. فبعدما أصبحت شركتها أكبر أصبحت تسافر أكثر وأكثر وتأخذ الأفواج السياحية إلى أماكن مختلفة وغريبة. وقد سافر ديفيد معها بضع مرات فى سفراتها الأولى حينما كانت الرحلات أصغر وأقل طموحاً: إلى كهف الثدييات أو فى رحلة بالقرب بنهر الميسيسيبي. وفى كل مرة كان يتفاجأ من الشخص الذى أصبحت عليه نورا. فالمسافرون بالرحلات كانوا يأتونها بمشاكلهم: فمثلاً يأتونها أحدهم شاكياً أن اللحم غير مطهو بشكل كامل، أو أن حجرته صغيرة للغاية، أو أن جهاز التكييف يبرد المكان بشكل مفرط، أو أن الأسرة صلبة للغاية. كانت تنصت إليهم بإمعان وتحافظ على هدوئها فى كل أزمة وهى تومئ وتلمس كتفا وتمسك بسماعة الهاتف وتتصل برقم ما. كانت لا تزال جميلة، بالرغم من أن جمالها أصبح يشوبه شىء ما. كانت بارعة فى عملها، حتى أن سيدة ذات شعر أزرق أخذته ذات مرة جانباً لتتأكد من أنه يعرف كم هو محظوظ.

وقد تساءل عما ستفكر فيه مثل هؤلاء النساء إن كن هن من وجدن ملابسها ملقاة فى كومة على الشاطئ.

همس قائلاً: "ليس لك أى حق لتغضبى منى يا نورا". كانت تصدر منها رائحة البرتقال وكان فكها متوتراً. وعلى المسرح كان هناك شاب يرتدى حلة زرقاء يجلس أمام البيانو بينما تستعد أصابعه للعزف. بعد دقيقة علت النغمات الموسيقية. قال ديفيد: "ليس لك أى حق بالمرّة".

"أنا لست غاضبة. أنا فقط قلقة بشأن بول. أنت الذى تشعر بالغضب".

تم إلغاؤها؛ فقد تعطل محرك القارب وكان المالك ينتظر وصول قطع غيار جديدة. وبينما هما مصابان بالإحباط أخذتا يتسكعان قليلا في حوض السفن وهما يحتسيان صودا البرتقال ويشاهدان الشمس وهي تشرق فوق المحيط الزجاجي. بعد ذلك استقلا السيارة عائدين إلى الكوخ.

كان ضوء الصباح جيدا في هذا اليوم، وديفيد - بالرغم من أنه كان محبطا، إلا أنه كان متلهفا كذلك للعودة إلى كاميرته. فقد راودته فكرة أخرى - في منتصف الليل - عن صورة. فكان هوارد قد عرفه على مكان يستطيع أن يلتقط به صورة من شأنها أن تربط المجموعة الكاملة معا. هوارد، إنه رجل لطيف حقاً وواسع الإدراك. فقد دار حديثهما طوال الليل حول أفكار ديفيد مما جعله مثيراً حقاً. لم ينم جيدا في هذه الليلة والآن يود الذهاب إلى المنزل لالتقاط مجموعة أخرى من الصور لنورا على الرمل. ولكنهما وجدا الكوخ ساكناً وشاغراً يملؤه الضوء وأصوات الأمواج وكانت نورا قد تركت إناء من البرتقال في منتصف الطاولة. وكان القدح الذي تشرب فيه القهوة مغسولاً وموضوعاً فوق الحوض. نادى عليها: "تورا؟" ثم نادى ثانية: "تورا؟" ولكنها لم تجب. قال بول وهو يبدو مثل الظل عند مدخل الكوخ ساطع الضوء: "سوف أذهب للركض قليلاً" فأوماً ديفيد قائلاً: "حاول أن تتبين أين ذهبت أمك".

وبينما كان وحيداً في الكوخ نقل ديفيد إناء البرتقال إلى طاولة المطبخ وبعثر صورته على الطاولة. كانت ترفرف بفعل الهواء فاضطر إلى أن يثبتها بزجاج التصوير. وقد شكت نورا من أنه أصبح مهووساً بالتصوير - فأى سبب آخر كان سيجعله يأتي بحقيبة أوراقه في رحلة؟ وربما كان هذا صحيحاً. ولكن نورا كانت مخطئة في الأمور الأخرى. إنه لا يستخدم الكاميرا للهروب من العالم. ففي بعض الأحيان وهو يشاهد الصور تظهر في حوض المظهر يلمح ذراعها أو منحني فخذهما بينما يتملكه

قال: "لا، أنت التي تشعرين بالغضب. وأنت على هذا الحال منذ أن عدنا من أوروبا".

قالت هامسة: "انظر في المرأة. إنك تبدو كما لو أنك ابتلعت إحدى تلك السحالي الصغيرة التي كانت تقف على السقف".

سقطت يد فوق كتفه في ذلك الحين. استدار ليجد امرأة ممتلئة تجلس إلى جوار زوجها بينما يجلس إلى جوارهما مجموعة كبيرة من الأطفال.

قالت: "أستميحك عذراً. إنك والد بول هنري، أليس كذلك؟ حسناً، إن ذلك هو ابني ديوك الذي يعزف على البيانو، وإن كنت لا تمنع فإننا نود سماعه".

التقت عينا ديفيد ونورا في لحظة ارتباط قصيرة؛ وقد كانت مخرجة أكثر منه.

اتكأ للخلف وبدأ في الاستماع. كان هذا الشاب - صديق بول - يعزف على البيانو بجديّة بالغة وكان بارعاً للغاية ويعزف بكفاءة وعاطفة عاليتين. شاهد ديفيد يديه وهما تتحركان فوق المفاتيح متسائلاً عما يتحدث عنه ديوك وبول أثناء ركوبهما دراجاتهما معاً عبر شوارع الجيرة الهادئة. فيما كانا يحلمان؟ ما الذي كان يخبره بول لأصدقائه والذي لا يخبره قط لوالده؟

ملابس نورا مكدسة في كومة براقّة فوق الرمل الأبيض في حين ترفع الريح حافة قميصها الملون: هذا كان أحد الموضوعات التي لن يتحدثا فيها قط بالرغم من أن ديفيد كان يشك أن بول قد رأى ملابسها أيضاً. فهما قد استيقظا مبكراً في هذا الصباح للخروج في رحلة الصيد واستقلا السيارة حتى الساحل في الظلام السابق للفجر مارين بالقري الصغيرة على الطريق. لم يكونا كثيرى الكلام - هو أو بول - ولكن كان يسود بينهما دوماً شعور بالوحدة والتآلف في الساعات الأولى، في طقوس إلقاء الصنارة وسحبها، وكان ديفيد يتطلع إلى هذه الفرصة ليكون مع ابنه الذي يكبر سريعاً، والذي أصبح بمثابة اللغز له الآن. ولكن الرحلة قد

شعور عميق بالحب إزاءها. كان لا يزال يرتب ويعيد ترتيب الصور حينما عاد بول وأغلق الباب بقوة خلفه. قال ديفيد وهو ينظر للأعلى: "لقد عدت بسرعة". قال: "أنا متعب. فقط متعب". ثم سار مباشرة عبر غرفة الطعام واختفى داخل غرفته. قال ديفيد: "بول؟". ذهب إلى الباب وأدار المقبض. كان موصداً.

قال بول: "أنا فقط متعب. كل شيء على ما يرام". انتظر ديفيد بضع دقائق. كان بول متعكر المزاج لاحقاً. فقد بدا له كل شيء يفعل ديفيد خاطئاً، وخاصة حواراته معه حول مستقبله. يمكن أن يكون مستقبله زاهراً حقاً. فكان بول موهوباً في الموسيقى والرياضة، مع وجود طريق ممهد أمامه لكثير من الاحتمالات. وكان ديفيد كثيراً ما يفكر أن حياته هو - القرارات الصعبة التي اتخذها - سوف تصبح مبررة إن أدرك بول فقط إمكاناته، فقد كان يعيش والخوف يملكه من أن يخذل ابنه بشكل ما؛ من أن يضرب بول بمواهبه عرض الحائط. طرق الباب ثانية، برفق، ولكن بول لم يجب.

وأخيراً تنهد ديفيد وذهب إلى المطبخ مجدداً. وقد أعجب بإناء البرتقال فوق الخزانة، منحنيات ثمار الفاكهة والخشب الداكن. بعد ذلك وجد نفسه يخرج من الكوخ ويتمشى على الشاطئ. كان قد سار مسافة ميل على الأقل قبل أن يلمح من بعيد قميص نورا الذي يرفرف على الرمال. وحينما اقترب أدرك أن تلك كانت ملابس نورا، متروكة على الشاطئ أمام ما يفترض أن يكون منزل هوارد. توقف ديفيد مرتبكاً تحت ضوء الشمس الساطع. هل ذهباً للسباحة إذن؟ مسح الماء بعينيه ولكنه لم يرها، بعد ذلك استمر في السير، حتى علت ضحكات نورا المألوفة الخفيفة والموسيقية - من نوافذ الكوخ وأوقفتها. سمع ضحكات هوارد أيضاً في أعقاب

تلك الخاصة بنورا. أدرك حينها ما كان يحدث وتملكه شعور حارق بالألم مثل الرمال التي توجد أسفل قدميه. هوارد ذو الشعر الخفيف والحذاء المفتوح الذي كان يقف بغرفة المعيشة في الليلة السابقة يسديه نصائح سديدة عن التصوير.

مع هوارد. كيف أمكنها هذا؟ ومع ذلك فقد كان يتوقع حدوث مثل هذا الأمر منذ سنوات. كان الرمل ساخناً أسفل قدمي ديفيد وضوء الشمس ساطعاً. كان قد امتلأ في هذه اللحظة بالإحساس القوي والقديم بأن ليلة العاصفة الثلجية حينما أعطى ابنتهما لكارولين جيل لن تمضي دون عواقب. لقد مضت الحياة به قدماً، وقد كان في نظر الجميع إنساناً ناجحاً بجميع المقاييس. ومع ذلك وفي لحظات غريبة - في منتصف جراحة أو أثناء قيادته السيارة في المدينة أو عندما يكون على وشك النوم - يشعر فجأة بالفرع ويملؤه شعور بالذنب. لقد تخلى عن ابنتهما. كان هذا السر يقف في منتصف أسرتهما، وكان هو ما حاك شكل حياتهم معاً. كان يعلم ذلك وقد رآه يقف مثل حاجز حجري بينهما. وكان يرى نورا وبول يحاولان تسليق هذا الحاجز دون أن يفهما ماذا كان يحدث، كل ما كانا يريانه هو أنه ثمة شيء ما يفصل بينهما والذي لا يمكن رؤيته أو كسره. بعدما انتهى ديوك ماديسون من العزف ببراعة وقف وانحنى أمام الجمهور. أخذت نورا تصفق بحرارة ثم استدارت لمواجهة الأسرة التي كانت تجلس خلفهما.

قالت: "كان رائعاً حقاً. إن ديوك موهوب للغاية". كان المسرح شاغراً في ذلك الحين وانحسر صوت التصفيق. مرت لحظة ثم لحظة أخرى. بدأ الناس يتمتمون. سأل ديفيد وهو ينظر إلى البرنامج: "أين هو؟ أين بول؟". قالت نورا: "لا تقلق، إنه هنا". وقد اندهش ديفيد حينما أخذت يده. شعر بيدها باردة في يده وغمره إحساس غريب

بالراحة مؤمناً للحظة أن شيئاً لم يتغير؛ أنه ما من شيء يقف بينهما بالرغم من كل شيء. "سوف يخرج على المسرح حالاً".

وبينما كانت تتحدث خرج بول على المسرح. بدأ ديفيد يحدق فيه: طويل وهزيل ويرتدى قميصاً أبيض نظيفاً ذا أكمام مثنية ويبتسم ابتسامة ساخرة للجمهور. شعر ديفيد ببعض الدهشة. فكيف حدث أن كبر بول بهذه الطريقة وأصبح شبه بالغ ويقف هنا على المسرح أمام هذا الجمهور بكل هذه الثقة؟ إنه شيء لم يحلم ديفيد نفسه بالقيام به، وفي ذلك الحين اجتاحه شعور عميق بالتوتر. ماذا لو أخفق بول هناك أمام كل هؤلاء الناس؟ كان يشعر بيد نورا في يده بينما انحنى بول فوق الجيتار مختبراً بعض النغمات ثم بدأ العزف.

كان سيعزف مقطوعة سيجوفيا كما أشار البرنامج: قطعتان موسيقيتان قصيرتان "استوديو" و "استوديو سين لوز". وكانت نغمات هاتين الأغنيتين - الرقيقتين والدقيقتين - مألوفة للغاية. فقد سمع بول يعزفهما مائة مرة بل ألف مرة قبل ذلك. فطوال إجازتهم في أوروبا كانت هذه الموسيقى تصدر من غرفته - على نحو أسرع أو أبطأ - مع تكرار نفس الموازين الموسيقية. كانت النغمات مألوفة له بقدر ما كانت أصابع بول الطويلة والرشيقة والتي تتحرك بكل هذه الثقة فوق الأوتار ملقية بالموسيقى في الهواء. ومع ذلك فقد شعر ديفيد بأنه يسمعها للمرة الأولى وربما بأنه يرى بول للمرة الأولى كذلك. أين ذهب الفطيم الذي كان يخلع حذاءه ويضعه في فمه، الصبي الذي يتسلق الأشجار ويقف فوق دراجته رافعاً ذراعيه في الهواء؟ بطريقة ما كبر هذا الصبي اللطيف والمتهور ليصبح هذا الشاب. تسارعت ضربات قلب ديفيد حتى أنه ظن للحظة أنه قد يصاب بأزمة قلبية - لقد كان صغيراً ليصاب بأزمة قلبية ولكن هذه الأمور تحدث.

وببطء ترك ديفيد جسمه يسترخى في الظلام وأغلق عينيه تاركاً الموسيقى - موسيقى بول - تتغلغل داخله في أمواج.

اغرورقت عيناه بالدموع وشعر بغصة في حلقه. فكر في أخته وهي تقف بالشرفة وتغنى بصوتها العذب النقي، موسيقى بدت وكأنها لغة فضية أجادتها أخته منذ ولادتها، تماماً مثلما أجادها بول. راوده شعور عميق بالخسارة والذي كان قوياً لمخاية ويتخلله ذكريات عديدة: صوت جون، وإغلاق بول للباب خلفه، وملابس نورا مبعثرة على الشاطئ. ابنته حديثة الولادة وهي بين ذراعي كارولين جيل.

كان ذلك كثيراً، كثيراً للغاية. كان ديفيد على وشك البكاء. فتح عينيه وأجبر نفسه على مراجعة الجدول الدوري - هيدروجين، هيليوم، ليثيوم - حتى يتوقف الألم في معدته. وقد كان ذلك مجدياً كما كان مجدياً دوماً في غرفة العمليات وينجح في مساعدته على التركيز. استرجع كل الذكريات معاً: جون، الموسيقى، حبه القوى لابنه. انتهى بول من العزف. سحب ديفيد يده من يد نورا وشرع في التصفيق بقوة.

سألت وهي تنظر إليه: "هل أنت بخير؟ هل أنت بخير يا ديفيد؟".

أوماً وهو لا يزال لا يثق في قدرته على الحديث.

قال أخيراً دافعاً الكلمات خارج فمه: "إنه بارع. إنه بارع".

أومات قائلة: "نعم. ولهذا يود الذهاب إلى جيلارد". كانت

لاتزال تصفق وحينما نظر بول ناحيتهما أرسلت له قبلة في

الهواء. "ألن يكون ذلك رائعا، إن استطاع القيام به؟ إنه مازال

أمامه بضع سنوات من التدريب ولكن إن ركز كل طاقته فيه، فمن

يعرف ما قد يحدث؟".

انحنى بول وغادر المسرح حاملاً جيتاره. علا صوت التصفيق.

كرر ديفيد: "ركز كل طاقته؟ ماذا إن لم يفلح الأمر؟".

"ماذا لو نجح؟".

قال ديفيد ببطء: "لا أعرف. أعتقد أنه صغير للغاية على غلق

جميع الأبواب المفتوحة أمامه".

"إنه موهوب للغاية يا ديفيد. لقد سمعته. ماذا لو كان ذلك باباً مفتوحاً أمامه؟".

"ولكنه فقط فى الثالثة عشرة من عمره".

"نعم وهو يحب الموسيقى. إنه يقول إنه يشعر بأنه يكون نابضاً بالحياة أثناء عزفه على الجيتار".

"ولكن تلك ستكون حياة غير مستقرة. هل يمكن أن يكسب عيشه من هواية مثل هذه؟".

كان وجه نورا جاداً للغاية. هزت رأسها وقالت: "لا أعرف. ولكن ماذا يقول المثل القديم؟ *افعل ما تحب وسيأتيك المال بعد ذلك*". لا تغلق الباب أمام حلمه".

قال ديفيد: "أنا لن أفعل. ولكنى أشعر بالقلق. أريده أن يعيش حياة مستقرة. وجيلارد هى مغامرة كبيرة بغض النظر عن مدى براعته. أنا لا أود لبول أن يتألم".

فتحت نورا فمها لتتحدث ولكن ساد الصمت قاعة الاستماع حينما اعتلت المسرح شابة ترتدى ثوباً أسود وتحمل كماناً، فركزا انتباههما عليها.

شاهد ديفيد هذه الشابة وكل الذين عزفوا بعدها، ولكن كانت موسيقى بول هى التى مازالت معه. وحينما انتهى جميع العازفين من عزفهم شق هو ونورا طريقهما إلى الردهة متوقفين كل بضعة أقدام لمصافحة بعض الأشخاص، وحينما وصلا إلى بول أخيراً شقت نورا طريقها خلال الزحام واحتضنته، فقام بول وهو يشعر بالإحراج بالتربيت على ظهرها. نظر إليه ديفيد وابتسم ابتسامة عريضة وقد اندهش حينما وجد أن بول ابتسم له أيضاً. لحظة مألوفة: مرة أخرى ترك ديفيد نفسه يؤمن بأن الأمور ستكون على ما يرام. ولكن بعد لحظات بدا أن بول كان يحاول تمالك نفسه. ابتعد عن نورا.

قال ديفيد: "لقد كنت رائعاً". احتضنته ولاحظ التوتير بكتفيه والطريقة التى يتمالك بها نفسه. وكيف كان متصلباً ومتحفظاً. "كنت رائعاً يا بنى".

"شكراً لك. لقد كنت متوتراً بعض الشيء".

"إنك لم تبد متوتراً".

قالت نورا: "إنك لم تبد متوتراً على الإطلاق. إن لك حضوراً قوياً على المسرح".

هز بول يديه عند جانبيه وكأنه يحرر الطاقة المتبقية به. "لقد دعانى مارك ميللر للعزف معه فى عيد الفنون. أليس ذلك رائعاً؟".

كان مارك ميللر هو مدرب بول فى العزف على الجيتار، وكان ذائع الصيت. شعر ديفيد بدفقة أخرى من السعادة.

قالت نورا وهى تضحك: "إن ذلك رائع حقاً".

نظرت فى عيني بول ولمحت شعوراً بالألم بهما.

سألت: "ماذا؟ ما الأمر؟".

تحرك بول واضعاً يديه فى جيبه ونظر حوله إلى الردهة المزدحمة. "الأمر فقط - لا أعرف - إنك تبدين سخيفة بعض الشيء يا أمى. أعنى أنك لست مراهقة، حسناً؟".

تورد وجه نورا. راقبها ديفيد والسكون والألم يتغلغلان بها، وشعر بألم فى قلبه. إنها لا تعرف مصدر غضب بول، أو غضبه. إنها لا تعرف أن ملابسها المبعثرة كانت تفرح بفعل ريح أثارها هو منذ عدة سنوات مضت.

قال معلقاً على غضب بول: "لا تتحدث إلى أمك بهذه الطريقة. أريدك أن تعتذر لها حالاً".

هز بول كتفيه: "نعم. بالتأكيد. حسناً آسف".

"حاول أن تبدى بعض الأسف حقاً".

"ديفيد" - وضعت نورا يدها على كتفه الآن - "دعنا لا نشير جلبة حول هذا الأمر. أرجوك. إن الجميع يشعر ببعض الإثارة،

هذا هو كل ما فى الأمر. دعونا نعود للمنزل لنحتفل. كنت أفكر فى دعوة بعض الأشخاص. قالت برى إنها ستأتى وكذلك عائلة مارشال - ألم تكن ليزى بارعة فى عزف الفلوت؟ وربما أدعو والدى ديوك. ما رأيك يا بول؟ أنا لا أعرفهم جيداً لكن ربما يمكننا دعوتهم أيضاً؟".

قال بول: "لا". كان شارد الذهن الآن وهو ينظر إلى نورا وسط الردهة المزدهمة.

"حقاً؟ ألا تريد دعوة أسرة ديوك؟".

قال بول: "لا أريد دعوة أحد. فقط أريد العودة للمنزل". وطوال لحظة بدا أنهم يقفون على جزيرة من الصمت وسط غرفة عالية الضوضاء.

قال ديفيد أخيراً: "حسناً، إذن دعونا نعد للمنزل".

كان المنزل مظلماً حينما وصلوا وصعد بول الدرج على الفور. سمعا وقع قدميه اللتين تحركتا إلى دورة المياه وعادتا مجدداً، ثم سمعا يغلق الباب برفق ويوصده.

قالت نورا: "أنا لا أفهم". خلعت نعليها وبدأت ضئيلة للغاية له وضعيفة وهى تقف مرتدية جوربها فى منتصف المطبخ. قالت متنهدة: "لقد كان بارعاً فوق خشبة المسرح. بدا سعيداً للغاية - بعد ذلك ماذا حدث؟ أنا لا أفهم. هذا هو حال المراهقين، من الأفضل أن أذهب وأتحدث معه".

قال: "لا، دعيني أنا أقم بذلك".

صعد الدرجات دون إضاءة الصباح وحينما وصل إلى باب حجرة بول توقف طوال لحظة طويلة فى الظلام متذكراً كيف كانت يدا ابنه تتحركان بدقة بالغة فوق الأوتار مألثة قاعة الاستماع بالموسيقى. لقد اتخذ قراراً خاطئاً وارتكب خطأ بالغاً منذ سنوات حينما أعطى ابنته لكارولين جيل. لقد اتخذ هذا القرار والآن وفى هذه الليلة كان يقف هنا فى الظلام أمام حجرة بول. طرق الباب ولكن بول لم يجب. طرق ثانية وحينما لم يجب

بول مجدداً ذهب ديفيد إلى خزانة الكتب وأخذ المسمار الرفيع الذى كان يحتفظ به هناك وأدخله فى ثقب مقبض الباب. سمع صوت طقطقة صغيرة وحينما أدار المقبض انفتح الباب. لم يندهش حينما وجد أن الغرفة كانت شاغرة. وحينما أضاء المصباح رأى النسيم يرفع الستارة البيضاء حتى السقف.

قال لنورا: "لقد غادر". كانت مازالت تقف بالمطبخ عاقدة ذراعيها وتنتظر غليان الماء فى الغلاية.

"غادر؟".

"من النافذة على الشجرة فى الغالب".

وضعت يديها على وجهها.

"هل تعرفين أين عساه يكون قد ذهب؟".

هزت رأسها. بدأت الغلاية تصفر ولكنها لم تستجب على الفور، فعلا صوت الصغير مالئاً الغرفة.

"لا أعرف، مع ديوك ربما".

عبر ديفيد الغرفة ورفع الغلاية من فوق السخان.

قال: "أنا واثق من أنه بخير".

أومأت نورا ثم هزت رأسها.

قالت: "لا. أنا لا أشعر أنه بخير".

رفعت سماعة الهاتف. أعطتها والدة ديوك عنوان أحد المسارح وأخذت نورا مفاتيحها.

قال ديفيد: "لا. سوف أذهب أنا. لا أعتقد أنه يريد التحدث معك الآن".

قالت: "أو معك".

ولكنه رآها تفهم مقصده حتى حينما كانت تتحدث. فى هذه اللحظة انزاح الستار من فوق شىء ما. كل ما حدث كان يفصل بينهما الآن، ساعات تغييبها الطويلة عن الكوخ، الأكاذيب والتبريرات وملابسها المتناثرة على الشاطئ. أكاذيبه هو أيضاً. أومأت ببطء، بعدها شعر بالخوف مما قد تقوله أو تفعله، من

الكيفية التي قد يتغير بها العالم للأبد. لقد أراد...
شيء تثبتت هذه اللحظة في مكانها، أن يمنع العالم من المضي
قدماً.

قال: "أنا ألقى اللوم على نفسي، على كل شيء".
أخذ المفاتيح وخرج في هذه الليلة الربيعية الرقيقة. كان
القمر مكتملاً وذا لون كريمي غني، كان فائق الجمال ومستديراً
ومنخفضاً بالأفق. ظل ديفيد يحدق فيه بينما كان يقود عبر
المنطقة الساكنة، عبر الشوارع الراقية والجميلة، في هذا المكان
الذي لم يكن حتى ليتخيله وهو طفل. إن العالم هو مكان محفوف
بالمخاطر ويتسم بالقسوة أحياناً. لقد حارب من أجل تحقيق ما
حصل عليه بول بسهولة ويعتبره أمراً مسلماً به.

رأى بول قبل مكان الحفل ببنائية يسير على الرصيف ويده
في جيبه وكتفاه منحنيان للأمام. كانت هناك سيارات مصطفة
على طول الطريق، ولا يوجد مكان لإيقاف السيارة، لذا فقد أبطأ
ديفيد وأطلق النفير. نظر بول إليه وطوال لحظة ظل ديفيد خائفاً
من أن يركض.

قال ديفيد: "اركب"، فركب بول.
بدأ ديفيد يقود. لم يتحدثا. كان القمر يلقي على العالم ضوءاً
جميلاً وكان ديفيد مدركاً لبول وهو يجلس إلى جواره، كان مدركاً
لأنفاسه الرقيقة ويديه الراقدين فوق ساقيه، مدركاً لتحديقه
خارج النافذة، إلى المروج الساكنة التي كانا يمران بها.
"لقد كنت بارعاً حقاً الليلة. لقد أبهرتني".
"شكراً لك".

سار بالسيارة بنائيتين أخريين في صمت.
"إذن. تقول أمك إنك تود الذهاب إلى جيلارد".
"ربما".

قال ديفيد: "إنك بارع. إنك بارع للغاية. سوف يكون أمامك
العديد من الاختيارات في حياتك. العديد من الطرق التي
تستطيع سلكها. يمكنك أن تكون أي شيء تريده".
قال بول: "أنا أحب الموسيقى. إنها تجعلني أشعر بأنني على
قيد الحياة. ولكنني لا أتوقع منك فهم هذا".
قال ديفيد: "أفهم ما تعنيه. ولكن القدرة على كسب العيش
مهمة بقدر أهمية الشعور بأنك على قيد الحياة".
"نعم. تماماً".

قال ديفيد: "أنت تتحدث بهذه الطريقة لأنه ما من شيء
أردته ولم تحصل عليه. إن هذا ترف لا تفهمه".
كانا قريبين من المنزل الآن ولكن ديفيد انحرف في الاتجاه
المضاد. لقد أراد أن يبقى مع بول بالسيارة، ويقود عبر العالم
الذي يضيئه القمر حيث يمكنهما مواصلة هذا الحوار الذي يملؤه
التوتر.

قال بول والكلمات تندفع من فمه وكأنه كان يمنعها من
الخروج طوال فترة طويلة: "أنت وأمي. ماذا حل بك؟ إنك تعيش
وكانك لا تكثرث لأي شيء. أنت لا تحظى بأية متعة. فقط تعيش
أيامك مهما حدث. إنك حتى لا تلقى بالاً لما حدث مع هذا
الشخص المدعو هوارد".
إذن فقد كان يعلم.

قال: "وما أدراك أننى لا أكثرث؟ ولكن مثل هذه الأمور
معقدة يا بول. وأنا لن أتحدث عن هذا الأمر معك الآن أو لاحقاً.
إن هناك الكثير من الأمور التي لا تفهمها".
لم يتحدث بول. توقف ديفيد عند إشارة المرور. لم تكن هناك
سيارات حولهما وظلا جالسين في صمت ينتظران تغير لون
الإشارة.

قال ديفيد أخيراً: "دعنا نتحدث عما هو مهم هنا. أنت لست
بحاجة للقلق بشأن أمك أو بشأنى. إن تلك ليست مهمتك. إن

الكيموايات وواضعا النيجاتف فى المكبر. بعد ذلك نادى على بول.

قال: "انظر إلى هذه. ما ذلك فى اعتقادك؟".

بعد دقيقة من التردد عبر بول الغرفة ونظر. قال: "شجرة؟ تبدو وكأنها ظل شجرة".

قال ديفيد: "جيد. الآن انظر مرة أخرى. لقد التقطت هذه أثناء الجراحة يا بول. لقد وقفت فى شرفة غرفة العمليات وأنا أنظر فى عدسة تصوير مقربة. هل يمكنك أن تخمن ماذا يمكن أن تكون أيضاً؟".

"لا أعرف... هل هى قلب؟".

"قلب، نعم. أليست رائعة. أنا أجرى بحثاً عن المجموعات الإدراكية، صوراً للجسم والتى تشبه شيئاً آخر. فى بعض الأحيان أعتقد أن العالم أجمع يكمن بداخل كل كائن بشرى. هذا للغز، ولغز الإدراك - إنه هوايتى. لذا فأنا أتفهم شعورك إزاء الموسيقى".

سلط ديفيد ضوءاً مركزاً عبر المكبر ثم وضع الورقة فى المظهر. كان مدركاً بشدة لبول وهو واقف إلى جواره فى صمت وسكون المكان.

قال ديفيد بعد بضع دقائق من الصمت رافعاً الصورة بملقاط واضحاً إيهاها على المثبت: "إن التصوير هو فن قائم على الأسرار. الأسرار التى نحملها جميعاً ولن نبوح بها قط".

قال بول: "إنها لا تشبه الموسيقى فى شيء"، وسمع ديفيد نبرة الرفض فى صوت ابنه. نظر للأعلى ولكن كان من المستحيل أن يقرأ تعبير وجه بول فى الضوء الأحمر الخافت. "الموسيقى تجعلك تشعر وكأنك تلمس نبض العالم. الموسيقى لا تتوقف مطلقاً وفى بعض الأحيان تتصل بها لبرهة، وحينما تفعل ذلك تعرف أن كل شيء مترابط مع كل شيء آخر".

بعد ذلك استدار وخرج من الغرفة المظلمة.

مهمتك هى إيجاد طريقك فى الحياة. استغلال مواهبك العديدة. ولا يجب أن يكون كل شاغلك هو إشباع رغباتك فقط، يجب أن تعطى كما تأخذ. وهذا هو السبب الذى جعلنى أعمل طبيباً ولى عيادتى الخاصة".

قال بول برقة: "أنا أحب الموسيقى. حينما أعزف أشعر بأننى أقوم بذلك - بأننى أعطى".

"نعم هذا صحيح يا بول. ولكن ماذا لو كان بإمكانك اكتشاف - لنفترض - عنصر آخر فى الكون؟ ماذا لو كان فى إمكانك اكتشاف علاج لمرض نادر وبشع؟".

قال بول: "إن تلك هى أحلامك وليست أحلامى".

صمت ديفيد مدركاً أن تلك كانت أحلامه حقاً فيما سبق. فإنه قد عقد العزم على إصلاح العالم وتغييره وإعادة تشكيله، ولكنه بدلاً من ذلك كان يقود سيارته فى ضوء القمر فى حين يجلس إلى جواره ابنه شبه البالغ ويبدو له أن زمام كل شيء من حياته قد أفلت من يده.

قال: "نعم، تلك كانت أحلامى".

سأل بول: "ماذا لو كان بإمكانى أن أكون سيجوفيا آخر. فكر فى الأمر يا أبى. ماذا لو كان بإمكانى القيام بذلك ولم أحاول؟".

لم يجب ديفيد. وصل إلى شارعهما مجدداً وفى هذه المرة انعطفت متجهاً للمنزل. أوقف السيارة فى الممر والتى وثبت فوق حافة غير مستوية حيث كان الممر يلتقى بالشارع قبل أن يوقفها أمام المرائب المنفصل. أوقف ديفيد محرك السيارة وطوال بضع ثوان جلسا فى صمت.

قال ديفيد: "ليس صحيحاً أننى لا أهتم. تعال معى. أريد أن أريك شيئاً".

قاد بول فى ضوء القمر وصعداً معاً الدرج الخارجى للغرفة المظلمة فوق المرائب. وقف بول أمام الباب الموحد وهو عاقد ذراعيه فى عدم صبر فى حين بدأ ديفيد عملية التلهير ساكباً

نادى ديفيد: "بول!" ولكن ابنه كان بالفعل يهبط الدرج الخارجى للغرفة المظلمة محدثاً قعقة. ذهب ديفيد إلى النافذة فرآه يركض خلال ضوء القمر ثم أعلى الدرج الخلفى إلى أن اختفى بالداخل. وبعد لحظات اشتعل المصباح فى غرفته وعلت نغمات سيجوفيا الدقيقة بوضوح ورقة فى الهواء.

وبينما كان ديفيد يراجع حوارهما فى عقله فكر فى الركض وراءه. لقد أراد التواصل مع بول، أن تنشأ بينهما لحظة تفاهم ولكن نواياه الطيبة تمخضت عن جدال ووسعت الفجوة بينهما. وبعد لحظة استدار وعاد للغرفة المظلمة. كان الضوء الأحمر الرقيق باعثاً على الراحة للغاية. بدأ يفكر فيما قاله لبول - إن العالم ملئ بالأشياء الخفية والأسرار، مكون من عظام لم تر النور قط. كان ذلك صحيحاً أنه سعى فيما مضى وراء الوحدة والترابط، كما لو أن العلاقات الخفية بين زهور التيوليب والرثتين، بين الأوردة والأشجار، بين الجلد والأرض قد تكشف عن نموذج يستطيع فهمه. ولكنها لم تكشف عن شيء. فى خلال دقائق قليلة سوف يعود للداخل ويشرب كوباً من الماء. سوف يصعد للطابق العلوى ليجد نورا نائمة وسوف يقف يراقبها - هذا اللغز، شخص لن يعرفه قط متوقع حول أسرارها.

ذهب ديفيد إلى ثلاجته الصغيرة حيث كان يحتفظ بكيماوياته وفيلمه. كان المظروف مدسوساً بعيداً فى الخلف، وراء عدة زجاجات. كان ممتلئاً بالدولارات فئة العشرين دولاراً، جديدة وباردة. عد عشرة ثم عشرين ثم وضع المظروف بعيداً خلف الزجاجات. وكانت الأوراق النقدية ترقد بنظام فوق الخزانة.

وهو فى العادة كان يرسل المال بالبريد ملفوفاً فى ورقة بيضاء، ولكن الليلة - بينما كان غضب بول يجوب المكان وتطفو موسيقاه فى الهواء - جلس ديفيد وكتب خطاباً. كتب بسرعة، وكانت الكلمات تنسكب بين يديه معبرة عن ندمه بشأن الماضى وآماله لفويب. من هى هذه الطفلة التى من لحمه ودمه والتى

تخلى عنها؟ وهو لم يتوقع أنها ستعيش كل هذه الفترة أو أنها ستحظى بالحياة التى تحدثه كارولين عنها. فكر فى ابنه وهو يجلس وحيداً على المسرح، وفى الوحدة التى يحملها بول معه أينما ذهب. هل كان هذا هو الحال مع فويب كذلك؟ ما الفرق الذى كان سيحدثه لهما نموها معاً - مثل نورا وبري، مختلفين فى كل شيء ومع ذلك تجمعهما علاقة حميمية وطيدة؟ كيف كانت ستتأثر حياة ديفيد إن لم تمت جون؟ قال: "أود بشدة مقابلة فويب. أود منها التعرف على أخيها، وأن يتعرف أخوها عليها". بعد ذلك طوى الخطاب حول المال دون إعادة قراءته ووضعه داخل المظروف وكتب فوقه العنوان ووضع الطابع. إنه سوف يرسله فى الغد.

انسكب ضوء القمر خلال النوافذ. كان بول قد توقف عن العزف. حدق ديفيد فى القمر والذى كان عالياً فى السماء الآن وبالرغم من ذلك بعيداً ومرتداً بحدة خلف الظلام. لقد اتخذ قراراً، على الشاطئ؛ لقد ترك ملابس نورا ترقد على الرمال وضحكتها تتخلل الضوء. لقد عاد إلى الكوخ وعمل بالصور، وحينما أتت بعد ساعة تقريباً، لم ينطق بكلمة عن هوارد. وقد اختار هذا السكوت لأن أسرارها كانت أسوأ ودفينة أكثر، ولأنه كان يؤمن أن أسرارها ولدت أسرارها.

والآن عاد إلى الغرفة المظلمة وبحث عن أحدث أفلامه. فقد التقط بعض الصور أثناء حفل العشاء: نورا وهى تحمل صينية من الأكواب، بول يقف عند المشواه ويرفع كوبه، صور عديدة لهم جميعاً وهم مسترخون بالشرفة. كانت الصورة الأخيرة هى تلك التى يريدونها؛ وبمجرد أن عثر عليها ألقى عليها الضوء. وفى حوض المظهر راقب الصورة تظهر ببطء، رويداً رويداً، حيث لم يكن هناك شيء. وقد كان ذلك دوماً - بالنسبة لديفيد - تجربة يغلفها غموض كبير. أخذ يراقب بينما تتشكل الصورة، نورا وهوارد بالشرفة يرفعان كأسيهما ويضحكان. لحظة بريئة

ومشحونة ؛ لحظة تم اتخاذ قرار فيها. أخذ ديفيد الصورة من المظهر ولكنه لم يضعها في المثبت. بدلاً من ذلك ذهب إلى غرفة العرض ووقف في ضوء القمر ممسكاً بالصورة بين يديه وهو ينظر إلى منزله الذي كان مظلماً الآن ويضم بين كنفه بول ونورا اللذين يحلمان بأحلامهما الخاصة ويدوران في مداراتهما الخاصة، بعد أن نحت حياتهما القرار الذي اتخذه منذ سنوات عديدة مضت.

وفي الغرفة المظلمة علق صورة هذه اللحظة لتجف. ودون المثبت لن تدوم الصورة طويلاً. فعلى مدار الساعات التالية، سيعمل الضوء فوق الورقة المعلقة. سوف تسود صورة نورا وهي تضحك مع هوارد ببطء حتى - في غضون يوم أو اثنين - تصبح سوداء تماماً.

٢

كانا يسيران فوق قضبان السكة الحديد، ديوك ماديون يضع يديه في جيبى معطفه الجلدى الذى اشتراه من جودويل، وبول الذى كان يركل الأحجار التى كانت تثز عند ارتطامها بالقضبان. علت صافرة أحد القطارات من بعيد. وبعد إيماءة صامتة خرج الصبيان من داخل القضبان ووقفا على حافتهما. مضى وقت طويل قبل أن يأتى القطار، كانت القضبان أسفلهما تهتز، وكان المحرك يبدو مثل بقعة صغيرة تنمو وتسود بانتظام، بينما يطلق السائق النفير. نظر بول إلى ديوك والذى كانت عيناه تمتلئان بنظرة تتلشف إلى خوض مخاطرة، وشعر بتأجج الإثارة بداخله، والتى كانت تفوق قدرته على التحمل، مع اقتراب القطار أكثر فأكثر وتعالى صوت النفير الجامح خلال شوارع الحى وفيما وراءه. ها قد ظهر الضوء فى النافذة العليا وعلا النفير مجدداً محذراً. وحينما اقترب أكثر، عمل الهواء الخارج من المحرك على إمالة الأعشاب وتسويتها بالأرض،

والجلوس لساعات طويلة في صمت على قارب أو بحوض السفن ملقياً بالصنارة وساحباً إياها وصيد سمكة بين الحين والآخر. حينما كان طفلاً، كان بول يحب الصيد أيضاً - ليس صيد الأسماك في حد ذاته بقدر تلك الفرصة التي كان يمضي فيها وقتاً مع والده. ولكن حينما كبر أصبحت رحلات الصيد هذه تبدو إلزامية له، وكأنها شيء خطط والده القيام به لأنه لم يستطع التفكير في شيء آخر يقوم به، أو لأنه اعتقد أنها طريقة للتواصل - شيء قرأ عنه في كتاب نصائح للآباء. وقد تعرف على بعض حقائق الحياة في إحدى الإجازات بينما كان يجلس على سطح أحد القوارب ببخيرة في مينيسوتا، في حين يتحدث أبوه الذي أصبح جلده أحمر اللون بفعل الشمس الحارقة، عن موضوع التكاثف. أما في هذه الأيام فكان مستقبل بول هو موضوع أبيه المفضل، والتي كانت أفكاره بشأنه تبدو لبول مثيرة مثل سطح الماء المسطح الزجاجي.

لذا فقد كان سعيداً أثناء ركضه على الشاطئ، كان يشعر بالراحة، ولم يخطر بباله شيء حينما شاهد للوهلة الأولى كومة الملابس المتناثرة أمام أحد الأكواخ الصغيرة أسفل أشجار الكازوارينا. وقد مر من أمامها مباشرة بخطى واسعة إيقاعية، في حين كانت عضلاته تصدر نوعاً من الموسيقى ظلت تلازمه طوال الطريق حتى وصل إلى البقعة الصخرية. بعد ذلك توقف وسار في دوائر لبرهة وبدأ يعود أدراجه ببطء شديد. كانت الملابس قد تحركت: أكمات القميص تتحرك بفعل ريح المحيط وطيور البشروس الوردية البراقة ترقص داخل الخلفية الفيروزية الداكنة. أبطأ من خطاه. يمكن أن يكون هذا قميص أي أحد، ولكن والدته لديها واحد يشبهه. فقد ضحكوا حينما رأوه في متجر السائحين بالمدينة، وقد أمسكت به في بهجة واشترته كمزحة.

انتظر وهو ينظر إلى ديوك الذي وقف متوازناً على القضبان إلى جواره بينما يعدو القطار فوقهما تقريبا، ومع ذلك فقد ظلا ينتظران وينتظران وقد ظن بول أنه لن يقفز قط. ولكنه قفز في ذلك الحين داخل الأعشاب ومر القطار على بعد قدم من وجهه. وللحظة علا وجه القائد الشاحب تعبير ينم عن الصدمة ثم مرت عربات القطار حاجبة الضوء فيما عدا ذلك الذي كان يتخللها، ثم مضى بعيداً، بل إن الرياح نفسها قد اختفت.

وقد جلس ديوك الذي كان يبعد مسافة قدم ووجهه متجه ناحية السماء المعتمة.

قال: "اللعة. إنه سريع".

نفذ الصبيان الغبار عن ملابسهما وشرعا في السير ناحية منزل ديوك، الذي كان يوجد إلى جوار القضبان مباشرة. كان بول قد ولد على بعد بضعة شوارع من هنا، ولكن بالرغم من أن والدته أحياناً تأخذه بالسيارة لرؤية الحديقة الصغيرة والمنزل المقابل لها حيث كان يعيش بعد ولادته إلا أنها لم تكن تحب قدومه إلى هنا أو إلى منزل ديوك. ولكن تباً لرغباتها، إنها ليست موجودة معه بأية حال من الأحوال، وطالما أنه يؤدي فروضه المنزلية وطالما أنه يجز الحشائش ويتدرب على ممارسة البيانو لمدة ساعة، فإن له الحق في أن يفعل ما يشاء.

إن ما لن تراه لن يؤلمها. ما لن تعرفه.

قال ديوك: "لقد كان حانقاً للغاية. هذا الرجل بالقطار".

قال بول: "اللعة، هذا صحيح".

كان يحب السب، وقد راقه هذا الهواء الساخن على وجهه والطريقة التي أطفأ بها - خلال هذه اللحظة العابرة - غضبه المتأجج. كان قد ذهب للركض على الشاطئ في هذا الصباح في أوروبا وهو لا يحمل للندى هماً وسعيد بانخفاض الرمل المبلل عند حافة الماء برفق أسفل قدميه مقوياً العضلات بساقيه. كان سعيداً كذلك لأن رحلة الصيد مع أبيه ألغيت. إن والده كان يحب الصيد

كل ليلة في السادسة بعد انتهاء وديته، وبالرغم من أنه لم يكن يتحدث أكثر مما كان يفعل واند بول إلا أنه كان هناك، وحينما لا يكون هناك فإنهم يعلمون دوماً أين يجدونه.

سأله ديوك: "إذن ماذا تريد أن تفعل؟".

قال بول: "لا أعرف. ماذا عنك؟". كانت القضبان المعدنية مازالت تطن. وقد تساءل بول أين سيتوقف القطار في النهاية. تساءل إن كان قد رآه أحد وهو يقف على حافة القضبان، على مقربة شديدة للغاية لدرجة أنه كان يستطيع مد ذراعه وليس عربة متحركة بينما يتخلل الهواء شعره ويدغدغ عينيه. وإن كانوا رأوه، ففيم فكروا؟ صورة تمر أمام نوافذ القطار مثل مجموعة من الصور الساكنة: صورة ثم صورة أخرى؛ شجرة نعم؛ سحابة نعم؛ صخرة نعم؛ ثم فتى رأسه مثني للوراء ويضحك. ثم يختفي. شجيرة صغيرة، خطوط كهربائية، ضوء الطريق.

"نستطيع التصويب على بعض الأطواق".

"لا".

سارا فوق القضبان. وحينما عبرا حديقة روزموند وأحاطتهما الأعشاب الطويلة توقف ديوك وهو يبحث في جيبي معطفه الجلدي. كانت عيناه خضراوين ومرقطتين بالأزرق. وكان بول يعتقد أنهما تشبهان العالم. عينا ديوك - مثل مشهد الأرض من القمر.

قال: "انظر إلى هنا. لقد حصلت على هذه في الأسبوع الماضي من ابن عمي داني".

كانت عبارة عن حقيبة بلاستيكية صغيرة مليئة بالأوراق الخضراء الجافة.

سأل بول: "ما هذا، مجموعة من الأعشاب الميتة؟". وبينما كان يتحدث فهم وتورد وجهه خجلا من مدى حماقته.

ضحك ديوك ضحكات تعالت في سكون المكان وبين حفيف الأعشاب.

لذا، فعلى الأرجح توجد مئات من القمصان تشبه هذا القميص في هذا المكان. ومع ذلك فقد انحنى والتقطه. ثوب سباحة أمه - مكتلاً والذي كان بلون الجلد - سقط في الكم. وقف بول ساكناً عاجزاً عن الحركة كما لو أن أحدهم ضبطه يسرق، كما لو أن كاميرا التقطت صورته. ألقى بالقميص ولكنه كان لا يزال عاجزاً عن الحركة. وأخيراً بدأ يسير ثم ركض إلى كوخهم وكأنه يبحث عن ملاذ له. وقف عند المدخل محاولاً لملم شتات نفسه. كان والده قد نقل إناء البرتقال إلى فوق الخزانة. كان يرتب الصور على الطاولة الخشبية الكبيرة. سأل وهو ينظر للأعلى "ما الأمر؟" ولكن بول لم يستطع أن يخبره. ذهب إلى غرفته وأغلق الباب ولم ينظر للأعلى، ليس حتى حينما أتى والده وطرق الباب.

عادت أمه بعد ساعتين وهي تدندن بينما قميصها المنقوش فوقه طيور البشروس محشور بنظام داخل بنطالها القصير. قالت وكان شيئاً لم يحدث: "كنت أفكر في السباحة قبل الغداء. أتريد أن تأتي؟". هز رأسه وكان ذلك هو كل ما في الأمر، هذا السر، سره، سرها أصبح يقف بينهما كجدار.

كان لوالده أسرارته كذلك، حياة تدور بالعمل أو بالغرفة المظلمة، وقد ظن أن كل ذلك كان طبيعياً، شيئاً تتسم به جميع العائلات، إلى أن بدأ يتسكع مع ديوك، لاعب البيانو البار الذي قابله في غرفة الفرقة ذات ظهيرة أحد الأيام. لم تكن عائلة ماديسون تملك كثيراً من المال وكانت القطارات تمر على مقربة شديدة من منزلهم حتى أنه كان يهتز وتطن النوافذ في كل مرة تمر فيها، كما لم يسبق لوالدة ديوك أن استقلت طائرة من قبل في حياتها. وقد علم بول أنه يجب أن يشعر بالأسف من أجلها، فأبواه كانا سيفعلان هذا؛ فإن لديها خمسة أطفال وكان زوجها يعمل بمصنع جنرال إلكتريك ولن يستطيع قط بناء ثروة. ولكن والد ديوك كان يحب لعب الكرة مع أولاده، وكان يعود إلى المنزل

"هذا صحيح يا رجل، عشب. هل تعاطيت مخدرات من قبل؟"

هز بول رأسه وهو يشعر بالصدمة.

"إنك لن تصبح مدمناً، إن كان ذلك هو ما يخيفك. لقد تعاطيتها مرتين. إنها مذهشة حقاً. يمكنني أنؤكد لك ذلك."

كانت السماء لا تزال رمادية والريح تتحرك في أوراق الشجر ومن بعيد علت صافرة قطار آخر.

قال بول: "أنا لست خائفاً."

قال ديوك: "بالطبع. ليس هناك ما تخشاه. هل تريد خوض التجربة؟"

نظر حوله: "بالطبع. ولكن ليس هنا."

ضحك ديوك: "من في ظنك يمكنه ضبطنا هنا؟"

قال بول: "اسمع"، حينها أصبح القطار مرئياً وبدأ يقترب من الاتجاه المعاكس، نقطة صغيرة تصبح أكبر فأكبر بينما تخرق صافرته الهواء. خرجا من فوق القضبان ووقفوا قبالة بعضهما البعض على حافتي القضبان المعدنية.

صاح بول والقطار يقترب: "دعنا نذهب إلى منزلي. لا يوجد أحد هناك". وقد تخيل نفسه هو وديوك وهما يدخان ويتناولان الشراب المسكر فوق أريكة والدته الجديدة ذات القماش القطنى المطبوع، وضحك بصوت عال. بعد ذلك مر القطار بينهما؛ كانت العربات تزار ثم تصمت، تزار ثم تصمت أثناء مرورها. كان يرى ديوك يظهر ويختفى مثل الصور المعلقة في حجرة والده المظلمة، كل هذه اللحظات من حياة والده مثل مشاهد من قطار. لحظات توقف فيها الزمن.

بعد ذلك سارا معاً إلى منزل ديوك واستقلا دراجتهما عابرين طريق نيكولاسفيل ومجتازين الحى حتى وصلا إلى منزل بول.

كان المنزل موصداً، ولكن المفتاح كان مخبأ أسفل حجر لوحى عند نباتات الوردية. وفى الداخل كان الهواء دافئاً وموهناً إلى حد

ما. وفى حين كان ديوك يتصل بمنزله ليقول إنه سيقاخر فتح بول إحدى النوافذ فرفع النسيم الستائر التى كانت أمه قد صنعتها. فقبل أن تبدأ عملها كانت تغير ديكور المنزل بالكامل كل عام. وكان لا يزال بإمكانه أن يتذكرها وهى تثنى رأسها فوق ماكينة الخياطة وتسب حينما تتعقد البطانة. كانت لهذه الستائر خلفية كريمية اللون ومنقوش فوقها صور لأماكن ريفية زرقاء داكنة كانت تتلاءم وورق الحائط الملقم الداكن. وتذكر بول نفسه أيضاً جالساً يحدق فيها، وكان ما بها من أشكال قد تتحرك فجأة وتخرج من منازلها وتأخذ ملابسها وتلوح مودعة.

أغلق ديوك الخط ونظر حوله. جلس بغرفة الطعام وفرد ورقة مستطيلة رفيعة. شرع بول يراقب - وهو مأسور - ديوك أثناء ترتيبه لخط من الأعشاب الرثة فوقها ويلفها لتصبح أنبوباً أبيض رفيعاً.

قال بول وهو متوتر: "ليس هنا". خرجا من المنزل وجلسا على الدرج الخلفى وأشعلا طرف السيجارة وشرعا فى تناقلها بينهما. لم يشعر بول بشيء فى البداية. بدأت السماء تمطر رذاذاً ثم توقفت وبعد برهة من الوقت - لم يعرف كم كانت تماماً - أدرك أنه كان يحدق فى نقطة من الماء على الرصيف، كان يراقبها وهى تتمدد ببطء وتلتحم بنقطة أخرى قبل أن تسقط من فوق الحافة داخل العشب. كان ديوك يضحك بشدة.

قال: "لابد أن ترى نفسك يا رجل. هل لم يسبق لك أن دخنت من قبل؟"

قال بول: "دعنى وشأنى أيها الأحمق"، ثم بدأ يضحك أيضاً. دخلا إلى المنزل بعد فترة ولكن ليس قبل بدء هطول المطر ثانية والذى بللها وجعلهما يرتعدان. كانت أمه قد تركت طعاماً فوق الموقد ولكنه تجاهله. بدلاً من ذلك فتح برطماناً من الخل وآخر من زبد الفول السودانى وبعد ذلك طلب ديوك البيتزا وأخرج بول جيتاره وذهباً معاً إلى غرفة المعيشة، حيث كان

يوجد البيانو، ليعزف. جلس بول على حافة المدفأة وأخذ يداعب بعض الأوتار ثم بدأت أصابعه تتحرك عازفة النغمات المألوفة لقطوعتي سيجوفيا اللتين عزفهما في الليلة السابقة: "استديو" و"استديو سين لوز". وقد جعله الاسمان يفكر في والده، طويل، وصامت، وينحني فوق المكبر في الغرفة المظلمة. كانت الأغاني تشبه الضوء والظل، أحد مقابل الآخر، والآن أصبحت النغمات مغزولة بنسيج حياته، منسوجة في صمت المنزل والإجازة على الشاطئ والفصول عالية النواذب بمدرسته. عزف بول تاركا نفسه يرتفع للأعلى فوق الأمواج، كان يعزف الموسيقى ثم أصبح هو الموسيقى والتي ظلت تحمله للأعلى حتى وصل إلى القمة. وحينما انتهت ساد الصمت للحظة قبل أن يقول ديوك: "اللعنة، كان هذا رائعاً". مرر أصابعه على البيانو وعزف المقطوعة التي عزفها بالحفل "مارش أوف ذا ترولز" لجريج، والتي تقسم بالحيوية والبهجة السوداء. عزف ديوك ثم تبعه بول، ولم يسمعا جرس الباب أو الطرق؛ وفجأة كان فتى توصيل الطلبات يقف بمدخل الباب. كان الغسق قد حل في ذلك الحين، وتسلسل الهواء إلى المنزل. فتحت العبوات وتناولوا الطعام بنهم وبسرعة دون تذوق حارقين لسانيهما. شعر بول بالطعام وهو يستقر بداخله ويشعره بالثقل مثل صخرة. نظر عبر الأبواب الفرنسية إلى السماء الرمادية الكثيفة ثم إلى وجه ديوك الذي كان شاحباً للغاية، ويسقط شعره الداكن بشكل مستو فوق جبهته ويعلو شفته خط من الصلصة الحمراء.

قال بول: "اللعنة". وضع يديه مسطحتين فوق الأرضية البلوط سعيداً لإيجادها هناك ولأنه فوقها ولأن الحجرة حوله سليمة.

قال ديوك متفقاً معه: "بلا مزاح. لكنها أعشاب قوية حقاً. كم الساعة الآن؟"

نهض بول وسار إلى ساعة الجد بالردهة. منذ دقائق أو ساعات وقفا هنا وهما يهتزان من فرط الضحك بينما تتك الثواني ويبدو لهما أن فترة زمنية طويلة تفصل بين الواحدة والأخرى. الآن كل ما كان بول يستطيع التفكير فيه هو والده، والذي كان يتوقف لوضع ساعة يده بجوار هذه الساعة كل صباح ناظراً إلى الطاولة الممتلئة بالصور والحزن يغمره. عاود النظر ثانية في فترة بعد الظهر ليجد لها قد اختفت، متكتفة لتصبح مجرد ذكرى ليست أكبر من قطرة المطر تلك، والآن كانت السماء شبه مظلمة. دق جرس الهاتف. كان ديوك مازال راقداً فوق سجادة غرفة المعيشة، وقد بدا أن دهرأ قد مر قبل أن يرفع بول سماعة الهاتف. كانت أمه هي المتصلة.

قالت بينما تعلو الضوضاء وصوت الآنية الفضية حولها: "عزيزي". تخيلها مرتدية حلتها - ربما الزرقاء الداكنة، بينما تسير أصابعها داخل شعرها القصير وتبرق خواتهما. "كان على اصطحاب هؤلاء الزبائن للعشاء. إنه فوج شركة آي بي إم، لذا فهو مهم. هل عاد والدك للمنزل بعد؟ هل أنت بخير؟"

قال وهو يدرس ساعة الجد ويشعر بالمرح: "لقد أديت واجباتي المنزلية. كما تدربت على عزف البيانو. أبي لم يعد بعد".

سادت فترة صمت. قالت: "لقد وعدني أنه سيكون بالمنزل". قال: "أنا بخير" وتذكر الليلة الماضية وكيف جلس على حافة عتبة النافذة وفكر في القفز، وبعد ذلك كان في الهواء يسقط إلى أن استقر فوق الأرض مصدراً صوتاً مكتوماً لم يسمعه أحد. قال: "أنا لست ذاهباً لأى مكان الليلة".

"لا أعلم يا بول. أنا قلقة بشأنك". أراد أن يقول: "إذن عودي إلى المنزل" ولكن حولها علت الضحكات وانحسرت مثل الأمواج. قال ثانية: "أنا بخير". "هل أنت واثق من ذلك؟"

"نعم".
 "حسناً، لا أعرف". تنهدت وغطت السماعرة وتحذت إلى شخص آخر ثم عاودت التحدث إليه. "حسناً، أنا سعيدة لأنك أدبت واجباتك المنزلية بأية حال من الأحوال. اسمع يا بول، سوف أتصل بأبيك، ومهما حدث، فأنا لن أتأخر عن ساعتين. أعدك بذلك. حسناً؟ هل أنت واثق أنك بخير؟ فأنا سأترك كل شيء إن كنت بحاجة لي".

قال: "أنا بخير. أنت لست بحاجة للاتصال بأبي".
 كانت نبرة صوتها هادئة ومختصرة حينما أجابته.
 قالت: "لقد قال إنه سيكون بالمنزل. لقد وعدني".
 سأل: "هؤلاء الأشخاص من شركة آى بى إم. هل يحبون طيور البشروس؟".

سادت فترة صمت وسط زئير الضحكات وقعقة الكؤوس.
 قالت أخيراً: "بول، هل أنت بخير؟".
 قال: "أنا بخير. أنا فقط أمزح معك. لا تبالى".
 وحينما أغلقت الخط وقف بول وحده للحظة ينصت لصوت القرص. كان المنزل ساكناً حوله. لم يكن هذا السكون مشابهاً لسكون قاعة الاستماع الذى كان يعكس ترقباً، حيث إنه هنا كان يعكس فراغاً. أمسك بجيتاره وهو يفكر فى شقيقته. فإن لم تمت، هل كانت ستكون مثله؟ هل كانت ستحب الركض؟ هل كانت ستغنى؟

وفى غرفة المعيشة كان ديوك لايزال يرقد وذراعه فوق وجهه. التقط بول علبة البيترزا الفارغة والأوراق الشمعية رقيقة القوام وذهب بها إلى سلة المهملات. كان الهواء بارداً ويبدو العالم جديداً. كان يشعر بعطش شديد وكأنه ركض مائة ميل، لذا فقد حمل معه نصف جالون من اللبن وعاد إلى غرفة المعيشة وهو يشرب من العبوة مباشرة قبل أن يناولها إلى ديوك. جلس وعزف

ثانية بشكل أكثر هدوءاً. سقطت نغمات الجيتار خلال الهواء ببطء وجمال مثل أشياء مجنحة.
 سأل: "هل لديك المزيد من هذه الأعشاب؟".
 "نعم، ولكنها مرتفعة السعر".
 أوما بول واستمر فى العزف فى حين نهض ديوك وذهب لإجراء مكالمات هاتفية.

كان قد رسم أخته ذات مرة حينما كان طفلاً صغيراً، ربما حينما كان فى الحضانة. كانت أمه قد أخبرته كل شيء عنها، لذا فقد رسمها فى الصورة التى أطلق عليها اسم "أسرتى": أبوه فى ملابس بنية، أمه وشعرها الذهبى، ونفسه يمسك بيد صورته فى المرآة. وقد رسمها فى المدرسة ولفها بشريطة وقدمها لوالديه كهدية على الإفطار، وقد شعر بفجوة مظلمة تتكون داخله حينما رأى وجه أبيه تعلوه مشاعر لم يستطع بول فى سن الخامسة فهمها أو وصفها ولكن كان يعلم أن لها علاقة بالحزن. وحينما أخذت أمه الصورة أيضاً من أبيه تأثرت بحزنه ولكنها أسدلت ستاراً فوقه، نفس الستار الذى تسدله مع عملاتها الآن. تذكر كيف لمست يدها وجنته. مازالت تقوم بذلك فى بعض الأحيان وهى تنظر إليه بتركيز شديد وكأنه سيختفى. قالت فى هذا اليوم: "يا إلهى إنها جميلة، إنها صورة جميلة يا بول".

ولاحقاً حينما كان أكبر، ربما فى التاسعة أو العاشرة، اصطحبته إلى المقبرة الهادئة بالمدينة التى دفنت بها أخته. كان يوماً ربيعياً بارداً وقد زرعت أمه بذوراً صباحية حول الحاجز المصنوع من حديد الزهر. وقف بول يقرأ الاسم - فويب جريس هنرى - وتاريخ مولده، شاعراً بتململ وثقل لم يستطع شرحهما. سأل حينما انضمت أمه له أخيراً وخلعت قفازى البستنة: "لماذا ماتت؟". قالت: "لا أحد يعلم" وقد وضعت ذراعها حوله حينما رأت التعبير الذى ارتسم على وجهه. قالت بحزم: "إن ذلك ليس خطأك. إن ما حدث ليس له أية علاقة بك".

ولكنه لم يصدقها حينها ولا يصدق ذلك الآن. فإن كان والده يعزل نفسه كل ليلة في الغرفة المظلمة وتعمل أمه ساعات طويلة بعد العشاء في معظم الأيام، وفي الإجازات تقوم بخلع ملابسها وتدخل أكواخ رجال غرباء، إذن خطأ من هذا؟ ليس خطأ أخته والتي ماتت عند ولادتها تاركة وراءها هذا الصمت. شعر بألم في معدته والذي يبدأ في كل صباح ويكون بحجم العملية المعدنية الصغيرة ويظل يكبر خلال اليوم جاعلاً إياه شاعراً بالغثيان. لكنه كان حياً بالرغم من كل شيء، كان هنا. لذا فقد كانت مهمته هي حمايتهما.

ظهر ديوك عند الباب وكان قد توقف عن العزف.

قال: "إن جو سوف يأتي على الفور. إن كان لديك ما يكفى من المال".

قال بول: "نعم، اتبعنى".

ذهبا إلى الباب الخلفى وهبطا الدرجات الخرسانية ثم صعدا الدرجات الجانبية للحجرة الكبيرة المفتوحة فوق المرآب. كان بهذه الغرفة نوافذ طويلة على كل جدار، وأثناء النهار كان يملؤها الضوء من كل جانب. وكان بداخلها غرفة مظلمة تشبه الخزانة توجد إلى جوار المدخل مباشرة. فمنذ بضع سنوات - حينما بدأت صور والده تحظى بانتباه الآخرين - قام والده ببناء هذه الغرفة. والآن كان يمضى معظم وقت فراغه هنا يحمض فيلماً أو يجرى تجارب على الضوء. ولم يكن هناك من يأتى إلى هذا المكان سواه تقريباً - فأمه لم تأتى إلى هنا قط. وفي بعض الأحيان كان أبوه يدعو للصعود، وكان بول يتطلع لهذه الأيام بشوق بالغ. قال ديوك وهو يسير حول الجدار الخارجى وينظر إلى المطبوعات ذات الإطارات: "إن تلك الصور رائعة".

قال بول: "لا ينبغي أن ندخل إلى هنا. لا يمكننا التسكع هنا".

قال ديوك بعدما توقف أمام صورة لحطام مبنى ROTC والذي ترتطم بجدرانه المتفحمة البتلات الشاحبة لذبات القرانيا. كانت هذه هي الصورة التي حققت الشهرة لوالده. فقد أخذت شركات التلغراف هذه الصورة، ونشرتها عبر البلاد قبل سنوات مضت. كان والده يحب أن يقول: "إن تلك الصورة كانت بمثابة نقطة الانطلاق. لقد وضعتنى على بداية الطريق".

قال بول: "نعم. إن أبى التقط هذه الصورة. لا تلمس أى شيء، حسناً؟".

ضحك ديوك: "على رسلك يا رجل. إن كل شيء على ما يرام".

ذهب بول إلى الحجرة المظلمة حيث كان الهواء أدفاً وأثقل. كانت الصور مثبتة لتجف. فتح الثلاجة الصغيرة حيث كان والده يحتفظ بالفيلم وأخذ مظروفاً مصنوعاً من ورق المانيلا من الخلف. وبداخله كان يوجد مظروف يمتلئ بأوراق نقدية فئة العشرين دولاراً. أخذ واحدة ثم واحدة أخرى ووضع الباقي مكانه.

كان يأتى إلى هنا بصحبة والده، وفي أوقات أخرى كان يأتى خفية وحده. وهكذا عثر على هذا المال، فى ظهيرة أحد الأيام حينما كان يعزف على الجيتار هنا بالأعلى وهو حانق لأن أباه وعد بتعليمه كيف يستخدم المكبر ثم ألغى الأمر فى الدقيقة الأخيرة. فقد أخذ يفتش فى الثلاجة وعثر على هذا المظروف الذى يحتوى على أوراق نقدية جديدة وباردة. وفى هذه المرة الأولى أخذ عشرين دولاراً وأخذ المزيد لاحقاً. ولم يبدو أن أباه قد لاحظ ذلك. لذا فمن حين لآخر كان يصعد إلى هنا ويأخذ بعض المال.

وقد بثت هذه السرقات وحقيقة عدم ضبطه إلى الآن التوتر فى نفس بول. كان ذلك هو نفس الشعور الذى ساوره حينما وقف هنا مع أبيه فى الظلام بينما كانا يراقبان الصور وهى تبزغ من العدم أمام أعينهما. لم تكن هناك صورة واحدة فقط بالنيجاتيف

دس بول الدولارات الباردة فى جيبه وخرج للحجرة الأكبر. كان صبيان أكبر قد وصلا واللذان كانا يتسكعان دوماً فى ساحة الانتظار الشاغرة التى توجد قبالة المدرسة - يدخان. كان أحدهما بحوزته بضع زجاجات من الشراب فأعطى بول واحدة، وكان بول يود أن يقول: "دعونا نهبط للأسفل. دعونا نقم بذلك فى الخارج" ولكنها كانت تمطر بغزارة الآن وكان الصبيان أكبر منه وأضخم كذلك، لذا فقد اكتفى فقط بالجلوس والانضمام إليهما. أعطى ديوك المال وبعد ذلك ظلت الجذوة المشتعلة تنتقل بين المجموعة. وقد أسرت أطراف أصابع ديوك بول، الطريقة الرقيقة التى كانت أصابعه تمسك بها بالسيجارة، متذكراً كيف كانت تعزف على البيانو بدقة بالغة. كان والده شديد التدقيق كذلك. فقد كان يصلح عظام الناس وأجسادهم.

سأل ديوك بعد برهة: "هل تشعر بذلك؟"

كان الصوت يأتى لبول عبر مسافة بعيدة وكأنه يسافر عبر الماء وعبر الصافرة البعيدة لأحد القطارات. فى هذه المرة لم تكن هناك ضحكات جامحة، ولم يكن هناك طيش أو تهور، فقط بشر داخلى عميق كان يشعر بأنه يسقط بداخله. وقد أصبح البئر بالداخل جزءاً من الظلام بالخارج، ولم يعد فى إمكانه رؤية ديوك مما جعله يشعر بالفزع.

سأل أحد الصبيين: "ماذا به؟" فقال ديوك: "إنه فقط مصاب بجنون الارتياب على ما اعتقد"، وكانت الكلمات كبيرة حتى أنها ملأت الغرفة وألقت به على جدارها ضاغطة عليه.

ملأت الضحكات المكان وعلت وجوه الآخرين تعبيرات المرح والصخب. ولكن لم يستطع بول أن يضحك، فكان مجمداً فى مكانه. كان حلقه جافاً وشعر بأن يديه أصبحتا كبيرتين للغاية مقارنة بجسمه، وبدأ يتفحص الباب وكأن والده سوف يدخل فى أية لحظة ويصب غضبه فوقهم كالأمواج. بعد ذلك اختفت الضحكات ونهض الآخرون. بدأوا يفتشون فى الأدراج باحثين عن

- كما قال أبوه - ولكن كانت هناك العديد من الصور. واللحظة الواحدة لا تجسد لحظة منفردة فقط وإنما تجسد عدداً لانهائياً من اللحظات المختلفة وفقاً لمن كان يرى الأمور. أنصت بول لوالده وهو يتحدث شاعراً بفجوة تنبثق بداخله. فإن كان كل ذلك صحيحاً، إذن فإن أباه هو شخص لن يستطيع فهمه مطلقاً وهى الفكرة التى أفزعته. ومع ذلك فكان يحب أن يأتى إلى هذا المكان وسط الضوء الدقيق ورائحة الكيماويات. لقد أحب سلسلة الخطوات الدقيقة من البداية إلى النهاية، الورقة البيضاء التى يتم غمرها فى سائل التظهير وبزوغ الصور من العدم، انتهاء الوقت المحدد للتظهير ووضع الورقة بالمثبت. جفاف الصور وتثبيتها حيث تبدو براءة وغامضة.

توقف لدراستها. أشكال درامية غريبة، مثل زهور متحجرة. تركيب المخ، كما أدرك من رحلة أوروبا، مخ الإنسان دون أى جلد فوقه، فقط هيكله المجرد المعقد. كانت الصور الأخرى متشابهة، فتحات بيضاء مثل مشهد طبيعى لفوهات براكين معقدة فى ضوء القمر. كانت ملاحظات أبيه التى كتبها بنظام على الطاولة بجوار المكبر تقول: "مخ بشرى / عظام".

فى هذا اليوم بالكوخ، فى اللحظة السابقة لشعوره بوجود بول ورفع رأسه للأعلى، كانت الشاعر تغلف وجهه الأبيض - مشاعر حب قديم وخسارة. رأى بول هذا التعبير وكان يتوق لأن يقول شيئاً ما، أن يفعل شيئاً ما، أى شئ يعيد العالم إلى نصابه الصحيح. وفى الوقت نفسه أراد الهرّب، ونسيان كل مشاكلهم، أراد أن يكون حراً. أشاح بنظره بعيداً وحينما نظر ثانية كان التعبير الذى يرتسم على وجه أبيه جامداً وشارداً. لا بد أنه كان يفكر فى مشكلة تقنية فى فيلمه، أو أمراض عظام، أو الغذاء.

إن اللحظة قد تعكس آلاف الأشياء.

قال ديوك دافعاً الباب المفتوح: "هل ستخرج من عندك أم

لا؟"

متناثر فوقها الشراب. كانت هناك كلمات مكتوبة على الجدران، رسومات وصور فجة. اتكأ على الباب ثم انزلق للأسفل حتى جلس على الأرض وسط الفوضى. عليه أن يقف ثانية سريعاً، عليه تنظيف هذه الفوضى وترتيب الصور.

رفع يده ونظر في الصورة التي أسفلها ثم التقطها. لم تكن لمكان يعرفه: منزل متداع للسقوط يقع إلى جوار تل. وأمامه كان يقف أربعة أشخاص: امرأة ترتدى ثوباً يصل إلى ربليتي ساقيهما ومنزراً وتشبك يديها أمامها. وقد دفعت الريح خصلة شعر فوق وجهها. رجل هزيل مثني مثل الفاصلة يقف إلى جوارها يحمل قبعته فوق صدره. كانت المرأة مستديرة قليلاً ناحية الرجل وكان كلاهما يكبح ابتسامة على وجهه وكأن أحدهما قد أطلق مزحة لتوه وأنهم في اللحظة التالية سوف ينفجرون في الضحك. كانت يد الأم تستقر فوق شعر الفتاة الأصفر وبينهما يقف صبي مقارب لها في السن يحدق بجذبة في الكاميرا. بدت الصورة مألوفة بشكل غريب. أغلق عينيه شاعراً بالاستنزاف من أثر المخدرات وكان على وشك البكاء من فرط الإجهاد.

...

استيقظ على ضوء الفجر يتسلل من النوافذ الشرقية بينما يقف والده في الظل يتحدث من منتصف الضوء.

قال: "بول، ماذا حدث بحق السماء؟"

جلس بول وهو يصارع ليدرك أين هو وماذا حدث. كانت الصور الثالفة والأفلام مبعثرة على الأرض وتغطيها آثار أقدام طينية. وكان النيجاتيف منتشراً بالمكان مثل الأعلام الخفاقة، والزجاج المكسور يضيء الغرفة وقد ترك خدوشاً عميقة بالأرضية. تدفق الخوف إلى نفس بول؛ وشعر بأنه يريد التقيؤ. غطى عينيه بيده ليحميهما من ضوء النهار الساطع.

طعام ولكنهم لم يجدوا إلا ملفات والده الموضوعه بحرص. "لا تفعل هذا" هكذا حاول أن يقول للفتى الأكبر ذى اللحية والذي بدأ يأخذ الملفات ويفتحها. "لا تفعل هذا": كانت صرخة تدور داخل رأسه ولكن لم يخرج شيء من فمه. كان الاثنان الآخران يقفان كذلك الآن ويخرجان ملفاً تلو الآخر مبعثرين الصور والنيجاتيف والتي كانت مرتبة بحرص - فوق الأرض.

قال ديوك وهو يستدير رافعاً له صورة مقاس ٨ × ١٠ : "انظر. هل هذا أنت يا بول؟"

جلس بول في سكون بالغ وهو يعقد ذراعيه حول ركبتيه، بينما تخرج أنفاسه بسرعة. ولم يتحرك، فقد كان عاجزاً عن الحركة. ترك ديوك الصورة تسقط على الأرض وانضم للآخرين واللذين أصبحا أكثر جموحاً الآن، يبعثرون الصور والنيجاتيف في كل أنحاء الأرضيات المصقولة والبراقة.

كان يجلس في سكون شديد. طوال وقت طويل ظل خائفاً من أن يتحرك ولكنه الآن تحرك، كان داخل الغرفة المظلمة يربض في ركن دافئ ضد خزانة الملفات التي كان والده يوصدها دوماً ينصت إلى ما كان يحدث بالخارج: دوامات من الضوضاء، ضحكات، ثم صوت زجاجة تنكسر. وأخيراً ساد الصمت. انفتح الباب وقال ديوك: "أنت هنا يا رجل، هل أنت بخير؟" وحينما لم يجب بول دارت محادثة سريعة بالخارج ثم غادروا محدثين صوت قعقة على الدرجات. وقف بول ببطء وسار عبر الظلام خارجاً إلى غرفة العرض المليئة بأكوام الصور المحطمة. وقف في النافذة يشاهد ديوك يستقل دراجته في صمت بينما تدور ساقه اليمنى على القضيبي قبل أن يختفى بالشارع.

كان بول متعباً ومستنزف الطاقة. استدار ومسح الغرفة بعينيه: الصور في كل مكان يرفعها النسيم المتدفق من النافذة، النيجاتيف يسقط من الخزانات كالأعلام الخفاقة. وقد انكسرت زجاجة. كان الزجاج الأخضر مبعثراً على الأرضية والخزانات

قال بول: "لا"، ولكن بينما كان يتحدث أدرك أنه يعرفهم. قال وهو يشير للصبي الذى يقف فوق الدرجات "آه. هذا هو أنت".

"نعم، كنت فى مثل عمرك. وهذا هو والدى الذى يقف خلفي مباشرة. وإلى جوارى تقف أختي. كان لى شقيقة. أكنت تعرف ذلك؟ كان اسمها جون. كانت تعشق الموسيقى أيضاً مثلك. تلك هى كانت آخر صورة لنا معاً. كانت جون تعاني من مشكلة قلبية وقد ماتت فى الخريف التالى. وكانت خسارتها صدمة كبيرة لأمي".

كان بول ينظر إلى الصورة بشكل مختلف الآن. فهؤلاء الناس ليسوا أغراباً ولكنهم عائلته. كانت جدة ديوك تعيش فى غرفة علوية وتعد لهم فطير التفاح وتشاهد المسلسلات الكوميدية فى فترة ما بعد الظهر من كل يوم. شرع بول فى تفحص المرأة بالصورة وضحكتها المحبوسة - المرأة التى لم يعرف قط أنها جدته.

سأل: "هل ماتت؟".
 "أمي؟ نعم. بعدها بسنوات. وجدك توفي كذلك. ولم يكونا عجوزين فى ذلك الحين. كان والداي يعيشان حياة صعبة يا بول. إنهما لم يملكا المال. أنا لا أقصد أنهما لم يكونا أغنياء، بل أعنى أنهما فى بعض الأحيان كانا لا يعلمان إن كان سيظل لدينا طعام لناكله. وكان هذا الأمر مؤلماً لوالدى والذى كان يعمل بكبد. كما أنه كان مؤلماً لوالدتي كذلك لأنهما لم يستطيعا الحصول على كثير من المساعدة من أجل جون. وحينما كنت فى سنك تقريباً حصلت على وظيفة حتى أستطيع الالتحاق بالمدرسة الثانوية فى المدينة. وفى ذلك الحين ماتت جون وقطعت أنا عهداً على نفسي. فقد عقدت العزم على إصلاح العالم". هز رأسه: "حسناً، بالطبع لم استطع القيام بذلك. ولكن ها هنا نحن يا بول. إن لدينا الكثير من كل شيء. إننا لا نقلق قط بشأن وجود طعام نأكله. وأنت سوف تذهب إلى أى كلية تريدها. ولكن كل ما تستطيع التفكير فيه هو

قال أبوه: "يا إلهي! ماذا حدث هنا؟". ابتعد عن الضوء أخيراً وانحنى وربض. رفع صورة الأسرة المجهولة من وسط الفوضى وظل يتفحصها للحظة. ثم جلس واتكأ على الجدار بينما لاتزال الصورة فى يده ونظر إلى الحجرة.

سأل ثانية بشكل أكثر هدوءاً: "ماذا حدث هنا؟".
 "لقد جاء بعض الأصدقاء، وأعتقد أن الأمور خرجت عن نطاق السيطرة قليلاً".

قال أبوه: "هذا واضح". وضع إحدى يديه على جبهته: "هل كان ديوك هنا؟".

تردد بول ثم أوماً. كان يبذل جهداً كبيراً كي لا يبكى وفى كل مرة كان ينظر فيها إلى الأوراق التالفة كان شيء ما يعتصر صدره.

سأل والده برفق: "هل أنت من فعل هذا يا بول؟".

هز بول رأسه: "ولكننى لم أمنعهم من القيام بذلك".
 أوماً والده.

قال أخيراً: "سوف يستغرق منى الأمر أسابيع لتنظيف المكان. سوف تقوم أنت بذلك. سوف تساعدنى على إعادة الملفات. سوف يتطلب ذلك كثيراً من الجهد وكثيراً من الوقت. لابد أن تترك التدريب".

أوماً بول ولكن العصر فى صدره أصبح أقوى ولم يستطع التغلب عليه. "أنت فقط تريد مبرراً يجعلنى أتوقف عن العزف".
 "هذا ليس صحيحاً. اللعنة يا بول، أنت تعلم أن هذا ليس صحيحاً".

هز والده رأسه وكان بول خائفاً حتى أنه أراد الوقوف والرحيل ولكن بدلاً من ذلك نظر إلى الصورة التى فى يده. كانت بالأبيض والأسود وذات إطار أبيض مروحى الشكل يحيط بالأسرة الواقفة أمام المنزل الصغير الخفيض.
 سأل: "هل تعرف من هؤلاء؟".

تعاطى المخدرات مع أصدقائك والضرب بكل ما قمتُ به من أجلك بعرض الحائط".

انتقل العصر الذى كان بمعدته إلى حلقه ولم يستطع أن يجيب. كان العالم مازال ساطعاً للغاية وليس ثابتاً. أراد أن يمحو الحزن من صوت والده، أن يمحو الصمت الذى ملأ بيتهم. فأكثر من أى شيء آخر أراد لهذه اللحظة - والده يجلس إلى جواره ويقص عليه حكايات أسرية - ألا تنتهى أبداً. وقد خشى من أن يقول شيئاً خاطئاً ويفسد كل شيء، كما يفسد الكثير من الضوء المسلط على الصورة. فإن حدث هذا، فإنه لن يستطيع العودة قط. قال: "أنا آسف".

أوما والده وهو ينظر للأسفل. وبخفة وبسرعة مرت يده فوق شعر بول.

قال: "أعرف".

"سوف أنظف كل هذا".

قال: "نعم، أعرف هذا".

قال بول وهو يعلم أن تلك ستكون الكلمات الخاطئة، الضوء المفاجئ الذى سيجعل الصورة سوداء ولكنه لم يستطع منع نفسه: "ولكننى أحب الموسيقى. إن العزف هو حياتى ولن أتخلى عنه قط". جلس والده فى صمت للحظة وهو يغطى رأسه. بعد ذلك تنهد ونهض.

قال: "لا تغلق أية أبواب أمامى الآن. إن هذا هو كل ما أطلبه منك".

شاهد بول والده يختفى فى الغرفة المظلمة. بعد ذلك ركب على ركبتيه وبدأ يلتقط كسرات الزجاج المكسور. ومن بعيد أسرع القطارات وأصبحت السماء خلف النوافذ صافية وزرقاء. توقف بول للحظة فى ضوء النهار القوي وأخذ ينصت لأبيه وهو يعمل بالغرفة المظلمة متخيلاً نفس هذين اليدين وهما تتحركان بحرص داخل جسد إنسان ساعية وراء إصلاح ما انكسر به.

سبتمبر ١٩٧٧

التقطت كارولين حافة المستقطبة بين إبهامها وسبابتها حينما اندفعت خارج الكاميرا، ونظرت إلى الصورة التى ظهرت على الفور. وقد بدت الطاولة ذات المفروش الأبيض وكأنها تطفو فوق بحر من الأعشاب الداكنة. وكانت زهور القمر البيضاء والمضيئة تتسلق جانب التل. وكانت فويب تبدو غير واضحة المعالم وشاحبة فى فستان عيد ميلادها. هزت كارولين الصورة فى الهواء لتجففها. علا صوت الرعد من بعيد؛ حيث كانت تتجمع عاصفة صيفية؛ وكان النسيم يحرك مناديل المائدة الورقية. قالت: "واحدة أخرى".

اعترضت فويب قائلة: "لا يا أمى" ولكنها وقفت ساكنة فى مكانها.

وبمجرد أن أصدرت الكاميرا صوت القعقة ركضت تجاه المرحلة حيث كانت جارتها آفرى - البالغة من العمر ثمانى سنوات - تحمل قطعة صغيرة ذات شعر برتقالى داكن مثل شعرها.

كانت فويب - ذات الثلاثة عشر ربيعاً - قصيرة بالنسبة لعمرها وممتلئة الجسم ولا تزال متهورة ومشبوبة بالعاطفة وبطيئة التعلم ولكن تنتقل من السعادة إلى الكآبة إلى الحزن ثم إلى السعادة مجدداً بسرعة مذهلة. صاحت قائلة: "أنا سعيدة!" وهي تدور حول نفسها مرة وذراعاها مرفوعتان بالهواء مما جعل الضيوف ينظرون إليها ويبتسمون. وبينما تدور تنويرتها ركضت إلى ابن ساندر - تيم - الذي كان مراهقاً الآن أيضاً. لفت ذراعيها حوله وقبلته قبلات غزيرة فوق وجنته.

بعد ذلك توقفت ونظرت في توتر إلى كارولين. فقد سبق وسبب الاحتضان مشكلة في بداية هذا العام في المدرسة. فكانت فويب تعلن قائلة: "Li / حبك" وتطوق طفلاً صغيراً بين ذراعيها؛ وهي لم تفهم ما المانع من القيام بذلك وقد أخبرتها كارولين مرات ومرات أن الاحتضان شيء خاص، تقتصر على أفراد العائلة فقط. وببطء فهمت فويب ذلك. والآن وهي ترى فويب تطلق العنان لحبها تساءلت إن كانت قد فعلت الصواب.

قالت كارولين: "لا بأس يا حبيبتي. يمكنك أن تحتضني أصدقاءك في الحفلات".

استرخت فويب. ذهبت هي وتيم للتربيت على القطة. نظرت كارولين إلى المستقطبة في يدها: الحديقة المنيرة وابتسامة فويب، لحظة عابرة مضت بالفعل تجمدت داخل صورة. كان هناك المزيد من الرعد يدوي من بعيد، ولكن الأمسية كانت لا تزال جميلة ودافئة وتزينها الزهور. وعبر المرجة كان الناس يتحركون ويتحدثون ويضحكون ويملأون أكوابهم البلاستيكية. وكانت كعكة مكونة من ثلاثة صفوف وبيضاء ترقد فوق الطاولة المزينة بزهور حمراء من الحديقة. ثلاث طبقات من أجل ثلاث احتفالات: عيد ميلاد فويب، وذكرى زواجها، وتقاعد دورو وسفرها.

"إنها كعكتي". طغا صوت فويب فوق صوت محادثات أساتذة الفيزياء والجيران وأعضاء الكورس وأصدقاء المدرسة وأعضاء

ارتشفت كارولين شرابها وكان الهواء دافئاً مثل الأنفاس على جلدتها. وهي لم تر آل حينما وصل حيث رآته فجأة أمامها يضع يده حول خصرها ويقبل وجنتها، بينما يجتاحها وجوده ورائحته. كانا قد تزوجا منذ خمس سنوات في حفل مثل هذا أقيم في حديقة حيث كانا يقدمان الفراولة داخل كؤوس الشراب وكان الهواء عابقاً بالحباحب ورائحة الزهور. لقد مضت خمس سنوات وبالرغم من ذلك كانت لا تزال تشعر أنها تزوجته حديثاً. كانت حجرة كارولين التي تقع بالطابق الثالث في منزل دورو قد أصبحت مكاناً غامضاً وحسياً مثل هذه الحديقة. فكانت تحب أن تستيقظ لتجد آل الدافئ والضخم ينام إلى جوارها، بينما ترتاح يده برفق فوق بطنها وتعبق رائحته - رائحة الصابون وعطر أولدسبايس - الغرفة، الملاءات، والمناشف. كان هنا الآن، بحضوره القوي حتى أنها كانت تشعر به في كل خلجة من خلجات جسمها.

قال الآن وهو يضغط بيديه برفق على خصرها: "عيد زواج سعيد".

ابتسمت كارولين والبهجة تملؤها. حل الظلام بالفعل وكان الناس يتحركون ويضحكون في الحديقة الدافئة والعابقة بروائح الزهور بينما يتجمع الندى فوق العشب الداكن وتنتشر الزهور البيضاء في كل مكان. أخذت يد آل والتي كانت صلبة وضحكت لأنه وصل لتوه ولم يعرف آخر الأخبار. فدورو سوف ترحل في رحلة بحرية حول العالم تستغرق عاماً مع حبيبها، ذلك الرجل

قال آل وهو يمسك بالأطباق الورقية التي رفعتها الريح: "إن كنت إلهة الريح، فمن الأفضل أن تخففى من حدة عواصفك حتى يتسنى لنا إقامة هذا الحفل".

سألت دورو: "أليس ذلك رائعاً. إنه حفل وداع جميل حقاً". ركضت فويب وهي تحمل القطة الصغيرة والتي تشبه كرة برتقالية بين ذراعيها. مدت كارولين يدها وضبطت شعرها وهي تبتم.

سألت: "هل نستطيع الاحتفاظ بها؟". أجابت كارولين بردها المعهود: "لا، إن الخالة دورو مصابة بحساسية".

شكت فويب قائلة: "أمى"، ولكن الريح والطاولة الجميلة شتتتا انتباهها على الفور. أخذت قفاز دورو الحريري. "خالتي دورو. إنها كعكتى".

قالت دورو واحة إحدى ذراعيها حول كتفى فويب: "إنها كعكتى أيضاً. فأنا ذاهبة فى رحلة، لذا فهى كعكتى أيضاً. كما أنها كعكة أمك وآل لأنهما يحتفلان بعيد زواجهما الخامس".

قالت فويب: "سأتى فى هذه الرحلة". قالت دورو: "لا يا حبيبتى. ليس فى هذه المرة. إنها رحلة للكبار. لى ولتريس".

أصاب فويب بإحباط مساو فى حديثه للبهجة التى كانت تشعر بها قبل ذلك. إنها متقلبة المزاج - وبغض النظر عما تشعر به فى الوقت الحالى فإنه يبدو لها شديد الأهمية.

قال آل بعدما جثم: "هل تعتقدين يا حبيبتى أن هذه القطة قد تحب أن تتناول بعض الكريمة؟".

قاومت قليلاً ثم ابتسمت واستسلمت وأومات ناسية على الفور إحباطها السابق.

قال آل وهو يأخذ يدها ويغمز لكارولين: "عظيم".

قالت كارولين محذرة: "لا تأخذى القطة للداخل".

الذى يدعى تريس. وكان آل يعلم بهذا بالفعل؛ فقد بدأ التخطيط لهذا الأمر منذ شهور. ولكنه لم يكن يعرف أن دورو قد أعطت كارولين صك ملكية هذا المنزل القديم.

وقد أتت دورو هى أيضاً الآن، حيث كانت تهبط الدرجات وهى مرتدية ثوباً حريراً. كان تريس خلفها تماماً يحمل صينية من الثلج. كان يصغرها بعام واحد، فى الخامسة والستين، وذا شعر رمادى قصير ووجه طويل ونحيف وشفتين ممتلئتين. كان شاحبا بشكل طبيعى ويهتم بوزنه وما يتناوله من طعام، ويحب الأوبرا والسيارات الرياضية. وقد كان تريس سباحاً أولمبيا فيما سبق وفاز قبل ذلك بميدالية برونزية وكانت خططه الآن هى الغوص فى مونونجاليا والسباحة حتى الشاطئ المقابل. كان قد خرج من الماء فى ظهيرة أحد الأيام وسار مترنحا فوق شاطئ النهر، شاحبا ويقطر الماء وسط الحفل السنوى المفتوح لقسم الفيزياء. كانت تلك هى قصة لقائهما. كان تريس عطوفاً ويحسن معاملة دورو والتى كانت تعشقه، وقد كانت كارولين تراه متحفظاً بعض الشيء وشارداً ولكن ذلك لم يكن من شأنها مطلقاً.

دفعت دفقة من الهواء المناديل من فوق الطاولة فتوقفت كارولين للإمساك بها.

قال آل لدورو وهى تقترب: "إنك تجلبين الريح معك".

قالت وهى ترفع يديها: "إنه حفل مثير حقاً". وقد أصبحت دورو تشبه والدها أكثر وأكثر. ملامحها الحادة وشعرها الذى كان قصيراً الآن وأبيض تماماً.

قال تريس وهو يضع الثلج على الطاولة: "إن آل يشبه البحارة القدماء". استخدمت كارولين حجراً صغيراً لتثبيت المناديل. واصل حديثه قائلاً: "إنه يتكيف بسهولة مع التغييرات المناخية. يا إلهى، يا دورو، ابقى ساكنة. إنك جميلة حقاً. إنك تبدين مثل إلهة الريح".

ملأت صينية بالأكواب وسارت بين ضيوفها وهي لاتزال مندهشة. لقد كانت كارولين سيمبسون، والدة فويب، زوجة آل، منظمة احتجاجات - امرأة مختلفة تماماً عن تلك المرأة الضعيفة التي كانت تقف بالعبادة في ليلة العاصفة الثلجية تحمل رضيعاً بين ذراعيها منذ ثلاثة عشر عاماً مضت. استدارت لتنظر إلى المنزل، الحجارة الشاحبة التي تنبض بالحيوية بشكل غريب داخل السماء الرمادية. قالت لنفسها مستخدمة إيقاع ترنيمة فويب التي استخدمتها قبل قليل: "إنه منزلي". ابتسمت من الفكرة التالية التي واتها والتي كانت ملائمة للموقف بشكل غريب: "إنه احتفالي".

كانت ساندرا تضحك مع دورو عند شجرة صريمة الجدى وتسير السيدة سولارد في الممر وهي تحمل زهرية مليئة بزهور الليمون. وقد أمسك تريس، الذي كانت الريح تدفع شعره الرمادي فوق وجهه، بعود ثقاب محاولاً إشعال الشمع. كان اللهب يرفرف في الهواء ولكن فتيل الشمعة التقطه أخيراً منيراً مفرش الطاولة الكتاني الأبيض، وأكواب النذر الشفافة الصغيرة، وزهرية الزهور البيضاء، وكعكة الكريمة. كانت السيارات تمر أمام الحفل بينما يعلو صوت الضحك ورفرفة أوراق الشجر على أصواتها. للحظة وقفت كارولين ساكنة تفكر في آل، يديه اللتين سيضعهما عليها في الليلة التالية. قالت لنفسها: "إن تلك هي السعادة. إن هذا هو ما تعنيه السعادة".

استمر الحفل حتى الساعة الحادية عشرة. ظل تريس ودورو يتسكعان بالحديقة حتى بعد مغادرة الضيوف وهما يحملان صوان فوقها أكواب وبواقى الكعكة وزهرات الزهور، ويضعان الطاولات والمقاعد جانباً في المرآب. كانت فويب قد نامت في ذلك الحين؛ وقد حملها آل للداخل بعدما بكت حيث كانت متعبة -

قالت كارولين موقفة دورو عند أعلى الدرجات بينما تمر أمام الأوراق الكثيفة والليونة لزهور الليمون: "لا تقومي بالمزيد". وكانت قد زرعت هذا السياج منذ ثلاثة أعوام، والآن نمت الشجيرات ذات الأغصان وضربت بجذورها في الأرض. وفي العام التالي سوف تكسيها الزهور. "سوف أتولى أمر التنظيف صباحاً يا دورو. إنك ستسافرين في وقت مبكر صباحاً. لا بد أنك لا تطيقين صبراً على الرحيل".

قالت دورو هامسة حتى أن كارولين اضطرت أن تبذل جهداً لسماعها: "هذا صحيح". أومأت إلى المنزل حيث كان آل وتريس يعملان بالمطبخ البراق ينظفان الأطباق. "ولكن يا كارولين هذه الرحلة حلوة ومرة في نفس الوقت. ففي وقت مبكر من هذا اليوم أخذت أسير عبر جميع الغرف، للمرة الأخيرة. لقد أمضيت حياتي بأكملها هنا. ومن الغريب أن أرحل. وبالرغم من ذلك فأنا متحمسة للغاية للرحيل".

قالت كارولين وهي تقاوم دفقة فجائية من العاطفة: "يمكنك يوماً العودة في أي وقت".

قالت دورو: "أتمنى ألا أرغب في ذلك. ليس أكثر من مجرد زيارة". أمسكت بمعصم كارولين وقالت: "تعال. دعينا نذهب ونجلس بالشرفة".

سارتا عبر جانب المنزل أسفل نباتات الوستارية وجلستا بالأرجوحة، بينما يتحرك نهر من السيارات بالشارع العريض المزدان بالأشجار. وكانت الأوراق العالية لشجر الجميز والتي كانت في حجم الأطباق ترفرف في ضوء مصابيح الشارع.

قالت كارولين: "إنك لن تفتقدى زحمة السير".

"لا، هذه صحيحة. كان المكان هنا هادئاً للغاية. فكانوا يغلقون الشارع في الشتاء. وكنا نستخدم المزلجة في منتصف هذا الطريق".

دفعت كارولين الأرجوحة متذكراً تلك الليلة قبل فترة طويلة مضت حينما غمر ضوء القمر المروج وسقط عبر نوافذ دورة المياه، في حين كانت فويب تسعل بين ذراعيها وتحلق طيور البلشون من حدائق طفولة دورو.

انفتح باب المنزل الزجاجي وخرج تريس.

سأل: "حسناً، هل أنت جاهزة يا دورو؟"

قالت: "أنا جاهزة تقريباً."

"سوف أذهب وأحضر السيارة إلى هنا أمام المنزل."

دخل المنزل ثانية. بدأت كارولين تعد السيارات حتى وصلت إلى الرقم عشرين. منذ ستة أعوام مضت أتت إلى هذا الباب وهي تحمل فويب بين ذراعيها. كانت تقف هنا تماماً منتظرة لقرى ما سيحدث.

سألت: "ما موعد رحلتك؟"

قالت دورو وهي تتكى للخلف وتبسط ذراعيها: "في وقت مبكر في الثامنة. يا إلهي، يا كارولين. بعد كل هذه السنوات أشعر بأنني حرة. من يعرف إلى أين قد أحلق؟"

قالت كارولين: "سوف أفتقدك، وسوف تفتقدك فويب كذلك."

أومات دورو قائلة: "أعلم. ولكننا سنرى بعضنا البعض. سوف أرسل لكم بطاقات من كل مكان أذهب إليه."

غمرت أضواء السيارة الأمامية التل، ثم أبطأت السيارة المستأجرة وبدأ تريس يلوح بذراعه الطويلة.

قال: "هيا إن الطريق ينادى!"

قالت كارولين: "اعتنى بنفسك جيداً". احتضنت دورو وهي تشعر بوجنتها الناعمة. "لقد أنقذت حياتي طوال هذه السنوات الماضية."

قالت دورو وهي تبتعد: "يا عزيزتي، لقد أنقذت حياتي أيضاً". كانت عيناها السوداوان مغرورقتين بالدموع. "إنه منزلك الآن. استمتعي به."

بعد ذلك هبطت دورو الدرج، بينما تحرك سترتها الريح. استقلت السيارة ولوحت بيدها مودعة، ثم اختفت.

راقبت كارولين السيارة وهي تنحرف بتقاطع الطريق ثم تختفي داخل بحر من الأضواء السرعة. كانت العاصفة لاتزال تهب في دوامات بالتلال، بينما يضيء البرق السماء ويدوى الرعد من بعيد. جاء آل وهو يحمل المشروبات دافعا الباب بقدمه. جلسا معاً في الأرجوحة.

قال آل: "إن. لقد كان حفلاً جميلاً."

قالت كارولين: "هذا صحيح. كان ممتعاً. أنا أشعر بالإجهاد."

سأل آل: "هل لديك ما يكفي من الطاقة لفتح هذه؟"

أخذت كارولين العبوة وأزاحت تغليفها غير المتقن. سقط منها قلب خشبي منحوت من الكريز وناعم مثل الحجر المصقول بفعل الماء في راحة يدها. أغلقت يدها حوله متذكراً كيف برقت الميدالية في الضوء البارد في سيارة آل وكيف بعدها بشهور مدت فويب يدها للإمساك بها.

قالت وهي تضغط بالقلب الناعم فوق وجنتها: "إنه جميل. دافئ للغاية. إنه يناسب راحة يدي تماماً."

قال آل بسعادة: "لقد نحته بنفسه. في الليالي التي أكون بها بالطريق. وبالرغم من أنها بسيطة بعض الشيء ولكن تلك النادلة التي أعرفها في كليفلاند قالت إنها ستعجبك. أتمنى أن تعجبك حقاً."

قالت كارولين وهي تعقد ذراعها بذراعه: "إنها تعجبني. لقد اشتريت شيئاً من أجلك أيضاً". أعطته صندوقاً كرتونياً صغيراً. "لكن لم يتح لي الوقت لتغليفه."

فتح الصندوق وأخذ منه مفتاحاً نحاسياً جديداً.

"ما هذا، مفتاح قلبك؟"

ضحكت. "لا، إنه مفتاح هذا المنزل."

"لماذا؟ هل غيرت الأقفال؟"

"لا". دفعت كارولين الأرجوحة. "لقد أعطتني دورو إياه يا

آل. أليس ذلك رائعاً؟ إن لدى صك المنزل بالداخل. لقد قالت إنها

تريد بداية جديدة تماماً."

دفعتها مرة ثم مرتين ثم بدأت الأرجوحة تعلو وتنخفض.

قال آل: "هذا كثير. ماذا لو أرادت العودة؟"

"لقد طرحت عليها نفس هذا السؤال. وقد أخبرتني أن ليو قد

ترك لها الكثير من المال. كما أن لديها مدخرات أخرى. علاوة

على ذلك فقد ظلت دورو مقتصدة طوال حياتها، لذا فهي ليست

بحاجة للمال. وإن عادا فسوف تستأجر هي وتريس منزلاً أو

شيفاً من هذا القبيل."

قال آل: "إنها كريمة للغاية."

"نعم."

ظل آل صامتاً بينما أخذت كارولين تنصت إلى صوت صرير

أرجوحة الشرفة والرياح والسيارات.

قال ممازحاً: "يمكننا بيعه. فنستطيع أن نرحل من هنا

ونذهب إلى أي مكان."

قالت كارولين ببطة: "إنه لا يساوي الكثير". إن فكرة بيع

المنزل لم تطرأ في ذهنها قط. "وعلى أية حال أين عسانا أن

نذهب؟"

"لا أعلم يا كارولين. أنت تعرفينني. لقد أمضيت حياتي

أجوب الطرقات. أنا فقط أفكر بصوت عال بينما أسمع منك

الأخبار."

وقد بث فيها الظلام والتأرجح المنتظم شعوراً بعدم الراحة.

من كان هذا الرجل الجالس إلى جوارها، تساءلت كارولين، هذا

الرجل الذي كان يأتي كل أسبوع ويشاركها فراشها، والذي يميل

رأسه لزواية معينة كل صباح لوضع عطر أولدسبايس على رقبتة

وذقته؟ ماذا تعرف حقاً عن أحلامه وقلبه الخفي؟ لا شيء

تقريباً، كما لا يعرف هو شيئاً عن أحلامها وقلبها.

قالت: "إذن، لقد كنت تفضل ألا يصبح المنزل ملكنا؟"

الأمر ليس كذلك. لقد كان ذلك كرمًا بالغاً من دورو."

ولكنك ترى أن فيه تقييداً لك."

أنا أحب الإتيان إليك يا كارولين. أحب القيادة في هذا

الجزء الأخير من الطريق وأنا أعرف أنك وفويب ستكونان هنا،

في المطبخ تطهوان أو تزرعان النباتات، أو أي شيء آخر. ولكن

بالتأكيد راق لي ما قاما به - حزم أمتعتهم والرحيل. السفر حول

العالم. إن ذلك سيكون لطيفاً على ما أعتقد. هذه الحرية."

نالت كارولين وهي تنظر إلى الحديقة الداكنة وأضواء المدينة

المتنثرة والحروف الحمراء بلافتة فودلاند والأجزاء الفسيفساء

وسط أوراق النبق الصيفية الكثيفة: "أنا سعيدة حيث أنا. أعتقد

أنك سوف تشعر بالملل معي."

قال آل: "لا. إن ذلك يجعلنا فقط متكاملين يا حبيبتي."

جلسا صامتين لبرهة وهما ينصتان إلى الريح وصوت

السيارات.

قالت كارولين: "إن فويب لا تحب التغيير. إنها لا تستطيع

التعامل معه جيداً."

قال آل: "نعم، هناك هذا الأمر كذلك."

انتظر لحظة ثم استدار ناحيتها.

"أتعلمين يا كارولين. إن فويب بدأت تكبر. إنها لم تعد طفلة

صغيرة."

قالت كارولين وهي تفكر في فويب وهي تحمل القطة وكيف

أنها تنغمس بسهولة في مباحج الطفولة: "إنها في الثالثة عشرة

من عمرها فقط."

تقومين بتوفير كل هذه النقود. أنا فقط أطرح الموضوع للمناقشة. أعنى، فكرى فى الأمر. ألن يكون لطيفاً إن أصبح فى إمكانك الإتيان معى فى رحلاتى بالطريق؟ فقط فى عطلات نهاية الأسبوع؟".

قالت برقة: "نعم، سيكون ذلك لطيفاً".

ولكنها لم تكن واثقة من هذا. حاولت كارولين تخيل حياة آل، غرفة مختلفة كل ليلة، مدينة مختلفة، والطريق الذى يبدو أمامه دوماً مثل شريط رمادى. لقد كانت فكرته الأولى تبعث على القلق: بيع المنزل والتجول بالطرقات والسفر حول العالم.

أوماً آل وانتهى من شرابه ثم بدأ ينهض.

قالت وهى تضع يدها برفق على ذراعه: "لا تذهب. أريد أن أخبرك بشيء ما".

قال آل وهو يتكى للخلف ثانية على الأرجوحة: "يبدو أمراً مهماً". ضحك فى توتر ثم قال: "إنك لن تتركينى أليس كذلك؟ الآن بعد أن أصبحت تمتلكين منزلاً؟".

"بالطبع لا. الأمر ليس كذلك بالمرّة". تنهدت. "لقد وصلنى خطاباً هذا الأسبوع. إنه خطاب غريب وأود التحدث معك بشأنه".

"خطاب ممن؟".

"من والد فويب".

أوماً آل وعقد ذراعيه، ولكنه لم يتحدث. كان يعلم بأمر الخطابات بالطبع. فهى تصل منذ سنوات حاملة مبالغ مختلفة من الأموال ورسالة صغيرة مكونة من جملة واحدة. "من فضلك أخبرينى بالمكان الذى تعيشين فيه". وهى لم تعطه هذه المعلومة ولكنها فى السنوات الأولى أخبرت ديفيد هنرى بكل شيء آخر. خطابات اعترافات حميمية وكأنه صديق مقرب من قلبها وموثوق به. وبمرور الوقت أصبحت أكثر عملية وتحفظاً؛ فكانت ترسل له صوراً وتكتب له خطاباً مكوناً من سطر أو اثنين. فقد أصبحت

"هذا صحيح. إنها فى الثالثة عشرة من عمرها يا كارولين. إنها - حسناً - كما تعلمين بدأت تكبر. فأنا لم أعد أشعر بالراحة حينما أحملها كما حدث الليلة".

قالت كارولين بحدة: "إذن لا تقم بذلك"، ولكنها تذكرت فويب فى حوض السباحة فى بداية هذا الأسبوع، وهى تسبح ثم تعود بينما تمسك هى بها وتستشعر بذراعيها ثدييها الصغيرين اللذين شرعا فى النمو.

"ليس عليك أن تغضبى يا كارولين. كل ما فى الأمر أننا لم نتطرق إلى هذا الموضوع من قبل، أليس كذلك؟ ماذا سيحدث لها. ماذا سنفعل حينما نتقاعد أنا وأنت مثل دورو وتريس". سكنت وساورها هى شعور بأنه كان ينتقى كلماته بحرص. "أنا أحب الاعتقاد بأننا سنفكر فى السفر. فأنا أصاب بما يشبه رهاب الاحتجاز حينما أتخيل أننى قد أبقى فى هذا المنزل للأبد. وماذا عن فويب؟ هل ستعيش معنا للأبد؟".

قالت كارولين والقلق يلتف حولها مثل الليل: "لا أعرف". لقد حاربت طوال سنوات عديدة لتأسيس حياة من أجل فويب فى هذا العالم القاسى. وفى الوقت الحالى، فقد استطاعت بالفعل حل جميع المشكلات التى واجهتهما. وخلال العام السابق تقريباً أصبح بإمكانها الاسترخاء. ولكن أين ستعمل فويب وكيف عساها ستعيش حينما تكبر - كل ذلكبقى مجهولاً. "يا إلهى، يا آل، أنا لا أستطيع التفكير فى هذا الأمر الليلة من فضلك".

ظلت أرجوحة الشرفة تندفع للأمام والخلف.

"سوف يتحتم علينا التفكير فى هذا الأمر فى وقت ما".

"إنها فقط فتاة صغيرة. ماذا تقترح؟".

"كارولين. أنا لا أقترح أى شيء. أنت تعلمين كم أحب فويب. ولكن أنا أو أنت قد نموت غداً. إننا لن نعيش للأبد لرعايتها، هذا هو كل ما فى الأمر. وقد يأتى وقت لا ترغب هى فيه أن نقوم بذلك. أنا فقط أسألك إن كنت فكرت فى هذه الأمور من قبل. لماذا

حياتها غنية ومشحونة ومعقدة؛ فلم تكن هناك طريقة تستطيع أن تدون بها كل ما يحدث بحياتها على الورق، لذا فقد توقفت ببساطة عن المحاولة. وقد شعرت بصدمة حقيقية حينما جاءها خطاب طويل من ديفيد هنرى فى هذه المرة، ثلاث صفحات كاملة مكتوبة بخطه الصغير، خطاب عاطفى بدأه بكلمة عن "بول" متحدثاً فيه عن موهبته وأحلامه، عن جموحه وغضبه.

أعلم أن ذلك كان خطأ. ما قمت به، إعطاؤك ابنتى.
أعلم أنه كان أمراً مروعاً، وأعلم أنني لا أستطيع
إصلاحه. ولكننى أود أن أقابلها حقاً يا كارولين. أود
التكفير عن أخطائى، بطريقة ما. أريد معرفة المزيد
عنها يا كارولين وعن حياتكما معاً.

شعرت بالتوتر حينما قرأت عن الأمور التى كتبها لها - بول فى سن المراهقة يعزف على الجيتار ويحلم بالذهاب إلى جيلارد، نورا التى بدأت عملها الخاص، وديفيد الذى ظلت صورته لا تفارق خيالها طوال هذه السنوات، والتى كانت واضحة كصورة فى كتاب، وهو يميل فوق هذه الورقة بينما يملؤه الندم والشوق. وكانت قد ألفت بالخطاب فى أحد الأدراج وكأنه سيحتويه ولكن الكلمات ظلت تحوم فى رأسها خلال كل دقيقة من هذا الأسبوع المشحون بالمهام والعاطفى.

قالت كارولين وهى تلمساً هداى الشال الذى ألفت دورو به فوق ذراع الأرجوحة: "إنه يود مقابلتها. إنه يود أن يكون جزءاً من حياتها ثانية بشكل ما".

قال آل: "شئ لطيف من جانبه. يا له من شخص مثابر، بعد كل هذه السنوات".

أومأت كارولين: "إنه أبوها بالرغم من كل شئ".

"وماذا أكون أنا إذن؟".

قالت كارولين: "من فضلك. إنك الوالد الذى تعرفه فويب وتحبه. ولكننى لم أخبرك بكل شئ يا آل، لم أخبرك كيف حصلت على فويب. وأعتقد أنه من الأفضل القيام بذلك". أخذ يدها فى يده.

"كارولين. لقد كنت أتسكع فى ليكسنجتون بعد رحيلك. وقد تحدثت إلى جارتك هذه، وسمعت الكثير من الحكايات. نعم، إننى لم أحصل على قدر كبير من التعليم ولكننى لست غيبياً وأعلم أن دكتور ديفيد هنرى فقد ابنته الرضيعة فى الوقت الذى تركت فيه أنت البلدة. ما أقوله إن ما حدث بينكما ليس مهماً. ليس مهماً لى، أو لنا. لذا فأنا لست أحتاج لمعرفة التفاصيل". جلست فى صمت تشاهد السيارات تندفع بسرعة على الطريق السريع.

قالت: "إنه لم يردّها. كان سيضعها فى دار - مصحة. وقد طلب منى اصطحابها إلى هناك ولكننى لم أفعل ذلك. لم يكن فى إمكانى تركها. فقد كان مكاناً بشعاً حقاً". لم يتحدث آل لبرهة. قال أخيراً: "لقد سمعت أشياء مثل هذه. لقد سمعت مثل هذه الحكايات فى الطريق. لقد كنت شجاعة يا كارولين. لقد قمت بالصواب. فمن الصعب تخيل فويب تكبر فى مكان مثل هذا".

أومأت كارولين والدموع تترقرق فى عينيها: "أنا آسفة للغاية يا آل. كان لابد لى أن أخبرك بهذا قبل سنوات".

قال: "كارولين. لا بأس. إن كل شئ على ما يرام".

سألت: "ماذا فى اعتقادك ينبغى أن أفعل؟ أعنى بشأن هذا الخطاب. هل يجب أن أرد عليه؟ أن أدعه يقابلها؟ لا أعرف، أنا فى حيرة من أمرى طوال الأسبوع. ماذا لو أخذها بعيداً عني؟".

قال ببطة: "لا أعلم ماذا أقول لك. ليس من المفترض أن أكون أنا من يتخذ هذا القرار".

كارولين راقدة لوقت طويل وهى تنصت لصوت المطر بينما ترقد يدها فوق صدره.

...

استيقظت فى الفجر بينما كان آل يسرع فوق الدرجات للاستعداد للذهاب لتغيير الزيت. انهمر المطر من الميزاب محتشداً فى بريكات وصابا فى منحدر فى مجرى. هبطت كارولين الطابق السفلى وأعدت القهوة وهى منغمسة فى أفكارها وفى غرابة المنزل الصامت حتى أنها لم تسمع فويب حتى وقفت خلفها فى مدخل المنزل.

قالت فويب: "المطر". كان روب الحمام خاصتها يتدلى حولها: "القطط والكلاب".

قالت كارولين: "نعم". فهما قد أمضيتا ساعات قبل ذلك فى تعلم هذه العبارة الاصطلاحية وفى العمل على ملصق صنعتته كارولين والذي كان عبارة عن سحب غاضبة وقطط وكلاب تقطر من السماء. كان أحد الملصقات المفضلة لفويب. "لكن يبدو أنها تمطر زرافاً وأفيالاً اليوم".

قالت فويب: "أبقاراً وأغنام. أغنام وماعز".

"هل تريدين خبزاً محمصاً".

قالت فويب: "قطة".

سألت كارولين: "ماذا تريدين؟ استخدمى عباراتك".

قالت فويب: "أريد قطة من فضلك".

"لا يمكننا الإتيان بقطة إلى المنزل".

قالت فويب: "لقد رحلت الخالة دورو. يمكننى أن أحتفظ بقطة".

شعرت كارولين بألم فى رأسها. ماذا سيحدث لها؟

"اسمعى يا فويب، إليك خبزك المحمص. سوف نتحدث فى موضوع القطة لاحقاً، حسناً؟".

أومات. كان هذا عادلاً، حيث إن ذلك هو النتيجة الطبيعية لكتمها هذا السر.

أضاف آل ضاعطاً على يدها: "ولكننى سادعمك. فأنا سادعمك أنت وفويب مهما كان القرار الذى ستتخذه".

"شكراً لك. لقد كنت قلقة للغاية".

"إنك تقلقين كثيراً بشأن الأمور الخاطئة يا كارولين".

سألت: "إن ذلك لن يؤثر على علاقتنا سلباً إذن؟ حقيقة أننى لم أخبرك عن ذلك من قبل؟".

قال: "إطلاقاً".

"حسناً، إذن".

وقف وتمدد: "حسناً. إنه يوم طويل حقاً. هل ستصعدين للأعلى؟".

"نعم، بعد دقيقة".

فتح الباب الزجاجى والذى أصدر صريراً ثم أغلقه. كانت الريح تتحرك فى المكان الذى كانت تجلس فيه.

بدأت السماء تمطر رذاذاً فى البداية إلى أن هطلت الأمطار بغزارة مثل الطبول. أوصدت كارولين المنزل -والذى صار منزلها الآن. وبالأعلى توقفت لتفقد حال فويب. كان جلدها دافئاً ورطباً؛

تحركت وتمتم فمها بكلمات غير مفهومة وبعد ذلك عادت للإبحار داخل أحلامها. همست كارولين وهى تدثرها: "طفلتى

الجميلة". وقفت لدقيقة بالحجرة التى يدوى بها صوت الأمطار،

بينما تفكر فى ضالة حجم فويب وكيف أنها لن تستطيع حمايتها فى هذا العالم بأشكال شتى. بعد ذلك ذهبت إلى غرفتها مخترقة

الشراشف الباردة إلى جوار آل. تذكرت يده فوق بشرتها وضغط لحيته فوق رقبتها، وبكاءها فى الظلام. لقد كان زوجاً عطوفاً،

وأباً محباً، رجلاً سوف يستيقظ فى صباح يوم الاثنين ويستحم ويرتدى ملابسه ويختفى فى شاحنته طوال أسبوع، واثقاً من أنها

ستتخذ القرار الصحيح فيما يخص ديفيد هنرى وخطابه. ظلت

قالت فويب مصممة: "أريد قطعة".
"لاحقاً".

قالت فويب: "قطعة".

"اللعنة". ثم هبطت راحة يد كارولين فوق الخزانة بقوة محدثة صوتاً أفزع كليهما. "لا تحدثيني بعد ذلك عن موضوع القطعة هذا. هل تسمعينني؟".

قالت فويب وهي مقبضة الجبين: "أجلس شرفة. أشاهد مطر".

"ماذا تريددين؟ استخدمى عباراتك".

"أريد أن أجلس بالشرفة لمشاهدة المطر".

"سوف تصابين بالبرد".

"أريد".

قاطعتها كارولين وهي تلوح بيدها: "حسناً. اخرجى

واجلسى بالشرفة. شاهدى المطر".

انفتح الباب وانغلق. نظرت كارولين للخارج لترى فويب جالسة بالشرفة تتأرجح بينما تحمل مظلتها مفتوحة فوق رأسها وتضع خبزاً محمصاً فوق ساقها. كانت غاضبة من نفسها لفقدانها صبرها. لم يكن الأمر له علاقة بفويب. كان كل ما فى الأمر هو أنها لم تعرف كيف ترد على خطاب ديفيد هنرى، وأنها كانت خائفة.

جمعت ألبومات الصور والصور المتناثرة التى كانت تود تصنيفها وجلست على الأريكة حيث يكون باستطاعتها مراقبة فويب المختفية وراء مظلتها بينما تتأرجح فى أرجوحة الشرفة. بعثرت الصور الحديثة على طاولة القهوة ثم أخذت ورقة وكتبت لـديفيد.

تم الاحتفال ببلوغ فويب بالأمس. كانت جميلة للغاية
وهي ترتدى ثوبها الأبيض المصنوع من قماش العُينة وذا

الشرائط الوردية. وقد غنت بشكل منفرد فى دار العبادة. وأنا سوف أرسل لك صورة لنا ونحن فى حفل الحديقة لاحقاً. من الصعب تصديقى إلى أى حد كبرت وأنا قد بدأت أقلق بشأن مستقبلها. وأعتقد أنك كنت تفكر فى الأمر ذاته حينما أعطيتنى إياها فى هذه الليلة. لقد حاربت كثيراً طوال هذه السنوات وأحياناً أصاب بالذعر مما قد يحدث، ومع ذلك -

هنا توقفت عن الكتابة مندهشة من لهفتها على كتابة الرد. لم يكن للأمر علاقة بالمال. فكل سنت كان يرسله كانت تضعه فى البنك؛ فعلى مدار السنوات الماضية ادخرت كارولين ١٥٠٠٠ دولار، كلها موضوعة فى حساب خاص بفويب. ربما كانت مجرد عادة قديمة أو لأنها ترغب فى الحفاظ على علاقتهما حية. فقد أرادت منه كارولين أن يدرك ببساطة ما فقده. فقد أرادت أن تقول لـديفيد هنرى وهي تمسكه من ياقة قميصه: "ها هي ابنتك فويب البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً وذات الابتسامة المشرقة مثل الشمس على وجهها".

وضعت قلمها وهي تفكر فى فويب وهي ترتدى ثوبها الأبيض وتغنى مع الكورس وتمسك بالقطعة. كيف يمكنها إخباره بكل هذا ثم لا تحترم رغبته فى لقائها؟ ومع ذلك فإن جاء إلى هنا بعد كل هذه السنوات - فماذا يمكن أن يحدث؟ ولم تكن تظن أنها مازالت تحبه، ولكن ربما تكون كذلك. ربما أنها مازالت غاضبة منه أيضاً، من أجل القرارات التى اتخذها، ولأنه لم يرها على حقيقتها قط. وقد أزعجها اكتشاف هذه القسوة فى قلبها. ماذا لو أنه قد تغير بالفعل؟ ولكن ماذا إن لم يكن قد تغير؟ ربما يقوم بجرح فويب كما فعل قبل ذلك، دون حتى أن يدرك ذلك.

وضعت الخطاب جانباً. وبعد ذلك دفعت بعض الفواتير وخرجت لوضعها فى صندوق البريد. كانت فويب تجلس على

عند أول توقف للسيارات عبرت كارولين الطريق. كانت الأرض مبللة وتترك قدمها آثاراً بها. شقت طريقها في الأيكة وخرجت في النهاية في مكان مفتوح. كانت أفرى هناك رابضة إلى جوار أنبوب كان يصرف الماء من التلال بالمصرف الخرساني. كانت مظلة فويب الصفراء ترقد إلى جوارها مثل العلم. ربضت إلى جوار الفتاة ولمست كتفها: "أفرى! أين فويب؟". قالت أفرى مشيرة إلى الأنبوب: "لقد ذهبت لإحضار القطة. لقد دخلت هنا".

فزعت كارولين ثم نزلت على ركبتها عند حافة الأنبوب. اندفع الماء البارد ضد ركبتها ويديها. صاحت بينما يصدى صوتها داخل الظلام: "فويب! أنا أمك يا حبيبتي، هل أنت هنا؟".

لم يكن هناك سوى الصمت. دخلت كارولين أكثر داخل الأنبوب. كان الماء بارداً حتى أن يديها أصيبتا بالتنميل على الفور. صاحت بصوت أعلى: "فويب! فويب!". أخذت تستمع بتركيز. سمعت صوتاً منخفضاً. زحفت كارولين مسافة بضع أقدام أخرى متلمسة طريقها خلال الماء البارد المتدفق غير المرئي. بعد ذلك لمست يدها قماشاً ولحماً بارداً إلى أن أصبحت فويب المرتعدة بين ذراعيها. ضمتها إليها أكثر وهي تتذكر الليلة التي حملتها فيها في دورة المياه الرطبة الأرجوانية بينما كانت تصارع لالتقاط أنفاسها.

"علينا الخروج من هنا يا حبيبتي. علينا الخروج من هنا". ولكن فويب لم تتحرك.

قالت بصوت عال وحاسم: "قطتي" وشعرت كارولين بشيء يتلوى أسفل قميص فويب والذي يصدر منه صوت مواء صغير. "إنها قطتي".

صاحت كارولين: "انسي أمر القطة". جذبت فويب برفق بالاتجاه الذي أتت منه. "تعالى يا فويب. الآن".

الدرجات الأمامية وهي تمسك بمظلتها أسفل الأمطار. أخذت كارولين تراقبها لدقيقة قبل أن تغلق الباب وتذهب إلى المطبخ لإحضار قذح آخر من القهوة. وقفت لفترة طويلة عند الباب الخلفي تحديق في أوراق الشجر والمرجة المبللة والجدول الصغير الذي يجري عند الرصيف. كان كوباً ورقياً يرقد أسفل شجيرة، ومنديلاً ورقياً اتخذ شكل كرة يوجد عند المِرَّاب. في خلال ساعات قليلة سوف يرحل آل بشاحنته مجدداً. تخيلت الأمر للحظة، هذه الحرية التي يشعر بها.

هطلت الأمطار بشكل أكثر قوة فجأة ضاربة السقف بعنف. انفتح شيء ما في قلبها، غريزة قوية جعلت كارولين تستدير وتسير في غرفة المعيشة. وقد علمت قبل أن تصل إلى الشرفة أنها ستجدها شاغرة، وهذا هو ما حدث، فكانت شاغرة وكان الطبق موضوعاً فوق الأرضية الخرسانية والأرجوحة ثابتة. لقد ذهبت فويب.

أين ذهبت؟ ذهبت كارولين إلى حافة الشرفة وفتشت في الجانب الأيسر والأيمن من الشارع بعينيها عبر الأمطار. على صوت قطار من بعيد؛ وكان الطريق إلى اليسار يتسلق تلاً يوجد بنهايته القضبان الحديدية وعلى اليمين كان الطريق ينتهي بمدخل طريق رئيسي. "حسناً فكري جيداً. فكري! أين يمكنها أن تكون قد ذهبت؟".

في الشارع كان الأطفال يلعبون وهم عراة الأقدام في البريكات. تذكرت كارولين فويب هذا الصباح وهي تقول: "أريد قطة" كما تذكرت أفرى التي كانت تقف بالحفل تمسك بقطة بين ذراعيها. لقد تذكرت فويب التي كان مأسورة بضالة حجمها والأصوات الصغيرة التي تصدرها. وحينما سألت الأطفال في الشارع عن فويب أشاروا لها عبر الطريق إلى الأيكة صغيرة الأشجار. فقد جرت القطة بعيداً وركضت فويب وراءها لإنقاذها.

قالت فويب: "قطتى".

قالت كارولين بعدما ارتفع الماء المتدفق أكثر حول ركبتيهما:
"حسناً. إنها قطتك. دعينا نذهب!".

بدأت فويب تتحرك متجهة ببطء نحو دائرة الضوء. وفى
النهاية خرجتا بينما يندفع الماء البارد حولهما فى المصرف
الخرسانى. كانت فويب مبللة بالماء ويلتصق شعرها بوجهها
وكانت القطعة مبللة كذلك. ومن بين الأشجار لمحت كارولين
منزلها، صلباً ودافئاً، مثل طيف فى عالم خطير. وقد تخيلت آل
يسافر عبر طريق بعيد كما تخيلت الراحة المألوفة لهذه الغرف
التي كانت ملكها.

وضعت كارولين ذراعها حول فويب: "لا بأس". تلوت القطعة
بينما خربشت بمخالبها الرفيعة ظهري يديها. كانت الأمطار
مازالت تهطل متخللة أوراق الشجر الداكنة.

قالت فويب: "ها هو رجل البريد".

قالت كارولين: "نعم" بينما ظلت تراقبه وهو يتسلق الشرفة
ويأخذ الفواتير ويضعها فى حقيبته الجلدية.

وقد ظل خطابها لديفيد هنرى راقداً على الطاولة غير مكتمل.
وهى قد ظلت واقفة عند الباب الخلفى تشاهد المطر وتفكر فقط فى
والد فويب، بينما كانت فويب تجول بالطرقات معرضة حياتها
للخطر. بدا ذلك فجأة وكأنه فال سين، وهى قد دعت الخوف
الذى شعرت به عند اختفاء فويب يتحول إلى غضب. إنها لن
تكتب إلى ديفيد ثانية؛ لقد أراد الكثير منها وقد أرادته متأخراً.
هبط رجل البريد الدرج ثانية بينما تبرق مظلته.

قالت وهى تمرر يدها على رأس القطعة العظمية: "نعم يا
حبيبتي. ها هو رجل البريد".

أبريل ١٩١٢

١

وقفت ككارولين بموقف الحافلات بالقرب من حافة متجر فوربس وبرادوك تشاهد الطاقة الحركية للأطفال بالملعب وصيحاتهم السعيدة التي كانت تعلو فوق صوت السيارات. وخلفهم بملعب البيسبول كان رياضيون من فرق مختلفة متنافسة يرتدون زياً أزرق وأحمر يسرون بفخر وصمت فوق العشب الجديد. كان هذا هو فصل الربيع. كان الليل على وشك الحلول. وفي خلال دقائق قليلة سوف يبدأ الآباء الجالسون فوق المقاعد الخشبية أو الواقفون وهم يدسون أيديهم في جيوبهم بالنداء على أطفالهم لاصطحابهم إلى منازلهم. وسوف تستمر مباراة البالغين حتى حلول الليل وحينما ستنتهي سيقوم اللاعبون بالتربيت على ظهور بعضهم البعض والبدء في الرحيل، متجهين إلى المقهى لتناول المشروبات وهم يضحكون بصوت عال والسعادة تغمرهم. لقد رأتهم هي وآل هناك حينما خرجا مساءً. فهما قد حضرا

الأيونية. وكان هناك علم يرفرف أعلى الرواق المعمد بفعل الريح: "أعمال المصور ديفيد هنرى".

الليلة كان الافتتاح. وسوف يحضر لإلقاء كلمة. وقد كانت يداها ترتعدان وهى تأخذ قصاصة الجريدة من جيبها. كانت تحملها طوال أسبوعين وكان قلبها يثب من مكانه فى كل مرة تلمسها فيها. وقد عدلت من رأيها حوالى عشر مرات أو أكثر. افما فائدة هذا؟

ثم فكرت فى اللحظة التالية: وما الضرر؟ إن كان آل هنا كانت لتظل بالمنزل. كانت لتدع الفرصة تفلت من بين يديها وهى تنظر إلى الساعة حتى ينتهى حفل الافتتاح ويختفى ديفيد هنرى ثانية داخل الحياة التى أتى منها. ولكن آل قد اتصل ليخبرها أنه لن يأتى الليلة، وكانت السيدة أونيل بالمنزل تعتنى بفويب، كما جاءت الحافلة فى موعدها.

كان قلب كارولين يزأر الآن. وقفت ساكنة تأخذ أنفاساً عميقة فى حين كان العالم يتحرك من حولها؛ صرخات فرامل السيارات ورائحة الوقود والحركة الهادئة لأوراق الربيع الجديدة الريشية. علت الأصوات باقتراب الناس ثم انحسرت، كانت كسرات من الحوارات تصلها مثل قصاصات الورق التى يجرفها الريح. وقد تدفقت أسراب من الناس يرتدون الحرير والكعوب العالية والبذل الداكنة الغالية فوق درجات المتحف الحجرية. كانت السماء نيلية اللون ومصابيح الشارع قد أضيئت، وكان الهواء عابقاً برائحة الليمون والنعناع الصادرة من الحفل المقام بدار العبادة على بعد بناية واحدة. أغلقت كارولين عينيها وهى تفكر فى الزيتون الأسود الذى لم تتذوقه من قبل فى حياتها حتى جاءت إلى هذه البلدة. فكرت فى الفسيفساء الجامح للمتجر الذى ذهب إلى فيه فى صباح يوم السبت فى ستريب، الخبز الطازج والزهور والفاكهة والخضراوات، وفرة من الطعام والألوان عند النهر- وهو الشيء الذى لم تكن لتراه قط لولا ديفيد هنرى

عرضاً مبكراً فى ريجنت ثم تناولا العشاء وكانا سيحتسيان مشروباً لو لم يكن آل فى عجلة من أمره وتم استدعاؤه.

وكان قد غادر الليلة مسرعاً بشاحنته عند حلول الليل مرتحلاً من كليفلاند إلى توليدو ثم كولومبس. فكانت كارولين تعلق خريطة بالطرق التى يجوبها فوق الثلاجة. منذ سنوات، فى هذه الأيام الغريبة بعد رحيل دورو استأجرت كارولين جليسة أطفال لرعاية فويب فى أثناء سفرها مع آل متمنية كسر الحاجز الذى تكون بينهما. كانت الساعات تمضى، وكانت تنام وتستيقظ وهى فاقدة الإحساس بالوقت، بينما يظل الطريق يتعرج أسفلهما للأبد مثل شريط داكن والذى يشطره نصفين الأزواء البيضاء المنتظمة. وفى النهاية كان آل بعدما يتعب إلى حد الإجهاد يوقف الشاحنة ويصطحبها إلى أحد المطاعم والذى كان لا يختلف كثيراً عن آخر واحد تركاه خلفهما فى المدينة التى مكثا بها فى اليوم السابق. إن الحياة على الطريق كانت تشبه السقوط داخل ثقب غريبة بالكون كما لو أنك قد تدخل استراحة ما فى إحدى مدن أمريكا ثم تخرج من نفس الباب لتجد نفسك بمكان آخر: نفس المراكز التجارية ونفس محطات البنزين ونفس مطاعم الوجبات السريعة ونفس حفيف الإطارات فوق الطريق. فقط الأسماء كانت مختلفة، وكذلك الضوء والوجوه. وقد رافقت آل مرتين، ولم تذهب معه قط بعدهما.

انحرفت الحافلات عند الزاوية ثم زارت لتتوقف. انفتحت الأبواب وتسقلت كارولين وجلست على المقعد الذى يوجد إلى جوار النافذة وهى تنظر إلى الأشجار التى مروا بها فوق الجسر الذى يعلو تجويفا أرضيا. وقد مرت الحافلات أمام المقبرة وشقت طريقها عبر سكوريل هيل ثم سارت بالأحياء القديمة متجهة إلى أوكلاند حيث نزلت كارولين. وقفت أمام متحف كارنيجى للحظة وهى تجمع شتات نفسها وتنظر للأعلى إلى المبنى الحجرى الضخم ذى الدرجات العديدة كالشلال والأعمدة

يتحدث أدركت كارولين أنها كانت مجرد وجه آخر بالنسبة له وسط الحشد.

كان يتحدث بثقة رخيمة رغم أن كارولين لم تركز مطلقاً فيما كان يقول. بدلاً من ذلك أخذت تدرس الحركات المألوفة ليديه والخطوط الجديدة التي ظهرت بزوايا عينيه. كان شعره أطول وأكثر كثافة وأجمل رغم اللون الرمادي الذي تسلس إليه، وقد بدا راضياً ومستقراً. فكرت في هذه الليلة - منذ عشرين عاماً مضت تقريباً - حينما استيقظ ورفع رأسه من فوق مكتبه ورآها واقفة عند باب الحجرة وحبها له يغمرها، تلك اللحظة التي كانا فيها في أضعف حالاتهما أمام بعضهما البعض. وقد أدركت شيئاً في هذه اللحظة، شيئاً أبقاها سراً، تجربة ما أو توقعا أو حلماً كان شخصياً للغاية بشكل منعه من مشاركته مع الآخرين. وقد كان ذلك صحيحاً، فما زال بإمكانها رؤية هذا: ديفيد هنري له حياة سرية. وكان الخطأ الذي ارتكبته منذ عشرين عاماً هو الاعتقاد بأن هذا السر له علاقة بحب يحمله لها.

وحينما انتهى من خطبته، علا التصفيق، بعد ذلك خرج من وراء المنصة وأخذ رشفة طويلة من الماء من كوبه وبدأ يجيب عن الأسئلة. وكانت هناك العديد من الأسئلة - والتي طرحها رجل كان يحمل دفتر ملاحظات وامرأة كهلة ذات شعر أسود منسدل والتي سألته بغضب عن شيء يخص الشكل. تسلس التوتر إلى جسد كارولين وتسارعت ضربات قلبها حتى أنها كانت تتنفس بصعوبة. انتهت الأسئلة وساد الصمت وقام ديفيد هنري بتنقية صوته بينما ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يشكر الجمهور ويستدير. شعرت كارولين بنفسها وهي تنهض في ذلك الحين، دون إرادتها تقريباً، بينما تحمل حقيبتها أمامها كالدرع. عبرت الغرفة وانضمت إلى الحشد المجتمع حوله. نظر إليها وابتسم في أدب دون التعرف عليها. انتظرت بينما كانت تزيد من الأسئلة تنهمر فوقه والتي كانت تقل عدداً بمرور اللحظات: كان أمين

وعاصفة ثلجية غير متوقعة. أخذت خطوة للأمام ثم خطوة أخرى حتى اندمجت مع الحشد.

كان للمتحف أسقف بيضاء عالية وأرضيات من البلوط والمطلية بلون ذهبي داكن براق. وقد أعطى أحدهم كارولين برنامجاً عبارة عن صفحة كريمة ثقيلة مطبوع بأعلاها اسم ديفيد هنري، وتوجد أدناها قائمة من الصور. قرأت: "كثبان الغسق"، "شجرة في القلب". سارت داخل قاعة العرض لتجد أشهر صورة قام بالتقاطها، الشاطئ المتموج الذي كان أكثر من مجرد شاطئ، منحني ورك امرأة ثم ساقها الناعمة مخبأة في الكثبان. بعد ذلك تحركت الصورة، وأصبحت على وشك أن تكون شيئاً آخر، ثم أصبحت فجأة شيئاً آخر. ظلت كارولين تحقق إليها فترة خمس عشرة دقيقة في أول مرة رأتها فيها وهي تعلم أن هذا الجسد كان لنورا هنري، متذكراً بطنها العالية التي كانت تترقرق بفعل الانقباضات وإمساكها ليدها بقوة. وطوال سنوات ظلت تواسي نفسها بالرأى المزدرى الذي كوّنته عن نورا هنري والذي يفيد بأنها كانت امرأة إمبريالية تتلذذ في إصدار الأوامر، امرأة كانت لتترك فويب بسهولة في مصحة ولكن هذه الصورة مزقت هذه الفكرة إرباً. فهذه الصور كشفت عن امرأة لم تعرفها قط.

احتشد الجمهور في الغرفة وامتلات المقاعد. جلست كارولين وهي تراقب كل شيء بجدية. انطفأت الأنوار مرة ثم اشتعلت مجدداً وفجأة على صوت التصفيق بينما كان ديفيد هنري يسير في داخل القاعة، طويلاً ومألوفاً وسميناً بعض الشيء الآن وابتسم للجمهور. وقد شعرت بالصدمة حينما اكتشفت أنه لم يعد شاباً بعد الآن. كان شعره رمادياً وكانت كتفاه منحنيتين قليلاً. سار نحو المنصة العالية وحدث في الجمهور مما جعل كارولين تحبس أنفاسها، فهو لابد أن يكون قد رآها، لابد أنه عرفها على الفور كما عرفته. قام بتنقية صوته وألقى مزحة عن الطقس. وحينما علت الضحكات حولها ثم انحسرت ونظر هو إلى ملاحظاته وبدأ

المتحف يحوم حول حافة المجموعة وهو يأمل أن يندمج ديفيد مع الجمهور بشكل جيد، ولكن في اللحظة التي لم يطرح فيها أحد أي سؤال تقدمت كارولين للأمام ووضعت يدها على ذراع ديفيد.

قالت: "ديفيد، ألا تعرفني؟".

شرع في تفحص وجهها.

همست قائلة: "هل تغير شكل كثيرًا؟".

رأته يفهم في ذلك الحين. تغير وجهه وتغيرت ملامحه وكأنما أصبحت الجاذبية أقوى فجأة. توردت رقبتة وبدأت عضلة تنبض في وجنته. شعرت كارولين بشيء غريب يحدث بالوقت وكأنما عادا إلى العيادة ثانية قبل كل هذه السنوات وكان الثلج يهطل بالخارج. ظلا يحداق في بعضهما البعض دون أن يتحدثا، وكان الغرفة وكل من بها من أشخاص قد اختفوا.

قال أخيرا بعدما أفاق من الصدمة: "كارولين". تحدث إلى الناس الذين كانوا لا يزالون يلتفون حوله: "كارولين جيل هي صديقة قديمة". رفع يده وضبط رابطة عنقه وارتسمت ابتسامة على وجهه بالرغم من أنها لم تكن بعينية: "شكراً لكم جميعاً من أجل حضوركم. الآن هلا أذنتم لنا".

بعد ذلك عبرا الغرفة. سار ديفيد إلى جوارها وهو يضع يده برفق ولكن بحزم على ظهرها وكأنها قد تختفي إن لم يمسك بها. قال وهو يدخل وراء إحدى لوحات العرض حيث كان باب من دون إطار مرئيا بالكاد في الجدار الأبيض: "تعال هنا". قادها إلى الداخل بسرعة وأغلق الباب وراءهما. كانت الحجرة عبارة عن خزانة صغيرة بها مصباح واحد يلقي الضوء على الأرفف المليئة بالطلاء والأدوات. وقفوا وجها لوجه لا يفصل بينهما سوى بضع بوصات قليلة. وقد عبقت رائحته الغرفة، ذلك العطر الجميل، وأسفله كانت هناك رائحة تتذكرها، رائحة طبية يتخللها الأدرينالين. كانت الغرفة الصغيرة حارة مما

جعلها تشعر بالدوار فجأة بينما أصبحت الرؤية لديها معتمدة بعض الشيء.

قال: "كارولين. يا إلهي. هل تعيشين هنا؟ في بتسبرج؟ لماذا لم تخبريني عن مكان إقامتك؟".

قالت ببطء: "ليس من الصعب إيجادى. هناك من استطاع العثور علىّ بالفعل"، ثم تذكرت آل وهو يسير خلال الزقاق وأدركت للمرة الأولى مدى مثابرتة. فكما كان صحيحاً أن ديفيد هنري لم يبذل كثيراً من الجهد في البحث عنها، كان صحيحاً أيضاً أنها أرادت الاختفاء دون أن يجدها أحد.

وخارج الباب كان هناك وقع أقدام تقترب أكثر ثم توقفت. أخذت تتفحص وجهه بين الضوضاء العالية للأصوات. طوال هذه السنوات وهي تفكر فيه كل يوم، ومع ذلك فهي الآن لا تستطيع أن تجد ما تقوله له.

سألت وهي تنظر إلى الباب: "ألا يجب أن تخرج لهم؟".

"إنهم سوف ينتظرون".

نظرا إلى بعضهما البعض في ذلك الحين دون أن يتحدثا. لقد احتفظت به كارولين في ذهنها طوال هذه الفترة كصورة، مائة أو ألف صورة. وفي كل صورة منها كان ديفيد هنري شاباً لا يعرف الراحة ونابضاً بالحيوية والعزم. ولكنها الآن وهي تنظر إلى عينيه الداكنتين ووجنتيه المتلثتين وشعره المصفى بعناية أدركت أنها لو كانت قد مرت به في أحد الشوارع فإنها على الأرجح لم تكن ستعرفه.

وحينما تحدث ثانية كانت نبرة صوته أرق بالرغم من أن العضلة بوجهه كانت لاتزال تتحرك. "لقد ذهبت إلى شقتك يا كارولين. في هذا اليوم بعد حفل التابين. ذهبت إلى هناك ولكنك كنت قد رحلت بالفعل. كل هذا الوقت — ثم سكت فجأة.

كان هناك طرق خفيف على الباب قبل أن يتحدث أحدهم بصوت مكتوم.

قال ديفيد: "دقيقة من فضلكم".

قالت كارولين باندفاع: "لقد كنت أحبك" ثم اندهشت من اعترافها حيث إن تلك كانت المرة الأولى التى يتحرك فيها لسانها بهذا الأمر بالرغم من أنها عاشت بهذه الحقيقة لسنوات. وقد جعلها هذا الاعتراف تشعر بالدوار ثم واصلت حديثها قائلة: "أتعرف، لقد أمضيت أوقاتاً طويلة أتخيل حياتي معك. وكان ذلك فى تلك اللحظة فى دار العبارة حينما أدركت أنك لم تفكر فى قط قبل ذلك".

كان يثنى رأسه أثناء حديثها والآن رفعها.

قال: "كنت أعلم ذلك. كنت أعلم أنك تحبيننى. فما فى اعتقادك الذى جعلنى أطلب منك مساعدتي؟ أنا آسف يا كارولين. أنا أشعر بأسف شديد منذ سنوات طويلة".

أومات والدموع فى عينيها، فكانت النسخة الشابة منها مازالت حية، مازالت تقف عند حافة حفل التأبين دون أن يشعر بها أحد أو يراها أحد. لقد شعرت بالغضب - بل كانت لاتزال تشعر به - لأنه لم يرها حقاً فى ذلك الحين. وبالرغم من أنه لم يعرفها على الإطلاق فقد طلب منها أن تأخذ ابنته بعيداً.

سأل: "هل أنت سعيدة؟ هل كنت سعيدة يا كارولين؟ ماذا عن فويب، هل كانت سعيدة هى الأخرى؟".

وقد جردها سؤاله هذا ونبرة العطف فى صوته من أسلحتها. فكرت فى فويب التى صارت كى تتعلم كيف تكتب الحروف وكى تربط رباط حذائها. فويب، تلعب بسعادة فى الفناء الخلفى فى أثناء قيام كارولين بإجراء مكالمات هاتفية تلو الأخرى من أجل تأمين تعليم لها. فويب، تضع ذراعيها الناعمتين حول رقبة كارولين دون أى سبب على الإطلاق وهى تقول: "أنا أحبك يا أمى". كما فكرت فى آل الذى يرحل كثيراً ولكن الذى يدخل إلى المنزل فى نهاية أسبوع طويل وهو يحمل الزهور أو حقيبة من الفطائر الطازجة أو هدية صغيرة، شيئاً من أجلها دوماً وشيئاً من

أجل فويب. حينما كانت تعمل بعيادة ديفيد هنرى كانت صغيرة للغاية ووحيدة وساذجة حتى أنها تخيلت نفسها وكأنها وعاء على أحدهم ملؤه بالحب. ولكن لم يكن الأمر كذلك. لقد كان الحب بداخلها طوال الوقت والذى كان يتجدد فقط عند منحه للآخرين.

سألت أخيراً وهى تنظر له مباشرة فى عينيه: "هل تريد أن تعرف حقاً؟ فأنت لم ترأسنى قط فيما عدا هذه المرة يا ديفيد. إنك لم تسأل قط عن حياتنا طوال سنوات".

وبينما كانت تتحدث أدركت السبب الذى أتت من أجله - إنها لم تأت لأنها تحبه أو لإخلاصها للماضى أو حتى لإحساسها بالذنب. لقد أتت لأنها غاضبة وترغب فى وضع الأمور فى نصابها الصحيح.

"إنك لم ترغب أن تعلم لسنوات من أنا. وكيف حال فويب. إنك لم تلق لنا بالاً على الإطلاق، أليس كذلك؟ وبعد ذلك، هذا الخطاب الأخير. هذا الذى لم أرد عليه مطلقاً. فأنت فجأة أردت استعادتها".

ضحك ديفيد ضحكة صغيرة ومفاجئة. "هل هكذا فسرت خطابي؟ هل هذا هو السبب الذى جعلك تتوقفين عن الكتابة لى؟".

"كيف كان يمكننى أن أفسر هذا؟".

هز رأسه ببطء. "كارولين، لقد طلبت منك أن تعطيني عنوانك. مرة بعد أخرى - فى كل مرة كنت أرسل لك فيها مالا. وفى ذلك الخطاب الأخير طلبت منك ببساطة أن تدعيني أدخل حياتك مرة أخرى. ماذا كان يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك؟ اسمعى، أعلم أنك لا تدركين هذا ولكننى احتفظت بكل خطاب أرسلته لى. وحينما توقفت عن الكتابة شعرت وكأنك أغلقت الباب فى وجهي".

فكرت كارولين في خطاباتها، جميع اعترافاتها القلبية التي كانت تتدفق فوق الورق. ولم يكن في إمكانها تذكر ما كتبتة: تفاصيل عن حياة فويب، آمالها وأحلامها ومخاوفها. سألت: "أين هي؟ أين تحتفظ بخطاباتي؟". بدأ مندهشاً. "في خزانة غرفتي المظلمة. في الدرج السفلى. وهي موصدة دوماً، لماذا؟".

قالت كارولين: "أنا لم أعتقد حتى أنك قرأتها. كنت أشعر أنني أتحدث إلى الفراغ. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أشعر بكل هذه الحرية. فقد شعرت أنه باستطاعتي أن أقول أى شيء". وضع ديفيد يده فوق وجنته مدكاً إياها، وهي الحركة التي تذكرت استخدامها لها حينما يكون متعباً أو محبطاً. "لقد قرأتها. في البداية كنت أرغم نفسي على قراءتها ولكن فيما بعد أردت أن أعلم ماذا كان يحدث، حتى بالرغم من إيلاام ذلك. فأنت قد أعطيتني لمحات من حياة فويب، وقصاصات صغيرة من حياتكما. لقد كنت أطلع لمعرفة هذه الأخبار".

لم تجب متذكراً الشعور بالرضا الذي ساورها في ذلك اليوم المطير حينما أرسلت فويب إلى غرفتها مع قطتها لتستبدل ملابسها المبللة في حين وقفت هي بغرفة المعيشة تمزق خطابها إلى أربعة أجزاء ثم ثمانية ثم ستة عشر وتلقيه مثل النشار في سلة المهملات. لقد شعرت بالرضا والسعادة لإغلاقها هذا الموضوع. لقد ساورتها هذه المشاعر غير مكرثة بل ومتجاهلة بما كان يشعر به ديفيد هنرى في ذلك الحين.

قالت: "أنا لم أكن أستطيع فقدها. لقد ظللت غاضبة منك لفترة طويلة، لقد كنت خائفة من أنك إذا رأيتها فإنك ستأخذها بعيداً عني. وهذا هو السبب الذي جعلني أتوقف عن الكتابة لك".

"أنا لم أنو القيام بذلك إطلاقاً".

أجابته كارولين: "أنت لم تنو أن تقوم بكل هذا ولكنه حدث بالرغم من ذلك".

تنهد ديفيد هنرى وتخيلته في شقتها المهجورة يسير من حجرة إلى حجرة بينما يدرك أنها رحلت للأبد. كان قد قال لها: "أخبريني بما تنوين القيام به. هذا هو كل ما أطلب منك القيام به".

قالت برقة: "إن لم أكن قد أخذتها، ربما كنت قد اتخذت قراراً مختلفاً".

قال وهو ينظر إليها مباشرة: "أنا لم أمنعك". كان صوته قاسياً. "كان يمكنني أن أمنعك. لقد كنت ترتدين معطفاً أحمر في ذلك اليوم في حفل التأبين. لقد رأيتك ثم أخذت أراقبك وأنت ترحلين بسيارتك".

شعرت كارولين بأنها مستنزفة القوة فجأة. لم تكن تعلم ماذا كانت تريد من هذا اللقاء ولكن حينما تخيلت هذا الحوار، لم تتخيل هذا الجدل: حزنه وغضبه، وغضبها هي.

قالت: "لقد رأيتني؟".

"لقد ذهبت مباشرة إلى شقتك بعد ذلك. لقد توقعت أن تكوني هناك".

أغلقت كارولين عينيها. كانت تقود تجاه الطريق السريع في ذلك الحين، تجاه هذا المكان وهذه الحياة. وربما يكون ديفيد قد ذهب إليها بعد دقائق من رحيلها أو بعد ساعة. إلى أى مدى تغيرت حياتها في هذه اللحظة.

قال ديفيد وهو ينقى صوته: "إنك لم تجيبيني. هل كنت سعيدة يا كارولين؟ هل كانت فويب سعيدة؟ هل هي بصحة جيدة؟ ماذا عن قلبها؟".

قالت كارولين: "إن قلبها بخير"، ثم شرعت في التفكير في تلك السنوات الأولى من القلق المستمر إزاء صحة فويب - كل الرحلات إلى الأطباء وأطباء الأسنان والقلب والأنف والأذن

والحنجرة. ولكنها كبرت، وكانت وافرة الصحة؛ لقد كانت تقذف بالكرة في السلة في ممر السيارة وتحب الرقص. "إن الكتب التي قرأتها حينما كانت صغيرة تنبأت جميعاً بأنها ستكون ميتة قبل أن تصل إلى مثل هذا العمر ولكنها بخير - لقد كانت محظوظة كما أعتقد؛ فهي لم تصب قط بأى مشكلة قلبية. إنها تحب الغناء. وهي لديها قطعة تدعى رين. وهي تتعلم الآن كيف تغزل. وهذا هو ما تقوم به الآن، تغزل بالمنزل". هزت كارولين رأسها. "إنها تذهب إلى المدرسة. مدرسة عامة مع الأطفال الآخرين. ولقد حاربت كى يتم قبولها بهذه المدرسة. والآن بعد أن نضجت لا أدرى ماذا سوف يحدث. إن لدى وظيفة جيدة. أنا أعمل بدوام جزئى فى عيادة خاصة داخل مستشفى. وزوجى آل يرتحل كثيراً. وتذهب فويب إلى دار للفتيات كل يوم، ولديها الكثير من الأصدقاء هناك. كما أنها تتعلم كيف تقوم بالأعمال المكتبية كذلك. ماذا يمكننى أن أخبرك أيضاً؟ لقد فوت على نفسك الكثير من الألم ولكنك فوت الكثير من البهجة كذلك يا ديفيد".

قال: "أعرف ذلك. أكثر مما تعتقدين".

سألت بعدما شعرت بالصدمة ثانية من مدى تقدمه فى العمر وهي تحاول استيعاب حقيقة وجوده هنا إلى جوارها فى هذه الحجرة الصغيرة بعد كل هذه السنوات: "ماذا عنك؟ هل كنت سعيداً؟ هل كانت نورا سعيدة؟ ماذا عن بول؟".

قال ببطء: "لا أعلم. كنت سعيداً مثلى مثل أى شخص آخر كما أعتقد. إن بول ذكى للغاية. يمكنه القيام بأى شىء. إن ما يريده هو الذهاب إلى جيلارد للعزف على الجيتار. وأنا أعتقد أنه يرتكب خطأ ولكن نورا تخالفنى الرأى. إن هذا الأمر يسبب الكثير من التوتر فى منزلنا".

فكرت كارولين فى فويب وكيف أنها تحب التنظيف والتنظيم، كيف كانت تغنى بينها وبين نفسها أثناء غسيلها

للأطباق أو تنظيفها للأرضيات، كيف كانت تحب الموسيقى من كل قلبها وكيف أنها لن تحظى قط بالفرصة للعزف على الجيتار. سألت: "ماذا عن نورا؟". قال ديفيد: "إنها تمتلك وكالة سفريات. وهي تسافر كثيراً مثل زوجك".

كررت كارولين: "وكالة سفريات؟ نورا؟". "أعلم. لقد كنت متفاجئاً كذلك. ولكنها تملكها منذ سنوات الآن، وهي بارعة فى عملها حقاً".

استدار مقبض الباب وانفتح بضع بوصات. دس منظم الحفل رأسه بالداخل وعيناه الزرقاوان تبرقان من فرط الفضول والقلق. مرر يده فى شعره بتوتر وقال: "دكتور هنرى؟ كما تعلم، إن هناك الكثير من الناس بالخارج. إنهم ينتظرون منك الاندماج معهم. هل كل شىء ما يرام؟".

نظر ديفيد إلى كارولين. كان متردداً ولكنه كان نافذ الصبر كذلك وعلمت كارولين أنه فى لحظة سوف يستدير ويضبط رابطة عنقه ويرحل. شىء ما كان يحدث طوال سنوات كان يحدث فى هذه اللحظة. قالت بينها وبين نفسها: "لا تذهب"، ولكن المنظم نقى صوته وضحك بطريقة لا تنم عن الراحة. قال ديفيد: "لا مشكلة. سوف آتى...". وجه حديثه لكارولين وهو يمسك بمعصمها "إنك سوف تنتظرين، أليس كذلك؟".

قالت: "يجب أن أعود إلى المنزل. إن فويب تنتظرنى".

"من فضلك". توقف خارج الباب. تقابلت عيناها ورأت هى نفس نظرة الحزن والعاطفة التى رأتها قبل زمن طويل حينما كانا أصغر كثيراً. "إن هناك الكثير الذى أود التحدث بشأنه، وقد مضى وقت طويل على لقائنا الأخير. من فضلك أخبرينى أنك ستنتظرين؟ أنا لن أغيب طويلاً". شعرت بالغثيان فى معدتها وشعور بالتململ لم تستطع تحديد مكانه، ولكنها أومأت برفق وابتسم ديفيد هنرى. "جيد. سوف نتناول العشاء معاً، حسناً؟

وفى خلال لحظات خرجت كارولين وهرعت أسفل الدرج واختفت فى ظلمة الليل.

كان هذا هو فصل الربيع، وكان الهواء بارداً ورطباً، ولم تستطع كارولين من فرط ما تشعر به من توتر أن تنتظر الحافلة. بدلاً من ذلك سارت بسرعة عابرة بناية وراء الأخرى، متجاهلة زحمة السير أو الأشخاص العابرين بها أو حتى الخطر البسيط الذى يتضمنه سيرها وحدها فى مثل هذه الساعة. أخذت الذكريات تنهال عليها فى شكل دوامات ولمحات، تفاصيل غريبة غير مترابطة. كانت هناك رقعة من الشعر الأسود تغطى أذنه اليمنى، وكانت أظافره مقلمة بعناية. كانت تتذكر تلك الأصابع المربعة ولكن صوته قد تغير وأصبح أجش. كان الأمر مربكاً: الصور التى احتفظت بها فى ذهنها طوال هذا الوقت تبدلت تماماً لحظة رؤيتها له.

وماذا عنها هى؟ كيف بدت له الليلة؟ كيف رأى - وكيف ظل يرى - كارولين لورين جيل؟ ماذا رأى من قلبها الخفى؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق. وقد كانت تعلم ذلك أيضاً، كانت تعلمه منذ سنوات، منذ اللحظة التى وقفت فيها خارج دار العبادة، حينما استبعدتها دائرة حياته ولم تتح لها دخولها، حينما استدارت ورحلت. فى مكان ما عميق بقلبها، ظلت كارولين تحتفظ بالاعتقاد الرومانسى السخيف أن ديفيد هنرى عرفها كما لم يعرف أحداً. ولكن هذا لم يكن صحيحاً. إنه حتى لم يرها.

سارت عبر خمسة أبنية. ثم بدأت السماء تمطر. أصبح وجهها مبللاً وكذلك معطفها وحذاءها. وقد بدا لها أن هذه الليلة الباردة تسلت داخلها، وتغلغلت أسفل جلدها. كانت قد اقتربت من المنعطف حينما توقف بالمحطة، وجاءت الحافلة رقم ٦١ ب فركضت للحاق بها، ثم أبعدت شعرها عن وجهها وجلست على المقعد البلاستيكي المصدوع. كانت المصابيح والأضواء النيون والكشافات الأمامية الحمراء الضبابية للسيارات تتحرك عبر

كل هذا الحديث الشيق - لابد لنا أن نخوضه الليلة. ولكنى كنت مخطئاً طوال هذه السنوات الماضية. أنا أريد أكثر من مجرد قصصات.

كانت يده تستقر فوق ذراعها وكانا يسيران تجاه الحشد ثانية. لم تستطع كارولين التحدث. كان الناس ينظرون إليهما مباشرة فى فضول وهم يهمسون. وضعت يدها فى حقيبتها وأعطت ديفيد المظروف الذى أعدته والذى يحتوى على آخر صور لفويب. أخذه ديفيد ونظر إليها فى عينيها وأوماً بجديّة ثم أخذته امرأة نحيلة ترتدى ثوباً أسود من ذراعها. كانت تلك هى المرأة الجميلة والعدوانية بعض الشيء من الجمهور التى قامت الآن بتوجيه سؤال آخر عن الشكل.

وقفت كارولين فى مكانها لبضع دقائق تراقبه وهو يشير إلى صورة لما يشبه فروع شجرة ويتحدث إلى المرأة التى ترتدى الثوب الأسود. لقد كان وسيماً ولايزال. وقد نظر باتجاه كارولين مرتين وبعد رؤيتها أعاد تركيز انتباهه على الصورة. لقد قال لها: "انتظرى. من فضلك انتظرى". وقد توقع منها الانتظار. عاودها الشعور بالغثيان فى معدتها ثانية. ولكنها لم تكن ترغب فى الانتظار. لقد أمضت الكثير من حياتها وهى شابة تنتظر - تنتظر التقدير والمغامرة والحب. ولم تبدأ حياتها الحقيقية حتى استدارت وهى تحمل فويب بين ذراعيها وتركت المصححة فى لويسفيل، لم تبدأ حياتها حتى حزمت أغراضها ورحلت بعيداً. إن الانتظار لم ينفعها بشيء.

وقف ديفيد محنياً رأسه وهو يومئ وينصت إلى المرأة ذات الثوب الأسود بينما يقبض على الخطاب بين يديه وراء ظهره. وبينما كانت تراقبه وضع الخطاب فى جيبه باستخفاف وكأنه يحتوى على شيء تافه وغير محبوب إلى نفسه - فاتورة مرفق ما، أو غرامة انتظار.

مفتوحة وكان بإمكانها رؤية حجرة الطعام بوضوح عبر النوافذ. الذبغة تبرق فوق الطاولة حيث قامت فويب بنثر غزلها. كانت منحنية فوق النول تحرك الوشيعة للأمام والخلف بهدوء وجدية. كانت القطة رين ترقد فوق ساقها مثل كرة برتقالية زغبية. شرعت كارولين فى مراقبتها والقلق يملؤها من مدى الضعف الذى بدت به، من مدى ضآلتها فى هذا العالم الذى يتحرك بغموض بالظلام خلفها. قطبت جبينها محاولة تذكر هذه اللحظة - إدارة يدها للقطعة البلاستيكية الصغيرة وانسدال الستائر. ثم لمحت ظلاً يتحرك داخل المنزل، ظلاً يتحرك خلف الأبواب الفرنسية تجاه غرفة المعيشة.

حبست كارولين أنفاسها وأجفلت ولكنها لم تصب بالذعر، ثم أصبح الظل رجلاً فاسترخت. إنه لم يكن شخصاً غريباً وإنما آل فقط عاد إلى المنزل مبكراً من رحلاته وكان يتسكع بالمنزل. كانت مندهشة وسعيدة فى الوقت ذاته؛ لقد كان آل يذهب فى مهمتين فى المرة الواحدة وأحياناً ما يتغيب لأسبوعين. ولكن ها هو ذا قد عاد إلى المنزل. لقد قام بفتح الستائر مانحاً إياها لحظة الاستمتاع تلك؛ هذه اللحظة من حياتها، التى احتوتها هذه الجدران الطوبية وتخللتها خزائن أدوات المائدة التى أعادت ترتيبها والشجرة التى كانت تنوى اقتلاعها وطبقات الزجاج والطلاء التى ظلت تغسلها برضا بالغ طوال هذه السنوات. رفعت فويب عينيها من فوق غزلها وبدأت تحديق خارج النافذة للمرجة المبللة السوداء بينما تمرر يدها على ظهر قطتها الناعم. سار آل عبر الغرفة وهو يمسك كوباً من القهوة بإحدى يديه. توقف إلى جوارها وأشار إلى السجادة التى كانت تغزلها بكوبه.

كانت الأمطار تهطل بغزارة الآن وكان شعرها مبللاً ولكن كارولين لم تتحرك. فال فراغ الكثيب والمفرع الذى تراءى لها خارج نافذة الحافة اختفى الآن برؤيتها لأسرتها. اصطدمت حبات المطر بوجنتيها مكونة خطوطاً من الماء على النوافذ

النافذة. كان هواء فصل الربيع بارداً ورطباً على وجهها. تحركت الحافلة بتثاقل خلال الشوارع وهى تقلل من السرعة بوصولها إلى المتنزه والتل الطويل المنخفض.

هبطت من الحافلة فى منتصف ميدان ريچينت. تعالت الصيحات من الحانة أثناء مرورها، وعبر الزجاج لمحت ظلال اللاعبين الذين كانت قد رأتهم مبكراً، كانوا يمسكون بالأكواب فى أيديهم الآن بينما يدفعون قبضاتهم فى الهواء أثناء التفافهم حول التلفاز. وقد ألقى الضوء من جهاز آلة الفوتوغراف الآلى بشرائط من ضوء النيون الأزرق فوق ذراع النادلة بينما كانت تستدير من أمام الطاولة الأقرب إلى النافذة. توقفت كارولين وقد تبدد الأدرينالين الجامح الذى نتج عن لقائها بديفيد هنرى داخل هذه الليلة الربيعية مثل الضباب. ساورها شعور حاد بالعزلة، فالأشخاص داخل الحانة كان يجمعهم هدف واضح، والناس المارون بها على الرصيف تأخذهم حياتهم إلى أماكن لن تستطيع قط معرفتها.

اغرورقت عيناها بالدموع. ومضت شاشة التلفاز وعلت صيحة أخرى من وراء الزجاج. مضت كارولين قدماً مصطدمة بامرأة تحمل حقيبة ورقية من البقالة ومارة فوق قدر متبق من طعام سريع تركه أحدهم على الرصيف. سارت أسفل التل ثم صعدت الزقاق متجهة إلى منزلها بينما انعكست أضواء المدينة فوق تلك الأماكن المألوفة لها: منزل عائلة أونيل حيث كان ضوء ذهبى براق ينعكس فوق شجرة القرائيا؛ منزل عائلة سولارد وحديقته المظلمة الواسعة؛ وأخيراً مرجة منزل عائلة مارجولى التى كانت زهور القمر الجميلة والمبعثرة تنمو بها فى فصل الصيف. منازل مصطفة مثل العديد من الدرجات عبر تل ثم فى النهاية أتى منزلها.

توقفت فى الزقاق وهى تنظر إلى منزلها الطويل والمكتنز. كانت واثقة من أنها قامت بإسدال الستائر ولكنها الآن كانت

ومتقطرة فوق معطفها الصوفى الجميل. خلعت قفازيها وبحثت في حقيبتها عن مفاتيحها ثم أدركت أن الباب لن يكون موصداً. وفي ظلام المرجة بينما كانت السيارات اللانهائية تمر بالطريق السريع وأضواؤها الأمامية تسلط الضوء على شجيرات الليل الكثيفة التي قامت بزراعتها منذ عدة سنوات مضت، وقفت كارولين ساكنة طوال لحظة أخرى. كانت تلك هي حياتها. ليست الحياة التي حلمت بها قبل ذلك، ليست الحياة التي أرادت أن تخلقها وهي شابة، ولكن الحياة التي كانت تعيشها بكل ما تحتويه من تعقيدات. كانت تلك هي حياتها، الحياة التي أسستها بحرص وعناية وكانت حياة سعيدة. أغلقت حقيبتها في ذلك الحين. تسلقت الدرجات. دفعت الباب الخلفى ودخلت إلى المنزل.

٢

كانت تعمل أستاذة لتاريخ الفن في كارنيجي ميلون وقد طرحت عليه سؤالاً عن الشكل. أرادت أن تعلم "ما هو الجمال؟" وهي تضع يدها على ذراعه وتقوده عبر الأرضيات البلوط اللامعة بين الجدران البيضاء حيث كانت صورته معلقة. "هل الجمال يكمن في الشكل؟ هل المعنى يكمن كذلك في الشكل؟". استدارت واستدار شعرها معها؛ دفعته وراء أذنها بيد واحدة. حدق فيها، في الجزء الأبيض من شعرها، في وجهها الشاحب الناعم.

قال برفق وهو ينظر مجدداً إلى حيث كانت كارولين تتسكع عند صورة لنورا على الشاطئ مما بث فيه شعوراً بالراحة "تقاطعات". وبعدما بذل بعض الجهد استدار إلى الأستاذة قائلاً: "نقطة التقاء. هذا هو ما أسعى إليه. أنا لا أتبع نهجاً نظرياً. أنا أقوم بتصوير ما يجذب انتباهي".

تذكر برودة هواء فصل الربيع الجديد والسماء المشمسة وركل بول أسفل ملاءات حمالته. تذكر أنه تركها ترحل.

تمتم قائلاً مقاطعاً المتحدث: "أستميحك عذراً". سار عبر الأرضيات صلبة الأخشاب إلى ردهة المدخل الرئيسى حيث توقف واستدار لمسح غرفة العرض والبحث داخل الحشد. فبعد إيجاده لها بعد كل هذا الوقت لا يمكن له أن يفقدها ثانية.

ولكنها رحلت. خلف النوافذ كانت أضواء المدينة تبرق في إغراء والتي كانت متناثرة مثل الترتر فوق القلال المتموجة. في مكان ما، هنا أو على مقربة من هنا، قامت كارولين جيل بغسل الأطباق ومسح الأرضيات والوقوف خارج نافذة معتمدة. الخسارة والحزن: شعوران اكتسحاه كالوجة، واللذان كانا من القوة حتى أنه اتكأ ضد الجدار وأحنى رأسه وهو يقاوم شعوراً قوياً بالغثيان. كانت مشاعره قوية وغير متناسبة. لقد استطاع أن يعيش بدون كارولين جيل لسنوات عديدة بالرغم من كل شيء. أخذ نفساً عميقاً وبدأ يراجع الجدول الدورى فى ذهنه - فضة، الكادميوم، الإنديوم، القصدير - ولكن كان ذلك بدون جدوى ولم يساعده على استعادة توازنه.

أدخل ديفيد يده فى جيبيه وأخذ المظروف الذى أعطته إياه؛ ربما تكون قد تركت عنواناً أو رقم هاتف. كان بداخله صورتان صلبتان ضعيفتا اللون ويتخللهما اللون الرمادى. الأولى كانت لكارولين وهى تبتسم وتضع ذراعها حول فتاة إلى جوارها والتي كانت ترتدى ثوباً أزرق منخفض الخصر ذا حزام. كانتا بالخارج تقفان أمام جدار طوبى لأحد المنازل بينما تغمرهما أشعة الشمس. كانت الفتاة قوية؛ ويلائمها الثوب ولكنه لم يجعلها تبدو جميلة. وقد كان شعرها منسدلاً حول وجهها مثل الأمواج الناعمة وكانت تبتسم ابتسامة مشرقة بينما كانت عيناها شبه مغلقتين من فرط سعادتها بالكاميرا أو ممن يقف وراءها. كان وجهها عريضاً ورقيقاً وربما تكون زاوية الكاميرا هى التى

قالت: "لا يوجد من يعيش خارج النظرية!". ولكنها سكنت فى ذلك الحين وقد ضاقت عيناها وعضت على حافة شفتها قليلاً. لم يكن فى استطاعته رؤية أسنانها، ولكنه تخيلها، مستقيمة وبيضاء ومتساوية. كانت الحجرة تدور من حوله والأصوات تعلو وتنخفض؛ وفى لحظة صمت أدرك أن ضربات قلبه كانت تتسارع وأنه كان لا يزال يمسك بالخطاب الذى أعطته إياه كارولين. نظر إلى الغرفة مرة أخرى - نعم، جيد، إنها لا تزال هناك - ثم دسه بحرص داخل جيب قميصه؛ بينما كانت يدها ترتعدان قليلاً.

قالت المرأة ذات الشعر الأسود إن اسمها كان لى. كانت هى الناقدة الزائرة للمعرض. أوماً ديفيد وهو لا يركز كلية فيما كانت تقوله. هل كانت كارولين تعيش فى بتسبرج أم أنها رأت إعلان الحفل وجاءت من مكان آخر، من مورجان تاون أو كولومبس أو فيلادلفيا؟ لقد أرسلت له بخطابات من كل هذه الأماكن وبعد ذلك تقدمت للأمام من بين هذا الجمهور المجهول وهى تبدو كسابق كعدها فيما عدا أنها كانت أكبر وأكثر أناقة وأكثر صلابة بشكل ما، فالرقة التى كانت تتسم بها وهى شابة قد ولت بدون رجعة. "ديفيد، ألا تعرفنى؟" ولكنه عرفها حتى بالرغم من عدم رغبته فى القيام بذلك.

مسح الغرفة بعينه بحثاً عنها ثانية ولكنه لم يرها وبدأت أول خيوط الذعر الصغيرة تنتشر بداخله مثل شعيرات الفطر المخبأة فى زند الخشب. لقد أتت كل هذه المسافة؛ لقد قالت إنها سوف تبقى؛ بالتأكيد هى لم ترحل. مر أحدهم بصينية من المشروبات فأخذ هو واحداً. كان المنظم هناك يقدمه إلى رعاة الحفل. لى ديفيد شتات نفسه حتى يستطيع التحدث بذكاء ولكنه كان لا يزال يفكر فى كارولين متمنياً أن يلحقها فى ركن الغرفة. لقد رحل عن منزلها وهو موقن أنها سوف تنتظر ولكنه الآن تذكر كارولين وهى تقف فى هذا الصباح من الماضى البعيد فى حفل التابين وراء الحاضرين وهى ترتدى معطفها الأحمر.

كانت تدور حول هذه اللحظة - طفلة حديثة الولادة بين ذراعيه والتي تخلى عنها. إن الأمر يبدو كأنه قد التقط صوراً طوال هذه السنوات في محاولة منه لإبراز لحظة أخرى وإكسابها أهمية مماثلة. أراد تجربة ذلك وإيقاف العالم المحموم وتدفق الأحداث ولكن بالطبع كان ذلك مستحيلاً.

استمر في السير في توتر وهو يتمتم بينه وبين نفسه من حين لآخر. ما كان قد سكن داخل قلبه طوال هذا الوقت تحرك ثانية بلقائه كارولين. فكر في نورا، والتي أصبحت امرأة قوية وذات اكتفاء ذاتي، تحقق مكاسب كبيرة بثقة بالغة والتي كانت تعود من عشاءات العمل وآثار الضحك والمطر والنصر والنجاح لاتزال على وجهها. وقد أقامت أكثر من علاقة غير شرعية على مدار السنوات - لقد كان يعلم هذا - وقد كبرت أسرارها مثل أسرارها متحولة إلى جدار يفصل بينهما. وفي بعض الأحيان أثناء المساء كان يلمح في لحظة عابرة المرأة التي تزوجها: نورا وهي تحمل بول الرضيع بين ذراعيها، نورا ترتدى مثزراً بينما شفتاها ملطختان بالتوت؛ نورا كصاحبة وكالة سفريات ناجحة تسهر حتى وقت متأخر لموازنة حساباتها البنكية. ولكنها كانت تغير هذه الشخصيات كما يغير الثعبان جلده، وكانا يعيشان معاً الآن مثل غريبين في بيتهما الواسع.

وكان بول يعاني بسببهما، كان يعرف هذا. لقد حاول ديفيد جاهداً أن يمنحه كل شيء. لقد حاول أن يكون أباً جيداً. كانا يجمعان الأحافير معاً وينظمانها ويصنّفانها ويعرضانها بغرفة المعيشة. وكان يأخذ بول للصيد كلما أتيحت له الفرصة. ولكن بغض النظر عن الجهد المضني الذي كان يبذله لجعل حياة بول يسيرة وسهلة كانت حقيقة أن ديفيد قد أسس هذه الحياة على كذبة مازالت قائمة - لقد حاول حماية ابنه من الأشياء التي عانى هو منها حينما كان طفلاً: الفقر والقلق والحزن. ومع ذلك فإن جهوده تلك قد أسفرت عن خسائر لم يتوقعها ديفيد قط. لقد

جعلت عينيها تبدوان منحرفتين للأعلى بعض الشيء. كتبت كارولين على ظهر الصورة "قريب في عيد مولدها السادس عشر".

وضع الصورة الأولى خلف الثانية والتي كانت أكثر حداثة. ها هي كانت فويب مجدداً تلعب كرة السلة. كانت في وضعية التسديد بينما كعباها يرتفعان فوق الأسفلت. كرة السلة، تلك الرياضة التي رفض بول ممارستها. نظر ديفيد إلى خلف الصورة. وتفحص المظروف مرة أخرى ولكن لم يكن يوجد عنوان. احتسى مشروبه ووضع كأسه على الطاولة ذات العلوية الرخامية. كان المعرض لايزال مزدحماً ويعلو به صوت الضوضاء. توقف ديفيد عند المدخل وراقب للحظة في شروود بالغ وكأن هذا المشهد هو شيء تعثر به مصادفة، شيء ليس له علاقة به. بعد ذلك استدار وخرج إلى الهواء البارد الذي جعلته الأمطار رطباً. دس مظروف كارولين بصورتيه في جيب الصدر ودون أن يعرف إلى أين كان متوجهاً. بدأ يسير.

أوكلاند، هذا الحى الذى عاش فيه حينما كان بالجامعة، أصابه التغيير ومع ذلك فهو لم يتغير. ملعب فوربس - حيث أمضى الكثير من فترات بعد الظهيرة وهو يقفز عالياً فى المدرج المكشوف والشمس تغمره وهو يهتف حينما تدور المضارب فى الهواء وتعلو الكرات فوق الحقول الخضراء البراقة - كان قد اختفى. فقد كان مبنى جامعياً جديداً - مربعاً ومتبلداً - يعلو فى الهواء حيث زارت فيما سبق صيحات وهتافات الآلاف. توقف واستدار ناحية محراب العلم هذا - ذلك المنليث الرمادى النحيف والذى يشبه الظل داخل سماء الليل - لاستعادة وجهته.

مضى قدماً عبر شوارع المدينة المظلمة ماراً بأشخاص بزغوا من داخل مطاعم أو مسارح. وهو لم يفكر أين كان ذاهباً، بالرغم من أنه كان يعلم. لقد رأى أنه ظل مجمداً طوال هذه السنوات داخل هذه اللحظة التى أعطى فيها ابنته لكارولين جيل. إن حياته

كبرت الكذبة بينهما مثل الصخرة مجبرة إياهما على النمو بشكل شاذ مثل الأشجار الملتفة حول جلمود.

التقت الشوارع في زوايا غريبة حينما ضاقت المدينة إلى المكان الذي كان يتلاقى فيه النهران العظيمان، المونونجاليا والجهنى حيث يكون مجمعهما في الأوهايو، والذي يسافر إلى كنتاكي حتى يصب في المسيسيبي ويختفى. وصل إلى حافة هذا المكان. حينما كان لا يزال شاباً، طالباً، كان ديفيد هنرى يأتى إلى هنا كثيراً، ويقف عند حافة هذه الأرض ويشاهد هذا المكان الذى يلتقى فيه النهران. فمرات ومرات وقف هنا وأصابع قدميه معلقة فوق حافة النهر السوداء متسائلاً عن مدى برودة هذه المياه وإن كان سيصمد فترة كافية حتى يستطيع السباحة إلى الشاطئ إن سقط بها. والآن - كما كان الحال دوماً - تخلل الهواء قماش حلته ونظر للأسفل ليرى النهر يتحرك بين حافتي حدائه. اقترب بوصة أخرى مغيراً وضعيته. تسلل خيط من الندم عبر شعوره بالوهن: كانت تلك لتصبح صورة جيدة ولكنه ترك كاميرته فى أمانات الفندق.

فأسفل مسافة كبيرة كان الماء يدور ويزبد ضد الدعائم الأسمنتية ثم يرتد ثانية. عند قوس قدمه، كان هذا هو المكان الذى شعر فيه ديفيد بضغط الحافة الخرسانية. إن سقط أو قفز ولم يستطع السباحة إلى بر الأمان فإنهم سوف يجدون هذه الأشياء: ساعة محفور على ظهرها اسم والده، محفظته التى تحتوى على ٢٠٠ دولار، رخصة قيادة، حصوة من الجدول الذى كان يوجد إلى جوار منزل طفولته والتى ظل يحملها معه طوال ثلاثين عاماً. والصورتان داخل المظروف اللتان كانتا مدسوستان بالجيب الذى يعلو قلبه.

إن جنازته سوف تكون مزدحمة. وسوف يمتد الموكب الجنائزى لعدة بنايات.

ولكن النبأ سيتوقف هناك. فكارولين قد لا تعلم به قط. ولن يصل حتى إلى مكان أبعد، إلى المكان الذى ولد به.

وحتى لو حدث هذا فلن يتذكر أحد هذا الاسم. كان الخطاب فى انتظاره راقداً خلف قدر القهوة الفارغ بمتجر الزاوية، فى أحد الأيام بعد المدرسة. ولم يقل أحد شيئاً ولكن رآه الجميع وعلموا ما هو؛ فشعار جامعة بتسبرج كان واضحاً فوقه. حمل المظروف إلى الطابق العلوى ووضعه على الطاولة بجوار فراشه بينما كان من التوتر بحيث عجز عن فتحه. تذكر السماء الرمادية لفترة بعد الظهيرة هذه، والتى كانت مستوية وصافية خلف النافذة ويتخللها فروع شجرة الدردار العارية.

طوال ساعتين لم يسمح لنفسه بفتحه. وبعد ذلك فعل وكانت الأخبار جيدة: تم قبوله بمنحة كاملة. جلس على حافة الفراش وهو مذهول وحذر من هذا الخبر الجيد - كما أصبح دوماً فى حياته بعد ذلك - لدرجة منعه من الشعور بالبهجة. "من دواعى سرورنا أن نخبرك..."

ولكنه فى ذلك الحين أدرك الخطأ، الحقيقة القاسية التى بزغت والتى توقعها فى هذا المكان الأجوف أسفل ضلوعه: الاسم الذى كان على الخطاب لم يكن اسمه. كان العنوان صحيحاً وكل تفصيل آخر بدءاً من تاريخ الميلاد إلى رقم التأمين الاجتماعى كان صحيحاً أيضاً. واسمها الأولان - والده ديفيد وجده هنرى - كانا صحيحان كذلك ومطبوعان بدقة من قبل سكرتيرة ربما قاطعتها مكالة هاتفية أو زائر ما. أو ربما يكون فقط نسيم الربيع العليل هو الذى جعلها ترفع عينيها من فوق عملها وتتخيل نفسها مساءً بينما يأتينا خطيبها حاملاً الزهور جاعلاً قلبها يرتجف مثل ورقة الشجر. وفجأة ينغلق الباب بعنف ويعلو صوت وقع الأقدام وتجد مديرتها أمامها. تجفل وتلملم شتات نفسها وتعود إلى الحاضر. تطرف بعينيها وتعاود الكتابة.

جلس في محطة جرای هاوند طوال الليل وهو يغط في النوم ويصحو فجأة، وفي الصباح أخذ أول حافلة إلى منزل طفولته في ويست فيرجينيا وهو يسافر في عمق التلال التي كانت تحيط به وكأنها تحتضنه. وبعد سبع ساعات، وقفت الحافلة حيث كانت تقف دوماً، عند زاوية شارع مين آند فاين، ثم زارت مغادرة وهي تترك ديفيد هنري واقفاً أمام متجر البقالة. كان الشارع هادئاً، وكانت صحيفة ملتصقة بسارية خطوط الهاتف والأعشاب تنمو خلال الصدوع والشقوق بالرصيف. كان قد عمل في هذا المتجر ليجنى مالا يغطي نفقات تأجير غرفته وطعامه، لقد أتى الفتى الذكي من التلال كي يدرس وقد أذهلته أصوات الأجراس والسيارات، وعمليات التسوق التي تقوم بها ربوات المنازل، وتجمعات أطفال المدارس لشراء الصودا عند النافورة، ولقاءات الرجال مساء حيث يبصقون التبغ ويلعبون الورق ويمضون الوقت في سرد الحكايات. ولكن كل هذا قد ولى الآن. فرسومات حمراء وسوداء كانت تغطي النوافذ المكسوة بالخشب الرقائقي والتي كانت غائبة داخل التجزيعات ولا يمكن قراءتها.

كان العطش يشبه الحريق في حلق ديفيد. وعبر الشارع كان هناك رجلان في مرحلة منتصف العمر - أحدهما أصلع والآخر ذو شعر رمادي خفيف يصل إلى كتفيه - يجلسان ويلعبان الشطرنج بالشرفة. نظرا إليه في فضول وشك. وللحظة رأى ديفيد نفسه بالطريقة التي يريانه بها، بنطاله مبقعاً ومجعداً، القميص الذي ظل يرتديه يوماً وليلة، رابطة عنقه التي اختفت، شعره المفرد نتيجة نومه المتقطع بالأتوبيس. إنه لم يكن ينتمي لهذا المكان ولم ينتم إليه من قبل قط. في الحجرة الضيقة فوق المتجر كانت الكتب مبعثرة فوق فراشه وقد كان يملؤه الحنين إلى المنزل بدرجة جعلته لا يستطيع التركيز، ومع ذلك فحينما عاد إلى الجبال لم يفتر هذا الشعور بالحنين. ففي منزل أبويه الخشبي الصغير والذي كان يقف بحزم داخل التل كانت الساعات طويلة

ديفيد هنري، هذا الاسم الذي كتبتة بالفعل بشكل صحيح.

ولكن الاسم الأخير - ماكليستر - قد ضاع منها.

ولم يخبر أحداً بهذا من قبل. لقد ذهب إلى الكلية وسجل اسمه هناك دون أن يعرف أحد بهذا. فقد كان هذا بالرغم من كل شيء هو اسمه. ومع ذلك فإن ديفيد هنري كان شخصاً مختلفاً عن ديفيد هنري ماكليستر، كان يدرك هذا وقد بدا له واضحاً أنه كان من المقدر لديفيد هنري أن يذهب إلى الجامعة، أن يكون شخصاً بلا تاريخ لا يحمل عبء ماضيه على كاهله. رجل لديه الفرصة لبناء حياة جديدة.

وقد نجح في القيام بذلك. وقد أتاح له الاسم بشكل ما هذه الفرصة، فقد كان قويا وأرستقراطياً. فكان هناك مثلاً رجل دولة وخطيب يدعى باتريك هنري. ففي أيامه الأولى أثناء تلك الحوارات التي كان يشعر خلالها بأنه محاط بأناس أغنى منه ومنحدرين من عائلات كبيرة، أناس يعيشون حياة رغبة في هذا العالم الذي كان يكافح لإيجاد مكان فيه، كان في بعض الأحيان يشير بشكل غير مباشر إلى صلة نسب بعيدة وغير حقيقية بشخص مهم ليكسبه الدعم ويقف وراءه.

وكانت تلك الهدية التي حاول منحها لبول: مكان في العالم لا يمكن لأحد التشكيك فيه.

كان الماء بين قدميه بنياً يحيط بحوافه زبد أبيض كثيف. ازدادت الريح وأصبح جلده نقيداً مثل الحلة التي يرتديها. كانت الريح في دمه واندفعت الأمواج الدوامية واقتربت أكثر وبعد ذلك كان هناك حامض في حلقه وربض على يديه وركبتيه في حين كانت الصخور باردة أسفل يديه وبدأ يتقيأ داخل النهر الرمادي الجامح، وظل يتقيأ حتى لم يعد في الإمكان خروج شيء آخر من معدته. ظل راقداً هناك لفترة طويلة في الظلام. وأخيراً وبسطة وقف ومسح فمه بظهر يده وسار عائداً مرة أخرى إلى المدينة.

الذائب. كان هذا فيما سبق طريقاً هادئاً حيث كان فى الإمكان سماع صوت السيارات قبل رؤيتها بأميال وعادة ما تجد وجهها مألوفاً خلف حاجب الريح والذى يبطئ السيارة ويوقفها ويفتح لك الباب ويدعوك للدخول. لقد كان معروفاً، وكانت أسرته معروفة كذلك، وبعد حوار قصير - "كيف حال والدك ووالدتك، كيف حال حديقتهكم هذا العام؟ - يسود الصمت حيث يظل السائق والراكبون الآخرون يفكرون فيما يجب قوله وما لا يجب قوله لهذا الفتى الذكى الذى استطاع الحصول على منحة مجانية، هذا الفتى التى بلغت أخته من المرض الحد الذى يمنعها من الذهاب إلى المدرسة. فى هذه الجبال وربما فى العالم الأكبر كانت هناك نظرية التعويض والتى تفيد بأنه أمام كل شىء نحصل عليه فإن هناك شيئاً ما نخسره على الفور. "حسناً، أنت تتمتع بالذكاء حتى لو لم يكن ابن عمك يتمتع بالوسامة". تلك المجاملات الرقيقة كالزهور التى يتخللها أشواك التضاد: "تعم ربما تكون ذكياً ولكنك قبيح بدون شك؛ ربما أنت وسيم ولكنك غبى". التعويض؛ التوازن بالعالم. لقد سمع ديفيد اتهاماً فى كل ملاحظة عن دراسته - لقد حصل على الكثير، حصل على كل شىء - وفى داخل السيارات والشاحنات كان الصمت يسود أكثر فأكثر لدرجة أنه يضحى مستحيلاً لصوت إنسانى أن يكسره.

انعطف الطريق ثم انعطف مرة أخرى: طريق جون الراقص. علت منحدرات القلال وتدفقت الجداول أسفلها وأصبحت المنازل متناثرة وأكثر فقراً. كما ظهرت المنازل المتنقلة والتى كانت مبعثرة بالقلال مثل متاجر المجوهرات غير البراقة بألوانها الفيروزية والفضية والصفراء. وهنا كانت توجد شجرة الجميز والصخرة المنحوتة على شكل قلب، ذلك القوس حيث توجد ثلاثة شواهد قبر مزينة بالزهور الذابلة والشرائط. استدار وذهب إلى الجدول التالى، جدولته. كان الطريق مكسوًا بالعشب حتى اختفائه تدريجياً.

وممتدة يتخللها طرق والده لأرغنه على المقعد وتنهدات والدته وحركة أخته. لقد كانت هناك الحياة أسفل الجداول والحياة فوقه والوحدة المنتشرة فى كل مكان كزهرة سوداء.

أوماً للرجلين ثم استدار وبدأ يسير وهو يشعر بتحديقهما فيه.

بدأ مطر خفيف والذى كان رقيقاً مثل الضباب فى التساقط. استمر فى السير بالرغم من أن ساقيه كانتا تؤلمانه. فكر فى عيادته البراقة، والتى بدت له كحياة كاملة أو حلم يذهب أدراج الريح. لا بد أن نوراً مازالت بعملها الآن وبول بغرفته بالطابق العلوى يصب وحدته وغضبه على الموسيقى. لقد توقعا وصوله الليلة إلى المنزل، ولكنه لن يكون هناك. لا بد له أن يتصل بهما فيما بعد، بمجرد أن يعرف ماذا يفعل. بإمكانه استقلال حافلة أخرى والعودة إليهما على الفور. كان يعلم هذا، ولكن بدا له مستحيلاً لمثل هذه الحياة أن توجد فى نفس العالم الذى يوجد به الآن.

وسرعان ما انتهى الرصيف غير الممهّد حيث قاطعته مروج بحافة المدينة كنموذج ينتهى ويبدأ مثل أحد أشكال شفرة مورس - يظل يتكرر على فاصلات زمنية إلى أن يختفى للأبد. وكانت المصارف الضحلة تجرى عبر حواف الطريق الضيق؛ وقد تذكرها ممثلة بزنايق النهار والتى كانت عبارة عن كتل برتقالية متضخمة تتحرك مثل ألسنة اللهب. دس يديه أسفل ذراعيه لتدفنتهما. كان هذا المكان يسبق المكان الذى أتى منه بفصل من فصول السنة. فزهور الليل والأمطار الدافئة ليس لها مكان هنا. كانت كسرات الثلج تتحطم أسفل قدميه. وقد ركل الحواف السوداء بالمصارف حيث تحرك مزيد من الثلج مخترقاً الأعشاب الضارة والركام.

وصل إلى الطريق السريع المحلى. أجبرته السيارات المسرعة على الرجوع للوراء بعدما نثرت عليه ضباباً رقيقاً من الثلج نصف

وقد استغرق منه الأمر ساعة تقريباً للوصول إلى المنزل القديم، والذي أصبح بالياً الآن نتيجة التعرض للعوامل الجوية مما جعل لونه يصبح رمادياً، والسقف يقدلى من منتصف الرافدة، وبعض الألواح الخشبية مفقودة. وقف ديفيد والماضى يغمره ويتخلله حتى أنه توقع أن يراهم مجدداً: والدته تهبط الدرجات وهى تحمل حوض القصدير المظلى بالزنك لتجمع الماء من أجل الغسيل، أخته تجلس بالشرفة بينما يعلو صوت الفأس وهو يضرب الأشجار من حيث كان يقطع والده خشباً للمدفأة دون أن يكون مرئياً. لقد رحل للذهاب إلى المدرسة وماتت جون، ومكث والداه هنا أطول فترة استطاعاها وهما يفكران فى ترك تلك الأرض. ولكنهما لم يعيشا طويلاً؛ فقد مات والده فى سن صغيرة واتجهت والدته أخيراً شمالاً مسافرة إلى أختها ووعد العمل بمصانع السيارات. ونادراً ما كان ديفيد يعود إلى منزله من بتسبرج ولم يذهب هناك قط منذ وفاة والدته. كان المكان مألوفاً مثل الأنفاس ولكن بعيداً كل البعد عن حياته الحالية مثل القمر. زادت الرياح. صعد الدرج. كان الباب معلقاً بشكل معقوف فوق مفاصله ولا ينفلق. وكان الهواء بالداخل بارداً وعفناً. كان مكوناً من غرفة واحدة، وأضحت رافدة عليّة النوم الآن متدلية. كانت الجدران مبقعة بالماء؛ وخلال الصدوع كان بإمكانه رؤية السماء الشاحبة. لقد ساعد والده على بناء هذا السقف بينما تسرى حبات العرق على وجهيهما وتجرى على يديهما وهما يرفعان مطرقتيهما فى الشمس، وينزلان بهما فى خشب الأرز. وعلى حد علم ديفيد الآن فلم يأت أحد إلى هنا منذ سنوات. ومع ذلك كانت توجد مقلاة على الموقد البارد، وكانت المادة الزيتية متخثرة ولكن ليست - حينما اقترب لشمها - زنخة. وفى الزاوية كان هناك فراش حديدى قديم يغطيه لحاف رث يشبه ذلك الذى صنعه جدته وأمه. كان القماش بارداً ورطباً بعض الشيء أسفل يده. لم تكن هنا مرتبة وإنما فقط طبقة سميكة من

الملاءات فوق الألواح الخشبية. كانت الأرض الخشبية نظيفة وكانت توجد ثلاث زهرات زعفران بالبرطمان عند النافذة. كان هناك من يعيش هنا. تحرك النسيم عبر الغرفة جاعلاً تقطيعات الرسم المعلقة فى كل مكان - من السقف والنوافذ وفوق الفراش - ترفرف. سار ديفيد بالنزول يتفحصها بدهشة بالغة. كانت تشبه الكسفات الثلجية التى اعتاد نحتها بالمدرسة، ولكن أكثر تعقيداً ودقة، وتعكس مشاهد كاملة بجميع تفاصيلها: معرض الولاية، حجرة معيشة منظمة أمام مدفأة، نزهة ذات ألعاب نارية متفجرة. لقد أمدت برقتها ودقتها المنزل القديم بمسحة من الغموض. لمس الحافة المروحية لصورة لعربة من القش، وفتيات يرتدين قبعات ذات حواف مزركشة وصبية يرتدون سراويل مثنية حتى ركبهم. إطارات فيرس واحتفالات صاخبة وسيارات تعدو فوق الطرق السريعة: كانت هذه الصور معلقة فوق الفراش وتحركها تيارات الهواء برقة مثل الأجنحة. من صنع هذه الصور بكل هذه المهارة والصبر؟ فكر فى صورته الخاصة: لقد حاول جاهداً أن يلتقط كل لحظة ويثبتها فى مكانها ويجعلها تستمر ولكن حينما تبزغ الصور فى الظلام فإنها تكون قد تبدلت بالفعل. ومضت الساعات والأيام وأصبح شخصاً مختلفاً بعض الشيء. ومع ذلك فقد أراد كثيراً التقاط صورة الحجاب المرفرف، التقاط صور العالم وهو يظهر ويختفى ثم يظهر ثانية. جلس فوق الفراش الصلب. كان رأسه لا يزال يخفق. استلقى وجذب اللحاف الرطب حوله. كان هناك ضوء رمادى رقيق بجميع النوافذ. الطاولة العارية والموقد: كل شيء كانت تصدر منه رائحة العفن الخفيفة. كانت الجدران مغطاة بطبقات من الجرائد التى بدأت تقشر. لقد كانت أسرته فقيرة للغاية؛ وكل من عرفوه كان فقيراً. لم تكن تلك جريمة، ولكنها ربما كانت كذلك. وكان هذا هو سبب الاحتفاظ بالأشياء، فكانت المحركات القديمة وعبوات القصدير وزجاجات اللبن مبعثرة بالمروج

أغلق عينيه. فقط لبضع دقائق كى يرتاح. كان يوجد أسفل رائحة العفن رائحة شيء حلو، سكرى. لقد اشترت أمه السكر من المدينة وكان بإمكانه تذوق طعم كعكة عيد الميلاد الصفراء والكثيفة، الغنية والحلوة فى فمه. الجيران من الأسفل، صوتهم الذى يملأ الطريق وأثواب السيدات متعددة الألوان والمبهجة تصطدم وتحتك بالعشب الطويل. الرجال فى سراويلهم الداكنة وأحذيتهم عالية الرقبة، الأطفال متناثرون بجموح وهم يصيحون عبر الفناء، ولاحقاً كانوا يجتمعون جميعاً ويعدون الآيس كريم الذى كان محفوظاً فى محلول ملهى أسفل الشرفة ومجمداً بشدة حتى يرفعوا الغطاء المعدنى الثلجى ويجرفوا الكريمة الباردة الحلوة عالياً داخل أوعيتهم.

ربما كان ذلك بعد مولد جون، هذا اليوم الذى تناولوا فيه الآيس كريم. كانت جون تشبه الرضع الآخرين، يداها الصغيرتان تلوحان فى الهواء وتحتك بوجهه حينما يتكئ للأسفل لتقبيلها. وفى حرارة هذا اليوم الصيفى بينما كان الآيس كريم يبرد أسفل الشرفة قاموا بالاحتفال. جاء الخريف ثم الشتاء ولم تجلس جون، وبعد ذلك جاء عيد مولدها الأول وكانت ضعيفة للغاية لتستطيع السير بعيداً. جاء الخريف ثانية جالباً معه إحدى قريباتهم لزيارتهم وكان ابنها الذى كان تقريباً فى نفس سن جون لا يسير فقط ولكن يجرى عبر الغرف وبدأ يتحدث، وكانت جون لاتزال جالسة تشاهد العالم بهدوء. وقد أدركوا فى ذلك الحين أن ثمة ما يسوء بها. تذكر أمه وهى تراقب الطفل الصغير والدموع تسيل فى هدوء على وجهها وقتاً طويلاً قبل أن تأخذ نفساً عميقاً وتستدير داخل الغرفة وتمضى لحالها. كان هذا هو الحزن الذى حمله معه والذى كان ثقيلاً كالصخر داخل قلبه. كان هذا هو الحزن الذى حاول أن يحمى نورا وبول منه، فقط ليولد مزيداً من الأحزان.

والتلال: رقية أو سياج ضد الحاجة. حينما كان ديفيد صغيراً تسلق صبي يدعى دانيال برينكرهوف إلى داخل ثلاجة قديمة واختنق حتى مات. تذكر ديفيد الأصوات المتممة ثم جثمان صبي فى مثل عمره يرقد فى حجرة تشبه هذه كثيراً وحوله شموع مضاءة. وقد بكت الأم، وهو الأمر الذى لم يكن مفهوماً له؛ لقد كان صغيراً للحد الذى لم يجعله يفهم الحزن ومعنى الموت. ولكنه تذكر ما كان يقال بالخارج ولكن فى نطاق سمع والدته، ما قاله الأب المكلوم الذى فقد ابنه: "لماذا ابنى؟ لقد كان كاملاً ووافر الصحة. لماذا لم تمت هذه الفتاة المريضة؟ فإن كان لابد لأحد أن يموت، فلماذا ليست هى؟".

أغلق عينيه. كان المكان هادئاً للغاية - فكر فى كل الأصوات التى ملأت حياته فى ليكسنجتون. وقع الأقدام والأصوات فى الأروقة وصوت جرس الهاتف يصرخ فى أذنيه؛ وفى المنزل دوماً صوت جيتار بول ونورا وهى تتحدث فى الهاتف مع العملاء بينما تلف السلك حول رسغها؛ وفى منتصف الليل المزيد من الاتصالات، فكانوا يتصلون به فى المستشفى، لابد أن يذهب. وبعدها ينهض فى الظلام والبرد ويذهب.

ليس هنا. هنا كان يوجد فقط صوت الريح تحرك أوراق الشجر القديمة، ومن بعيد صوت خرير الماء الرقيق فى الجدول أسفل الثلج. وكان هناك فرع شجرة ينقر على الجدار الخارجى. أثناء شعوره بالبرد رفع نفسه للأعلى وهو يستند على كعبيه والجزء العلوى من ظهره حتى يستطيع سحب اللحاف من أسفله والتدثر به بالكامل فوقه. احتكت الصور بجيبه فى صدره حينما استدار وشد اللحاف أكثر. وبالرغم من ذلك فقد ظل يرتعد لبعض دقائق أكثر، من البرد ومن تعب السفر، وحينما أغلق عينيه فكر فى مكان التقاء النهرين ودوامات المياه السوداء. لا يسقط وإنما يقفز: ذلك هو ما كان معلقاً هناك فى اتزان.

وتتحرك حول الموقد برشاقة وكفاءة وتكسر بعض البيض وتفرغه في المقلاة. كان الظلام قد حل بالخارج - لقد نام طويلاً - وكان الشمع موزعاً بالغرفة. كان الضوء الأصفر يجعل كل شيء يبدو رقيقاً. وكانت الصور الورقية تتحرك برقة.

تناثرت المادة الزيتية ورفعت الفتاة يدها لأعلى. ظل راقداً دون حركة لعدة دقائق يراقبها بينما كان كل شيء يبدو نابضاً بالحياة أمامه: مقابض الموقد السوداء التي اعتادت أمه تنظيفها، أظافر تلك الفتاة المقضومة، ووميض الشموع بالنافذة. مدت ذراعها للرف بالأعلى وأخذت علبتى الملح والفلفل، وقد أذهلتها الطريقة التي سافر بها الضوء عبر جلدها وشعرها بينما كانت تتحرك داخل وخارج الظل أثناء قيامها بما كانت تقوم به. لقد ترك كاميرته في أمانات الفندق.

حاول الجلوس في ذلك الحين ولكن منعه رسغاه من ذلك. وهو يشعر بالارتباك أدار رأسه: كان وشاح أحمر شفاف من الشيفون يقيده بأحد أعمدة السرير. لاحظت حركته واستدارت وضربت على راحة يدها برفق بملعقة خشبية.

قالت: "إن صديقي سيعود في أى لحظة". ترك ديفيد رأسه يسقط بتثاقل مرة أخرى على الوسادة. كانت نحيفة وربما أصغر من بول، هنا في داخل هذا المنزل المهجور. فكر بينه وبين نفسه "هناك من احتل المنزل عنوة" ثم فكر في صديقها مدركاً للمرة الأولى أنه يجب أن يشعر بالخوف. سأل: "ما اسمك".

قالت ثم بدت قلقة: "روزماري. يمكنك أن تصدق هذا أو لا تصدقه".

قال وهو يفكر في شجيرة الصنوبر التي زرعها نورا في إحدى البقع المشمسة وفروعها الخشبية التي تشبه الإبر "روزماري. أتساءل إن كان بإمكانك فك قيودي". كان صوتها سريعاً وحاسماً: "لا. مستحيل".

قالت له أمه في هذا اليوم وهي تجفف عينيها بسرعة لأنها لم تكن تريده أن يراها تبكي: "ديفيد، خذ هذه الأوراق من فوق الطاولة واذهب للخارج لجلب الماء والخشب. قم بذلك على الفور. كن مفيداً".

وقد فعل. وقد مضوا جميعاً في حياتهم قدماً في هذا اليوم وكل يوم. وقد تقوقعوا حول أنفسهم وتجنبوا زيارة الآخرين فيما عدا المرات القليلة التي يولد فيها أحد أو يموت حتى ذلك اليوم الذي حبس فيه دانيال برينكرهوف نفسه داخل الثلجة. لقد جاءوا من تلك الجنازة ليلاً وهم يتلمسون طريقهم بالقرب من الجدول وبلاستعانة بالذاكرة بينما يحمل والده جون بين ذراعيه، ومنذ ذلك الحين لم تغادر والدته الجبل ثانية إلا عندما انتقلت إلى ديترويت...

كان الصوت يقول: "لا تفترض أنك ذو فائدة دوماً". وتحرك ديفيد - الذي كان لا يزال نصف نائم وهو غير واثق إن كان يحلم أو يسمع أصواتاً بالريح - حينما شعر بشدة عنيفة في رسغيه وبغمغمة الصوت وحرك لسانه الجاف ضد سقف حلق فمه. كانت حياتهم صعبة والأيام طويلة ومليئة بالعمل ولم يكن هناك وقت أو صبر للشعور بالحزن. لا بد عليك أن تمضي قدماً، هذا هو كل ما يستطيع فعله، وطالما أن التحدث عن جون لن يعيدها فإنهم لم يأتوا على ذكرها مرة أخرى. استدار ديفيد وآله رسغاه. شعر بالفزع وكان نصف مستيقظ وفتح عينيهِ ومسح بهما الغرفة.

كانت تقف عند الموقد، على بعد بضعة أقدام فقط، بينما يلتف ثوب أخضر بإحكام حول وركيها النحيفتين ثم ينزل بشكل فضفاض فوق فخذيها. كانت ترتدى معطفاً في لون الصدا تتخلله خطوط برتقالية مضيئة وفوقه ترتدى قميصاً من الفلانيلة مربع النقش أخضر وأسود. وكانت قد قطعت أطراف أصابع قفازيها

قال: "أنا أشعر بالعطش".

نظرت إليه للحظة، كانت عيناها دافئتين وبنيتين ومتيقظتين. بعد ذلك ذهب للخارج محررة دفقة من الريح داخل الغرفة والتي جعلت جميع القصاصات الورقية ترفرف. جاءت وهي تحمل كوباً معدنياً من الماء أتت به من الجدول. قال: "شكراً لك ولكنى لا أستطيع أن أشرب وأنا مستلق هكذا".

عادت للموقد لدقيقة وقلبت البيض ثم فتشت داخل درج وأتت بشفاط بلاستيكي يبدو أنه يخص أحد مطاعم الوجبات السريعة والذي كان أحد طرفيه قذراً وألقت به داخل الكوب المعدني.

قالت: "أعتقد أنك ستستخدمه. إن كنت تشعر بعطش حقيقى".

أدار رأسه ورشف وهو يشعر بعطش شديد ويشعر بطعم الغبار فى الماء. ألقت بالبيض فوق طبق معدنى أزرق مرقش باللون الأبيض وجلست على الطاولة الخشبية. تناولت الطعام بسرعة وهي تدفع البيض داخل شوكة بلاستيكية باستخدام سبابة اليد اليسرى برقة ودون تفكير وكأنها لا تشعر بأنه معها فى الحجرة - وفى هذه اللحظة أدرك أن الصديق كان مجرد أكذوبة. لقد كانت تعيش هنا وحدها.

شرب حتى جف الشفاط وشعر بالماء مثل النهر القذر فى حلقه.

قال حينما أنهى كوب الماء: "إن والدئ كانا يملكان هذا المكان. فى الواقع أنا مازلت أملكه. إن لدى صك الملكية فى خزانتي. وأنا أستطيع أن أرى أنك تنتهكين ملكيتي". ابتسمت لقوله هذا ووضعت شوكتها بحرص فى منتصف الطبق: "لقد جئت إذن لاستعادته؟".

كان شعرها ووجنتاها يعكسان الضوء الوامض. كانت صغيرة للغاية ومع ذلك كانت تبدو قوية وصلبة كذلك، وحيدة لكن حازمة.

"لا". فكر فى رحلته الغربية من صباح عادى فى ليكسنجتون - بول الذى يمضى فترة طويلة لا تنتهى داخل دورة المياه ونورا التى تقطب بينما تعمل على موازنة دفتر شيكااتها عند الخزنة بينما يعلو البخار من القهوة - إلى معرض الصور إلى النهر ثم الآن هنا.

قالت وهي تدفع الطبق إلى منتصف الطاولة: "إذن لماذا جئت؟". كانت يداها صلبتين وأظافر يديها مكسورة. وقد اندهش من مقدرتها على صنع تلك الصور الورقية الرقيقة والمعقدة والتى ملأت الغرفة.

"إن اسمى هو ديفيد هنرى ماكليستر". كان هذا هو اسمه الحقيقى والذى لم ينطق به منذ أمد طويل. قالت: "أنا لا أعرف أحداً من عائلة ماكليستر. ولكننى لست من هنا".

سأل: "ما عمرك؟ خمسة عشر عاماً؟". قالت له مصححة إياه: "سنة عشر". ثم قالت بتكلف: "سنة عشر أو عشرون أو أربعون. اختر ما شئت منهم". قال مكرراً: "سنة عشر. إن لدى ابناً أكبر منك يدعى بول". فكر بينه وبين نفسه: "ابن وابنة". قالت فى لامبالاة: "هل هذا صحيح؟".

أخذت الشوكة مرة أخرى وراقبها وهي تتناول البيض وتأخذ هذه القضمات الرقيقة وتمضغه بحرص، وسرعان ما شعر بنفسه يعيش لحظة أخرى فى نفس هذا المنزل، فكان يراقب أخته جون وهي تتناول البيض بنفس هذه الطريقة. كان ذلك فى العام الذى ماتت فيه وكانت تلقى صعوبة فى الجلوس على الطاولة ولكنها

فعلت؛ كانت تتناول العشاء معهم كل ليلة، بينما ينعكس ضوء الصباح فى شعرها الذهبى وتتحرك يداها ببطء برشاقة بالغة. قال برقعة بينما يمتلئ صوته بالعاطفة: "لماذا لا تفكين قيودى. أنا طبيب. أنا لن أؤذيكم".

"صحيح". وقفت وحملت طبقها المعدنى الأزرق إلى الحوض. كانت حاملاً، أدرك ذلك وهو يشعر بالصدمة حينما رآها تستدير لتأخذ الصابونة من فوق الرف. وهى مازالت فى شهرها الرابع أو الخامس كما خمن.

"اسمعى، أنا فعلاً طبيب. توجد بطاقة فى محفظتى. تعالى وانظرى إليها".

لم تجبه، فقط غسلت طبقها وشوكتها وجففت يديها بحرص بمنشفة. فكر ديفيد فى مدى غرابة وجوده هنا راقداً مرة أخرى فى هذا المكان حيث حملت به أمه وولدتها وقامت بتربيته، فكر فى مدى غرابة اختفاء أسرته بالكامل وقيام هذه الفتاة الصغيرة والصلبة والتائهة بتقييده بالفراش.

عبرت الغرفة وجذبت محفظته من جيبه. وضعت أشياءه على الطاولة واحداً تلو الآخر: مال، بطاقات ائتمان، والملاحظات المتنوعة، وقصاصات الأوراق.

قالت وهى تقرأ بطاقته فى الضوء الوامض: "تلك تقول إنك مصور".

قال: "هذا صحيح. أنا مصور كذلك. تابعى البحث".

قالت بعد لحظة وهى تحمل بطاقته الشخصية: "حسناً، إذا أنت طبيب. ماذا فى ذلك؟ ما الفارق الذى يحدثه ذلك؟".

كان شعرها معقوفاً للخلف فى ذيل فرس بينما تسقط خصلات شاردة حول وجهها؛ والتى قامت بدفعها للخلف وراء أذنها.

"يعنى هذا أننى لن أؤذيكم يا روزمارى".

نظرت إليه نظرة تفحص سريعة. "إنك سوف تقول ذلك حتى لو كنت تريد أن تؤذينى".

شرع فى تفحص شعرها غير المشط وعينيها السوداوين الصافيتين.

قال: "هناك بعض الصور. فى مكان ما هنا...". تحرك وشعر بحافة الخطاب الحادة عبر قماش جيب قميصه. "من فضلك، ألقى نظرة. تلك هى صورة لابنتى. إنها فى مثل عمرك".

وحينما دست يدها فى جيبه شعر بحرارتها ثانية وشم رائحتها، طبيعية ولكن نظيفة. من أين جاءت الرائحة السكرية؟ تساءل وهو يتذكر حلمه وصينية الفطائر التى مرت به فى افتتاح معرضه.

سألت روزمارى وهى تتفحص الصورة الأولى ثم الثانية: "ما اسمها؟".

"فويب".

"فويب. اسم جميل. إنها جميلة. هل هذا هو اسم والدتها؟". قال ديفيد: "لا". ثم تذكر ليلة مولدها حينما أخبرته نورا أنها استقرت على الاسم الذى تريده. وكانت كارولين تنصت لما تقوله وتبجله. "لقد كان ذلك هو اسم إحدى خالات والدتها. امرأة لا أعرفها".

قالت روزمارى برقعة: "لقد سميت باسم كلتا جدتى". سقط شعرها الأسود على وجنتها الشاحبة مرة أخرى فدفعته بإصبعها خلف أذنها وتخيّلها ديفيد وهى تجلس مع أسرته حول طاولة أخرى يعلوها مصباح. أراد أن يضع ذراعه حولها ويأخذها للمنزل ويحميها. "روز هو اسم جدتى من جانب أبى ومارى هو اسم جدتى من جانب أمى".

سأل: "هل أسرته تعلم أين أنت؟".

هزت رأسها. قالت بينما يتخلل صوتها نبرة تنم عن الحزن والغضب فى ذات الوقت: "لا يمكننى العودة. لا يمكننى أن أعود قط، ولن أعود".

بدأت صغيرة للغاية وهي جالسة على الطاولة وتضم يديها بشكل غير محكم وتبدو تعبيرات وجهها مظلمة وقلقة. سألتها: "ولم لا؟".

هزت رأسها ونقرت الطاولة بصورة فويب: "إنك تقول إنها فى نفس سنّى؟".

"تقريباً. أنا فقط أخمن. لقد ولدت فى السادس من مارس عام ١٩٦٤".

"لقد ولدت فى فبراير ١٩٦٦". ارتعدت يداها قليلاً وهي تضع الصورة. "كانت أمى تخطط لإقامة حفل ميلادى السادس عشر. وقد قامت بتحضير تلك الأشياء الوردية ذات الأهداب".

رآها ديفيد تبتلع لعابها وتدفع شعرها خلف أذنها ثانية وتحقق بالنافذة السوداء. أراد مواساتها بطريقة ما، تماماً كما أراد مواساة الآخرين - جون، أمه، نورا - ولكن الآن كما هو الحال دوماً لم يستطع. سكون وحركة: كان هناك شيء ما هنا، شيء ما يود معرفته، ولكن أفكاره ظلت غير منظمة. شعر بأنه مجمد داخل لحظة وكأنه داخل إحدى صوره، ولكن تلك اللحظة التى كان محبوساً بها كانت عميقة ومؤلمة. كان قد بكى مرة واحدة على جون، حينما كان يقف إلى جوار والدته على جانب التل فى هواء المساء البارد وهو يمسك بأحد الكتب الدينية فى إحدى يديه ويقرأ منه. لقد بكى مع أمه، والتى ظلت تبغض الرياح بداية من هذا اليوم، وبعد ذلك أخفيا حزنهما ومضيا قدماً فى حياتهما. كانت هذه هى الطريقة التى تسير بها الأمور، الطريقة التى اتبعوها فى صمت ورضا.

قال وهو مندهش لسماع نفسه يتحدث وفى الوقت ذاته كان مضطراً لسرد حكايته، هذا السرد الذى أخفاه لسنوات طويلة: "فويب هى ابنتى. ولكننى لم أرها منذ يوم مولدها". تردد قليلاً ثم أجبر نفسه على أن يقول: "لقد تخلّيت عنها. إنها تعاني

متلازمة داون، والتى تعنى أنها متأخرة ذهنياً. لذا فقد تخلّيت عنها. وأنا لم أخبر أحداً عن هذا الأمر".

نظرت إليه روزمارى فى حدة وصدمة. قالت: "أعتقد أن ذلك لا يختلف كثيراً عن الأذى". قال: "نعم. أنا أعتقد هذا أيضاً".

ظلاً صامتين لفترة طويلة. كلما نظر ديفيد إلى مكان ما تذكر أسرته: دفء نفس جون ضد وجنته، غناء أمه بينما تقوم بطى الغسيل على الطاولة، حكايات والدته التى تدوى بين هذه الجدران. كل ذلك قد ولى الآن وكذلك ابنته. صارع كى لا يشعر بالحزن كما اعتاد أن يفعل ولكن الدموع انهمرت على وجنتيه ولم يستطع إيقافها. لقد بكى من أجل جون ومن أجل هذه اللحظة فى العيادة حينما أعطى فويب إلى كارولين جيل وشاهدها وهى ترحل بعيداً. ظلت روزمارى تجلس على الطاولة فى سكون والحزن يتملكها. وبمجرد أن تلاقت عيناها تولدت بينهما لحظة حميمية غريبة. تذكر كارولين وهى تراقبه من عند الباب وهو نائم بينما يمتلئ وجهها بالحب له. وكان بإمكانه أن يهبط معها درجات المتحف ويذهب معها إلى حيث تعيش حياتها ولكنه أضاع هذه الفرصة كذلك.

قال محاولاً لمام شتات نفسه: "أنا آسف. فأنا لم آت إلى هنا منذ فترة طويلة".

لم تجب وتساءل إن كان يبدو مجنوناً لها. أخذ نفساً عميقاً. سأل: "متى سيحين موعد ولادتك؟".

اتسعت عيناها من فرط الدهشة وقالت: "بعد خمسة أشهر على ما أعتقد".

قال ديفيد برفق: "لقد تركته، أليس كذلك؟ صديقك. ربما أنه لم يرغب فى الطفل".

أدارت رأسها ولكن بعد أن كان قد رأى بالفعل الدموع فى عينيها.

قال على الفور: "أنا آسف. أنا لم أقصد أن أكون متطفلاً." هزت رأسها قليلاً: "لا بأس. إن الأمر ليس مهماً." سأل وهو مازال يتحدث بصوت رقيق: "أين هو؟ أين منزلك؟"

قالت بعد سكون طويل: "بنسلفانيا". أخذ نفساً عميقاً وأدرك ديفيد أن قصته وأن حزنه مهذا الطريق أمامها للكشف عن قصتها. واصلت حديثها قائلة: "بالقرب من هاريسبرج. كان لدى خالة هنا فى هذه البلدة. شقيقة والدتى، سو واليس. لقد ماتت الآن. ولكن حينما كنت صغيرة اعتدنا على المجيء إلى هنا، إلى هذا المكان. اعتدنا التجول فى هذه التلال. كان هذا المنزل شاغراً يوماً. لقد اعتدنا المجيء إلى هنا واللعب حينما كنا أطفالاً. كانت تلك هى أسعد أوقات حياتى. كان هذا هو أفضل مكان استطعت التفكير فيه."

أوماً متذكراً سكون الغابات الذى يتخلله صوت حفيف الأشجار. سو واليس. تكونت صورة فى مخيلته، امرأة تسير فوق التل تحمل فطيرة الخوخ أسفل منشفة. قال برقة: "فكى وثاقى".

ضحكت بمرارة ومسحت عينيها. قالت: "لماذا؟ لماذا أفعل هذا ونحن وحدنا تماماً هنا وليس معنا أحداً؟ أظننى حمقاء؟"

نهضت وأخذت مقصها ومجموعة من الورق من فوق رف أعلى الموقد. تناثرت قصاصات الورق أثناء قيامها بقصه. تحركت الريح وجعلت تيارات الهواء ضوء الشموع يتفرق. كان وجهها حازماً وثابتاً وهادئاً كوجه بول أثناء عزفه للموسيقى، وكأنه يحمى نفسه من عالم ديفيد ويبحث له عن عالم آخر. برق مقصها

وتحركات عضلة فى فكها. وهو لم يخطر بباله من قبل أنها قد تؤذيه.

قال: "تلك الأعمال الورقية التى تقومين بها. إنها جميلة." "لقد علمتنى جدتى روز هذا. إن ذلك يدعى سكرينشينت. لقد ترعرعت فى سويسرا حيث يقومون على ما أعتقد بمثل هذه الأعمال طوال الوقت." "لابد أنها قلقة عليك."

"لقد ماتت. لقد ماتت العام الماضى". سكتت وهى تركز على قصاصاتها. "أنا أحب صنع هذه الأشياء. إنها تساعدنى على تذكرها." أوماً ديفيد ثم سأل: "هل تبدأين وفى مخيلتك فكرة بعينها؟"

قالت: "إن الفكرة تكمن فى الورق. أنا لا أخترع الأفكار بقدر ما أجدها."

أوماً. "إنك تجدينها. نعم. أنا أفهم ذلك. حينما ألتقط صوراً يكون الأمر كذلك. إن الأشياء تكون بالفعل هناك وأنا فقط أعثر عليها."

قالت روزمارى وهى تدير الورقة: "هذا صحيح. هذا صحيح تماماً."

سألها: "ماذا ستفعلين بى؟"

لم تجب واستمرت فى القص.

قال: "أريد الذهاب لدورة المياه."

أراد أن يصددها ليجعلها تتحدث ولكن ذلك كان حقيقياً أيضاً. أخذت تتفحصه للحظة. بعد ذلك وضعت مقصها وورقتها واختفت دون تعليق. سمعها تتحرك بالخارج فى الظلام. عادت وهى تمسك ببرطمان زبد فول سودانى فارغ.

قال: "اسمعى. من فضلك يا روزمارى، فكى وثاقى."

وضعت البرطمان ثم التقطت المقص مرة أخرى.

كنبات معترش سام؛ وقد كانت تشرب كثيراً ثم بدأت تقويم علاقات، ذلك السمسار عديم الأخلاق بالشاطئ وبعد ذلك آخرون، وقد حاول ألا يلاحظ وأن يسامحها لأنه كان يعلم أن الخطأ كان خطأه هو بشكل ما. صورة تلو الأخرى، وكأن بإمكانه إيقاف الوقت أو تصوير شيء قوى بما فيه الكفاية ليغطي على هذه اللحظة التي أعطى فيها ابنته لكارولين جيل.

كان صوته يعلو وينخفض. وبمجرد أن بدأ في الحديث لم يستطع إيقاف نفسه، تماماً كما لم يكن باستطاعته إيقاف المطر أو الجدول الذي يجرى أسفل الجبال أو الأسماك التي تسبح بلا نهاية بشكل متعرج مثل الذاكرة أسفل الثلج بالجدول. فكر بينه وبين نفسه "أجسام تتحرك"، هذا الهراء الذي كان يأخذه في مادة الفيزياء بالمدرسة الثانوية. لقد أعطى ابنته لكارولين جيل وهذا التصرف قد قاده إلى هنا بعد كل هذه السنوات إلى هذه الفتاة التي تتحرك داخل عالمها الخاص، تلك الفتاة التي قالت نعم لبعض الدقائق في مؤخرة سيارة أو في حجرة بمنزل ساكن، هذه الفتاة التي وقفت لاحقاً لترتدى ملابسها دون أن تعلم أن هذه الدقائق الأخيرة قد شكلت حياتها بالفعل.

كانت تنصت بينما تقص الورق. وقد أطلق صمتها هذا العنان لحريته. كان يتحدث مثل النهر، مثل عاصفة، فكانت الكلمات تتدفق داخل هذا المنزل القديم بقوة وحيوية لم يستطع إيقافها. وبعد قليل بدأ يبكي مجدداً ولم يكن في إمكانه إيقاف دموعه هذه المرة أيضاً. ولم تبد روزماري أى تعليق على الإطلاق. ظل يتحدث حتى أبطأت الكلمات ثم شحت ثم انقطعت تماماً.

ساد الصمت.

سألت: "كيف أمكنك التخلي عنها؟".

برق الضوء على نصلى مقصها. تذكر ديفيد بريق المشروط أثناء قيامه بقص فوهة الرحم، وكيف طفا خارج جسمه ليشاهد ما يحدث من الأعلى، كيف جعلت أحداث تلك الليلة عجلة حياته تتحرك، كيف أدى شيء للآخر، كيف انفتحت أبواب لا يقف عندها أحد وانغلقت أخرى حتى وصل إلى هذه اللحظة التي جمعتها بفتاة غريبة تصمم شيئاً معقداً بأوراقها وتنتظر منه الإجابة، ولم يكن هناك شيء يستطيع فعله أو قوله.

سأل: "هل هذا هو ما يؤرقك. إنك سوف تتخلين عن طفلك؟".

قالت بقوة وثبات: "مطلقاً. أنا لن أقوم بذلك قط". إذن لقد فعل أحدهم هذا بها، بطريقة أو بأخرى، وألقى بها في الماء لتغرق أو تسبح. كي تكون في السادسة عشرة وحاملاً ووحيدة، كي تجلس على هذه الطاولة.

قال ديفيد: "لقد أدركت أن ذلك كان خطأ. ولكن بعد فوات الأوان".

"إن الأوان لا يفوت قط".

قال: "إنك في السادسة عشرة من عمرك فقط. صدقيني القول، في بعض الأحيان يفون الأوان".

قطبت لحظة ولكنها لم تجب، فقط استمرت في القص، وفي سكون المكان بدأ ديفيد يتحدث مرة أخرى محاولاً في البداية تفسير ما حدث في تلك الليلة والعاصفة الثلجية والصدمة والمشروط البراق. كيف وقف خارج نفسه ورآها تتحرك في العالم. كيف ظل يستيقظ كل صباح من حياته طوال ثمانية عشر عاماً وهو يفكر أنه ربما يكون هذا هو اليوم، هذا هو اليوم الذي سيضع فيه الأمور في نصابها الصحيح. ولكن فويب كانت قد رحلت ولم يكن في استطاعته إيجادها، إذن كيف كان سيمكنه إخبار نورا؟ وقد ظل هذا السر يتغلغل في جوف زيجتهما

إنها لم تتحدث. كان المقص يبرق؛ سقطت الورقة نصف المقصوفة من فوق الطاولة على الأرض حينما وقفت. أغلق عينيه وهو يشعر بالخوف حيث إنه قد رأى الغضب فى عينيها، لأن كل شيء قد حدث كان نتيجة لخطئه.

سمع وقع أقدامها ثم شعر ببرودة المعدن فوق جلده. تحرر رسغاه. فتح عينيه ليراها تعود للخلف وهى تنظر بعينيها البراقتين والحذرتين مباشرة فى عينيه بينما يلمع مقصها.

قالت: "حسناً. يمكنك الرحيل".

٣

نادت "بول". كان كعباها يصدران صوتاً حاداً متقطعاً فوق الدرجات اللامعة وبعد ذلك كانت تقف عند باب الغرفة، نحيفة وأنيقة ترتدى حلة زرقاء ذات تنورة ضيقة وذات أكتاف مبطنة. ومن خلال عينيه اللتين كانتا مفتوحتين بالكاد استطاع بول أن يرى ما كانت تراه: ملابس مبعثرة فوق الأرض، تلال من الألبومات ونوتات موسيقية، جيتاره القديم فى الزاوية. هزت رأسها وتنهدت. قالت: "انهض يا بول. انهض الآن".

تمتم قائلاً بينما يجذب الغطاء فوق رأسه مما جعل صوته أجش: "أنا مريض". وخلال النسيج الواسع للغطاء الصيفي الخفيف كان يمكنه رؤيتها وهى تضع يديها فى جانبيها. كان ضوء الصباح الباكر ينعكس فوق شعرها جاعلاً خصلاته الحمراء والذهبية تبرق. وقد سمعها تحدث برى فى الهاتف وتشرح لها كيفية طهو وصفة ما وخبزها فى ورق الألومنيوم.

قال بول متذكراً أن يجعل صوته يبدو أجش: "لا بأس. لا بد أن تذهبي معها. سوف أكون بخير". تحدث بثقة ولكن جزءاً منه تمنى ألا تذهب وأن تبقى بالمنزل معه. "لن يستغرق الأمر طويلاً. سوف أعود على الفور." "أين أبي؟"

هزت رأسها. "ليست لدى فكرة. إنه ليس هنا. ولكن ليس هذا هو المعتاد؟"

لم يجب بول، فقط استلقى وأغلق عينيه. فكر بينه وبين نفسه: "نعم هذا هو المعتاد".

وضعت والدته يدها على وجنته برفق ولكنه لم يتحرك وبعد ذلك مضت في سبيلها تاركة برودة على وجهه حيث كانت تضع يدها. وبالطابق السفلى سمع صوت غلق الباب، وعلا صوت برى من الردهة. على مدار هذه السنوات الأخيرة أصبحا مقربتين، أمه وبرى، مقربتين لدرجة جعلتهما تبدوان متشابهتين، برى ذات الشعر ذى الخصلات مختلفة اللون كذلك والتي تحمل حقيبة أوراق في يدها. كانت لا تزال الشخص اللطيف ذاته، الشخص الذى خاض المخاطرة والذى نصحه باتباع صوت قلبه والتقديم فى جيلارد كما أراد. كان الجميع يحبون برى: حس المغامرة لديها، حيويتها. وقد كانت تجلب الكثير من الصفقات. كانت هى وأمّه قوتين تكملان بعضهما البعض، كما سمعها تقول. وقد رأى بول ذلك. إن برى ووالدته انتقلتا فى حياتهما كاللحن واللحن المضاف، والذى يستحيل وجود أحدهما دون الآخر. وبذلك ظلت أصواتهما تتداخل ثم سمع ضحكة والدته غير السعيدة وبعد ذلك صوت إغلاق الباب. جلس على الفراش وتمدد. فقد أصبح حراً.

كان المنزل هادئاً وسخان الماء يتك. هبط بول الدرج ووقف أمام الضوء البارد للثلاجة وهو يتناول المكرونة والجبن من أحد الأطباق بأصابعه ويتفحص الأرفف. لا يوجد الكثير من الطعام.

كانت تقلب اللحم أثناء حديثها وصوتها هادئ وعيناها حمراوان من البكاء فى وقت سابق. فوالده كان قد اختفى، وطوال ثلاثة أيام لم يعرف أحد إن كان حياً أو ميتاً. وبعد ذلك عاد والده ليلة أمس إلى المنزل وهو يسير عبر الباب وكأنه لم يرحل قط، وظل صوتاهما المتوتران يصلان إليه لساعات.

قالت الآن وهى تنظر بساعتها: "اسمع، أنا أعرف أنك لست مريضاً. وأنا أحب أن أنام مثلك تماماً والله يعلم هذا. ولكنى لا أستطيع وكذلك أنت. لذا انهض من فوق الفراش وارقد ملابسك وسوف أقوم بإيصالك إلى المدرسة".

قال فى إصرار جاعلاً صوته خشناً بقدر الإمكان: "إن هناك حريقاً فى حلقى".

ترددت وأغلقت عينيهما وتنهدت ثانية، فأدرك أنه قد فاز. حذرت قائلة: "إن مكثت بالمنزل فسوف تظل بالمنزل. لن تتسكع مع الموسيقيين أصحابك. واستمع لى، عليك تنظيف هذه الحظيرة. أنا جادة يا بول. إن لدى ما يكفينى من المشاغل الآن". تذمر قائلاً: "نعم. حسناً، سوف أقوم بذلك".

وقفت لحظة أخرى دون كلام. قال أخيراً: "إن هذا صعب. إن هذا صعب بالنسبة لى أيضاً. كنت أود أن أمكث معك يا بول ولكننى وعدت برى بأننى سوف أصطحبها إلى الطبيب".

ارتفع مستنداً على مرفقيه فى ذلك الحين بعدما أقلقته نبذة صوتها الكئيبة. "هل هى بخير؟".

أومأت أمه ولكنها كانت تنظر خارج النافذة دون أن تنظر إليه مباشرة فى عينيه. "أعتقد هذا. إنها سوف تخضع لبعض الاختبارات وهى قلقة بعض الشيء وهذا طبيعى. وقد وعدتها الأسبوع الماضى بأننى سوف أذهب معها. قبل حدوث كل ذلك مع والدك".

أجفلت الفتاة فى ذلك الحين وأشاحت بوجهها، وقد وقعت عينا بول على معدتها والتي كانت مسطحة أسفل معطفها فيما عدا أنها وضعت يداً بطريقة تنطوى على الحماية على بطنها مما جعله يرى تضخمها الخفيف أسفل معطفها. وقف فى سكون شديد. استمرت المجادلة؛ بدا له أنها ستستمر وقتاً طويلاً. وأخيراً جذبت أمه فى صمت الملاءات والشراشف والوسادات من خزانة البياضات وألقتها جميعاً على الدرجات عند قدمى والده والذى أخذ الفتاة بشكل رسمى للغاية من مرفقها إلى الحجرة الصغيرة.

الآن كانت تنام على الأريكة التى تتحول إلى فراش بينما رأسها متجه للجانب وإحدى يديها ترقد بالقرب من رأسها. بدأ يتفحصها، الطريقة التى كانت جفناها تتحركان بها، الارتفاع والانخفاض البطيء لصدرها. كانت ترقد على ظهرها وقد ارتفعت بطنها مثل موجة صغيرة وقد سرت القشعريرة فى جسد بول وشعر بالخوف. لقد مارس العلاقة الحميمة مع لورين لوبجلىو ست مرات منذ مارس الماضى. فهى ظلت تتسكع حول بروفات الفرقة لأسابيع تشاهده دون أن تتحدث: كانت جميلة وهزيلة وغريبة. وفى فترة بعد الظهيرة من أحد الأيام مكثت بعدما غادر جميع أفراد الفرقة، ولم يكن هناك سواهما بسكون المرآب، بينما كان الضوء يتحرك خلال أوراق الشجر بالخارج ويكون ظلالاً وامضة على الأرضية الخرسانية. كانت غريبة الأطوار ولكن جذابة وذات شعر طويل وكثيف وعينين سوداوين. جلس على مقعد المرجة القديم وهو يضبط أوتار جيتاره متسانلاً إن كان عليه الذهاب حيث تقف عند جدار الأدوات وتقبيلها.

ولكن لورين هى التى عبرت الغرفة. وقفت أمامه ثم جلست ومارسا العلاقة الحميمة معاً. هذا هو ما قاله الآخرون، هذا هو ما تفعله لورين لوبجلىو إن حزت على إعجابها. وهو لم يعت

وفى المجدد وجد كعكاً بالنعناع. تناول حفنة منه ساكباً فوق أقراص الشوكولاتة الباردة لبنا شربه مباشرة من العبوة. تناول حفنة أخرى ثم سار وهو يحمل عبوة اللبن عبر غرفة المعيشة حيث كانت ملاءات أبيه مكومة بترتيب على الأريكة ثم ذهب إلى الغرفة الصغيرة.

كانت الفتاة لا تزال هناك، نائمة. وضع كعكة أخرى فى فمه تاركاً النعناع والشيكولاتة يذوبان ببطء بينما يقوم بتفحصها. فى الليلة الماضية علت أصوات والديه الغاضبة والمعتادة ووصلت إلى غرفته، وبالرغم من أنهما كانا يتشاحنان إلا أن هذه المشاحنة جعلت الحجر الذى تكون فى حلقه من فكرة استلقاء أبيه ميتاً فى مكان ما واختفائه للأبد - يتفتت على الفور. نهض بول من الفراش وبدأ يهبط الدرج ولكنه توقف عند منبسط الدرج وأخذ يحدق فيما يحدث: والده يرتدى قميصه الأبيض الذى ظل يرتديه طوال أيام دون غسيل، بنطاله المبقع فى كل مكان بالطين، اللحية الكاملة التى تغطى وجهه وشعره غير المشط؛ والدته التى ترتدى روبها الخوخى الساتان ونعلها وتعقد ذراعيها أثناء تضيق عينيها، وهذه الفتاة - تلك الغريبة - تقف بالباب وهى ترتدى معطفاً كبيراً للغاية تمسك بكُميه بأطراف أصابعها. كانت أصوات والديه تتداخل وترتفع. نظرت الفتاة لأعلى عبر كل هذا الغضب بالمكان وتلاقت عيناها. حدق بها وهو يتفحصها: شحوبها ونظرة عينيها التى يشوبها الشك، أذناها المنحوتتان برقة بالغة. كانت عيناها بنيتين وصافيتين ومتعبتين للغاية. لقد أراد أن يهبط الدرج ويضع وجهها بين يديه.

كانت أمه تقول: "ثلاثة أيام، ثم تعود إلى المنزل فى هذه الحالة - يا إلهى. انظر إلى نفسك يا ديفيد فى هذه الحالة المزرية وبصحبة هذه الفتاة. إنها حامل كما تقول؟ ومن المفترض أن أستقبلها دون أن أطرح أية أسئلة؟".

قط أن هذا صحيح ولكن ها هو ذا يضع يديه أسفل قميصها ليستشعر حرارة جسمها.

لم يكن ذلك من الصواب في شيء. كان يعلم ذلك، ولكن الأمر كان يشبه السقوط. بمجرد أن تبدأ لا تستطيع التوقف إلى أن يوقفك شيء ما. وقد كانت تتسكع بالمكان كالسابق، فيما عدا أن الآية قد انقلبت الآن، فحينما يكونان وحدهما كان هو من يعبر الغرفة ويذهب إليها.

تنهدت الفتاة النائمة في الفراش وتحركت شفتاها. وقد حذره أصدقاؤه من لورين قائلين إنها فتاة لعبوب. وكان أكثر من قام بتحذيره هو ديوك ماديسون والذي كان قد ترك المدرسة ليتزوج صديقته بالعام الماضي وأصبح بالكذ يعزف على البيانو وينظر إلى الساعة في قلق كلما فعل ذلك. "إذا جعلتها تحمل فسوف تهلك لا محالة".

بدأ بول يتفحص الفتاة، شحوبها وشعرها الأسود الطويل والنمش المتناثر على وجهها. من هي؟ إن والده النظامي مثل الساعة قد اختفى ببساطة. وفي اليوم التالي اتصلت والدته بالشرطة والتي ظلت غير مكترثة بالأمر حتى تم العثور على حقيبة أوراقه في حجرة الإيداع بالمتحف في بتسبرج وحقيبة ملابسه وكاميرته في الفندق. في ذلك الحين اهتموا بالأمر. لقد تمت مشاهدته في قاعة الاستقبال يتجادل مع امرأة ذات شعر أسود. وقد اتضح أنها ناقدة فنية، وقد عبرت عن رأيها عن المعرض في صحف بتسبرج منتقدة إياه بشدة.

وقد أخبرت الشرطة أن الأمر ليس شخصياً.

وبعد ذلك دخل مفتاح ليلة أمس بالقفل ودخل والده إلى المنزل بصحبة هذه الفتاة الحامل التي ادعى أنه قابلها لتوه، تلك الفتاة التي لم يستطع تبرير وجودها. كل ما قاله إنها بحاجة للمساعدة.

قالت أمه متحدثة عن الفتاة وكأنها لا تقف بالردهة مرتدية هذا المعطف الفضفاض: "إن هناك العديد من الطرق لتقديم المساعدة. فأنت تقدم المال أو تأخذها إلى مكان يساعد الأمهات غير المتزوجات. فأنت لا تختفى لأيام دون أن نسمع كلمة منك ثم تظهر بصحبة فتاة حامل. يا إلهي، يا ديفيد ألا تملك أدنى فكرة عما عانينا؟ لقد اتصلنا بالشرطة؟ لقد ظننا أنك قد مت".

قال بينما تقمع غرابة رده احتجاجات والدته وتسمر بول في مكانه فوق الدرجات: "ربما كنت ميتاً".

والآن كانت نائمة بدون اكتراث لأي شيء وبداخلها الطفل الذي ينمو في بحر مظلم. مد بول يده ولمس شعرها برفق ثم ترك يده تسقط. لقد ساورته رغبة فجائية بأن يستلقي على الفراش إلى جوارها ويحتضنها. لم يكن الأمر يشبه علاقته بلورين، إنه لم يكن يفكر في الجنس، كل ما أراده هو أن يشعر بها إلى جواره، جلدها ودفنها. أراد أن يستيقظ إلى جوارها وأن يمرر يده ويلمس وجهها ويمسك يدها.

أراد أن يكتشف ما تعرفه عن أبيه.

طرفت بعينيها وفتحتهما، وللحظة ظلت تحديق فيه وهي لا تراه جيداً. بعد ذلك جلست سريعاً وهي تمرر يديها خلال شعرها. كانت ترتدي أحد قمصانه القديمة والذي كان أزرق اللون ومطبوعاً عليه من الأمام شعار وايلد كاتس في كنتاكي والذي ارتداه منذ عامين أثناء مسابقة الركض. كان ذراعاها طويلتين ونحيلتين.

وضعت قدميها على الأرض: "إلام تنظر؟".

هز رأسه وهو غير قادر على التحدث.

قالت: "أنت بول. لقد أخبرني والدك عنك".

سأل وهو يبغض اللهفة التي ظهرت في صوته: "هل فعل؟

ماذا قال؟".

قال بول: "إن ذلك ليس منطقيًا. لماذا قد يفعل شيئاً مثل هذا؟".

هزت كتفيها: "كيف لي أن أعرف؟ لقد كنت أعيش في هذا المنزل القديم حيث نشأ، وقد قال إنني ليس بإمكانني أن أعيش هناك بعد الآن. وهو يملك المنزل بالرغم من كل شيء، أليس كذلك؟ ماذا كان يمكنني أن أقول له؟ وفي الصباح ذهبنا إلى المدينة واشترى تذاكر أتوبيس وأتيننا إلى هنا. كان الأتوبيس يسير ببطء شديد وقد قطعنا المسافة في وقت طويل".

جذبت شعرها الطويل للخلف في ذيل قمرس بينما يراقبها بول وهو يفكر في مدى جمال أذنيها متسائلاً إن كان والده يعتقد أنها جميلة أيضاً.

سأل بول وهو يشعر بشيء حاد وساخن يتأجج بصدرة: "أي منزل قديم؟".

قالت وهي تنظر للأرض: "كما قلت. المنزل الذي نشأ فيه. لقد كنت أعيش هناك. ولم يكن لدى مكان آخر للذهاب إليه".

شعر بول في ذلك الحين بشيء يملؤه، شيء لم يستطع إطلاق اسم عليه. الحسد ربما، لأن هذه الفتاة الذليلة والشاحبة والغريبة ذات الأذنين الجميلتين ذهبت إلى مكان ذي أهمية كبيرة لوالده، مكان لم يره هو قط. كان والده قد وعده قائلًا: "سوف آخذك إلى هناك في وقت ما" ولكن مرت السنوات دون أن يأتي على ذكر هذا الأمر مجدداً. ومع ذلك فلم ينس بول هذا الموضوع مطلقاً، الطريقة التي جلس بها والده وسط حطام غرفته المظلمة، وهو يلتقط الصور واحدة تلو الأخرى بحرص شديد.

"أمي يا بول، جدتك. لقد عاشت حياة قاسية. وقد كان لي أخت، هل كنت تعرف ذلك؟ كان اسمها جون. كانت بارعة في الغناء والموسيقى مثلك تماماً". كان يتذكر إلى ذلك اليوم الرائحة النظيفية التي كانت تصدر من أبيه في ذلك الصباح، والذي كان يرتدي ملابس استعداداً للذهاب إلى المستشفى، ومع

هزت كتفيها ودفعت شعرها خلف أذنها ووقفت قالت: "دعني أتذكر. إنك عنيد، وإنك تبغضه، وإنك عبقرى في عزف الجيتار".

شعر بول بالحرارة وهي تتصاعد على وجهه. فكان يعتقد أن والده لا يراه حتى أو كان فقط يرى الأشياء التي لا يجيدها.

قال: "أنا لا أبغضه. إنه هو من يبغضني".

انحنى لالتقاط الملاءات ثم جلست وهي تحملها بين ذراعيها وتنظر حولها.

قالت: "إنه منزل لطيف. يوماً ما سأشتري منزلاً مثل هذا".

ضحك بول فجأة. قال: "إنك حامل". كان خوفه هو الذي يملأ المكان، الخوف الذي كان يتسلل إليه في كل مرة يعبر فيها المرائب متجهاً إلى لورين لوبجليو والشهوة تملؤه.

"صحيح. ماذا في ذلك؟ أنا حامل ولست ميتة".

تحدثت بحزم ولكنها بدت خائفة، ذلك الخوف الذي كان يساور بول في بعض الأحيان فيجعله يستيقظ في منتصف الليل وهو يحلم بلورين، دفئها وصوتها الخفيض في أذنه، مدركاً أنه لن يتوقف قط حتى بالرغم من أنهما كان متوجهين إلى كارثة.

قال: "ربما تكونين كذلك".

نظرت إلى الأعلى في حدة وقد ترعرغت عيناها بالدموع وكأنه قام بصفعها.

قال: "أنا آسف. أنا لم أقصد شيئاً".

استمرت في البكاء.

سأل وهو يشعر بالغضب من دموعها ووجودها في حد ذاته: "ماذا تفعلين هنا بأية حال. أقصد من تظنين نفسك لتلتصقي بوالدي على هذا النحو وتأتي معه إلى هنا؟".

قالت بعدما أفرعتها نبرة صوته وقامت بمسح الدموع من عينيها وأصبحت أكثر صلابة وشروداً: "لا أظن أنني أي أحد. وأنا لم أطلب من والدك أن يأتي بي إلى هنا، لقد كانت فكرته".

كتفاها نحيفتين ورقيقتين، وكانت تسير بببطء ورشاقة وكأنها راقصة.

نادى بول قائلاً: "انتظري" ولكن حينما توقفت لم يعرف ماذا يقول.

قالت برقة وهي تنظر من وراء كتفها: "لقد أردت مكاناً أقيم فيه. هذا هو كل ما تحتاج إلى أن تعرفه عنى يا بول".

راقبها داخل المطبخ وسمع صوت باب الثلاجة يفتح وينغلق. بعد ذلك صعد إلى الطابق العلوى وأخذ الملف الذى كان يخفيه داخل درجه السفلى ويمتلئ بالصور التى احتفظ بها منذ تلك الليلة التى تحدث فيها مع أبيه.

أخذ الصور وجيتارته وخرج إلى الشرفة وهو عارى القدمين والنصف العلوى من جسمه. جلس على الأرجوحة وبدأ يعزف وهو يراقب هذه الفتاة وهى تتحرك خلال الغرف بالداخل: المطبخ، غرفة المعيشة، غرفة الطعام. ولكنها لم تفعل سوى القليل، فقط تناولت بعض الزبادى ثم وقفت لوقت طويل أمام رف كتب أمه قبل أن تسحب رواية وتجلس على الأريكة.

استمر فى العزف. وقد بثت فيه الموسيقى السكينة، وكانت هى الوسيلة الأكثر فاعلية التى يستطيع من خلالها استعادة هدوئه. فكانت تجعله يدخل كوكبا آخر حيث يبدو له أن يديه تتحركان بشكل آلى. كان يعزف النغمة التالية ثم التالية لها وهكذا. وصل إلى نهاية المقطوعة ثم توقف مغلقاً عينيه تاركاً النغمات تتبدد فى الهواء.

إنها لن تتكرر مرة أخرى. ليست هذه الموسيقى وليست هذه اللحظة.

"واو". فتح عينيه ووجدها تميل على عضادة الباب. دفعت الباب الزجاجى لتفتحه وخرجت إلى الشرفة وهى تحمل كوباً من

ذلك فقد جلس على الأرض فى الغرفة المظلمة وشرع فى التحدث وكأن لديه متسعاً من الوقت لا نهاية له وقص على بول حكاية لم يسبق له سماعها.

قال بول: "إن أبى طبيب. إنه فقط يحب مساعدة الآخرين". أومأت ثم نظرت إليه مباشرة، بينما ينم تعبير وجهها عن شيء ما - الشفقة إزاءه، هذا هو التعبير الذى استطاع قراءته على وجهها والذى انتقل على إثره التوهج إلى أطراف أصابعه. قال: "ماذا؟".

هزت رأسها. "لا شيء. أنت محق. لقد كنت بحاجة للمساعدة. هذا هو كل ما فى الأمر".

سقطت خصلة شعر من ذيل الفرس على وجهها والتى كانت شديدة السواد ويتخللها شعيرات حمراء، وقد تذكر إلى أى مدى كان شعرها ناعماً حينما لمسه وهى نائمة، ناعماً ودافئاً، وقد قاوم رغبة ملحة لد يده ودفع هذه الخصلة وراء أذنها.

قال بول بينما يتذكر الحكاية وصوت أبيه الرخيم والهادئ محاولاً اكتشاف إذا ما كان صحيحاً أنها كانت تعيش بهذا المنزل فعلاً: "إن أبى كان له شقيقة".

"أعلم. جون. وقد دفنت بجانب التل فوق المنزل. لقد ذهبنا إلى هناك أيضاً".

زاد غضبه جاعلاً إياه يجد صعوبة فى التنفس. ما أهمية معرفتها لكل هذه المعلومات؟ ما الفارق الذى يحدثه هذا؟ ومع ذلك فلم يستطع منع نفسه من تخيلها هناك، تسير فوق تل ما وراء أبيه إلى هذا المكان الذى لم يره من قبل.

قال: "ماذا إذن؟ لقد كنت هناك، إذن ماذا؟".

بدت أنها على وشك التحدث ولكنها فى ذلك الحين استدارت وبدأت تسير عبر الغرفة متجهة إلى المطبخ. كان شعرها الطويل المجموع داخل حبل طويل يثب فوق ظهرها. كانت

الماء وجلست. قالت: "واو، إن أباك كان محقاً. إن ذلك كان رائعاً".

قال وهو يغطي وجهه لإخفاء سعادته. ويضرب على أحد الأوتار: "شكراً لك". لقد حررتة الموسيقى؛ فهو لم يعد غاضباً. "ماذا عنك؟ هل تعزفين؟"

"لا. كنت فقط آخذ دروساً في البيانو".

قال وهو يومئ تجاه الباب: "إن لدينا بيانو. تفضلي واعزفي عليه".

ابتسمت بالرغم من أن عينيها كانتا لا تزالان جادتين: "لا بأس. شكراً لك. أنا لست في حالة مزاجية تؤهلني لذلك. بالإضافة إلى ذلك فأنت حقاً ماهر. فأنت تعزف مثل المحترفين. وأنا سوف أشعر بالإحراج إن عزفت شيئاً سخيلاً مما أعرفه مثل مقطوعة فور إليس".

ابتسم أيضاً: "فور إليس. أنا أعرف هذه المقطوعة. يمكننا عزفها معاً".

كررت وهي تومئ وتقطب قليلاً: "عزفها معاً". ثم نظرت للأعلى وسألت: "هل أنت طفل وحيد؟".

أجفل ثم قال: "نعم ولا. أعني أنه كانت لي شقيقة. توأم. ولكنها ماتت".

أومأت روزماري. "هل تفكر فيها؟".

"بالتأكيد". شعر بعدم الراحة وأشاح بوجهه. "ليس فيها تماماً فأنا لم أعرفها قط. ولكن فيما كانت ستبدو عليه".

تورد وجهه في ذلك الحين وهو يشعر بالصدمة لأنه أفضى بالكثير لهذه الفتاة، تلك الغريبة التي اقتحمت حياتهم، تلك الفتاة التي لم تحز حتى على إعجابه.

قال: "حسناً. الآن جاء دورك. أخبريني بشيء شخصي. شيء لا يعرفه أبي".

نظرت إليه بطريقة متفحصة.

قالت أخيراً: "أنا لا أحب الموز" ثم ضحك وضحكت هي بعده. "هذا صحيح، أنا لا أحبه. ماذا أيضاً؟ حينما كنت في الخامسة سقطت من فوق دراجتي وانكسرت ذراعي".

قال بول: "وأنا أيضاً. لقد انكسرت ذراعي حينما كنت في السادسة. لقد سقطت من فوق شجرة". تذكر هذه الحادثة والطريقة التي حمله بها والده والطريقة التي برقت بها السماء التي كانت تتوسطها الشمس وتتخللها أوراق الشجر، بينما كان محمولاً إلى السيارة. تذكر يدي والده اللتين كانتا رقيقتين ودقيقتين بينما يقوم بتجبير العظام ثم أثناء حمله له ثانية في ضوء فترة ما بعد الظهر الذهبية الساطع.

قال: "أريد أن أريك شيئاً".

وضع الجيتار فوق الأرجوحة والتقط الصور الأبيض والأسود. سأل وهو يعطيها إحدى الصور: "هل هذا هو المكان؟ المكان الذي قابلت فيه والدي؟".

أخذت الصورة وتفحصتها ثم أومأت. "نعم. ولكنه يبدو مختلفاً الآن. أستطيع أن أرى من خلال هذه الصورة - تلك الستائر الجميلة بالنوافذ والزهور - إنه كان منزلاً جميلاً فيما سبق. ولكن لا يعيش أحد به الآن. كان شاغراً. وكانت الريح تتخلله لأن النوافذ مكسورة. حينما كنت طفلة اعتدت اللعب هناك. فقد اعتدنا الركض بجموح في هذه التلال واعتدت ممارسة لعبة المنزل مع أولاد عمومتى. لقد قالوا إنه كان مسكوناً بالأشباح ولكنني كنت أحبه. ولا أعرف السبب في ذلك. لقد كان بمثابة مكاني السري. في بعض الأحيان كنت فقط أجلس بالداخل وأحلم بما سوف أكونه".

أوماً وأخذت الصورة متفحصاً الأشخاص الذين كانوا يطلون منها كما فعل قبل ذلك كثيراً وكأنهم سوف يجيبون عن جميع أسئلته بشأن والده.

قال أخيراً وهو ينظر للأعلى: "إنك لم تحلمي بهذا".

يصدر صوت صدى فى الشارع. بعد ذلك كان هناك وقع أقدام علت على إثره أصوات والديه الحازمة خلف حافة الشرفة. فتحت روزمارى فمها وكأنها تريد أن تنادى ولكن بول رفع إحدى يديه وهز رأسه وجلسا فى صمت معا يستمعان.

قالت أمه: "هذا اليوم. هذا الأسبوع. لو فقط علمت يا ديفيد مدى الألم الذى سببته لنا".

"أنا آسف. أنت محقة. كان يجب أن أتصل. كنت أنوى هذا." "هل يفترض لهذا أن يكون كافياً؟ ربما يمكننى أن أرحل أنا أيضاً. بهذه البساطة. ربما يمكننى أن أرحل ثم أعود وبصحبتى رجل وسيم دون أى تفسير. ما رأيك فى هذا؟".

ساد الصمت وتذكر بول كومة الملابس البراقة الملقاة على الشاطئ. فكر فى الأمسيات العديدة التى لم تعد فيها والدته قبل منتصف الليل. عمل، كانت دوماً تتنهد وهى تخلع نعليها فى الردهة وتذهب إلى الفراش مباشرة. نظر إلى روزمارى التى كانت تنظر إلى يديها وأجبر نفسه على السكون بينما يشاهدها وينصت وينتظر ليرى ماذا سيحدث بعد ذلك.

قال والده أخيراً: "إنها فقط طفلة. إنها فى السادسة عشرة وحامل وكانت تعيش فى منزل مهجور وحدها. لم يكن باستطاعتى تركها هناك".

تنهدت والدته. تخيلها بول تمرر إحدى يديها فى شعرها. سألت بهدوء: "هل تلك هى أزمة منتصف العمر؟".

تحدث أبوه بصوت عميق وبطء وكأنه يدرس الدليل بتمعن "أزمة منتصف العمر؟ أفترض هذا. أعلم أننى اصطدمت بجدار ما يا نورا. فى بتسبرج. لقد عشت حياة صعبة وأنا شاب. فلم تتح لى الفرصة كى أكون شيئاً آخر. لذا فقد عدت لإعادة النظر فى بعض الأمور. وهناك وجدت روزمارى فى منزلى القديم. لا يبدو هذا وكأنه مصادفة. لا أعلم، لا أستطيع شرح الأمر دون أن أبداً

قالت برقة: "إطلاقاً. لم أحلم بهذا قط".

ظلا صامتين لبضع دقائق. مالت أشعة الشمس خلال الأشجار وألقت بظلال على أرض الشرفة المصقولة.

قالت بعد دقيقة وهى تستدير تجاهه: "حسناً، إنه دورك مرة أخرى".

"دورى؟".

"أخبرنى بشيء لا يعرفه والدك".

قال والكلمات تندفع من فمه مثل الموسيقى داخل الغرفة: "أنا ذاهب إلى جيلارد". وهو لم يخبر أحداً عن هذا الأمر فيما عدا والدته. "لقد كنت الأول فى قائمة الانتظار وتم قبولى الأسبوع الماضى".

ابتسمت وهى تبدو حزينة بعض الشيء: "واو. ولكننى كنت أظن أنك ستخبرنى شيئاً عن خضراواتك المفضلة ولكن هذا عظيم يا بول. طالما اعتقدت أن الالتحاق بالجامعة هو أمر رائع حقاً".

قال وهو يدرك فجأة حجم خسارتها: "هل كنت ستذهبين إلى الجامعة؟".

"سوف أذهب. سوف أذهب بدون شك".

قال بول مدركاً قوة عزميتها والطريقة التى كانت تخفى بها خوفها: "سوف أضطر فى الغالب للتكفل بمصروفاتى. فأبى مصمم على أن أسلك سبيلاً ذا مستقبل مضمون. إنه يبغض الموسيقى".

قالت وهى تنظر للأعلى فى حدة: "أنت لا تعرف ذلك. أنت لا تعرف قصة حياة أببك كاملة".

لم يعرف بول كيف يجيبها وجلسا صامتين لعدة دقائق. وقد كان يحجبهما عن الشارع تعريشة نباتات ياسمين البر والتى تغطيها الزهور الأرجوانية والبيضاء المزدهرة، لذا فحينما توقفت السيارتان أمام المنزل واحدة تلو الأخرى وعاد أبوه وأمّه للمنزل فجأة فى منتصف اليوم رآهما بول بشكل متقطع. تبادل هو وروزمارى النظرات. علا صوت غلق باب السيارتين وهو

مجنوناً. ولكن من فضلك ثقي بى. أنا لست واقعاً فى حبها. إن الأمر ليس كذلك".

نظر بول إلى روزمارى. كانت تثنى رأسها حتى لا يستطيع رؤية التعبير المرتسم على وجهها ولكن وجنتيها كانتا متوردتين. التقطت ظفراً مكسوراً ولم تنظر له فى عينيه.

قالت أمه ببطء: "لا أعلم ماذا أصدق. هذا الأسبوع يا ديفيد من بين كل الأسابيع. هل تعلم أين كنت لتوى؟ لقد كنت مع برى عند طبيب الأورام. لقد خضعت لعملية استئصال نسيج من الجلد الأسبوع الماضى فى ثديها الأيسر. كان ورماً صغيراً للغاية وكان التكهين بالمرض جيداً ولكن اتضح أنه خبيث".

"لم أكن أعرف هذا يا نوراً. أنا آسف".

"لا، لا تلمسنى يا ديفيد".

"من هو جراحها؟"

"إد جونز".

"إد طبيب ماهر".

"من الأفضل له أن يكون كذلك. ديفيد، إن أزمة منتصف العمر خاصتك هى آخر ما أحتاجه".

شعر بول الذى كان ينصت بالعالم يبطئ من حوله بعض الشيء. فكر فى برى وفى ضحكتها السريعة والتي كانت تجلس لساعة كاملة تنصت إليه يعزف، بينما تتحرك الموسيقى بينهما مما لا يجعلهما بحاجة للتحدث. كانت تغلق عينيها وتستلقى على الأرجوحة وتنصت. ليس بإمكانه تخيل العالم من دونها.

سأل والده: "ماذا تريدون؟ ماذا تريدون منى يا نوراً؟ سألنى إن أردت أو سأرحل. ولكن ليس بإمكانى طرد روزمارى. فهى ليس لديها مكان تذهب إليه".

ساد الصمت وانتظر وهو غير قادر على التنفس تقريباً، يريد أن يعرف ماذا ستقول والدته وهو لا يريد أن تجيب قط.

سأل مما جعله هو نفسه يفزع: "ماذا عنى؟ ماذا عما أريده أنا؟".

نادت أمه: "بول؟".

قال وهو يرفع جيتاره: "هنا. بالشرفة. أنا وروزمارى".

قال والده: "يا إلهى". بعد مرور ثوان جاء إلى الدرجات. ووالده الآن قد استحم وحلق ذقنه وارتدى قميصاً نظيفاً. كان نحيلاً وبدا متعباً. وكانت أمه تبدو متعبة كذلك والتي جاءت ووقفت إلى جواره.

وقف بول أمام والده. "سوف أذهب إلى جيلارد يا أبى. لقد اتصلوا بى الأسبوع الماضى، فقد تم قبولى وسوف أذهب".

انتظر بعد ذلك أن يقول والده كلامه المعتاد: كيف أن مهنة الموسيقى غير مضمونة المستقبل. وكيف أن بول لديه العديد من الاختيارات؛ بإمكانه دوماً أن يعزف ويستمتع بالعزف حتى إن اختار درباً آخر فى حياته. انتظر أن يصبح والده حازماً وعقلانياً ومقاوماً حتى يستطيع بول التنفيس عن غضبه. كان متوتراً ومستعداً ولكنه تفاجأ حينما رأى أن والده قام بالإيماء فقط.

قال والده: "أنا سعيد لأجلك". وبعد ذلك امتلأ وجهه بهجة واختفت تقطية القلق من فوق جبهته. وحينما تحدث كان صوته هادئاً وواثقاً: "إن كان هذا ما تريده يا بول، فامض قدماً. اذهب وابذل قصارى جهدك وكن سعيداً".

وقف بول فى حيرة بالشرفة. طوال هذه السنوات، فى كل مرة يتحدث فيها هو والده كان يشعر أنه يصطدم بجدار. والآن اختفى الجدار بشكل غامض ولكنه كان لا يزال يركض وهو يشعر بالدوار وعدم الثقة فى مكان مفتوح.

قال والده: "بول؟ أنا فخور بك يا بنى".

كان الجميع ينظرون إليه الآن وكانت هناك دموع بعينيه. لم يعرف ماذا يقول، لذا بدأ فى السير، أولاً كى يبتعد عنه لإعفاء نفسه الشعور بالإحراج، ثم بدأ يركض والجيتار لا يزال فى يده.

السيارة، إحدى هؤلاء السيدات اللاتي يضعن الكثير من مساحيق التجميل ويعملن كسكرتيرات في مكان حقير كمتجر للتنظيف الجاف أو ربما بنك. عاد بالسيارة للخلف. مازال لا شيء: لا صيحات، لا سرينات. نقل ناقل الحركة إلى القيادة ومضى في سبيله.

وهو لا يعرف الكثير عن القيادة ولكنها بدت مشابهة للجنس إلى حد كبير: فإن تظاهرت بأنك تعرف كل شيء فسرعان ما سوف تعرف، فالأمر سرعان ما يصبح تلقائياً. عند المدرسة الثانوية كان نيد ستون ورائدى ديلانى يتسكعان عند الزاوية بينما يلقيان بأعقاب في العشب قبل أن يذهبا للدخول، وبحث عن لورين لوبجوليو والتي كانت تتسكع أحياناً معهما والتي كانت أنفاسها عادة ما تكون عابقة برائحة الدخان حينما يقبلها.

انزلق الجيتار. أوقف السيارة ولف حوله حزام الأمان. سيارة جرملين لعينة. أصبح داخل المدينة الآن وبدأ يتوقف بحرص في كل إشارة في هذا اليوم النابض بالحياة وأزرق اللون. فكر في عيني روزماري الممتلئتين بالدموع. إنه لم يقصد أن يجرحها ولكنه فعل. وقد حدث شيء ما، تغير شيء ما. كانت هي جزءاً منه بينما لم يكن هو، بالرغم من أن وجه والده قد امتلأ للحظة بالسعادة من أجله. واصل بول القيادة. إنه لم يرغب في أن يوجد بالمنزل ويشهد الأحداث التالية. وصل إلى المكان الفاصل بين ولايتين حيث تشعب الطريق واتجه غرباً إلى لويسفيل. برقت كاليفورنيا في عقله: الموسيقى هناك والشاطئ اللامتناهى. إن لورين لوبجوليو سوف تفرض نفسها الآن على أحد آخر. إنها لا تحبه وهو لا يحبها؛ لقد كانت مثل الإدمان وما كانا يفعلانه كان بمثابة العبء أو الشيء الأسود. كاليفورنيا. سرعان ما سيصل إلى الشاطئ ويعزف في فرقة ويعيش حياة رخيصة وسهلة طوال الصيف.

نادته أمه: "بول". وحينما استدار وعاد للخلف بضغ خطوات رأى إلى أي مدى كانت شاحبة وكيف كانت تعقد ذراعيها أمام صدرها بينما يرفع شعرها المصبوغ حديثاً في خصلات الريح. فكر في برى، ما قالت أمه، وكيف أنهما أصبحتا متشابهتين لدرجة كبيرة - أمه وخالته - وشعر بالخوف. تذكر والده وهو يقف بالردهة وملابسه قذرة ولحيته طويلة وشعره أشعث. وهو الآن في هذا الصباح أصبح نظيفاً وهادئاً ولكنه مازال مختلفاً. فوالده - الذي يرى نفسه لا يخطئ أبداً والدقيق والواثق من نفسه - أصبح شخصاً آخر. وفي الخلف وبينما تحجبها جزئياً تعريشة ياسمين البر وقفت روزماري تنصت وهي عاقدة ذراعيها وشعرها ينسدل فوق كتفيها الآن، وقد تخيلها في المنزل عند التل تتحدث إلى والده وتستقل معه الأتوبيس لساعات طويلة، والتي تعد بشكل ما جزءاً من هذا التغيير الذي حل بوالده، ومرة أخرى كان خائفاً مما يحدث لهم جميعاً. لذا فقد ركض.

كان يوماً مشمساً وداقناً. وقد لوح السيد فيري والسيدة بول من شرفتيهما. رفع بول الجيتار ملوحاً لهما واستمر في الركض. ابتعد ثلاث بنايات عن المنزل ثم خمس ثم عشر. وعبر الشارع وأمام أحد البيوت المكونة من طابق واحد وقفت سيارة خالية ومحركها يعمل. فقد نسي مالكها شيئاً على الأرجح وركض داخل المنزل لأخذ حقيبة أوراق أو معطف. توقف بول. كانت سيارة جرملين قصديرية اللون، أقبح سيارة في الكون والتي يغطي حوافها الصدأ. عبر الشارع وفتح باب السائق واستقل السيارة. لم يصح أحد ولم يخرج أحد مندفعاً نحوه من المنزل. أغلق الباب وضبط المقعد متيحاً مساحة لساقيه. وضع الجيتار على المقعد إلى جواره. كانت السيارة أوتوماتيكية مبعثراً داخلها أغلفة حلوى وأعقاب سجائر. فكر أن شخصاً فاشلاً تماماً يمتلك هذه

وفى الخريف سيجد طريقة للذهاب إلى جيلارد. فسوف يسافر متطفلاً عبر المدينة. ظل فاتحاً النافذة طوال الطريق، تاركاً هواء الربيع يتدفق للداخل. لم تزد سرعة الجرملين عن ٥٥ حتى بالرغم من ضغطه على دواسة البنزين حتى اصطدامها بالأرض. وبالرغم من ذلك فقد شعر وكأنه يطير.

لقد أتى إلى هذا الطريق من قبل فى رحلات المدرسة التقليدية، حينما ذهب إلى حديقة حيوان لويسفيل، وقبل ذلك فى تلك الرحلات الجامحة التى كانت أمه تأخذه فيها حينما كان صغيراً، حيث كان يرقد فى المقعد الخلفى يشاهد أوراق وفروع الأشجار وخطوط الهوائى وهى تبرق خارج النافذة. كانت تغنى بصوت عال مع الراديو بينما تعده للتوقف لتناول المثلجات كمكافأة له إن أحسن السلوك وكان هادئاً. وطوال هذه السنوات وهو يحسن السلوك ولكن لم يشكل ذلك فارقاً. وقد اكتشف الموسيقى وعزفها فى سكون المنزل، داخل الفجوة التى أحدثتها وفاة شقيقته فى حياتهم. ولكن هذا لم يشكل فارقاً أيضاً. لقد بذل قصارى جهده كى يجعل والديه يرفعان عينيهما من على حياتهما ويستمتعا بالجمال والبهجة التى قام باكتشافها. لقد عزف كثيراً وأصبح بارعاً. ومع ذلك فطوال هذا الوقت لم يرفعاً أعينهما ولم مرة واحدة، ليس حتى دخلت روزمارى عتبة منزلهم وغيّرت كل شيء. أو ربما أنها لم تغير أى شيء على الإطلاق. ربما أن وجودها ألقى فقط بضوء جديد على حياتهما مغيراً تكوينها. فبالرغم من كل شيء فمن الممكن أن تعبر الصورة عن ألف شيء.

وضع يده على الجيتار مستشعراً الخشب الدافئ وشاعراً بالراحة. ضغط على الدواسة بشدة متسلقاً بين جدران حجر الكلس حيث أصبح الطريق تلاً، ثم هبط صوب منحنى نهر كنتاكي. كان الجسر يغنى أسفل إطاراته. ظل بول يقود ويقود محاولاً أن يفعل أى شيء إلا التفكير.

٤

خلف باب مكتب نورا الزجاجى كان المكتب يعج بالضوضاء. سار نيل سيمز مدير المستخدمين بشركة آى بى إم عبر الأبواب الخارجية وهو يرتدى حلة سوداء وحذاء لامعاً. وقد استدارت برى التى كانت قد توقفت فى حجرة الاستقبال لتحيته. كانت ترتدى حلة كتان صفراء وحذاء أصفر داكناً؛ بينما يتدلى سوار ذهبى لامع من معصمها أثناء مد يدها لمصافحته. وقد أصبحت عظامها نحيلة ونحيفة أسفل ملابسها الأنيقة. ومع ذلك فكانت ضحكتها لا تزال مشرقة وتسافر عبر الزجاج إلى حيث كانت تجلس نورا وهى تمسك بالهاتف فى يدها بينما يبرق أمامها على المكتب الملف اللامع الذى أمضت أسابيع فى إعدادة ويعلوه عبارة آى بى إم بحروف سوداء كبيرة.

قالت نورا: "اسمع يا سام، لقد طلبت منك ألا تتصل بى، وكنت أعنى هذا".

الصفقة مع شركة آى بى إم طوال عام، إنها سوف تسرع بالتأكيد. قال سام فى إصرار: "أنا فقط كنت أود أن أسأل عن بول. أريد أن أعلم إن كنت قد عرفت شيئاً. فأنا أؤازرك دوماً يا نورا، حسناً؟ هل تسمعين ما أقوله يا نورا؟ أنا أدعمك دوماً".

قالت وهى تشعر بالغضب من نفسها: "أنا أسمعك" - إنها لم تكن تريد أن يتحدث سام عن ابنها. إن بول مختلف منذ أربع وعشرين ساعة الآن؛ وكانت هناك سيارة تقف على بعد ثلاث بنايات من منزلهم مفقودة كذلك. فقد راقبته يرحل بعد هذا الموقف المشحون فى الشرفة، وشرعت فى تذكر ما قالتها وما سمعه بينما يعترىها الألم متذكراً نظرة الحيرة التى ارتسمت على وجهه. لقد فعل ديفيد الصواب حينما أعطى بول مباركتيه، ولكن بطريقة ما فإن موقفه هذا وما ينطوى عليه من غرابة زاد من سوء اللحظة. لقد راقبت بول يركض وهو يحمل جيتاره، وقد ذهبت وراءه تقريباً. ولكنها شعرت بألم فى رأسها واستسلمت للاعتقاد بأنه ربما يحتاج للانفراد بنفسه. علاوة على ذلك فهو لن يذهب بعيداً - فأين عساه يذهب بالرغم من كل شيء؟

قال سام: "نورا؟ نورا، هل أنت بخير؟".

أغلقت عينيها لبرهة. وقد دفأت وجهها أشعة الشمس. كانت نوافذ حجرة نوم سام مليئة بالمنشورات، وفى نهار ساطع مثل هذا كان ليتحرك الضوء والألوان فى حيوية على كل سطح. كانت قد قالت له شاكية ومأسورة ذات مرة بينما تتحرك الألوان الزاهية فوق ذراعيه وجسدها: "إن الأمر يشبه إقامة علاقة فى صالة ديسكو". وفى هذا اليوم - كما هو الحال فى كل يوم بعد لقائهما - كانت قد عقدت العزم على إنهاء العلاقة. ولكن فى هذه اللحظة لمس سام الضوء المرقش المتراقص على ساقها بإصبعه وببطء تبدد قرارها هذا فى الهواء بينما تتدفق مشاعرها واحداً تلو الآخر فى تعاقب غامض.

سادت فترة صمت بينهما. تخيلت نورا سام فى المنزل يعمل عند الجدار الملىء بالنوافذ التى تطل على البحيرة. كان يعمل محلاً استثمارياً وكانت نورا قد قابلته فى مرآب منذ ستة أشهر أسفل الضوء الضبابى بالقرب من المصعد. فقد سقطت مفاتيحها والتقطها هو فى الهواء بسرعة ورشاقة، سأل وهو يبتسم: "مفاتيحك؟" - وهى بالطبع كانت مزحة حيث إنهما كانا يقفان وحدهما. وقد أومأت نورا التى ملأها الشعور بالبهجة. احتكت أصابعه ببشرتها وهو يضع المفاتيح الباردة على راحة يدها.

وفى هذه الليلة ترك رسالة على جهاز الرد الآلى وقد تسارعت ضربات قلبها حينما سمعت صوته. ومع ذلك فعندما انتهت الرسالة أرغمت نفسها على الجلوس وإحصاء علاقاتها العاطفية - القصيرة والطويلة، المتوهجة والباردة، القاسية والسلمية - على مدار السنوات.

أربعة. كتبت الرقم على حافة جريدة الصباح. بالطابق العلوى كان الماء يقطر فى حوض الاستحمام. كان بول فى حجرة العائلة يعزف على نفس الوتر مراراً وتكراراً. وكان ديفيد بالخارج يعمل فى غرفته المظلمة - بينما تفصل بينهما مسافة كبيرة كالعادة دوماً. وكانت نورا قد خاضت كل علاقة من علاقاتها بينما يعترىها شعور بالأمل والترقب لتلك البداية الجيدة واللقاءات السرية والتجديد والمفاجأة. فبعد هوارد، خاضت علاقيتين عابرتين أخريين. وكل واحدة منهما قد بدأت فى لحظات كادت تجن فيها من شدة هدوء منزلها، حينما بدا لها أن العالم الغامض لشخص آخر، أى شخص وكأنه هو السكينة الحقيقية. كان سام يقول الآن: "من فضلك يا نورا، فقط أنصتى لى"؛ وقد كان رجلاً قوياً وحاداً بشكل ما فى المفاوضات، شخص من طراز لم تكن تحبه. فى غرفة الاستقبال استدارت برى لتتنظر إليها نظرة تنم عن الاستفسار ونفاد الصبر. أومأت نورا عبر الزجاج قاصدة أنها سوف تسرع. لقد ظلل يسعيان وراء هذه

ومع ذلك فإن شعورها بالمتعة كان لا يستمر أكثر من الفترة التي تقود فيها سيارتها عائدة للمنزل.
قالت: "أنا أصب تركيزي على بول الآن" ثم أضافت في حدة: "اسمع يا سام، لقد نلت كفايتي منك. لقد كنت جادة في هذا اليوم. لا تتصل بي مرة أخرى."
"أنت مزعجة الآن."

"نعم، ولكنني أعني هذا. لا تتصل بي قط ثانية".
أغلقت الخط. كانت يدها ترتعد، فوضعتها مسطحة على مكتبها. شعرت أن اختفاء بول هو بمثابة عقاب: من أجل غضب ديفيد الطويل وغضبها. إن السيارة التي سرقها وجدت مهجورة بشارع جانبي في لويسفيل ليلة أمس، ولكن لم يكن هناك أثر لبول. وهكذا كانت هي وديفيد ينتظران بينما ينتقلان في قلة حيلة بين غرف منزلهما. كانت الفتاة التي من ويست فيرجينيا لا تزال نائمة على الأريكة التي تتحول إلى فراش بالغرفة الصغيرة. إن ديفيد لم يمسه قط، ولم يتحدث معها إلا لسؤالها إن كانت تحتاج إلى شيء. ومع ذلك فقد شعرت نورا بأن ثمة شيئاً ما بينهما، علاقة عاطفية متقدة، والتي آلتها كثيراً ربما أكثر مما كانت ستؤملها أية علاقة جسدية خاضها.

طرقت برى على الزجاج ثم فتحت الباب بضع بوصات.
"هل كل شيء على ما يرام؟ لأن نيل من شركة آي بي إم هنا."

قالت نورا: "أنا بخير. كيف حالك؟ هل أنت بخير؟".
قالت برى بحزم وبصوت مشرق: "أنا سعيدة لأنني هنا، وخاصة في ظل هذه الظروف".

أومات نورا. لقد قامت بالاتصال بأصدقاء بول واتصل ديفيد بالشرطة. وقد ظلت تجوب المنزل طوال الليل وفي هذا الصباح وهي ترتدي روبها وتحتسى قهوتها، وتتخيل كل كارثة ممكنة. وقد بدا لها العمل في هذا الوقت - الفرصة أن تصب جزءاً من

تفكيرها على شيء آخر - وكأنه ملاذ آمن يمكنها أن تلجأ إليه.
قالت: "سوف آتي على الفور".

بدأ الهاتف يرن مرة أخرى حينما وقفت، ولكن نورا تركت غضبها الذي يتخلله القلق يدفعها عبر الباب. إنها لن تدع سام يزعجها، لن تجعله يفسد هذا اللقاء. لقد أنهت علاقاتها الأخرى بشكل مختلف، بسرعة أو ببطء، بطريقة سليمة أو لا، ولكن لم تكن أي منها مزعجة لهذه الدرجة. قالت لنفسها: "لن أفعل هذا ثانية. بعدما تنتهي هذه العلاقة لن أفعل هذا ثانية".

هرعت خلال الردهة ولكن سأل أوقفها عند مكتب الاستقبال وهي تمسك بالهاتف. قالت: "من الأفضل أن تردى على هذا الاتصال يا حبيبتي". علمت نورا على الفور، وأخذت السماعة وهي ترتجف.

كان صوت ديفيد هادئاً: "لقد عثروا عليه. إن الشرطة اتصلت بي لتوها. لقد وجدوه في لويسفيل يسرق معروضات. لقد ضبط ابننا يسرق الجبن".

قالت: "إنه بخير إذن" محررة نفساً، لم تدرك أنها كانت تحبسه طوال هذا الوقت بينما يعود الدم للسريان في أطراف أصابعها مرة أخرى. يا إلهي، لقد كانت شبه ميتة دون أن تدرك هذا.

"نعم، إنه بخير. فقط جائع فيما يبدو. أنا سوف أذهب لإحضاره. هل تريدين المجيء؟".

"ربما ينبغي أن أذهب. لا أعلم يا ديفيد. إنك قد تقول شيئاً خاطئاً". وقد أوشكت على أن تضيف: "ابق أنت هنا مع صديقتك".

تنهد: "أتساءل ما المفترض أن يقال يا نورا؟ أنا حقاً لا أعلم. أنا فخور به وقد أخبرته بذلك. ولكنه هرب وسرق سيارة. إذن ما المفترض أن يقال؟".

أرادت أن تقول: "لقد قلت ذلك متأخراً. وماذا عن صديقتك؟". ولكنها لم تقل شيئاً.

"نورا، إنه في الثامنة عشرة. وقد سرق سيارة. عليه تحمل المسؤولية".

قالت فجأة: "وأنت في الحادية والخمسين. لذا قل لنفسك هذا".

ساد الصمت في ذلك الحين؛ تخيلته واقفاً في عيادته بثقة بينما يرتدى معطفه الأبيض ويلمع شعره الفضي. ما من أحد يعرفه يمكنه أن يتخيل المظهر الذي كان عليه حينما عاد للمنزل: غير حليق الذقن، ملابسه ممزقة وقذرة، فتاة حامل ترتدى معطفاً رثاً تقف إلى جواره.

قالت: "اسمع، فقط أعطني العنوان. سوف ألقاك هناك". "إنه في قسم الشرطة يا نورا. الحجز المركزي. أين تعتقدين أنه موجود، حديقة الحيوان؟ ولكن لا بأس، انتظري. سوف أعطيك العنوان".

بينما كانت نورا تنتظر نظرت للأعلى لتري برى تغلق الباب الأمامي وراء نيل سيمز.

سألت برى: "هل بول بخير؟".

أومات نورا وهي متأججة المشاعر لدرجة منعته من الكلام. وسمع اسمه قد جعل الأخبار حقيقية. كان بول بخير، ربما مقيد اليدين ولكن بخير. بدأ فريق العمل في المكتب والذين كانوا يحومون في غرفة الاستقبال التصفيق. فكرت نورا والدموع في عينيها أن أختها قد أصبحت نحيلة للغاية؛ فكان عظم كتفها رقيقاً وحاداً مثل الأجنحة.

قالت برى وهي تأخذ ذراعها: "سوف أقود أنا، هيا، أخبريني بكل شيء في الطريق".

تركت نورا نفسها تؤخذ عبر الردهة إلى داخل المصعد ثم إلى السيارة في المرآب. قادت برى عبر شوارع وسط المدينة المزدهمة

في حين شرعت نورا في التحدث والشعور بالراحة يتخللها كالريح.

قالت: "لا أصدق هذا. لقد كنت مستيقظة طوال الليل. أعلم أن بول شخص بالغ الآن. وأعلم أنه في غضون شهور قليلة سوف يتركنا ويذهب للجامعة ولن يكون لدى أدنى فكرة عن مكانه. ولكنني لم أستطع التوقف عن القلق".

"إنه لا يزال طفلك".

"نعم. من الصعب تركه يمضي. أصعب مما اعتقدت".

عبرت المبانى المنخفضة المعتمدة لشركة آي بي إم ولوحت برى لها. قالت: "إلى اللقاء يا نيل. أراك قريباً".

تنهدت نورا: "كل هذا العمل".

قالت برى: "لا تقلقي. فنحن لن نخسر هذه الصفقة. لقد كنت ساحرة للغاية. ونيل هو رب أسرة. كما أنه كذلك من النمط الذي يحب الشابات الواقعات في مأزق".

ردت نورا بحجة معاكسة متذكّرة برى في حجرة الطعام ساطعة الضوء منذ زمن بعيد وهي تمسك بورق نصائح الرضاعة الذي جلبته لها: "أنت تقلبين الموقف في صالحنا".

ضحكت برى: "إطلاقاً. أنا فقط تعلمت العمل بما لدى. سوف نحصل على الصفقة، لا تقلقي".

لم تجب نورا. لمعت الأسوار البيضاء وبدأت ضبابية وسط الحشيش الأخضر. وقفت الخيول بهدوء في مزارعها؛ حظائر التبغ ذات اللون الرمادي كانت تبزغ أمام جانب التل. كان الوقت هو بداية الربيع وسرعان ما سيقام سباق الخيل وسوف تتفتح البراعم الحمراء. عبرتا نهر كنتاكي ذا الرواسب الطينية والمتلألئة. وفي حقل يقع وراء الجسر مباشرة لوحت لهما زهرة نرجس برى - والتي كانت جميلة للغاية - ثم اختفت. كم مرة سافرت عبر هذا الطريق بينما تداعب الريح شعرها ويغريها نهر أوهايو بوعده وجماله السريع المتموج. لقد أقلعت عن تناول

الخمير وعن رحلاتها التي تذررها الريح؛ لقد اشترت وكالة السفريات هذه وجعلتها تكبر؛ لقد غيرت حياتها. ولكنها أدركت شيئاً الآن فجأة وبوضوح وكأنه ضوء جديد قوى فى الغرفة: إنها لم تتوقف قط عن الركض إلى سان جواو وبانكوك، إلى لندن وألاسكا. بين ذراعى هوارد والآخرين، إلى سام حتى جاءت هذه اللحظة.

قالت: "لا يمكننى أن أفقدك يا برى. لا أعرف كيف تتحلين بالهدوء أثناء تعاملك مع الأمور بهذه الطريقة، لأننى أشعر أننى أرتطم بجدار". تذكرت ديفيد وهو يقول الشئ نفسه أمس بينما يقف فى ممر السيارة يحاول شرح سبب جلبيه للشابة روزمارى إلى المنزل. ماذا حدث له فى بتسبرج ليغيره بهذه الطريقة؟

قالت برى: "أنا هادئة لأنك لن تفقدنى". "جيد. أنا سعيدة لأنك واثقة من هذا. لأننى لا أستطيع تحمل هذا الأمر".

قادت فى صمت لبضعة أميال. سألت برى أخيراً: "هل تذكرين تلك الأريكة الزرقاء سيئة المظهر القديمة التى أملكها؟".

قالت نورا وهى تمسح عينيها: "ليس تماماً. ماذا بها؟". مرتا بحقل تبغ آخر وحزام أخضر طويل.

"طالما اعتقدت أنها جميلة. ثم فى أحد الأيام - كان ذلك فى فترة كئيبة حقاً من حياتى - دخل الضوء الغرفة بشكل مختلف، فكان الثلج يهطل فى الخارج أو شيئاً من هذا القبيل، وأدركت أن هذه الأريكة بالية تماماً ومتداعية للسقوط، فقط الغبار هو الذى يبقونها ثابتة فى مكانها. أدركت أن على إجراء بعض التغييرات". نظرت عبر السيارة وهى تبتسم. "لذا فقط أتيت للعمل لديك".

كررت نورا: "وقت كئيب من حياتك؟ طالما تخيلت أن حياتك مليئة بالبهجة. بخلاف حياتى أنا. لم أكن أعرف أنك مررت بمرحلة كئيبة يا برى. ماذا حدث؟".

"لا يهم هذا. إنها قصة قديمة. ولكننى ظللت مستيقظة ليلة أمس كذلك. فيساورنى نفس الشعور: شئ ما يتغير. من الغريب أن الأمور تبدو مختلفة فجأة. فى هذا الصباح وجدت نفسى أحرق فى الضوء القادم من نافذة المطبخ. وقد كون مستطيلاً طويلاً على الأرض تحركت بداخله ظلال أوراق الشجر الجديدة مكونة جميع النماذج. إنه شئ بسيط ولكنه كان جميلاً".

أخذت تتفحص مظهر برى متذكراً كيف كانت، لا تحملهما وجريئة وتقف على درجات مبنى التسجيل. أين ذهبت هذه الشابة؟ كيف أصبحت هذه المرأة النحيفة وقوية الشخصية والمنعزلة؟

قالت نورا أخيراً: "هذا جميل يا برى".

"إنها ليست عقوبة بالموت يا نورا". كانت برى تتحدث بحزم وتركيز الآن، وكأنها تراجع معها الصفقات التى تلقيتها. "إن الأمر أشبه بصحوة. لقد قرأت بعض الكتب وخلصت منها إلى أن فرصى فى الشفاء كبيرة. وكنت أفكر فى هذا الصباح أنه إذا لم تكن هناك مجموعات دعم للنساء مثلى فسوف أقوم بتكوين واحدة".

ابتسمت نورا: "إن ذلك من شيمك حقاً. إن ذلك هو أكثر شئ مطمئن قلته حتى الآن". قادت فى صمت طوال بضع دقائق ثم قالت نورا: "ولكنك لم تخبرينى طوال كل هذه السنوات أنك كنت تعيسة. لم تخبرينى بذلك قط".

قالت برى: "نعم. أنا أخبرك الآن".

وضعت نورا يدها على ركبة برى مستشعرة الحرارة المشعة منها ونحافتها.

"ماذا يمكننى أن أفعل؟".

"فقط امضى قدماً، يوماً بيوم. وأنا أذهب لدار العبادة للصلاة وأجد أن هذا يفيدنى حقاً ويساعدنى".

نظرت نورا إلى أختها، إلى شعرها القصير المشط بعناية، وجسمها النحيل متسائلة كيف يمكنها أن تجيبها. فمنذ عام مضى تقريباً بدأت برى تذهب إلى دار عبادة صغيرة بالقرب من منزلها. وقد ذهبت معها نورا مرة ولكن جعلتها الطقوس المعقدة تشعر بالسخافة والتطفل. فقد جلست تختلس النظر للآخرين فى المقصورات متسائلة عن شعورهم، وما الذى جعلهم ينهضون من الفراش ليأتوا إلى دار العبادة فى صبيحة هذا اليوم الجميل. كان من الصعب رؤية أى إعجاز، كان من الصعب رؤية أى شيء فيما عدا الضوء الساطع ومجموعة من الأشخاص المتعبين والمتزمين والممتلئين بالأمل. ولم تذهب إلى هناك ثانية قط. ولكنها الآن وجدت نفسها فجأة ممتنة من أجل السكينة والعزاء اللتين حصلت عليهما أختها مما وجدته فى دار العبادة الهادئة هذه والذى لم تستطع نورا إيجاده.

كان العالم يتلألأ حولهما: العشب والأشجار والسماء. وبعد ذلك المباني التى تزايدت عدداً. كانتا قد دخلتا لويسفيل الآن، وشقت برى طريقها داخل زحمة السير فى جادة ١ - ٧١ ومنها إلى الأزقة السريعة الممتلئة بالسيارات المسرعة. كانت ساحة الانتظار الخاصة بقسم الشرطة شبه ممتلئة وتبرق بشكل خافت تحت شمس الظهرية. خرجتا من السيارة وأغلقتا الأبواب وسارتا عبر الرصيف الخرسانى المزروع به سلسلة من الشجيرات المتعبة الصغيرة ثم عبر الأبواب الدائرية ثم إلى الضوء الخافت بالداخل. كان بول يجلس على دكة بالطرف الأبعد من الغرفة وهو منحن ويضع مرفقيه على ركبتيه بينما تتدلى يداه بينهما. خفق قلب نورا بشدة. سارت أمام المكتب وضباط الشرطة متقدمة بصعوبة خلال هواء المكان الأخضر الثقيل حتى وصلت لابنها. كان الجو حاراً بالغرفة. وكانت هناك مروحة تدور ببطء شديد

فى سقف الغرفة المبقع. جلست إلى جوار بول على الأريكة. ولم يستحم وكان شعره كثيفاً ودهنياً وأسفل رائحة العرق والملابس القذرة كانت تفوح منه رائحة السجائر. روائح حادة ولاذعة، رائحة الرجال. كانت أصابع يديه متجسنة وصلبة من العزف على الجيتار. إنه يملك حياته الخاصة الآن، حياته السرية. وقد تفاجأت حينما اكتشفت أنه أصبح ذا شخصية خاصة به. إنه ابنها نعم، ولكنه يمتلك شخصية منفردة الآن.

قالت بهدوء: "أنا سعيدة لرؤيتك. لقد كنت أشعر بالقلق يا بول. كنا جميعاً نشعر بالقلق".

نظر إليها بينما تمتلئ عيناه بالغضب والشك، ثم أشاح بوجهه فجأة ليوارى دموعه. قال: "أنا قذر للغاية".

وافقته نورا قائلة: "نعم، هذا صحيح".

مسح الغرفة بعينيه ووقعت عيناه على برى التى كانت تقف بالقرب من المكتب ثم على الأبواب الدوارة اللامعة.

"إذن أعتقد أننى محظوظ أنه لم يكلف نفسه عناء المجيء".

كان يقصد ديفيد. كان الألم والغضب يملآن صوته.

قالت نورا محافظة على هدوئها: "إنه سيأتى. إنه سيكون هنا فى أية لحظة. لقد أوصلتنى برى إلى هنا. فى الواقع لقد طارت بى".

كانت تود جعله يبتسم ولكنه أوماً فقط.

"هل هى بخير؟".

قالت نورا وهى تفكر فى حوارهما بالسيارة: "نعم، إنها بخير".

أوماً ثانية. "جيد. هذا جيد. لابد أن أبى حانق".

"هذا صحيح".

"هل سأذهب إلى السجن؟". كان صوت بول رقيقاً للغاية.

أخذت نفساً. "لا أعلم. لا أتمنى هذا. ولكنى لا أعلم".

جلسا في صمت. كانت برى تتحدث إلى ضابط الشرطة وتومئ وتشير بيدها. وخلفها ظلت الأبواب تدور وتدور بينما يتخللها الضوء ويعبر خلالها وخارجها الأغراب واحداً تلو الآخر حتى وجد ديفيد يقف أمامه على الأرضية التريسة بينما يصصر حذاؤه ويعلو وجهه تعبير جاد وجامد ومستحيل قراءته. توترت نورا وشعرت بتوتر بول الجالس إلى جوارها. ولكنها اندهشت حينما وجدت أن ديفيد سار ناحية بول مباشرة وشده واحتضنه بشدة. قال: "أنت بخير. الحمد لله".

أخذت نفساً عميقاً وهي تشعر بالامتنان لما حدث. عبر ضابط شرطة ذو شعر قصير وعينين زرقاوين مفزعتين الغرفة وهو يضع لوحاً مشبكياً تحت ذراعه. صافح يد نورا ثم ديفيد ثم استدار ناحية بول.

قال: "ما أود فعله هو وضعك في السجن. كيف يمكن لفتى ذكى مثلك فعل هذا. إنك لا تعلم كم الحالات المماثلة التي رأيته على مدار السنوات، فتیان يعتقدون أنهم رجال، فتیان ظلوا يرتكبون حماقات حتى وقعوا في متاعب حقيقية. بعد ذلك ذهبوا للسجن ليكتشفوا أنهم ليسوا رجالاً بعد. إنه أمر مخز حقاً. ولكن يبدو أن جيرانك يعتقدون أنهم يسدونك معروفاً حيث إنهم لن يوجهوا لك تهمة بشأن سرقة السيارة. لذا طالما أنني لن أستطيع حبسك فإننى سوف أطلق سراحك لتكون تحت رعاية والديك".

أوما بول. كانت يدها ترتعدان، فقام بدسهما بجيبه. أخذوا جميعاً يراقبون بينما أخذ الشرطى ورقة من فوق لوحه المشبكي وأعطاهما لديفيد وعاد بهبطاً إلى مكتبه.

قال ديفيد مفسراً وهو يطوى الورقة ويضعها في جيب قميصه: "لقد اتصلت بعائلة بولاند. كانوا متفهمين. كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ كثيراً يا بول. ولكن لا تعتقد أنك لن تدفع كل سنت لازم لإصلاح هذه السيارة ولا تعتقد أن حياتك ستكون

سعيدة للغاية لفترة من الوقت. فأنت ستحرم من أصدقائك ومن حياتك الاجتماعية".

أوما بول وهو يزدرد لعابه. قال: "لكن يجب على أن أتدرب. لا يمكننى الابتعاد عن الفرقة".

قال ديفيد: "لا. ما لا تستطيع فعله هو سرقة سيارة من الجيران وتوقع أن تواصل حياتك الطبيعية".

شعرت نورا ببول، شعرت بتوتره وغضبه. وجدت نفسها تقول لنفسها بينما ترى عضلة تتحرك في فك ديفيد: "كفى. يكفى هذا من فضلكما". قال بول: "حسناً. إذن لن أعود للمنزل. أفضل الذهاب للسجن".

قال ديفيد بنبرة هادئة إلى درجة خطيرة: "حسناً، يمكننى بدون شك ترتيب هذا".

قال بول: "تفضل. قم بذلك. لأننى موسيقى وأنا بارع. وأنا أفضل النوم في الشارع عن التخلي عن الموسيقى. يا إلهى. أنا أفضل الموت على ذلك".

ساد التوتر الأجواء للحظة. وحينما لم يجب ديفيد ضاقت عينا بول.

قال: "إن أختى لا تعرف كم هى سعيدة الحظ لأنها ماتت". شعرت نورا - والتي كانت تتمالك نفسها - وكأن الكلمات اخترقتها مثل كسرات الزجاج، حيث إنها آلمتها بشدة - وقبل أن تفكر فيما تفعله صغعت بول على وجهه. وقد كان شعر لحيته شائكاً فوق راحة يدها - لقد أصبح رجلاً ولم يعد طفلاً، وقد صغعته بقوة حتى أنه استدار في صدمة بينما علت وجهه علامة حمراء.

قال ديفيد: "بول، لا تجعل الأمور أكثر سوءاً مما هى عليه بالفعل. لا تقل شيئاً قد تندم عليه طوال حياتك".

كانت نورا لا تزال تشعر بالتنميل بينما يسرى الدم سريعاً داخل عروقها. قالت: "سوف نذهب إلى المنزل. سوف نتحدث في المنزل".

"لا أعلم. إن ليلة في السجن قد تسديه نفعاً".

قالت وهي تستدير تجاهه: "لقد فقدت طفلاً، ولن أفقد الآخر".

بدا ديفيد مذهولاً وكأنها قد صفته هو أيضاً. كانت مروحة السقف تطلق الباب الدوار يدور.

قال ديفيد: "حسناً. ربما هذا صحيح. ربما تكونين محقة لعدم انتباهك لي. إن الله يعلم كم أنا آسف من أجل الأمور التي فعلتها وأثرت عليكما سلباً".

قالت نورا بينما كان يستدير راحلاً: "ديفيد؟" ولكنه لم يجبها. شاهدته يسير عبر الغرفة ويدخل الباب الدوار. وفي الخارج ظل مرثياً للحظة، رجل في منتصف العمر يرتدي معطفاً أسود، ثم اختفى داخل الزحام. ظلت مروحة السقف تطلق وسط روائح الأجسام السيئة والبطاطس المحمرة وسوائل التنظيف.

قال بول: "أنا لا أعنى —"

رفعت نورا يدها: "لا تفعل من فضلك. لا تقل شيئاً آخر".

كانت برى الهادئة هي التي أخذتهما إلى السيارة. فتحتا النوافذ للتخلص من رائحة بول النتن وقادت برى التي كانت تمسك عجلة القيادة بأصابعها النحيفة بإحكام. كانت نورا مكتئبة وغير منتبهة لدرجة أنه مضت نصف ساعة قبل أن تلاحظ أنهم ليسوا بالطريق الفاصل بين ولايتين وإنما بطريق أصغر بحقول الريف الخضراء. فكانت الحقول الخضراء تتلأأ بالنوافذ بينما تتفتح البراعم فوق الفروع.

سألت نورا: "إلى أين أنت ذاهبة؟"

قالت برى: "سوف نذهب في مغامرة صغيرة. سوف ترين".

لم ترغب نورا في النظر إلى يدي برى واللتين كانتا نحيلتين للغاية وتنتأ منهما العروق الزرقاء. نظرت إلى بول في مرآة الرؤية الخلفية. كان شاحباً ومقطباً وعاقداً ذراعيه وغاضباً ومتألماً. لقد انتهجت تصرفاً خاطئاً هناك حينما قست على ديفيد بهذه الطريقة وصدعت بول؛ لقد زادت فقط من الأمور سوءاً. تلاقت عيناه الغاضبتان مع عينيها في المرآة وتذكرته حينما كان رضيعاً وكانت يده تلمس وجنتها وتدوى ضحكته خلال الحجرات. لقد أصبح شخصاً مختلفاً تماماً. أين ذهب هذا الطفل؟

سأل بول: "أي نوع من المغامرات؟"

"حسناً، في الواقع أنا أحاول إيجاد دار عبادة معينة".

سألت نورا: "لماذا؟ هل هي قريبة من هنا؟"

أومأت برى. "من المفترض ذلك. لقد أردت دوماً رؤيتها وبينما كنت أقود أدركت أننا قريبون للغاية منها. ففكرت لماذا لا؟ إنه يوم جميل حقاً".

كان يوماً جميلاً بالفعل، فكانت السماء زرقاء صافية وشاحبة عند الأفق، والأشجار نابضة بالحياة وترفرف بفعل النسيم. ساروا عبر الطرق الضيقة طوال عشر دقائق أخرى قبل أن توقف برى السيارة بجانب الطريق وتبدأ في التنقيب تحت المقعد.

قالت وهي تنتصب جالسة: "أعتقد أنني لم أجلب الخريطة". قالت نورا: "إنك لا تجلبين خريطة مطلقاً" مدركة في هذه اللحظة أن ذلك ينطبق على حياة برى برمتها. ومع ذلك فلا يبدو أن ذلك كان مهماً. فهي وديفيد قد بدءا حياتهما وهما يحملان جميع أنواع الخرائط وانظر إلى أين وصلا.

توقفت برى بالقرب من منزلين ريفيين متواضعين أبيض اللون، كانت الأبواب مغلقة ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر، فقط مزارع التبغ تبرز في الهواء الطلق بالتلال البعيدة. كان هذا هو موسم الزراعة. لذا فمن بعيد كانت الجرارات تزحف عبر المزارع المحروثة حديثاً بينما يتبعها المزارعون ليضعوا

نباتات التبغ الصغيرة الخضراء والبراقة داخل الأرض السوداء. وأسفل الطريق عند الجزء البعيد من الحقل كانت توجد دار عبادة بيضاء صغيرة تحوطها أشجار الجميز وزهور التالوت. وعند جانب دار العبادة كانت هناك مقبرة تتوسطها شواهد القبور من وراء سور حديد مزخرف. كان يشبه المكان الذي دفنت فيه ابنتها مما جعل نورا تلتقط أنفاسها وتتذكر هذا اليوم الربيعي البعيد حينما كانت الأعشاب رطبة تحت قدميها والسحب منخفضة بالسما وديفيد يقف في صمت وشروء إلى جوارها. "من الرماد إلى الرماد" سمعت هذه الكلمات وهي تشعر بأن العالم يتغير أسفل قدميها.

قالت: "دعونا نذهب إلى دار العبادة. فقد يدلنا شخص هناك على ما نريده".

قادوا أسفل الطريق وخرجت هي وبرى من السيارة عند دار العبادة شاعرتين بالتمدين وعدم الانتماء بسبب ارتدائهما لملابس العمل تلك. كان اليوم ساكناً للغاية وحاراً بعض الشيء حيث كانت الشمس تلمع من وراء أوراق الأشجار. وكان العشب أسفل حذاء برى الأصفر أخضر اللون ورطباً. وضعت نورا ذراعها على ذراع برى النحيف واستشعرت كتان ثوبها الناعم والبارد. قالت: "سوف تفسدين هذا الحذاء بهذه الطريقة".

نظرت برى للأسفل وأومات وخلعت حذاءها. قالت: "سوف أسأل في منزل رجل الدين. إن الباب الأمامي مفتوح". قالت نورا: "أذهبى وسوف ننتظر نحن هنا".

انحنى برى لالتقاط حذاءها ثم شقت طريقها خلال العشب الأخضر الغنى، في حين تبدو ساقاها الشاحبتان وقدماهما اللتان يغطيها جوربها طفوليتين. كان حذاءها الأصفر يتدلى من يديها. تذكرتها نورا فجأة وهي تركض عبر الحقل إلى جوار منزل طفولتهما بينما تتعالى ضحكاتهما خلال الهواء المشمس. قالت لها في سرها وهي تراقبها: "كونى بخير يا أختاه. كوني بخير".

قالت لبول الذى كان لا يزال يجلس مترهلاً فى المقعد الخلفى: "سوف أذهب لأتمشى قليلاً. تركته هناك واتبعت الطريق الحصوى حتى المقبرة. انفتح الباب الحديدى بسهولة وتجولت نورا بين شواهد القبور الرمادية والبالية. إنها لم تذهب إلى القبر بمزرعة بنتلى منذ سنوات. نظرت للخلف إلى بول. فقد خرج من السيارة وكان يتمدد بينما تحجب عينيه نظارة شمس.

كان باب دار العبادة أحمر اللون. وقد انفتح دون أن يصدر صوتاً حينما لمستته نورا. كان الحرم معتماً وبارداً وكان زجاج النوافذ المبقع متوهجاً وتبرق فوقه صور رجال الدين والحمائم والنار. فكرت نورا فى حجرة نوم سام والألوان الغزيرة هناك وكيف بدا هذا المكان متناقضاً تماماً معها حيث كانت الألوان هنا ثابتة وتسقط خلال الهواء. كان الكتاب الخاص بتسجيل أسماء ضيوف دار العبادة مفتوحاً فكتبت اسمها بخطها الجميل الانسيابى متذكرة المعلمة السابقة التى علمتها الكتابة بأحرف متصلة. تسكعت نورا بالمكان. ربما السكون هو الذى جعلها تأخذ بضع خطوات داخل الممر الأوسط الشاغر: السكون وهذا الإحساس بالسكينة والفراغ، والطريقة التى دخل بها الضوء خلال زجاج النوافذ المبقع والهواء الغبارى. سارت نورا خلال هذا الضوء: أحمر وأزرق وذهبى.

كانت تصدر من المقصورات رائحة طلاء الأثاث. كانت هناك مقاعد قطيفة زرقاء يغطيها بعض الغبار. فكرت فى أريكة برى القديمة ثم تذكرت فجأة النساء من دائرة الأشغال، هؤلاء النساء اللاتى أتين إلى منزلها وهن يحملن الهدايا لبول. وقد تذكرت مساعدتهن ذات مرة فى تنظيف دار العبادة، كيف كن يصقلن المقصورات بوضع قطع قماشية فوقها وسحبها على الألواح الخشبية. وكن يضحكن أثناء قيامهن بهذا وتتملاً ضحكاتهن الحرم. وأثناء فترة حدادها ابتعدت نورا عنهن ولم تعد لهن

مطلقاً ولكن خطر ببالها الآن أنهن قد عانين أيضاً، فقد فقدن أحباء وعانين أمراضاً وخذلن أنفسهن وغيرهن. ولم تكن نورا ترغب في أن تكون واحدة منهن أو تقبل مواساتهن، لذا فقد ابتعدت عنهن. تذكرت كل هذا بينما اغرورقت عيناها بالدموع. يا إلهي، كم كان هذا سخيلاً، فإنها قد فقدت ابنتها منذ عقدين الآن. فلا يجب لهذا الحزن أن يكون بمثل هذه الحدة، لا يجب أن يكون مثل الماء المتدفق من ينبوع.

كان الأمر جنونياً. كانت تبكي بشدة. لقد ركضت بسرعة شديدة ولمسافة بعيدة لتجنب هذه اللحظة، ومع ذلك فقد حدثت واضطرت لخوضها: تنام فتاة غريبة على أريكتها وتحلم بينما تنمو حياة جديدة بداخلها كالسر وديفيد يهز كتفيه ويذهب مبتعداً. كانت تعلم أنها ستعود للمنزل لتجده قد ذهب بعد أن يكون قد حزم حقيبته ربما، لكن دون حزم شيء آخر. بكت من أجل هذه المعرفة ومن أجل بول، الغضب والفشل في عينيه. من أجل ابنتها التي لم تعرفها قط. من أجل يدي برى النحيفتين. للطرق العديدة التي أخذهم جميعاً من خلالها حبهم. فقد بدا لها أن الحزن هو جزء من الجسد. بكت نورا وهي غير واعية لأى شيء فيما عدا نوعاً من التحرر تذكّرت من الطفولة؛ ظلت تنتحب حتى شعرت بالألم وانقطع نفسها.

كانت هناك طيور وعصافير تعشش في العوارض الخشبية المفتوحة. وبينما كانت تلملم شقات نفسها أصبحت نورا مدركة لأصواتها الرقيقة ورفرفة أجنحتها. كانت تربض بينما تسند ذراعيها على مؤخرة المقصورة الموجودة أمامها. كان الضوء لا يزال يسقط خلال النوافذ في أشعة مائلة متجمعا في برك على الأرضية. وبعدها شعرت بالإحراج نهضت ومسحت الدموع من عينيها. كانت بعض الريشات الرمادية ترقد على الدرجات الفلين حتى المذبح. وحينما نظرت نورا للأعلى لمحت عصفوراً يرفرف برفق بالأعلى، ملقياً ظلاً وسط كل الظلال الأخرى. على

مدار السنوات جلس العديد من الناس الآخرين هنا حاملين أسرارهم وأحلامهم السوداء والمشرقة. وقد تساءلت إن كان حزنهم - مثل حزنها - قد انحسر. ولم تفهم تماماً كيف جلب هذا المكان السكينة إلى نفسها ولكن هذا هو ما حدث.

وحينما خرجت مرة أخرى وهي تطرف بعينيها داخل أشعة الشمس كان بول يجلس على الحجر أمام السور الحديدي المزخرف. ومن بعيد كانت برى تسير خلال الأعشاب بينما يتدلى حذاؤها.

أوما ناحية شواهد القبور المبعثرة في المقبرة. قال: "أنا آسف لما قلته. أنا لم أعن هذا. أنا فقط كنت أحاول إغضاب أبى لتبرير غضبي".

قالت له نورا: "لا تقل هذا ثانية قط - أن حياتك ليس لها قيمة. لا تجعلنى أسمع هذا منك مرة أخرى ولا تفكر في هذا أيضاً". قال: "لن أفعل. أنا آسف حقاً".

قالت نورا: "أعلم أنك غاضب. إن لك الحق في أن تعيش الحياة التي ترغبها. ولكن أباك محق أيضاً. سوف تكون هناك شروط بعينها. اكسرها وستجد نفسك وحدك". وقد قالت كل هذا دون النظر إليه وحينما استدارت تفاجأت لرؤية وجهه مليئاً بالدموع. إن الطفل الذى كانه لم يكن بعيداً بالرغم من كل شيء. احتضنته بأقصى ما تستطيع من قوة. كان طويلاً للغاية؛ فلم تصل رأسها إلا ل صدره فقط.

قالت وهي تقترب من قميصه ذى الرائحة الكريهة: "اسمع، أنا أحبك. أنا سعيدة للغاية من أجل عودتك". ثم أضافت وهي تضحك جاعلة إياه يضحك كذلك: "وأنت فعلاً قذر".

غطت عينيها ثم نظرت عبر الحقل إلى برى التي أصبحت أقرب الآن.

قالت برى: "إن المكان ليس بعيداً. فقط أبعد قليلاً. قال إنه من السهل الوصول إليه".

١٩٨٨

استقلوا السيارة مرة أخرى وساروا عبر الطريق الضيق خلال التلال. وفي غضون أميال قليلة بدءوا يلمحون مباني عبر شجر السرو. وفجأة ظهر مبنى دار العبادة الرائع والبسيط داخل الأرض الخضراء المفتوحة. أوقفت برى السيارة فى ساحة الانتظار أسفل مجموعة من الأشجار. وبينما يخرجون من السيارة بدأ رجال الدين فى الدعوة للصلاة. وقفوا ينصتون بينما يتبدد الصوت فى الهواء وتحقق الأبقار فى الأفق القريب وتطوف السحب فوقهم.

قالت برى: "يا له من مكان جميل. كان توماس مورتون يعيش هنا، هل كنتم تعلمان هذا؟ لقد ذهب إلى التبت لمقابلة الدلاى لاما. أحب تخيل هذه اللحظة. أحب تخيل كل رجال الدين بالداخل يفعلون نفس الشئ يوماً بعد يوم". خلع بول نظارته. كانت عيناه السوداوان صافيتين. دس يده فى جيبه ونثر بعض الأحجار الصغيرة على غطاء محرك السيارة.

قال: "أتذكرين هذه"، فأخذت نورا واحدة مستشعرة القرص الناعم الأبيض ذا الثقب فى المنتصف. "زنابق من ليلك البحر. لقد أخبرنى أبى عنها فى هذا اليوم الذى انكسرت فيه ذراعى. لقد تمشيت قليلاً حينما كنت فى دار العبادة. لقد كانت مبعثرة فى كل مكان هنا".

قالت نورا: "لقد نسيت هذا" ولكنها تذكرت فوراً: القلادة التى صنعها بول وكيف أنها قلقت من أن تتسبب فى اختناقه. كان الأحفور الذى يبلغ حجمه حجم زر القميص خفيفاً ودافئاً فى يدها. تذكرت ديفيد وهو يرفع بول ويحمله من الحفل ويصلح ذراعه المكسور. كم عمل ديفيد جاهداً لتيسير الأمور من أجلهم جميعاً، لوضع الأمور فى نصابها الصحيح. ومع ذلك فطالما كانت الحياة صعبة للغاية عليهم جميعاً وكأنهم يسبحون فى البحر الضحل الذى كان يغطى هذه الأرض فيما مضى.

يوليو ١٩١١

١

كان ديفيد هنرى يجلس فى مكتب منزله بالطابق العلوى، وعبر النافذة التى تغطيها غشاوة ناتجة عن التعرض لسنوات الطقس والملتوية بعض الشيء، ظهر الشارع بالخارج متموجاً ومشوهاً بعض الشيء. راقب سنجاباً وهو يأخذ حبة جوز ويجرى فوق شجرة الجميز التى تضغط أوراقها على النافذة. كانت روزمارى رابضة على قدميها عند الشرفة بينما يتأرجح شعرها الطويل أثناء انحنائها لزراعة بصيلات النباتات والنباتات الحولية فى المزهريات التى قامت بصنعها. فإنها قد غيرت شكل الحديقة تماماً حيث جلبت زنابق النهار من حدائق الأصدقاء وزرعت الكتان عند المرآب حيث ازدهر وأصبحت زهوره الزرقاء الشاحبة وفيرة مثل الضباب. جلس جاك على مقربة منها وكان يلعب بشاحنته. كان طفلاً قوياً ويبلغ من العمر خمس سنوات ومرحاً وحسن الطبع وذا عينيْن بنيتين داكنتين وخصلات من الشعر الأحمر فى شعره الأصفر. وقد كان عنيداً

بعض الشيء. ففي المساء حينما يجالسه ديفيد أثناء ذهاب روزماري للعمل، يصمم جاك على القيام بكل شيء بنفسه. فيقول عدة مرات كل يوم وهو يشعر بالفخر والأهمية: "إنني فتى كبير".

وكان ديفيد يدعه يقوم بما يريد في نطاق حدود الأمان والمنطق. الحقيقة أنه كان يحب مجالسة هذا الطفل. كان يحب أن يقرأ له القصص ويستشعر دفئه ووزنه ورأسه الذي يرقد على كتفه وهو شبه نائم. كان يحب الإمساك بيده الصغيرة الواثقة بينما يسيران فوق الرصيف قاصدين المتجر. وقد شعر ديفيد بالألم لأن ذكرياته عن بول في هذه المرحلة السنية كانت مبهممة وغير واضحة. فقد كان يبني مستقبله في ذلك الحين، وكان منشغلاً في عيادته وفي صورته أيضاً ولكنه بدون شك كان مذنّباً لأنه أبواه بمنأى عنه. كانت نماذج حياته واضحة الآن بشكل مؤلم. لقد أعطى طفليهما إلى كارولين جيل وتوغلت جذور هذا السر ونمت فروعه وازدهرت في منتصف أسرته. فطوال سنوات كان يعود للمنزل ويراقب نورا وهي تحتسى الخمر أو تربط مئزرها ما بينما يفكر كم كانت تبدو جميلة وكيف أنه بالكاد كان يعرفها.

إنه لم يستطع قط أن يخبرها بالحقيقة مدركاً أنه لو فعل هذا فإنه سيفقدها تماماً - وربما يفقد بول كذلك. لذا فقد كرس نفسه لعمله وكان ناجحاً للغاية في تلك الجوانب من حياته التي امتلك سيطرة عليها. ولكنه للأسف لم يستطع أن يتذكر شيئاً من سنوات طفولة بول سوى بضع لحظات متفرقة والتي كانت واضحة في مخيلته وضوح الصور: بول نائم على الأريكة بينما تسقط يده في الهواء، وينسدل شعره في غير نظام. بول يقف على الأمواج المنكسرة ويصيح في خوف وبهجة بينما تتدفق الأمواج حول ركبتيه. بول يجلس على الطاولة الصغيرة بحجرة اللعب يلون في تركيز شديد المهمة التي بين يديه حتى أنه لا يلحظ ديفيد الواقف عند باب الغرفة يراقبه. بول يلقي بالصنارة

في المياه الهادئة ويقف ثابتاً في مكانه وهو يتنفس بالكاد بينما ينتظران في الغسق التقاط سمكة للطعم.

لحظات قصيرة وجميلة للغاية. وبعد ذلك جاءت سنوات المراهقة حيث سافر بول بعيداً عنه مسافة أبعد من تلك التي سافرتها نورا بينما يرج المنزل بموسيقاه وغضبه.

طرق ديفيد على النافذة ولوح لجاك وروزماري. لقد اشترى هذا المنزل المزدوج في عجلة حيث نظر إليه مرة ثم ذهب للمنزل ليحزم حقائبه أثناء تغيب نورا في العمل. كان منزلاً قديماً مكوناً من طابقين والمقسم إلى جزأين متساويين تقريباً، حيث تقسم فواصل رفيعة ما كانت قبل ذلك غرفاً فسيحة، بل وتقسم كذلك الأدراج التي كانت فيما قبل واسعة وجميلة. وقد أخذ ديفيد الشقة الأكبر وأعطى روزماري مفاتيح الأخرى؛ وطوال ست سنوات ظلا يقطنان إلى جوار بعضهما البعض لا تفصلهما سوى جدران رفيعة ولكنهما كانا يريان بعضهما يومياً. حاولت روزماري أن تدفع له إيجاراً أكثر من مرة ولكن ديفيد رفض طالباً منها العودة إلى المدرسة ونيل شهادة، وفي ذلك الحين يمكنها أن تدفع له. كان يعلم تماماً أن نواياه حسنة نابعة من نزعته الغيرية، ومع ذلك فلم يستطع أن يشرح حتى لنفسه لماذا كانت بكل هذه الأهمية له. وقد قالت له ذات مرة: "لقد ملأت هذا المكان الذي تركته ابنتك حينما تخلّيت عنها". وقد أوماً حينها وفكر في كلماتها هذه ولكنه وجد أن هذا حتى لم يكن السبب. فقد اعتقد أن السبب الحقيقي هو أن روزماري تعلم بشأن سره. لقد قص حكايته عليها في عجلة كبيرة، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يسرد فيها حكايته هذه على أحد، وهي قد أنصتت دون أن تصدر عليه أحكاماً. لقد وجد حرية في ذلك؛ فيستطيع ديفيد أن يكون على سجيته تماماً مع روزماري والتي استمعت إلى ما فعله دون أن ترفضه ودون أن تخبر أحداً كذلك. والغريب أنه على مدار السنوات أسست روزماري وبول

صداقة؛ فبالرغم من أنهما كانا يبغضان بعضهما البعض في البداية إلا أن هذه الكراهية تحولت إلى نوع من الجدالات حول الموضوعات التي كانت تشغل بال كليهما - السياسة والموسيقى والعدالة الاجتماعية - تلك الحوارات التي كانت تبدأ على طاولة العشاء أثناء زيارات بول النادرة وتمتد حتى ساعات متأخرة من الليل.

وفي بعض الأحيان كان ديفيد يشعر أن تلك كانت طريقة بول في إبقاء نفسه بمنأى عنه، طريقة للوجود في المنزل دون الاضطرار إلى التحدث إليه بشأن أي شيء شخصي للغاية. ومن حين لآخر كان ديفيد يفتح معه موضوعاً ولكن بول كان يوماً يختار هذه اللحظة للمغادرة دافعاً مقعده للخلف ومتثائباً وقد أصابه التعب فجأة.

الآن نظرت روزماري للأعلى ودفعت إحدى خصلات شعرها من فوق وجنتها باستخدام رسغها ولوحت له. حفظ ديفيد ملفاته وسار عبر الردهة الضيقة. وفي الطريق مر أمام الباب المؤدى إلى غرفة جاك. كان من المفترض له أن يكون موصداً حينما أصبح المنزل مزدوجاً، ولكن في إحدى الليالي قرر ديفيد باندفاع تجربة القبض ووجد أنه ليس موصداً. والآن وفي هدوء فتح الباب. كانت روزماري قد قامت بطلاء جدران غرفة جاك باللون الأزرق الفاتح وكان الفراش والمزينة - واللذان وجدوهما ملقيين على الحاجز الحجري - نظيفين وبيضاوين. وكانت سلسلة كاملة من الشرنشنت - قصاصات ورق معقدة لأمهات مع أطفالهن وأطفال يلعبون أسفل ظلال الأشجار والتي كانت جميلة ومليئة بالحركة - معلقة فوق الجدار البعيد. وكانت روزماري قد عرضت هذه الأعمال في متحف فني منذ عام مضى واندعشت حينما وجدت أن العروض بدأت تنهال عليها واحداً تلو الآخر. وقد أمضت ليالي كثيرة جالسة أمام طاولة المطبخ أسفل المصباح ساطع الضوء تقص مشهداً وراء الآخر، كل منها مختلف عن الآخر. ولم يكن

بإمكانها أن تعد الناس بصنع شيء بعينه؛ فقد رفضت أن تكون مقيدة بأية مجموعة من الصور. وقد عللت ذلك قائلة إن الصور تكون هناك بالفعل مخبأة داخل الورق وحركات يديها وإنها لا يمكن أن تصنع نفس الصورة مرتين.

وقف ديفيد ينصت لأصوات المنزل: تقطير الماء الخافت وحفيف الثلاجة القديمة. رائحة العطر ومسحوق الأطفال كانت قوية، وكان هناك سروال تحتى ملقى فوق المقعد بالزاوية. تنفس بعمق ليشم رائحتها ورائحة جاك وبعد ذلك أغلق الباب وواصل طريقه بالردهة الضيقة. ولم يخبر روزماري قط بأمر الباب غير الموصد ولكنه لم يدخل الغرفة من خلاله أبداً قط. فقد كانت مسألة شرف بالنسبة له ألا يستغل هذه الفتاة وألا يقتحم حياتها الشخصية بغض النظر عن مسألة حملها سفاحاً.

ومع ذلك فكان يحب أن يعرف أن الباب مفتوح.

كان هناك المزيد من الأعمال الورقية للقيام بها ولكن ديفيد هبط إلى الطابق السفلى. كان حذاء الركض خاصته يرقد بالشرفة الخلفية. قام بارتدائه وربط الرباط بإحكام وسار حول المنزل إلى أن وصل إلى الواجهة. كان جاك يقف عند التعريشة يجذب الزهورات من أغصانها. ربض ديفيد وجذبه بالقرب منه مستشعراً خفة وزنه وأنفاسه المنتظمة. ولد جاك في سبتمبر في وقت مبكر من الليل بعد فترة الغسق مباشرة. وقد قاد ديفيد السيارة بروزماري إلى المستشفى وجلس معها أثناء الساعات الست الأولى من المخاض ولعب معها الشطرنج وجلب لها رقائق الثلج. وبخلاف نورا، لم ترغب روزماري في خوض ولادة طبيعية؛ فإنها قد تلقت تخدير فوق الجافية وحينما أبطأ المخاض أخذت معجل الولادة. وقد كان ديفيد يمسك بيدها حينما تزداد الانقباضات قوة ولكن حينما أخذوها إلى غرفة الولادة بقي بالخارج. فكان ذلك شيئاً شديداً الخصوصية لا ينبغي عليه

اقتحامه. ومع ذلك فقد كان أول شخص بعد روزمارى يحمل جاك، وقد أحب هذا الطفل كابنه.

قال جاك الآن دافعاً صدر ديفيد: "إن رائحتك غريبة".

قال ديفيد: "إن ذلك هو قميصي القديم القذر".

سألت روزمارى: "هل ستذهب لتركض؟". جلست على كعبيها وهى تنفض القذارة من فوق يديها. كانت نحيفة هذه الأيام وكان يشعر بالقلق من الشكل المحموم الذى تعيش به حياتها وعملها بكبد فى الدراسة والوظيفة. مسحت بعض العرق من فوق جبهتها بمعصمها تاركة فوقها خطاً من القذارة.

"نعم. لا أستطيع أن أنظر لللفات التأمين هذه ولو لدقيقة أخرى".

"كنت أعتقد أنك استأجرت أحداً للقيام بهذا".

"هذا صحيح. وهى ستفيدنى كثيراً كما أعتقد ولكنها لن تبدأ العمل حتى الأسبوع التالى".

أومأت روزمارى وهى مستغرقة فى التفكير. كانت رموشها الشاحبة تعكس الضوء. كانت صغيرة، فقط فى الثانية والعشرين من عمرها ولكنها كانت صلبة وقوية العزم، وتحمل بداخلها ثقة امرأة أكبر بسنوات.

سأل: "هل لديك محاضرة الليلة؟"، أومأت.

"آخر محاضرة لى. إن اليوم هو الثانى عشر من يوليو".

"هذا صحيح. لقد نسيت".

"لقد كنت مشغولاً للغاية".

أوماً بينما يساوره شعور غامض بالذنب والارتباك من هذا التاريخ. الثانى عشر من يوليو، كان من الصعب فهم مدى مرور الوقت بمثل هذه السرعة. لقد عادت روزمارى إلى المدرسة بعد مولد جاك، وكان ذلك فى نفس الشهر - يناير - الذى ترك فيه عيادته القديمة لأن رجلاً ظل مريضاً له طوال عشرين عاماً تم

صرفه عند الباب لأنه لا يملك تأميناً صحياً. لذا فقد فتح عيادة خاصة به وكان يستقبل أى مريض يأتى إليه سواء يمتلك تأميناً أم لا. فإنه لم يعد يعمل من أجل المال. فقد ذهب بول إلى الجامعة بالفعل وكان قد سدد ديونه منذ فترة بعيدة؛ لذا فقد كان بإمكانه أن يفعل ما يحلو له. وفى هذه الأيام - كما كان الحال مع الأطباء قديماً - كان يقبض أجرته فى صورة سلع عينية أو محصولات زراعية أو أى شيء يستطيع المريض تقديمه. وقد تخيل أنه يستطيع المضى قدماً بهذه الطريقة طوال عقد آخر أو شيء من هذه القبيل، بحيث يرى المرضى يومياً ثم يقلل عدد أيام عمله تدريجياً حتى تمنعه شيخوخته من الذهاب إلى أى مكان سوى التحرك فى غرف هذا المنزل وهذه الحديقة وإلى متجر البقالة والحلاق. وقد تكون نورا بحلول هذا الوقت مازالت تجوب العالم مثل اليعسوب، ولكن مثل هذه الحياة لا تلائمه. فقد كان يؤسس الجذور التى كانت تضرب فى الأرض بعمق.

قالت روزمارى وهى تخلع قفازيها: "إن لدى اختباراً نهائياً فى مادة الكيمياء اليوم وبعد ذلك أكون قد انتهيت. كان النحل يطن فى صريمة الجدى. قالت وهى تضبط بنطالها القصير وتجلس إلى جواره على الدرجات الخرسانية الدافئة: "إن هناك شيئاً آخر أود أن أخبرك به".

"يبدو الأمر جاداً".

أومأت: "إنه كذلك. لقد تلقيت عرض عمل أمس. إنها وظيفة جيدة".

"هنا؟".

هزت رأسها وهى تبتسم وتلوح لجاك بينما كان يدفع العربة عبر المرجة: "تلك هى المشكلة. إنه فى هيرسبرج".

قال بينما يعتصر الألم قلبه: "بالقرب من أمك". وكان يعلم أنها كانت تبحث عن وظيفة ولكنه كان يأمل أن تظل إلى جواره. ولكن الانتقال كان احتمالاً وارداً. فمنذ عامين بعدما توفى والدها

فجأة تصالحت روزمارى مع أمها وأختها الكبرى واللتين كانتا تتوقان لعودتها للمنزل لتربية جاك على مقربة منهما.

"هذا صحيح. إنها أنسب وظيفة لى: أربعة أيام فى الأسبوع لمدة عشر ساعات. وهم سيتكفلون بمصروفات دراستى كذلك. وبهذا أستطيع الدراسة لنيل شهادة العلاج الطبيعى. ولكن الأهم من كل ذلك أنه سيتاح لى مزيد من الوقت لتمضية مع جاك".

قال: "ومما لا شك فيه أنك ستتلقيين المساعدة من أمك وأختك".

"هذا صحيح. فذلك سيكون لطيفاً حقاً. وبالرغم من أننى أحب كنتاكى كثيراً، إلا أننى لم أشعر قط أنها وطنى".

أوماً وهو سعيد من أجلها وغير واثق من نفسه كى يتحدث. فإنه قد تخيل فى بعض الأحيان - نظرياً - إمكانية أن يحظى بالمنزل لنفسه: الجدران التى يمكن إزالتها والمساحة التى ستصبح أكبر، عودة هذا المنزل المزدوج ببطة إلى المنزل العائلى الأنيق الذى كان عليه قبل ذلك. ولكن كل هذه الأحلام كانت من أجل الحصول على مزيد من المساحة والتنفس، فإنه لم يرغب قط فى التخلي عن متعة سماع وقع أقدامها والحركات الخفيفة إلى جواره أو متعة الاستيقاظ ليلاً على صوت بكاء جاك.

وضعت يدها على ركبتيها: "نعم. اسمع، أعلم أننا لم نتحدث عن هذا من قبل قط. أنا لا أعرف حتى كيف أبدأ الموضوع. ولكننى أود أن أعبر لك عن مدى امتنانى لما فعلته من أجلى".

قال: "لقد وجهت لى تهمة بذل قصارى جهدى لمساعدة الآخرين".

هزت رأسها. "لقد أنقذت حياتى بأشكال عدة".

"حسناً. إن كان هذا صحيحاً فأنا سعيد. فانه يعنم أننى قد تسببت فى كثير من الدمار فى مكان آخر. فأنا لم أستطع قط إسعاد نورا".

ساد الصمت بينهما.

قالت روزمارى برفق: "يجب عليك أن تخبرها. وبول كذلك. يجب عليك ذلك". كان جاك يربض فوق الرصيف الآن يصنع كومات صغيرة من الحصى بينما يدع الأحجار تسقط من بين أصابعه. "أعلم أن هذا الأمر لا يخصنى ولكن نورا ينبغي أن تعلم بشأن فويب. من الخطأ ألا تعلم. ومن الخطأ كذلك أن تظل تعتقد ما تعتقده عنا".

"لقد أخبرتها الحقيقة. أخبرتها أننا أصدقاء".

"نعم. هذا صحيح. ولكن كيف يمكنها تصديق هذا؟".

هز ديفيد كتفيه: "إنها الحقيقة".

"ليست الحقيقة كاملة. ديفيد، بشكل ما أنا وأنت مترابطان بسبب فويب. لأننى أعرف هذا السر. وفى الواقع لقد أحببت هذا الأمر: الشعور بأن لى مكانة خاصة لأننى أعلم شيئاً لا يعلمه سوى. إن الأمر بمثابة القوة، أليس كذلك، أن تعرف سرا؟ ولكن مؤخراً لم يعجبني ذلك كثيراً، معرفتى بهذا. فهو أمر لا ينبغي لى معرفته، أليس كذلك؟".

"لا". التقط ديفيد كتلة من الطمي وقام بتكويرها بين أصابعه. فكر فى خطابات كارولين والتى أحرقها بحرص حينما انتقل لهذا المنزل: "أعتقد أنك محقة".

"إن، هل ستخبرها؟".

"لا أعلم يا روزمارى. لا أستطيع وعدك بهذا".

جلسا فى صمت تحت أشعة الشمس لبضع دقائق بينما يراقبان جاك وهو يحاول ثانية قلب الشاحنة فوق العشب. كان كتانى الشعر ورشيق الحركة ورياضياً بالفطرة، صبى يحب الركض والتسلق. لقد عاد ديفيد من ويست فيرجينيا متحرراً من الحزن والخسارة اللذين ظل يحبسهما بداخله طوال هذه السنوات. فحينما ماتت جون لم يجد طريقة للتنفيس عن شعوره بالخسارة، لم يجد طريقة للمضى قدماً. فلم يكن من المعتاد التحدث عن الأموات فى هذه الأيام، لذا فإنها لم يتحدثوا عنها.

لقد تركوا كل هذا الكم من الحزن بداخلهم دون متنفس. وقد ساعدته العودة إلى هناك بشكل ما على حسم هذا الأمر. فقد عاد إلى منزله في ليكسنجتون مستنزفاً نعم، ولكن أيضاً هادئاً واثقاً. فبعد كل هذه السنوات امتلك أخيراً القوة ليمنح نورا الحرية لإعادة تشكيل حياتها.

...

حينما ولد جاك فتح له رصيذاً بالبنك باسم روزماري، كما فتح واحداً لفويب باسم كارولين. وكان ذلك سهلاً للغاية، فقد كان لديه رقم تأمين كارولين الاجتماعي ولديه عنوانها أيضاً. فلم يستغرق الأمر من المحقق الخاص أكثر من أسبوع لإيجاد كارولين وفويب واللتين كانتا تعيشان في بتسبرج في منزل طويل ومكتنز بالقرب من الطريق السريع. وقد قاد ديفيد سيارته إلى هناك وأوقف السيارة بالشارع عازماً على صعود الدرجات وطرق الباب. فما كان يريد أن يخبر نورا بما حدث ولم يكن في استطاعته القيام بذلك دون أن يخبرها أولاً بمكان فويب. إن نورا سوف ترغب في رؤية ابنتها، كان واثقاً من ذلك، لذا فإنها لن تكون حياته فقط التي ستتغير أو حياة نورا أو بول. لقد أتى إلى هنا ليخبر كارولين بما يريد أن يفعله.

هل كان ذلك هو التصرف السليم؟ لم يعرف الإجابة عن هذا. جلس في السيارة. كان الغسق قد حل وأضاء السيارات الأمامية تنير أوراق شجرة الجميز. لقد نشأت فويب هنا، كان هذا الشارع مألوفاً لها للغاية، هذا الرصيف الذي تضرب به جذور هذه الشجرة، اللافة التي ترتعش برفق بفعل الريح - فكل ذلك كان يرمز للوطن. مر أمامه زوجان يدفعان عربة أطفال ثم أضى مصباح في حجرة المعيشة بمنزل كارولين. خرج ديفيد من السيارة ووقف عند محطة الأتوبيس محاولاً أن يبدو غير واضح حتى بالرغم من تحديقه عبر المرجة السوداء في النافذة. وفي الداخل

كانت كارولين التي تتحرك في مربع الضوء تجمع الصحف في غرفة المعيشة وتطوى ملاءة. كانت ترتدى منزراً. كانت حركاتها رشيقة وموجهة. وقفت وتمددت ونظرت فوق كتفها وتحدثت. وفي ذلك الحين رآها ديفيد: فويب، ابنته. كانت بغرفة الطعام تعد المائدة. كان لديها شعر بول الداكن ومظهره الجانبي وللحظة حين استدارت لتأخذ مذرة الملح شعر ديفيد وكأنه يراقب ابنه. أخذ خطوة للأمام وخرجت فويب من نطاق رؤيته ثم عادت وهي تحمل ثلاثة أطباق. كانت قصيرة وممتلئة الجسم وكان شعرها خفيفاً ومعقوداً بمشبك شعر. كانت ترتدى نظارة. ومع ذلك كان الشبه لا يزال واضحاً لديفيد: ابتسامة بول وأنفه وتعبير بول الذي ينم عن التركيز على وجه فويب وهي تضع يديها في جانبيها وتمسح الطاولة بعينيها. جاءت كارولين إلى الغرفة ووقفت إلى جوارها ثم وضعت ذراعها حول فويب محتضنة إياها سريعاً وضحكتا.

وفي هذا الوقت كان الظلام قد حل تماماً. وقف ديفيد مسمراً وسعيداً لعدم وجود الكثير من المارة. كانت أوراق الشجر تنزل فوق الرصيف بفعل الريح فقام بإغلاق معطفه أكثر. تذكر شعوره في ليلة الولادة، هذا الشعور وكأنه يقف خارج حياته ويراقب نفسه يتحرك خلالها. الآن أدرك أنه لم يكن يملك أدنى سيطرة على هذا الموقف، فقد كان مستبعداً تماماً وكأنه غير موجود. لقد ظلت فويب غير مرئية له طوال سنوات: فكرة تجريدية وليست فتاة ومع ذلك ها هي ذا تضع أكواب الماء على الطاولة. نظرت للأعلى حيث دخل رجل ذو شعر أسود خشن الغرفة ثم قال شيئاً جعل فويب تبتسم. بعد ذلك جلسوا على الطاولة وبدأوا يتناولون الطعام.

عاد ديفيد إلى سيارته. تخيل نورا تقف إلى جواره في الظلام تشاهد ابنتيهما تتحرك خلال حياتها غير مدركة لهما. لقد سبب لنورا كثيراً من الألم؛ فخداعه لها جعلها تعاني بطرق لم يكن

يتخيلها أو يقصدها. ولكن بإمكانه إعفاءها من هذا. يمكنه الرحيل وترك الماضي كما هو. وهذا هو ما فعله أخيراً حيث رحل وقاد سيارته طوال الليل عبر مدينة أوهايو الفسيحة.

...

كانت روزماري تنظر إليه: "لا أفهم. لماذا لا تستطيع وعدى؟ إن ذلك هو التصرف انسلیم الذي ينبغي القيام به".
"سوف أتسبب لهما في كثير من الألم".

"أنت لن تعرف ماذا سيحدث حتى تقوم بإخبارهما".
"أستطيع أن أخمن".

"ولكن يا ديفيد عدنى أنك ستفكر فى الأمر".
"أنا أفكر فيه كل يوم".

هزت رأسها فى ضيق ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة.
"حسناً، إذن. هناك شيء واحد آخر".
"نعم؟".

"أنا وستيوارت سوف نتزوج".

قال على الفور: "ولكنك مازلت صغيرة للغاية على الزواج".
ثم ضحكا معاً.

قالت: "لقد بلغت من الكبر عتياً. إن ذلك هو ما أشعر به طوال الوقت تقريباً".

قال: "حسناً، تهاننى مرة أخرى. إن الأمر ليس مفاجئاً ولكنه خبر سعيد". فكر فى ستيوارت ويلز، ذلك الشخص الطويل والرياضى. كان طبيب أمراض صدرية وواقع فى حب مارى منذ سنوات، ولكنها طلبت منه الانتظار حتى الانتهاء من دراستها. "أنا سعيد لأجلك يا روزمارى. إنه شاب صالح كما أنه يحب جاك. هل لديه وظيفة فى هاريسبرج؟".

"ليس بعد ولكنه يبحث عن وظيفة. فعقده هنا ينتهى هذا الشهر".

"كيف حال سوق العمل فى هاريسبرج؟".
"ليس جيداً. ولكننى لست قلقة. إن ستيوارت بارع فى عمله حقاً".

"أنا واثق من هذا".

"أنت غاضب؟".

"لا، لا، إطلاقاً. ولكن أخبارك تجعلنى حزيناً وعجوزاً".
ضحكت: "نعم، فأنت قد بلغت من الكبر عتياً".
الآن ضحك هو أيضاً: "بل أكبر من ذلك".

ساد الصمت للحظة. قالت روزمارى: "لقد حدث كل هذا فجأة، فى الأسبوع الماضى فقط. وأنا لم أرغب فى أن أخبرك بشيء حتى أكون متأكدة. وبعد ذلك بمجرد أن أحصل على الوظيفة سوف نتزوج أنا وستيوارت. أعلم أن الأمر يبدو مفاجئاً".

قال ديفيد: "أنا أحب ستيوارت وأتطلع لتهنئته هو أيضاً".
ابتسمت: "فى الواقع، أتساءل إن كان بإمكانك تسليمى له عند المذبح".

نظر إليها فى ذلك الحين، إلى بشرتها الشاحبة والسعدة التى لا يمكنها احتواؤها بعد الآن والتى كانت تشع من ابتسامتها.

قال بجدية: "يشرفنى هذا".

"سوف نقيم حفل الزفاف هنا. وسيكون صغيراً وبسيطاً وخاصة فى خلال أسبوعين".
"إنك لا تضيعين أى وقت".

قالت: "أنا لست بحاجة للتفكير كثيراً. يبدو كل شيء مثالياً". نظرت إلى ساعتها وتنهدت. "لا بد أن أذهب". وقفت ونفضت يديها: "هيا يا جاك".

"سوف أعتنى به إن أردت أثناء ارتدائك لملابسك".

"سيكون هذا رائعاً حقاً. شكراً لك".

"روزمارى".

"نعم؟"

"سوف ترسلين لى بالصور من حين لآخر؟ صور جاك أثناء نموه؟ صوركما فى منزلكم الجديد؟"

"بالتأكيد". عقدت ذراعيها وركلت حافة الدرج.

قال ببساطة: "شكراً لك"، بينما بدأ يفكر ثانية والحزن يملؤه كيف خسر حياته الخاصة بطرق شتى. لقد اعتقد الناس أنه توقف عن التصوير بسبب المرأة ذات الشعر الأسود فى بتسبرج وانتقادها اللاذع له. فقد تخيل الناس أنه أصيب بالإحباط. فلم يصدق أحد أنه ببساطة فقد اهتمامه بالتصوير، ولكن هذا كان صحيحاً. فإنه لم يمسك بالكاميرا منذ أن ذهب ووقف عند مكان التقاء هذين النهرين. لقد ألق عن تلك الحرفة، عن المهمة المعقدة والمنهكة لمحاولة تحويل العالم إلى شيء آخر، لتحويل الجسم إلى عالم وتحويل العالم إلى جسم. فى بعض الأحيان كان يستعرض صورهِ - فى الألبومات أو المعلقة على الجدران فى مكاتبه أو حجراته الخاصة ويشعر بالفزع من جمالها البارد أو دقتها التقنية أو حتى من الفراغ الذى تضمنته. قال الآن: "ليس بإمكانك تجميد الوقت. ليس بإمكانك تصوير الضوء. يمكنك فقط النظر للسماء وترك المطر ينهمر فوقك. ومع ذلك فأنا أود أن ترسل لى بعض الصور. لك ولجاك. فهى ستعطينى لمحة بأية حال من الأحوال. إنها ستمدنى بسعادة بالغة".

وعدته وهى تلمس ذراعه: "سوف أرسل لك بالكثير من الصور. سوف أغمرك بها".

جلس فى كسل تحت أشعة الشمس على الدرجات بينما ذهبت لترتدى ملابسها. كان جاك يلعب بشاحنته. "يجب أن تخبرها". هز رأسه. بعدما جلس يراقب منزل كارولين اتصل بمحام فى بتسبرج وحدد المستفيدين من ثروته. فحينما يموت سوف يرثه جاك وفويب دون أن تعلم نورا شيئاً عن هذا الأمر.

عادت روزمارى بينما تصدر منها رائحة صابون العاج وترتدى تنورة وحذاء بدون نعل. أخذت يد جاك ورفعت حقيبة ظهر فوق كتفها. بدت صغيرة للغاية وقوية ونحيفة، كان شعرها رطباً ووجهها مقطباً. إنها سوف تترك جاك فى الحضانة بطريقها.

قالت: "إن انشغالى الشديد جعلنى أنسى. لقد اتصل بول".

تسارعت دقات قلب ديفيد: "حقاً؟"

"نعم. هذا الصباح. كان ذلك هو منتصف الليل عنده؛ كان قد عاد لتوه من حفل. كان فى سيفيل كما قال. وقد ظل هناك ثلاثة أسابيع يدرس جيتار الفلامينكو مع شخص ما - أنا لا أتذكر من ولكنه بدا شهيراً".

"هل كان مستمتعاً بوقته؟"

"نعم، بدا كذلك. إنه لم يترك رقماً. قال إنه سيتصل ثانية". أوماً ديفيد وهو سعيد لأن بول كان بخير. كان سعيداً لأنه اتصل.

قال وهو يقف: "أتمنى لك حظاً سعيداً فى اختبارك".

"شكراً لك. أنا فقط أريد النجاح، لا يهم التفوق".

ابتسمت ثم لوحت وسارت مع جاك بالطريق الحجرى حتى وصلت للرصيف. راقبها ديفيد تمضى محاولاً إيقاف هذه اللحظة - حقيبة الظهر اللامعة وشعرها الذى يتأرجح فوق ظهرها، ويد جاك الحرة التى كانت تمتد للإمساك بأوراق الشجر والعصى - للأبد فى عقله. كان ذلك لا طائل منه بالطبع؛ فقد كان ينسى أشياء مع كل خطوة تخطوها. فى بعض الأحيان كانت صورهِ تدهشه، الصور التى كان يستعرضها بعد إخراجها من الصناديق أو الملفات، لحظات لا يستطيع تذكرها بالرغم من رؤيته لها: صورهِ وهو يضحك مع أشخاص نسى أسماءهم، أو بول بينما يرتسم على وجهه تعبيرات لم يرها قط فى حياته. وماذا سيذكر من هذه اللحظة بعد عام، بعد خمسة أعوام؟ الشمس فى شعر

روزمارى والقذارة أسفل أظافر أصابعها ورائحة الصابون الخفيفة.

وبشكل ما سيكون هذا كافياً.

وقف وتمدد وخرج من الحديقة راكضاً. وبعد نحو ميل من الركض تذكر الشيء الآخر الذى ظل يؤرقه طوال الصباح، أهمية هذا اليوم بخلاف أن اختبار روزمارى النهائى به: الثانى عشر من يوليو. عيد ميلاد نورا. لقد كان عيد ميلادها السادس والأربعين.

كم كان من الصعب تصديق هذا. أبداً من خطاه حتى أصبح يمشى متذكراً نورا فى يوم زفافهما. لقد سارا بالخارج فى شمس آخر الشتاء ووقفاً على الرصيف يصافحان ضيوفهما. وقد رفعت الريح طرحتها وجعلتها تحتك بوجنته، وكان الثلج متراكماً فوق شجرة القرانيا فيما يشبه سحابة من البتلات.

ركض وانحرف خارجاً من الحديقة متوجهاً إلى حيه القديم. كانت روزمارى محقة. لابد لنورا أن تعرف. سوف يخبرها اليوم. سوف يذهب إلى منزلهما القديم، حيث كانت نورا لا تزال تعيش وينتظر حتى تعود ويخبرها، بالرغم من أنه كان لا يملك أدنى فكرة عما قد يكون رد فعلها.

كانت روزمارى قد قالت له: "بالطبع لن تعرف كيف سيكون رد فعلها. هذه هى الحياة يا ديفيد. فهل كنت تتخيل منذ سنوات أن ينتهى بك انحال فى هذا المنزل الصغير المزدوج، هل كان يمكنك أن تتوقع لقاءك بى؟".

حسناً، لقد كانت محقة؛ إن الحياة التى كان يعيشها لم تكن هى التى تخيلها لنفسه. لقد أتى إلى هذه البلدة كغريب، ولكن الآن أصبحت هذه الشوارع مألوفة للغاية؛ وليس فقط مجرد خطوة أو صورة ظلت غير عاقلة بذاكرته. لقد رأى عملية زراعة هذه الأشجار وشاهدها تنمو. مر أمام منازل يعرفها، منازل كان قد ذهب إليها لتناول العشاء أو احتساء مشروبات، أو فى الحالات

الطارئة حيث كان يقف فى وقت متأخر من الليل فى الردهات يكتب الوصفات الطبية ويتصل بالإسعاف. طبقة فوق طبقة من الأيام والصور، كثيفة ومعقدة وخاصة به وحده. يمكن لنورا أو بول السير هنا ورؤية شيء مختلف تماماً بالرغم من أنه سيكون حقيقياً كذلك.

انحرف ديفيد داخل شارع القديم. إنه لم يأت إلى هنا منذ شهور وقد تفاجأ حينما وجد أن أعمدة الشرفة قد تم هدمها، وأن السقف يدعمه أزواج من الدعامات. كانت هناك أعمال تجديدية وترميمية بالمكان ولكنه لم ير عمالاً. كان يمر السيارات شاغراً؛ فلم تكن نورا بالمنزل. سار جيئةً وذهاباً بضع مرات فى المرجة لالتقاط أنفاسه، ثم سار إلى حيث كان المفتاح مازال مخبأً أسفل حجر إلى جوار نبات الوردية. دخل المنزل وشرب بعض الماء. كان المنزل سيئ الرائحة ففتح نافذة. رفعت الريح الستائر البيضاء الشفافة. وقد كانت جديدة مثلها مثل الأرضيات والثلاجة. شرب كوباً آخر من الماء. بعد ذلك سار خلال المنزل وهو يعتريه الفضول لرؤية التغييرات الأخرى. أشياء صغيرة فى كل مكان: مرآة جديدة بغرفة الطعام، أثاث حجرة المعيشة أعيد تنجيده وترتيبه.

وفى الطابق العلوى كانت الأسرة هى نفسها، وتصرخ حجرة بول معبرة عن غضب المراهقين حيث كانت ملصقات الفرق الموسيقية الغامضة معلقة على الجدار، والجدران مطلية بلون أزرق داكن بشع يجعلها تشبه الكهف. لقد ذهب إلى جيلارد، وبالرغم من أن ديفيد قد بارك هذا الأمر وتكفل بنصف المصروفات فما كان بول لا يزال يتذكره هو الماضى الأعماق حينما لم يعتقد ديفيد أن موهبته ستكون كافية لتوفر له حياة كريمة. كان دوماً يرسل له بنشرات إعلانية وآراء للنقاد مع البطاقات الخاصة بكل مدينة يعزف فيها وكأنه أراد أن يقول له: "انظر كم أنا ناجح". وكان بول نفسه لا يستطيع تصديق هذا. فى بعض الأحيان كان

ديفيد يسافر مائة ميل أو أكثر إلى سينسيناتي أو بتسبرج أو أتلانتا أو ممفيس فقط كي يجلس في مؤخرة قاعة استماع مظلمة ويشاهد بول وهو يعزف. يشاهده بينما يحني رأسه فوق الجيتار وتحرك أصابعه في رشاقة وتعلو موسيقاه وكأنها لغة غامضة وجميلة حتى تصل إلى أذني ديفيد وتجعله يذرف الدموع. وكان كل ما يستطيع فعله في بعض الأحيان هو منع نفسه من الركض في الممرات المظلمة وأخذ بول بين ذراعيه. وهو لم يفعل هذا قط بالطبع، بل إنه في بعض الأحيان كان يفر هارباً دون أن يراه أحد.

كانت حجرة النوم الرئيسية مرتبة بشكل مثالي وغير مستعملة. فقد انتقلت نورا إلى حجرة النوم الأصغر الأمامية، هنا كانت الملاءة مجمدة. مد ديفيد يده لضبطها ولكنه جذبها في اللحظة الأخيرة معتقداً أن ذلك سيكون تطفلاً كبيراً. بعد ذلك هبط للطابق السفلي.

لم يفهم ذلك، كان الوقت متأخراً من فترة بعد الظهيرة ولا بد لنورا أن تكون بالمنزل. إن لم تعد قريباً فإنه سوف يغادر ببساطة.

كانت هناك أوراق ملاحظات صفراء على المكتب إلى جوار الهاتف والمليئة بالملاحظات خفية المعنى: اتصل بجان قبل ٠٠ : ٨ لتحديد موعد جديد، إن تيم ليس واثقاً؛ الولادة، قبل ١٠٠. لا تنسى - دنفري والتذاكر. قطع هذه الصفحة بحرص وضعها على منتصف المكتب ثم حمل النوتة عائداً إلى طاولة الطعام وجلس وبدأ يكتب.

"إن ابنتنا لم تمت. لقد أخذتها كارولين جيل وقامت بتربيتها في مدينة أخرى."

مزق هذه الورقة.

"لقد تخليت عن ابنتنا."

تنهد ثم وضع القلم. لم يكن باستطاعته فعل ذلك. فهو لا يستطيع أن يتخيل كيف يمكن أن تكون حياته دون حمل هذا العبء الذي يمثله هذا السر. لقد أصبح يفكر فيه وكأنه عقاب. لقد كان ذاتي التدمير، كان يرى ذلك، ولكن هكذا سارت الأمور. فقد كان الناس يدخلون ويقفزون من الطائرات ويحتسون كثيراً من الخمر ويقودون سياراتهم دون ربط حزام الأمان. احتكت الستائر الجديدة بذراعه. ومن بعيد كان الصنبور في حمام الطابق السفلي يقطر، وهو الشيء الذي ظل يثير أعصابه لسنوات، شيء طالما نوى إصلاحه. مزق الورقة من النوتة وقطعها إلى أجزاء صغيرة ووضعها في جيبه ليتخلص منها لاحقاً. بعد ذلك ذهب إلى المرآب وفتش في الأدوات التي تركها حتى وجد مفتاح ربط ومجموعة من الفلكات. ربما أنه قد قام بشرائهم في أحد أيام السبت للقيام بهذه المهمة.

وقد استغرق منه الأمر أكثر من ساعة لإصلاح حنفية دورة المياه. فهو قد خلعها وغسل المادة المترسبة وغير الفلكات وربطها ثانية بإحكام. كان النحاس مزركشاً. قام بتلميعه مستخدماً فرشاة أسنان جديدة وجدها داخل علبة قهوة أسفل الحوض. كانت الساعة السادسة حينما انتهى، وكان ذلك هو بداية المساء في منتصف فصل الصيف، لذا فكانت أشعة الشمس لا تزال تخترق النوافذ وإن كانت أضعف وتنحدر فوق الأرضية. وقف ديفيد بدورة المياه للحظة شاعراً برضا بالغ من الطريقة التي يلمع بها النحاس ومن السكون الذي يسود المكان. رن جرس الهاتف بالمطبخ وعلا صوت غير مألوف يتحدث عن تذاكر لمونتريال والذي قاطع نفسه ليقول: "اللجنة، لقد نسيت أنك مسافرة إلى أوروبا مع فريدريك". وبذلك تذكر - فإنها كانت قد أخبرته ولكنه نسي، لا لقد تعمد النسيان - لقد ذهبت إلى باريس لتمضية الإجازة هناك. تذكر أنها قابلت شخصاً ما، كنديا من كويبك، والذي يعمل في مباني آي بي إم ويتحدث الفرنسية. وقد تغير

الآن وتأخذ إجازات أكثر من العمل. وبدأت تتبرع بوقت عطلة نهاية الأسبوع لدور رعاية الحيوانات والحفاظ على البيئة؛ كما أنها في أثناء تشييدها لمنزل في كنتاكي الشرقية قابلت رجلاً دافئاً مرحاً، والذي كان رجل دين في السابق وأرمل. كان اسمه بين وكان قد تقابلا ثانية في مشروع في فلوريدا ومرة أخرى في المكسيك. وفي هذه الرحلة الأخيرة تزوجا.

قالت برى الآن وهي تنظر للأعلى: "إن بول سوف يأتي. فذلك كانت فكرته هو بالرغم من كل شيء".

قالت نورا: "هذا صحيح. ولكنه واقع في الحب. أنا فقط أتدنى أن يتذكر".

كان الجو حاراً وجافاً. أغلقت نورا عينيها وفكرت في هذا اليوم في أواخر شهر أبريل حينما فاجأها بول بمكتبها، حيث قد عاد للوطن لبضع ساعات قبل أن يسافر لمكان آخر. كان طويلاً ولا يزال هزيراً، جلس على حافة مكتبها وهو يقذف مُثْقَلَةً من يد إلى اليد الأخرى بينما يصف لها خطته لرحلة الصيف في أوروبا حيث سيقضي ستة أسابيع كاملة في أسبانيا للدراسة مع عازف الجيتار هناك. وكانت قد خططت هي وفريدريك للسفر إلى فرنسا وحينما اكتشف بول أنهما سيكونان في باريس في نفس يوم تواجده هناك أخذ ورقة من فوق مكتبها وكتب "اللوفر" على نتيجة الحائط بمكتب نورا: "الخامسة، ٢١ يوليو. قابليني في الحديقة وسوف أصطحبك لتناول العشاء".

وقد رحل مسافراً إلى أوروبا بعدها بأسابيع قليلة وكان يتصل بها بين الحين والآخر من فنادق بالريف أو عند البحر. وكان قد أخبرها بأنه واقع في حب عازفة فلوت، وأن الطقس مدهل، وأن الأمور في ألمانيا رائعة. كانت نورا تنصت إليه وهي تحاول ألا تقلق أو تطرح الكثير من الأسئلة. لقد أضحي بول بالغاً الآن، فيبلغ طوله ست أقدام ويمتلك لون بشرة ديفيد الخمرية. وقد

تخيلته يسير حافي القدمين على الشاطئ وينحنى ليهمس شيئاً في أذن حبيبته بينما تلمس أنفاسه أذنها.

كانت من الحكمة بحيث لا تسأله قط عن خط رحلاته، لذا فحينما اتصلت برى من المستشفى في ليكسنجتون لم تكن تعرف كيف تتصل به لتخبره بالخبر الأليم: أصيب ديفيد أثناء ركضه في المشجر بأزمة قلبية مات على إثرها.

فتحت عينيها. كان العالم نابضاً بالحياة وضبابياً في الوقت ذاته في حرارة وقت بعد الظهيرة بينما تتراقص أوراق الشجر داخل السماء الزرقاء. كانت قد عادت للمنزل وحدها وقد استيقظت في الطائرة على أحلام مزعجة رأت فيها أنها تبحث عن بول. ساعدتها برى خلال الجنازة ولم تتركها تعود إلى باريس وحدها.

قالت برى: "لا تقلقي. سوف يأتي".

قالت نورا: "إنه لم يحضر الجنازة. سيظل الشعور بالضيق يساورني طوال حياتي بسبب هذا الأمر. إنهما لم يتمكنوا مطلقاً من حل المشكلات القائمة بينهما. لا أعتقد أن بول قد سامح ديفيد على رحيله".

"وماذا عنك؟"

نظرت نورا إلى برى، إلى شعرها القصير النائي وبشرتها الصافية وعينيها الخضراوين وهدوئها ثم أشاحت بوجهها. "يبدو أن ذلك سؤال مثل تلك الأسئلة التي يطرحها بين. أعتقد أنك تمضين كثيراً من الوقت مع رجال الدين".

ضحكت برى ولكنها لم تترك الموضوع وحاله. قالت: "لكن الذي يسأل ليس بين، أنا التي تطرح السؤال".

أجابت نورا ببطء: "لا أعلم". وشرعت في التفكير في ديفيد في آخر مرة رآته فيها، يجلس بالشرفة ويحتسى كوباً من الشاي المثلج بعد الركض. إنهما قد تطلقا منذ ست سنوات وتزوجا قبل ذلك بثمانية عشر عاماً: إنها تعرفه منذ خمسة وعشرين عاماً،

ربع قرن، أكثر من نصف عمرها. وحينما اتصلت برى لتخبرها بوفاته لم تستطع ببساطة تصديق الأمر. كان من المستحيل أن تتخيل العالم بدون ديفيد. وكان ذلك فيما بعد فقط - بعد الجنازة - حينما تملك الحزن منها. "إن هناك الكثير من الأمور التي تمنيت أن أكون قد قلتها له. ولكننا على الأقل كنا نتحدث. ففي بعض الأحيان كان يمر بى لإصلاح شيء أو لإلقاء التحية. كان وحيداً على ما أعتقد."

"هل علم بأمر فريديريك؟"

"لا. لقد حاولت أن أخبره ذات مرة ولكنه بدا غير مكترث." قالت نورا: "إن هذا من شيم ديفيد. إنه وفريديريك مختلفان تماماً."

"نعم، هذا صحيح."

ارتسمت فى مخيلتها سريعاً صورة لفريديريك فى ليكسنجتون، يقف بالخارج فى الغسق ذى الظلال ويلقى بالطمى حول نبات الوردية. كانا قد تقابلا منذ أكثر من عام فى يوم جاف آخر فى حديقة أخرى. إن صفقة آى بى إم التى بذلت فى سبيلها مجهوداً كبيراً كانت من أكثر صفقاتها ربها، لذا فقد اضطرت إلى حضور الحفل السنوى رغم الصداق الذى كانت مصابة به وهدير الرعد. كان فريديريك يجلس وحده وهو يبدو صارماً وغير اجتماعى. وقد أعدت نورا لنفسها طبقاً وجلست إلى جواره. فإن لم يكن يود الثرثرة، فسيكون ذلك ملائماً لها تماماً. ولكنه ابتسم وقام بتحيتها بدفء قافراً من شروده ومتحدثاً الإنجليزية بلكنة فرنسية خفيفة؛ فقد كان من كوبيك. ظلاً يتحدثان لساعات فى أثناء تجمع العاصفة فى حين أخذ المدعوون الآخرون أشياءهم ورحلوا. وحينما بدأت الأمطار فى الهطول طلب منها الذهاب معه للعشاء.

سألت برى: "أين هو فريديريك؟ ألم تقولى إنه سيأتى؟"

"لقد أراد المجيء ولكن تم استدعاؤه إلى أورليانز بسبب عمل مهم. إن بعض أقربائه من بعيد يعيشون هناك. أحد أبناء عمومته الذى يعيش فى مكان يدعى شاتونوف. ألا تحبين أن تعيشى فى مكان بهذا الاسم؟"

"إنهم يعانون على الأرجح هناك أيضاً من زحمة السير والأيام التى تسوء فيها حالة الشعر."

"أتمنى ألا يكون هذا صحيحاً. أتمنى أنهم يسيرون إلى السوق كل صباح ويعودون إلى منازلهم محملين بالخبز الطازج والزهور. على أية حال، لقد طلبت من فريديريك الذهاب. هو وبول صديقان مقربان ولكن من الأفضل أن أخبره بالأمر وحدى." "نعم، أنا أخطط للرحيل كذلك بمجرد أن يأتى."

قالت نورا وهى تأخذ يدها: "شكراً لك. شكراً لك من أجل كل شيء. لمساعدتى فى الجنازة. فلم يكن بإمكانى اجتياز الأسبوع الماضى بدونك."

قالت برى وهى تبتسم: "إنك تدينين لى بكثير من الوقت. أعتقد أنها كانت جنازة جميلة، إن كان فى الإمكان قول هذا. كان هناك الكثير من الأشخاص. لقد اندهشت حينما رأيت عدد معارف ديفيد الكبير."

أومات نورا. لقد اندهشت هى أيضاً، فقد امتلأت دار عبادة برى الصغيرة بالناس، حتى أنه عند بدء المراسم كان الناس يحتشدون بالخلف لا يجدون لهم أماكن للجلوس. وكانت الأيام السابقة للجنازة ضبابية بالنسبة لها، وكان بين يقودها برفق خلال عمليات اختيار الموسيقى والنصوص والتأبوت والزهور ومساعداً إياها على كتابة النعى. ومع ذلك فقد بثت فيها هذه المهام بعض الراحة، فكانت نورا تنتقل بينها بكفاءة يشوبها فقدان الحس - حتى بدأت المراسم. فلا بد أن الناس قد وجدوا هذا غريباً، بكاءها الحار، الكلمات الجميلة القديمة التى أعيد إلقاؤها، ولكنها لم تكن تنتحب من أجل ديفيد فقط. لقد وقفوا معاً

فى حفل تابين ابنتهما منذ كل هذه السنوات، بينما يتأجج بداخلهما الشعور بالخسارة.

قالت نورا: "لقد كانوا من العيادة. تلك العيادة التى ظل يديرها طوال هذه السنوات. كان معظم هؤلاء الناس مرضاه".
"أعلم. كان الأمر مدهشاً. بدا أن الناس كانوا يعتقدونه رجلاً رائعاً".

قالت نورا: "إنهم لم يكونوا متزوجين منه".

رفرفت أوراق الشجر داخل السماء الزرقاء الساخنة. مسحت الحديقة بعينيها ثانية باحثة عن بول ولكنها لم تره.

قالت نورا: "يا إلهى، لا أستطيع أن أصدق أن ديفيد مات حقاً". حتى الآن وبعد مرور أيام كانت مازالت تلك الكلمات تجعل القشعريرة تسرى فى جسدها: "أنا أشعر بأننى عجوز للغاية، بشكل ما".

أخذت برى يدها وجلستا فى صمت لدقائق عدة. كانت راحة يد برى ناعمة ودافئة فى يدها وشعرت نورا باللحظة تتمدد وتنمو وكأن بإمكانها احتواء العالم أجمع. تذكرت شعوراً مشابهاً، قبل كل هذه السنوات حينما كان بول رضيعاً وكانت تجلس فى الليالى المظلمة ترضعه. وبعدما أصبح راشداً الآن فهو يقف فى محطة قطار أو على الرصيف أسفل أوراق الشجر المرفوفة أو يركض عبر الشارع. أو ربما يقف أمام نوافذ المتاجر أو يدس يده فى جيبه بحثاً عن تذكرة أو يحجب أشعة الشمس عن عينيه مستخدماً يده. لقد نما من جسمها، والآن - وهو الأمر المدهش - فهو يتحرك خلال العالم بدونها. وقد فكرت فى فريدريك كذلك يجلس فى حجرة اجتماعات وهو يومئ بينما يتفحص الأوراق ويضع راحتى يديه على الطاولة استعداداً للتحدث. كان لديه شعر أسود على ذراعيه وأظافر طويلة مربعة. كان يحلق لحيته مرتين يومياً، وإن نسي ذلك فإن لحيته الجديدة تحتك برقبتها حينما يجذبها قريباً إليه ليلا ليقبلها خلف أذنها. وهو

لا يتناول الخبز أو الحلويات، وإن تأخرت جريدة الصباح فإنه يضحي عكر المزاج. كل هذه العادات الصغيرة، سواء محبة أو مزعجة، كانت خاصة بفريدريك. والليلة سوف تلقاه فى فندقهما عند النهر. إنهما سوف يحتسيان الشراب وسوف تسهر طوال الليل بينما يغمر ضوء القمر المكان وتملأ أنفاسه الناعمة والمنظمة الغرفة. لقد أراد الزواج بها، وكان هذا قراراً عليها اتخاذه كذلك.

انزلق كتاب نورا من يدها فانحنت لالتقاطه. كانت عبارة: "ليلة فان جوخ اللامعة" منقوشة على النشرة التى كانت تستخدمها كمؤشر داخل الكتاب. وحينما انتصبت ثانية كان بول يعبر الحديقة.

قالت: "يا إلهى" بينما تسلفت إليها تلك الدفقة من السعادة التى دوماً ما تشعر بها عند رؤيته: هذا الشخص، ابنها، هنا فى العالم. نهضت. "ها هو يا برى. لقد جاء بول!".
قالت برى وهى تنهض كذلك: "إنه وسيم للغاية. لا بد أنه ورث ذلك منى".

قالت نورا: "لا بد من هذا. بالرغم من أنه لا أحد يعلم من أين جاء بموهبته، فأنا وديفيد لا نفقه شيئاً عن الموسيقى".
موهبة بول، نعم. راقبته وهو يسير عبر الحديقة. إنها لغز ونعمة فى الوقت ذاته.

رفع بول يده ملوحاً لهما وهو يبتسم ابتسامة عريضة وبدأت نورا تسير نحوه تاركة الكتاب على الدكة. كان قلبها يثب بهجة وسعادة وكذلك حزناً وخوفاً؛ فكانت ترتعد. كيف غير وجوده العالم! وصلت إلى بول فى النهاية وعانقته بشدة. كان يرتدى قميصاً أبيض ذا أكمام مثنية وبنطالاً قصيراً كاكى اللون. كانت رائحته نظيفة وكأنه قد استحّم لتوه. استشعرت عضلاته خلال ملابسه، عظامه القوية، وحرارة جسمه واستوعب للحظة فقط رغبة ديفيد فى إيقاف الوقت وتجميده. لا يمكن لومه، لا، لا

يمكن اعتباره مخطئاً لرغبته فى التعمق بكل لحظة عابرة،
لدراسة لغزها، وإعلان رفضه للخسارة والتغيير والحركة.
قال بول وقد عاد للخلف للنظر إليها : "مرحباً يا أمى".
كانت أسنانه بيضاء ومستقيمة ومثالية؛ وكان قد أطلق لحيته.
قال وهو يضحك: "من الغريب لقاؤك هنا".
"هذا صحيح".

كانت برى تقف إلى جوارها الآن. تقدمت وعانقته كذلك.
قالت: "لا بد أن أذهب. لقد أتيت لألقى التحية. تبدو بأفضل
حال يا بول. إن حياة التجوال ثلاثم".
ابتسم: "ألا يمكنك البقاء؟".
نظرت برى إلى نورا. قالت: "لا. ولكننى سألقاك قريباً،
حسناً؟".

قال بول وهو ينحنى لتقبيلها على وجنتها: "حسناً، أعتقد
هذا".

مسحت نورا عينها بظهر يدها أثناء استدارة برى ورحيلها.
سأل بول: "ما الأمر؟" ثم قال فى مزيد من الجدية: "ماذا
هنالك؟".

قالت وهى تأخذ يده: "تعال واجلس".
ومعاً سارا إلى الدكة جاعلين مجموعة من الحمام ذات
الأجنحة متقزحة اللون تحلق بعيداً. التقطت كتابها ووضعت
يدها على المؤشرة. "بول، أنا أحمل خبراً سيئاً لك. لقد توفى
أبوك منذ تسعة أيام. أزمة قلبية".

اتسعت عيناه من فرط الصدمة والحزن وأشاح بوجهه وهو
يحدث دون تحدث فى الطريق الذى كان يسير فيه للمجىء إلى
هذا المكان، إلى هذه اللحظة.

سأل أخيراً: "متى كانت الجنازة؟".

"الأسبوع الماضى. أنا آسفة يا بول. أنا لم أجد وقتاً للبحث
عنك. لقد فكرت فى الاتصال بالسفارة لمساعدتى على إيجادك
ولكننى لم أعرف من أين أبدأ. لذا فقد أتيت اليوم متمنية لقاءك".
قال فى جمود: "لقد كاد القطار يفوتنى، وفى ذلك الحين ما
كنت سأستطيع الحضور".

قالت: "ولكنك جئت. ها أنت ذا".
أوماً وانحنى للأمام واضعاً مرفقيه فوق ركبتيه وعاقداً يديه
بينهما. تذكرت أنه كان يجلس بنفس هذه الطريقة وهو طفل
بينما يصارع لإخفاء حزنه. أغلق قبضته بشدة ثم حررها. أخذت
يد ابنتها بين يديها. كانت أطراف أصابعه متجسأة بفعل سنوات
من العزف على الجيتار. جلسا لفترة طويلة ينصتان لصوت الريح
وهى تتحرك بين أوراق الشجر.

قالت أخيراً: "لا بأس أن تشعر بالحزن. إنه والدك".
أوماً بول ولكن وجهه كان لا يزال مغلقاً كالقبضة. وحينما
تحدث أخيراً بدا أنه على وشك البكاء.

"أنا لم أفكر قط أنه قد يموت. لم أعتقد أن ذلك ليحزننى
كثيراً. فنحن لم نكن نتحدث كثيراً بأية حال من الأحوال".

"أعلم". وكانت حقاً تعلم ذلك. فبعد اتصال برى سارت نورا
عبر الشارع الذى تظله أوراق الشجر وهى تبكى بحرارة وكانت
غاضبة لأن ديفيد رحل دون أن تتاح لها الفرصة لحسم الأمور
معه للمرة الأخيرة. "ولكن قبل ذلك كان بإمكانكما دوماً
التحدث".

"نعم. لقد ظللت أنتظره ليقوم هو بالمبادرة الأولى".

"أعتقد أنه كان ينتظر نفس الشيء".

قال بول: "لقد كان أبى. كان من المفترض أن يعرف ما يجب

فعله".

قالت: "لقد أحبك. لا تعتقد غير ذلك قط".

ضحك بول ضحكة صغيرة تنم عن المراحة. "لا. يبدو هذا رائعاً ولكنه فقط غير صحيح. لقد كنت أذهب إلى هذا المنزل وأحاول؛ كنت أزوره للتحدث معه بشأن مختلف الأمور، ولكن لم يفلح هذا قط. ما من شيء كنت أفعله كان يبدو صحيحاً له. كان سيكون أكثر سعادة لو كان قد حظى بابن مختلف عني تماماً". كان صوته لا يزال هادئاً ولكن تجمعت الدموع في أركان عينيه وكانت تنهمر فوق وجنتيه.

قالت: "يا حبيبى، لقد أحبك. أحبك حقاً. كان يعتقد أنك أروع ابن يمكن أن يحظى به المرء".

مسح بول الدموع من فوق وجنتيه. شعرت نورا بحزنها يتجمع في حلقها، ومضت لحظة قبل أن تستطيع التحدث ثانية. قالت أخيراً: "إن أباك كان يلقي صعوبة في الكشف عن مكنون ذاته لأى أحد. وأنا لا أعلم السبب في هذا. كان من أسرة فقيرة وطالما كان يشعره هذا بالخزي. كم كنت أتمنى لو رأى الكم الكبير من الناس الذين جاءوا إلى الجنازة يا بول. مئات. كان ذلك بسبب عمله في تلك العيادة. إن لدى كتاب الضيوف؛ يمكنك رؤيته بنفسك. الكثير من الناس كانوا يحبونه".

سأل بعدما استدار لمواجهتها: "هل جاءت روزمارى؟".

"روزمارى؟ نعم". سكنت نورا تاركة النسيم الدافئ يتحرك فوق وجهها. لقد لمحت روزمارى حينما انتهت المراسم تجلس في المقصورة الأخيرة بينما ترتدى ثوباً رمادياً بسيطاً. كان شعرها لا يزال طويلاً ولكنها بدت أكبر وأكثر استقراراً. طالما أكد ديفيد أنه لا شيء بينهما؛ وفي قلبها كانت نورا واثقة من هذا. قالت نورا: "إنهما لم يكونا متحابين. أبوك وروزمارى. لم يكن الأمر كما تعتقد".

جلس منتصباً: "أعلم. أعلم، لقد أخبرتنى روزمارى ذلك وقد صدقتها".

"أفعلت هذا؟ متى؟".

"حينما أتى بها أبى إلى المنزل. فى اليوم الأول". بدا متمللاً ولكنه واصل حديثه. "وقد كنت أراها فى بعض الأحيان فى منزله. حينما كنت أزور أبى فى بعض الأحيان كنا نتناول العشاء جميعاً معاً. وفى بعض الأحيان كنت لا أجد أبى بالمنزل فأبقى مع روزمارى وباك. كان بإمكانى أن أرى أنه ما من شيء بينهما. وأحياناً كنت أقابل صديقها هناك. لا أعلم. كان الأمر غريباً بعض الشيء على ما أعتقد. ولكننى اعتدت عليه. كانت فتاة صالحة. لم تكن هى السبب الذى جعلنى أجد صعوبة فى التحدث إليه".

أومأت نورا: "ولكنك يا بول كنت ذا قيمة كبيرة لديه. اسمع، أنا أفهم ما تقوله لأننى شعرت بذلك أيضاً. هذه المسافة. ذلك التحفظ - هذا الإحساس بوجود جدار بيننا بلغ من الارتفاع ما يستحيل معه تسلقه واجتيازه. بعد فترة أقلعت عن المحاولة، وبعد فترة أطول توقفت عن انتظار باب يظهر به. ولكن خلف هذا الجدار كان أبوك يحب كلاً منا. لا أعرف كيف: أنا متيقنة من هذا. إن هذا صحيح".

لم يتحدث بول. ومن الحين للآخر كان يمسح الدموع من عينيه.

أصبح الهواء أكثر برودة الآن وبدأ الناس يتكاثرون بالحدائق، الأحياء متشابكو الأيدي والأزواج مع أطفالهم والساثرون بمفردهم. اقترب زوجان مسنان. كانت الزوجة طويلة وذات شعر أبيض وكان الزوج يسير ببطة متكئاً على عكاز. كانت تلف يدها حول مرفقه وتميل للأسفل للتحدث معه بينما يومئ هو ويقطب وهو ينظر عبر الحدائق وراء الأبواب إلى ما تريد منه أن يراه. شعرت نورا بالألم لرؤيتها هذه الحميمية. فذات مرة تخيلت نفسها هى وديفيد يسيران معاً بعد أن وصلا لهذه السن المتأخرة، تاريخهما متشابك معاً مثل الكرمة. يا إلهى، لقد كانت عتيقة الطراز للغاية؛ حتى ندمها كان عتيق الطراز. لقد

غريبة لنورا، مألوفة ومجهولة في الوقت ذاته. بدت قديمة وجديدة.

سأل بول: "هل تمضين إجازة ممتعة؟ هل أعجبتك فرنسا؟". قالت نورا: "أنا سعيدة هنا" وكانت صادقة. لقد شعر فريدريك أن الازدحام قد دمر باريس ولكن نورا كانت تراها ساحرة، المخابز ومتاجر الحلويات والفظائر التي تباع بالشوارع، قمم المباني القديمة، والأجراس. وأصوات هذه اللغة المتدفقة مثل الجدول، والتي تفهم منها كلمة هنا وأخرى هناك. "ماذا عنك؟ كيف تسير رحلتك؟ هل مازلت واقعا في الحب؟".

قال بعدما هدأ وجهه بعض الشيء: "آه، نعم". نظر إليها مباشرة: "هل تنوين الزواج من فريدريك؟".

مررت إصبعها حول حافة حادة للنشرة. كان هذا هو السؤال الذي يواتيها طوال الوقت: هل ينبغي عليها تغيير حياتها؟ كانت تحب فريدريك، ولم يسبق لها الشعور بمثل هذه السعادة، بالرغم من أنه كان بإمكانها توقع انتهاء هذه السعادة حينما تتحول عاداته المحببة إلى أشياء تثير جنونها وتثير جنونه عاداتها. إنه يحب الأشياء كما هي؛ فكان شديد التدقيق بشأن كل شيء، بداية من ملتقى الأركان وحتى استثمارات الضرائب. وهذا الجانب من شخصيته - ولا ينطبق هذا على الجوانب الأخرى - كان يذكرها بديفيد. كانت كبيرة بما يكفي الآن وذات خبرة بالحياة لتدرك أنه ما من شيء كامل. لا شيء يبقى على حاله بما في ذلك هي. ولكنه كان صحيحاً كذلك أنه حينما كان فريدريك يدخل إحدى الغرف يبدو أن هواءها يتغير ويصبح مشحوناً ويتجه مباشرة إليها. كانت تريد أن ترى ماذا سيحدث فيما بعد. قالت ببساطة: "لا أعرف. ترغب برى في شراء شركتي. وفريدريك مازال عليه العمل عامين آخرين حسبما ينص عقده، لذا فنحن غير مضطرين لاتخاذ أية قرارات سريعة. ولكن بإمكانى تخيل حياتي معه. أعتقد أن تلك هي الخطوة الأولى".

تخيلت أنها بعد الزواج ستكون مثل برعم جميل يحوطه كأس الزهرة الأكثر مرونة وصلابة، أنها ستعيش في حماية وكنف شخص آخر تتداخل طبقات حياتها مع حياته.

ولكنها بدلاً من ذلك شقت طريقها الخاص في الحياة فقامت بتأسيس عمل وتربية بول والسفر حول العالم. لقد كانت هي البتلة والكأس والسويقة والورقة؛ كانت هي الجذر الأبيض الطويل الضارب بعمق في الأرض. وكانت سعيدة لذلك.

بينما كانا يمران أمامهما تحدث الزوجان إلى بعضهما البعض بالإنجليزية، كانا يتجادلان بشأن مكان تناول العشاء. كانت لكنتهما تدل على أنهما من الجنوب - من تكساس كما خمنت نورا - وقد أراد الرجل إيجاد مكان يقدم شرائح لحم، طعاماً مألوفاً.

قال بول بمجرد أن ابتعدا: "لقد ضقت ذرعاً بالأمريكيين. فهم دوماً ما يشعرون بالسعادة عند إيجاد أمريكيين آخرين. وكان عددنا ليس مائتين وخمسين مواطناً. وقد يتراءى لك أنهم يريدون إضفاء السمات الأمريكية على الفرنسيين طالما أنهم هنا".

"لقد كنت تتحدث إلى فريدريك".

"بالتأكيد. لم لا؟ إن فريدريك محق فيما يخص تعجرف الأمريكيين. أين هو بالمناسبة؟".

"سافر في عمل. سوف يأتي الليلة".

ترأت لها ثانية صورة فريدريك وهو يسير عبر باب غرفة الفندق ويلقى بمفاتيحه على المزينة ويربت على جيبه ليتأكد من أن محفظته بحوزته. فريدريك الذي يرتدى قميصاً أبيض زاهياً يعكس الضوء ذات ياقة مقلوبة، وفي كل مساء يأتي ويلقى برابطة عنقه فوق المقعد وينادى عليها بصوته الخفيض. ربما يكون صوته هو أول ما أحبته به. كان لديهما الكثير من الأشياء المشتركة - أبناء وحالة طلاق ووظائف كثيرة المتطلبات - ولكن لأن حياة فريدريك حدثت في مدينة أخرى وبلغه أخرى فقد بدت

أوما بول: "هل هذا هو ما شعرت به قبل ذلك؟ أعنى مع أبى؟".

نظرت نورا إليه وهى تفكر كيف تجيب عن هذا السؤال. قالت أخيراً: "نعم ولا. أنا أكثر عملية الآن. فى ذلك الحين كنت فقط أبحث عمن يعتنى بى. أنا لم أعرف نفسى جيداً حينها".

"كان أبى يحب العناية بالأشياء".

"نعم، هذا صحيح".

ضحك بول ضحكة قصيرة وحادة. "لا أستطيع أن أصدق أنه مات".

قالت نورا: "أعلم. وأنا كذلك".

جلسا لبرهة صامتتين بينما يتحرك الهواء حولهما. أدارت نورا النشرة متذكّرة برودة المتحف وصدى وقع الأقدام. وقد وقفت ساعة تقريباً أمام هذه اللوحة تتفحص تداخل الألوان والخطوط الواثقة والناطقة بالحيوية للفرشاة. ما الذى كان فان جوخ يريد التعبير عنه؟ شئ يومض، شئ مراوغ. لقد مضى ديفيد عبر العالم وهو يوجه كاميرته إلى أصغر التفاصيل بينما يملكه هوس بالضوء والظل ورغبة فى تجميد الأشياء فى مكانها. والآن قد رحل ورحلت معه الطريقة التى كان ينظر بها للعالم.

وقف بول ولوح ناحية الحديقة بعدما تحول الحزن الذى كان على وجهه إلى ابتسامة مشرقة. نظرت نورا إلى حيث يحدق عبر العشب الجاف لترى شابة ذات وجه طويل رقيق وجلد فى لون جوزة البلوط الناضجة، وشعر مجدول فى ضفائر مفزعة تصل حتى خصرها. كانت نحيفة وترتدى ثوباً منقوشاً ناعماً؛ وقد سارت فى تبختر وتحفظ.

قال بول وهو يقف: "إنها ميشيل. سوف أعود على الفور". راقبته نورا وهو يسير نحوها وكأن الجاذبية تشده، رفعت ميشيل وجهها حينما رآته. وضع وجهها بين يديه برفق وقبلها

وبعد ذلك رفعت يدها وتلاقت راحتا يديهما بسرعة وخفة فى إيماءة حميمية جعلت نورا تشيح بوجهها. عبرا الحديقة فى ذلك الحين وهما يحنيان رأسيهما ويتحدثان. وهما قد توقفا بعد برهة ووضعت ميشيل يدها على ذراع بول، فعرفت نورا أنه أخبرها.

قالت وهى تصافح نورا بعدما وصلا إلى الدكة: "مرحباً يا سيدة هنرى". كانت أصابعها طويلة وباردة. "أنا آسفة للغاية بشأن والد بول".

كانت لكنتها هى أيضاً غريبة بعض الشيء؛ فقد أمضت سنوات عديدة فى لندن. وطوال بضع دقائق وقفوا جميعاً فى الحديقة يتحدثون. اقترح بول عليهما الذهاب لتناول العشاء وكانت نورا تود قبول الدعوة. فقد أرادت أن تجلس مع بول ويتحدثا طوال الليل ولكنها ترددت مدركة أن بول وميشيل يتلهفان على أن يكونا وحدهما. فكرت فى فريدريك مجدداً والذى ربما يكون قد عاد بالفعل إلى الفندق وألقى برابطة عنقه فوق المقعد.

قالت: "ماذا عن الغد؟ يمكننا تناول الإفطار معاً. أريد منك أن تخبرنى كل شئ عن رحلتك. أود أن أعرف كل شئ عن عازفى جيتار الفلامنكو فى سيفل".

وبالشارع وأثناء سيرهما إلى مترو الأنفاق أمسكت ميشيل بذراع نورا. وقد سار بول أمامهما - عريض الكتفين وهزيلاً.

قالت: "لقد قمت بتربية ابن رائع. أنا آسفة للغاية لأننى لم أقابل والده".

"كان سيصبح هذا صعباً بأى حال - أن تحاولى التعرف عليه. ولكن نعم أنا آسفة لذلك أيضاً". سارتا بضع خطوات. "هل استمتعت برحلتك؟".

قالت ميشيل: "نعم، إن السفر بمثابة حرية رائعة".

كان مساء جميلاً، وقد سطعت مصابيح محطة المترو المتوهجة أثناء نزولهم. من بعيد علا صوت القطار محدثاً صدى بالنفق. كانت هناك روائح مختلطة: عطر وأسفله رائحة المعدن والزيت. قالت نورا لبول وهي ترفع صوتها فوق الضوضاء: "تعال في التاسعة غداً". وبعد ذلك حينما اقترب القطار اتكأت للأمام بالقرب من أذنه وصاحت.

"لقد أحبك! كان أبوك وقد أحبك!"

تغير تعبير وجه بول للحظة وارتسم فوقه تعبير الحزن والخسارة. أوماً. لم يكن هناك وقت لقول المزيد فكان القطار يسرع ناحيتهم الآن، وقد جعلت رياحه الفجائية قلبها يثب. ابنها، هنا في العالم. وديفيد الذي رحل. توقف القطار صارخاً وانفتحت الأبواب الهيدروليكية. دخلت نورا وجلست إلى جوار النافذة وهي تراقب بول يرحل بينما يضع يديه في جيبه ورأسه للأسفل. بعد ذلك اختفى.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى محطتها كان الهواء قد امتلأ بضوء الغسق المحبب. سارت عبر الحصى بالشارع متوجهة إلى الفندق ذي اللون الأصفر الشاحب والإضاءة الخافتة، والتي تنتأ الزهور من نوافذه. كانت الغرفة هادئة وأشياءها مبعثرة في مكانها؛ لم يكن فريدريك قد جاء بعد. توجهت نورا إلى النافذة المظلة على النهر ووقفت هناك للحظة تفكر في ديفيد يحمل بول على كتفيه في منزلهم الأول، وفي اليوم الذي عرض عليها الزواج فيه بينما يصيح عند جدول الماء لتسمعه ويضع الخاتم البارد في إصبعها. كما فكرت في بول وميشيل وراحتي يديهما المتلامستين.

ذهبت إلى المكتب الصغير وكتبت ملحوظة: "فريدريك، أنا في ساحة المحكمة".

كانت قاعة المحكمة المصطفة بالنخيل تطل على نهر السين. كانت الأضواء منسوجة بالأشجار والدرابزين الحديدي. جلست

نورا حيث يمكنها رؤية النهر وطلبت كأساً من الشراب. كانت قد تركت كتابها في مكان ما - على الأرجح في حديقة اللوفر. وضياعه قد ملأها بإحساس غامض بالندم. لم يكن ينتمى إلى نوعية الكتب التي قد يشتريها المرء مرتين، فهو كتاب خفيف، لتبضية الوقت فقط. يدور حول أختين. الآن لن تعرف قط ماذا سيحدث.

أختان. ربما في يوم ما ستقوم هي وبري بتأليف كتاب. جملت هذه الفكرة نورا تبتسم مما جعل الرجل الجالس بالطاولة المجاورة والذي يرتدى حلة بيضاء ويمسك بكأس في يده يبتسم لها بدوره. هكذا كانت تبدأ هذه الأمور: ففي السابق وحينما كانت تتاح لها فرصة مثل هذه فإنها كانت تقوم بوضع ساق فوق الأخرى أو تدفع بشعرها للخلف - وهي إشارات صغيرة تمثل دنوة للانضمام - حتى ينهض الرجل ويترك طاولته ويسألها إن كان بإمكانه الجلوس معها. كانت تحب قوة هذه المغامرات والشعور بالاستكشاف. ولكنها الليلة أشاحت بوجهها. أشعل الرجل سيجارة وحينما انتهت دفع فاتورته وغادر.

كانت نورا تراقب الحشد الكبير من الناس المتحرك على ضفة النهر الأسود الوامض. ولم تجد فريدريك بينهم. ولكنه في ذلك الحين وضع يده على كتفها فاستدارت لتجده أمامها، قام بتقبيلها على وجنتيها ثم على شفتيها.

قال وهو يجلس على الطاولة قبالتها: "مرحباً". لم يكن رجلاً طويلاً ولكنه كان رياضي الجسم ذا كتفين عريضين نتيجة سنوات من السباحة. كان محلل أنظمة وقد أحببت نورا ثقته في نفسه وقدرته على النظر إلى الصورة الكاملة وعدم الغوص في مستنقع التفاصيل. ومع ذلك فكان ذلك هو الشيء الذي كان يزعجها كثيراً في بعض الأحيان أيضاً - إحساسه بأن العالم مكان ثبت ويمكن توقع ما سيحدث به.

سأل: "هل انتظرت طويلاً؟ هل طلبت طعاماً؟".

"لا". أشارت إلى كأسها الذى كان ممتلئاً: "لم أنتظر طويلاً ولكننى جائعة بشدة".

أوما: "حسناً. آسف لأننى تأخرت. لقد تأخر القطار".

"لا بأس. كيف كان يومك فى أورليانز؟".

"رتيباً. ولكنى أمضيت فترة غداء لطيفة مع ابن عمى". اتكأت نورا للوراء تاركة الكلمات تتدفق عليها. كانت يدا فريدريك قويتين ورشيقتين. تذكرت هذا اليوم الذى صنع لها فيه مجموعة من أرفف الكتب وعمل فى المرآب طوال عطلة نهاية الأسبوع بينما تسقط نشرات الخشب من المقشطة. ولم يكن يخشى العمل أو جذبها إليه أثناء طهيها فى المطبخ ووضع يديه حول خصرها وتقبيل رقبتها حتى تستدير وتقبله. وقد كان يدخن الأرغن وهى العادة التى لم تكن تحبها، ولكنه يعمل بكد ويقود بسرعة كبيرة على الطرق السريعة.

سأل فريدريك: "هل أخبرت بول؟ هل هو بخير؟".

"لا أعلم. أتمنى هذا. إنه سوف يقابلنا لتناول الإفطار معنا غداً. إنه يود أن يشتكى لك من الأمريكيين المتعجرفين".

ضحك فريدريك وقال: "جيد. أنا معجب بابنك".

"إنه واقع فى الحب. إنها فتاة لطيفة حقاً تلك التى يحبها. ميشيل. إنها سوف تأتى غداً أيضاً".

قال فريدريك ثانية وهو يشبك أصابعه بأصابعها: "جيد".

قاما بطلب العشاء، أسياخ من اللحم على بيلاف الأرز والمزيد من الشراب. كان النهر يتحرك أسفلهما فى هدوء، وبينما كانا يتحدثان فكرت نورا كم أنه من الجميل أن يجلس المرء بهدوء فى نفس المكان. أن يجلس ويحتسى الشراب فى باريس ويشاهد الطيور تحلق من الأشجار والنهر وهو يتحرك بهدوء بالأسفل. تذكرت رحلاتها الجامحة بالسيارة وهى شابة، ولون الماء متقزح اللون الغريب، ووميض أحجار الجير، والريح التى ترفع شعرها.

ولكنها الآن كانت تجلس ساكنة بينما تحلق الطيور فى السماء. شمت رائحة الماء والعدم واللحم المشوى والطين الرطب للنهر. أعاد فريدريك إشعال أرغفه وصب المزيد من الشراب واستمر الناس فى التمشية على الرصيف متحركين خلال هذا المساء حيث بدأت المباني تصبح معتممة ومصباح تلو الآخر بدأ يضىء داخل النوافذ. طوت نورا منديلها ووقفت. كان العالم يدور من حولها؛ شعرت بالدوار من الشراب والارتفاع ورائحة الطعام بعد هذا اليوم من الحزن والبهجة.

سأل فريدريك من بعيد: "هل أنت بخير؟".

لمست نورا الطاولة بإحدى يديها والتقطت نفسها. أومات غير قادرة على التحدث فوق صوت النهر ورائحة ضفافه السوداء والنجوم اللامعة فى كل مكان.

ونهاباً بالمر وكأنه مخلوق رائع جديد، طاووس، جميل ومبهرج ومعتز بنفسه. وحينما جلس أخيراً إلى جوارها وهو لا يزال يتحدث ابتسمت فويب له ببساطة. كانت ابتسامة جميلة ومشعة خالية من أى تحفظ أو حذر، ودون أن تنتظر أن تتأكد أنه يبادلها نفس الحب الملتهب. أغلقت كارولين عينيها أمام تعبير ابتها هذا عن الحب - أمام هذه البراءة الجامحة وتلك المخاطرة! ولكنها حينما فتحت عينيها وجدت روبرت يبتسم لها بدوره وهو سعيد بها للغاية.

حسناً، نعم - فكرت كارولين - ولم لا؟ أليس مثل هذا الحب نادراً في هذا العالم؟ نظرت إلى آل الذى كان يجلس إلى جوارها ويومئ بينما يرتفع شعره الرمادى وينخفض مع تسلق الأتوبيس المطبات وانحرافه فى المنعطفات. كان قد أتى فى وقت متأخر من ليلة أمس وسوف يرحل ثانية فى صباح الغد وذلك لأنه يعمل وقتاً إضافياً لتغطية نفقات إصلاح السقف والمزارب. ففى هذه الشهور الأخيرة أصبحت أيامهما معاً مشحونة بالعمل. فى بعض الأحيان كانت إحدى ذكريات أيام زواجهما الأولى - تقبيله لها ولمسة يده فوق خصرها - تتسلل إليها وتشعرها بحنين حلو مر. كيف أصبحت حياتهما محمومة وممتلئة بالهموم بهذه الطريقة؟ كيف مضت العديد من الأيام واحداً تلو الآخر بهذه السرعة حتى وصلا إلى هذه اللحظة؟

سار الأتوبيس بسرعة عبر الوهد متسلقاً إياه ثم هابطاً تل سكوريل. كانت مصابيح الأتوبيس الأمامية مضاءة بالفعل فى وقت الغسق هذا من فصل الشتاء. كانت فويب وروبرت يجلسان بهدوء وهما يواجهان الممر ويرتديان ملابس سهرة مناسبة للحفل الراقص السنوى الذى كانوا فى طريقهم إليه. كان حذاء روبرت لامعاً وكان يرتدى أفضل حلة لديه. وأسفل معطفها الشتوى كانت فويب ترتدى ثوباً أبيض وأحمر وسلسلة صغيرة حول رقبتها. وقد أصبح شعرها أكثر سواداً وأرق قواماً وأقصر

نوفمبر ١٩٨٨

اسمه كان روبرت وكان وسيماً، وذا شعر أسود ينسدل فوق جبهته. ظل يذرع الأتوبيس جيئةً ونهاباً مقدماً نفسه لكل راكب ومعلقاً على الطريق والسائق واليوم. وصل إلى نهاية المقاعد واستدار وأعاد الكرة ثانية وقال وهو يصافح يد كارولين: "أنا أحظى بوقت ممتع هنا". ابتسمت فى صبر؛ كانت قبضة يده حازمة وواثقة. ولم يكن الآخرون ينظرون إليه مباشرة فى عينيه. كانوا يحدقون فى كتبهم أو جرائدهم أو خارج نوافذهم. ومع ذلك فقد واصل روبرت ما يفعله فى شجاعة، دون أن يصدر الناس فى الأتوبيس أية استجابة شأنهم شأن الأشجار أو الصخور أو السحب. وفى ظل مثابرتة - كما تراءى لكارولين وهى تراقبه من المقعد الأخير مقررة ثانية ألا تتدخل - كانت هناك رغبة عميقة تتأجج بداخله فى إيجاد شخص يراه حقاً.

وقد كان هذا الشخص كما بدا هو فويب والتى كانت تشرق حينما ترى روبرت، والتى كانت تراقبه وهو يتحرك جيئةً

ومُجمِعاً هنا وهناك بمشابك حمراء. كانت شاحبة وينتشر نمش خفيف على ذراعيها ووجهها. كانت تحديق خارج النافذة وهي تبسم ابتسامة صغيرة وتائهة في أفكارها. وكان روبرت يحدق في لوحات الإعلانات فوق رأس كارولين إلى إعلانات العيادات وأطباء الأسنان وخرائط الطريق. كان رجلاً صالحاً، مستعداً في كل لحظة أن يستمتع بما تقدمه الحياة من مباحٍ، بالرغم من أنه ينسى الحوارات بمجرد انتهائها تقريباً وقد كان يسأل كارولين عن رقم هاتفها في كل مرة يلقاها فيها.

ومع ذلك فإنه يتذكر فويب دائماً. يتذكر الحب دوماً.

قالت فويب وهي تمسك بذراع روبرت حينما اقتربوا من قمة التل: "لقد كدنا نصل". كانت المنشأة تبعد نصف بناية، وكانت أنوارها تنسكب عبر العشب البني وكسرات الثلج. "لقد قمت بعد سبع محطات".

قالت كارولين وهي تهز كتف آل: "آل، آل يا عزيزي".

غادروا الأتوبيس إلى داخل هواء ليل نوفمبر البارد والرطب وساروا في مجموعتين ثنائيتين عبر نور الغسق. لفت كارولين يدها حول ذراع آل.

قالت كارولين محاولة كسر الصمت الذي تحول أكثر فأكثر إلى إحدى عادات حياتهما: "أنت متعب. لقد مررت بأسبوعين طويلين".

قال: "أنا بخير".

"أتمنى لو لم يكن عليك التغيب كثيراً بهذه الطريقة". وقد ندمت على كلامها لحظة ما تفوهت به. فقد أصبح هذا الجدال قديماً الآن، عقدة لينة في نسيج زواجهما، وحتى في أذنيها بدا صوتها عالي النغمة وحاداً وكأنها ترغب في افتعال مشاجرة.

كان الثلج ينكسر أسفل أقدامهم. تنهد آل بعمق، مكوّناً سحابة صغيرة من الهواء بنفسه.

"اسمعي، أنا أبذل قصارى جهدي يا كارولين. إن عملي يدر ربحاً جيداً الآن بسبب أقدميتي. لقد ناهزت الستين ولا بد أن أجمع أكبر قدر ممكن من المال بينما بإمكانى هذا".

أومأت كارولين. كانت ذراعه أسفل يدها قوية وثابتة. كانت سعيدة لأنه معها هنا، ومتعبة من إيقاع حياتهم الغريب والذي كان يبقيه بمنأى عنها لأيام في المرة الواحدة. فما كانت تريده أكثر من أي شيء هو أن تتناول الإفطار معه كل صباح والعشاء كل ليلة؛ أن تستيقظ كل صباح لتجده إلى جوارها وليس في فندق مجهول يبعد مائة أو خمسمائة ميل عن المنزل.

قالت كارولين برقة: "إن كل ما في الأمر هو أنني أفقدك. هذا هو ما قصدته. هذا هو ما أقوله". كانت فويب وروبرت يسيران أمامهما وهما يمسكان بيدي بعضهما البعض. شرعت كارولين في مراقبة ابنتها التي ترتدى قفازاً أسود ووشاحاً كان روبرت قد أعطاه لها والذي كانت تلفه بشكل فضفاض حول رقبتها. كانت فويب تريد الزواج من روبرت، أن يكون لهما حياة مشتركة؛ ومؤخراً كان هذا هو كل ما تتحدث عنه. وكانت ليندا مديرة المؤسسة قد حذرتها قائلة: "إن فويب واقعة في الحب. إنها في الرابعة والعشرين وقد بلغت بلوغاً متأخراً وشرعت في اكتشاف أعضائها الجنسية. علينا مناقشة هذا الأمر يا كارولين". ولكن كارولين التي رفضت الاعتراف بأن أي شيء قد تغير أنهت المناقشة.

سارت فويب وهي تحنى رأسها للأمام قليلاً بينما تنصت بإمعان؛ وتعلو ضحكتها من حين لآخر عبر الغسق. استنشقت كارولين الهواء البارد وهي تشعر بدفقة من السعادة لسعادة ابنتها بينما عادت للوراء في نفس اللحظة إلى غرفة الانتظار بالعيادة ذات نباتات السرخس المتدلّية والباب الذي يصدر صوت صرير؛ حيث كانت نورا تقف عند مكتب الاستقبال وتخلع قفازها وهي تضحك حتى ترى موظفة الاستقبال خاتم زفافها.

كان هذا منذ زمن بعيد. لقد أبعدت كارولين بالفعل هذه الأيام عن ذهنها تماماً. ولكن في الأسبوع الماضي حينما كان آل متغيباً وصلها خطاب من شركة حمامة بوسط المدينة. فتحتة كارولين في ارتباك وقرأته في الشرفة بهواء نوفمبر البارد.

"من فضلك اتصلي بهذا المكتب بخصوص حساب باسمك".

اتصلت به على الفور ووقفت بالنافذة تشاهد نهر السيارات بينما يخبرها المحامي بأن ديفيد هنري قد مات. كان قد مات في الواقع منذ ثلاثة أشهر وقد اتصل بها المكتب ليخبرها عن الحساب الذي تركه ديفيد باسمها. ضغطت كارولين السماعة فوق أذنها وهي تشعر بأن شيئاً ما يغرق بعمق بداخلها أثناء تلقيها هذا الخبر بينما تحرق في أوراق الشجر المتفرقة المتبقية فوق فروع أشجار الجميز التي ترفرف في ضوء الصباح البارد. استمر المحامي الذي يبعد عنها أميالاً في الحديث. كان حساباً انتفاعياً: فقد جعله ديفيد مشتركاً باسميهما، لذا فقد خرج من الوصية. وهو لن يخبرها بالمبلغ الموجود في الحساب خلال الهاتف. فعلى كارولين الذهاب إلى مكتبه.

بعد أن أغلقت الخط عادت إلى الشرفة حيث جلست لفترة طويلة في الأرجوحة محاولة استيعاب هذه الأنباء. فقد شعرت بالصدمة لأن ديفيد تذكرها بهذه الطريقة. ماذا تخيلت؟ لقد تخيلت أنها وديفيد سيستمران في الحياة معاً، يعيشان حياتهما المنفصلة ومع ذلك فهما سيظلان مترابطين من خلال هذه اللحظة في مكتبه حينما نهض ووضع فويب بين ذراعيها. وأنها بطريقة ما وفي أحد الأيام حينما تجد ذلك ملائماً سوف تذهب إليه وتدعه يقابل ابنته. كانت السيارات تسرع أسفل التل في نهر منتظم. لم تستطع أن تعرف ماذا تفعل وفي النهاية عادت ببساطة إلى الداخل واستعدت للذهاب إلى العمل ووضعت الخطاب في درج المكتب العلوى مع حطام المشابك الورقية والأربطة

المطاطية وانتظرت عودة آل إلى المنزل كي يساعدها في التوصل إلى قرار. ولم تذكر له الموضوع بعد - فقد كان متعباً للغاية - ولكن هذه الأنباء التي لم يجسدها صوت بعد كانت تتعلق في الهواء بينهما جنباً إلى جنب مخاوف ليندا بشأن فويب.

انسكب النور من المركز على الرصيف والعشب. عبروا خلال الباب الثنائي المزدوج إلى داخل الردهة. كانت هناك أرضية رقص تم بناؤها في نهاية الردهة وكرة ديسكو تدور ناثرة ضوءاً ساطعاً على السقف والجدران والوجوه. كانت الموسيقى تدوى بالمكان ولكن لا أحد يرقص بعد. وقفت فويب وروبرت عند حافة الحشد يشاهدان الضوء يتغير فوق الأرضية الشاغرة.

قام آل بتعليق معاطفهم ثم أخذ يد كارولين، الأمر الذي أثار دهشتها. "هل تذكرين هذا اليوم في الحديقة، هذا اليوم حينما شرعنا في الرقص؟ دعينا نعلمهم كيف يكون الرقص، ما رأيك؟"

شعرت كارولين بالدموع تترغرغ في عينيها وشرعت تفكر في أوراق الشجر التي ترفرف مثل العملات في هذا اليوم الذي مضى عليه زمن طويل، الشمس الساطعة وطنين النحل من بعيد. فإنها قد رقصا عبر العشب وبعدها بساعات في المستشفى أمسكت بيد آل وقالت: "نعم، أوافق على الزواج منك".

وضع آل يده على خصرها وصعدا على الأرضية. وكانت كارولين قد نسيت - فقد مضى وقت طويل للغاية - مدى السلاسة والانسيابية التي يتحرك بها جسماهما معاً، كيف كان الرقص يشعرها بالحرية. تركت رأسها ترقد فوق كتفه، وبدأت تستنشق رائحة عطر ما بعد الحلاقة النفاذ الذي يضعه ورائحة زيت السيارة الكامن تحته. كانت يد آل تضغط بشدة على ظهرها ووجنته فوق وجنتها. استدارا وببطء بدأ الآخرون يتسللون إلى أرضية الرقص وهم يبتسمون لهما. كانت كارولين تعرف كل من بالغرفة تقريباً، فريق عمل مركز النهار والآباء الآخرون من

مجلس الآباء وسكان المنشأة المتاخمة. إن فويب كانت على قائمة انتظار الحصول على غرفة هناك، مكان تستطيع أن تعيش فيه مع بالغين عديدين آخرين ومشرف واحد. وقد بدا ذلك مثالياً في بعض المناحي - المزيد من الاستقلال لفويب، حل جزئى على الأقل لمستقبلها - ولكن الحقيقة أن كارولين لم تتخيل فكرة ابتعاد فويب عنها. وقد كانت قائمة انتظار المسكن طويلة للغاية ولكن فى العام الماضى ظل اسم فويب يصعد بها بشكل منتظم. لذا فإن كارولين سيكون عليها اتخاذ قرار سريعاً. لمحت فويب الآن والتي كانت تبتسم فى سعادة بينما تجمع المشابك الحمراء البراقة خصلات من شعرها وهى تخطو فى خجل أرضية الرقص مع روبرت.

ظلت ترقص مع آل طوال ثلاث وصلات وهى تغلق عينيها وتترك نفسها تتمايل وتتبع خطواته. كان راقصاً ماهراً، مرناً وواثقاً، وبدا أن الموسيقى تتخللها مباشرة. كان بإمكان صوت فويب أن يفعل بها ذلك أيضاً، صوت غنائها العذب الذى ينتقل بين الغرف جاعلاً كارولين تتوقف عما تفعله وتقف ساكنة شاعرة بأن العالم يصب داخلها مثل الضوء. تمتم آل "هذا لطيف" بينما يجذبها أكثر إليه ويضغط بوجنته فوق وجنتها. وحينما تغيرت الموسيقى وأصبحت أسرع إيقاعاً، أبقي ذراعه حولها بينما يهبطان من فوق الأرضية.

مسحت كارولين التى كانت تشعر ببعض الدوار الغرفة بعينيها بحثاً عن فويب على سبيل العادة. وشعرت بأول خيوط القلق تتسرب إليها حينما لم ترها.

قالت ليندا من وراء الطاولة: "لقد أرسلتها لتأتى بمزيد من الشراب". أشارت إلى المشروبات فوق الطاولة. "هل يمكنك تصديق هذا يا كارولين؟ إن الكعك بدأ ينفد كذلك".

قالت كارولين وهى سعيدة لأنها وجدت مبرراً يجعلها تذهب وراء فويب: "سوف أذهب لآتى ببعض".

قال آل وهو يمسك بيدها ويشير إلى المقعد بجواره: "سوف تكون بخير".

سارت عبر الردهات الشاغرة البراقة والهادئة، كانت لا تزال تشعر بلمسة آل على بشرتها. هبطت الدرجات ودخلت المطبخ دافعة الأبواب المعدنية المتأرجحة بيد بينما أضاءت المصباح باليد الأخرى. وقد تسلط الضوء القلورى فجأة عليهما مثل الكاميرا: فويب التى ترتدى ثوبها الوردى تقف وظهرها للخزانة وروبرت يقف على مقربة منها بينما يمرر يده فوق ساقها. فى اللحظة التى سبقت استدارتهما كان على وشك تقبيلها وكانت فويب مستعدة لمبادلتها القبلية: روبرت، حبها الأول. أغلقت عينيها فى سعادة.

قالت كارولين فى حدة: "فويب. فويب، روبرت، يكفى هذا".

ابتعدا عن بعضهما البعض فى فزع ولكن ليس بشكل ينم عن الندم.

قال روبرت: "ما المانع، إن فويب هى صديقتى الحميمة".

أضافت فويب: "إننا سوف نتزوج".

حاولت كارولين الحفاظ على هدوئها. ففويب بالرغم من كل شيء كانت امرأة راشدة. قالت: "من فضلك يا روبرت، أود التحدث إلى فويب على انفراد".

تردد روبرت ثم مر أمام كارولين وقد تبخرت كل حماسه المتقدة. قال بعدما توقف عند الباب: "إننا لا نفعل شيئاً خاطئاً أنا وفويب. إننا نحب بعضنا البعض".

قالت كارولين بينما ينغلق الباب وراءه: "أعلم هذا".

كانت فويب تقف أسفل الأضواء الساطعة وهى تثنى قلايتها فى يدها. "بإمكانك تقبيل شخص تحبينه يا أمى. أنت تقبلين آل".

أومات كارولين وتذكرت يد آل على خصرها. "هذا صحيح. ولكن يا حبيبتي ذلك بدا أكثر من مجرد تقبيل".

قالت فويب وهي حائقة: "أمي! أنا وروبرت سوف نتزوج". أجابت كارولين دون تفكير: "ليس بإمكانك الزواج يا عزيزتي".

نظرت فويب للأعلى وقد ارتسم على وجهها تعبير ينم عن العناد تعرفه كارولين جيداً. كان الضوء الفلوري يسقط من خلال مصفاة والتي كونت أشكالا على وجنتي فويب. "لم لا؟".

"يا حبيبتي، إن الزواج...". سكتت كارولين وهي تفكر في آل، والإرهاق الشديد الذي يشعر به مؤخراً والمسافة التي يضعها بينهما في كل مرة يسافر فيها. "اسمعي، إن الأمر معقد يا حبيبتي. تستطيعين أن تحبي روبرت دون الزواج به". "لا، أنا وروبرت سوف نتزوج".

تنهدت كارولين. "حسناً. لنفترض ذلك. أين ستعيشان في ذلك الحين؟".

قالت فويب في جدية: "سوف نشترى منزلاً. سوف نعيش فيه وسوف ننجب بعض الأطفال".

قالت كارولين: "إن العناية بالأطفال شاقة للغاية. وأنا أتساءل إن كنت وروبرت تدركان قدر هذه المشقة. كما أنهم يحتاجون إلى الكثير من المال. ومن أين ستأتيان بالمال لشراء هذا المنزل؟ ولشراء الطعام؟".

"إن روبرت يعمل. وكذلك أنا. إن لدينا الكثير من المال". "ولكنك لن تستطيعي العمل إن كنت تعتنين بأطفال صغار". فكرت فويب في هذا وهي تقطب ووثب قلب كارولين. إنها أحلام بسيطة وبالرغم من ذلك لا يمكن تحقيقها، أين العدل في هذا؟

قالت فويب في إصرار: "أنا أحب روبرت، وروبرت يحبني. علاوة على ذلك، فإن أفرى لديها طفل".

قالت كارولين: "آه يا حبيبتي". تذكرت أفرى سوان وهي تدفع عربة الطفل فوق الرصيف والتي توقفت حتى تستطيع فويب الانحناء ولس وجنة الطفل حديث الولادة برفق. عبرت المسافة الفاصلة بينهما ووضعت يديها على كتفي فويب: "هل تذكرين يا حبيبتي حينما قمت أنت وأفرى بإنقاذ القط رين؟ إننا نحب رين ولكن العناية به تتطلب جهداً كبيراً. فعليك إفراغ مهادر القش وتمشيظ شعره والقلق عليه كثيراً حينما لا يعود إلى المنزل. وتربية طفل تمثل عبئاً أكبر يا فويب. إن إنجاب طفل تشبه العناية بعشرين قطاً مثل رين".

أحنت فويب رأسها وبدأت الدموع تنهمر فوق وجنتيها. همست قائلة: "هذا ليس عادلاً".

وافقتها كارولين قائلة: "نعم، ليس عادلاً".

وقفتا صامتتين للحظة أسفل الأضواء الساطعة.

سألت كارولين أخيراً: "اسمعي يا فويب، هل يمكنك مساعدتي؟ إن ليندا تحتاج إلى بعض الكعك أيضاً".

أومات فويب ومسحت عينيها. صعدتا الدرجات معاً ثم دلفتا داخل الردهة وهما تحملان الصناديق والزجاجات دون أن تتحدثا.

ولاحقاً في هذه الليلة أخبرت كارولين آل بما حدث. كان يجلس إلى جوارها على الأريكة وهو يطوى ذراعيه وشبه نائم. كانت رقبتة مازالت ناعمة وحمراء من أثر الحلاقة سابقاً وكانت هالات سوداء تحوط عينيها. وفي الصباح فإنه سوف يستيقظ في الفجر ويقود سيارته راحلاً.

"إنها تود أن تكون لها حياة خاصة بها يا آل. وهذا مطلب بسيط للغاية".

قال بعدما استيقظ: "آه. حسناً، ربما يكون الأمر بسيطاً حقاً يا كارولين. إن هناك أشخاصاً آخرين يعيشون فى المنشأة ويبدو أنهم يتدبرون أمورهم جيداً. إننا سوف نكون هنا". هزت كارولين رأسها: "أنا فقط لا أستطيع تخيلها وحيدة فى العالم. وهى بالتأكيد لا يمكنها الزواج يا آل. ماذا لو أصبحت حاملاً؟ أنا لست مستعدة لتربية طفل آخر، فأنا التى ستقوم بتربيته لو حدث هذا".

قال آل: "أنا لا أريد تربية طفل آخر أيضاً".

"ربما يمكننا منعها من رؤية روبرت لفترة".

استدار آل لينظر إليها فى دهشة: "هل تعتقدين أن ذلك هو التصرف السليم؟".

تنهدت كارولين وقالت: "لا أعلم. فقط لست أدري".

قال آل برفق: "انظري يا كارولين، من اللحظة التى قابلتك فيها وأنت تطالبين ألا يغلق العالم أية أبواب أمام فويب. "لا تستهينوا بها" - كم مرة سمعتك تقولين هذا؟ لذا لماذا لا تتركينها تخرج إلى العالم؟ لماذا لا تتركينها تحاول؟ إنها ربما تحب المكان. وأنت ربما تحبين الحرية".

حدقت فى الحلية المعمارية البنية معتقدة أنها بحاجة للطلاء، فى حين طفت حقيقة إلى السطح.

قالت برقة: "أنا لا أستطيع تخيل حياتى بدونها".

"لا أحد يطلب منك القيام بذلك. ولكنها ناضجة يا كارولين. هذا هو كل ما فى الأمر. ما الذى عملت لأجله طوال حياتك إن لم يكن لنوع من الحياة المستقلة لفويب؟".

قالت كارولين: "أعتقد أنك ستحب أن تكون حراً. أن تغادر وتسافر".

"ألا تحبين أنت ذلك أيضاً؟".

أجابت وهى تشعر بالدهشة من سرعة إجابتها وحماستها: "بالطبع أحب. ولكن يا آل حتى لو تركت فويب المنزل فإنها لن

تكون مستقلة بشكل كامل قط. وأنا أخشى أن تكون تعيشاً بسبب هذا الأمر. أخشى أن ترحل وتتركنا. يا عزيزى، لقد ازداد تغيبك عنا فى هذه السنوات الأخيرة".

لم يتحدث آل طوال وقت طويل. سأل أخيراً: "لماذا أنت غاضبة؟ ما الذى فعلته لتعتقدى أننى سوف أرحل؟".

قالت سريعاً لأنها سمعت فى نبرة صوته إحساساً بأنها جرحته: "أنا لست غاضبة. آل، انتظر هنا لحظة". سارت عبر الغرفة وأخذت الخطاب من الدرج. "لهذا السبب أنا متوترة. أنا لا أعرف ماذا أفعل".

أخذ الخطاب وشرع فى تفحصه لوقت طويل وإدارته مرة كما لو أن حل لغزه قد يكون مكتوباً على الظهر، ثم قرأه ثانية.

سأل وهو ينظر للأعلى: "ما المبلغ الموجود بهذا الحساب؟". هزت رأسها: "لا أعرف بعد. لابد أن أذهب إلى هناك لأعرف ذلك".

أوما آل متفحصاً الخطاب مرة أخرى. "يا لها من طريقة غريبة التى قام بها بهذا الأمر: حساب سرى".

"أعلم. ربما كان خائفاً أن أخبر نورا. ربما أراد أن يتأكد من أنها حظيت بوقت كاف للاعتياد على وفاته. هذا هو كل ما أستطيع التفكير فيه". فكرت فى نورا وهى تتحرك عبر العالم دون أن يخطر لها على بال أن ابنتها لا تزال على قيد الحياة. وماذا عن بول - ماذا أصبح؟ من الصعب تخيل الشخص الذى أصبح عليه الآن، هذا الطفل حديث الولادة ذو الشعر الأسود الذى رآته مرة واحدة فى حياتها.

سألت: "ما الذى ينبغى علينا فعله فى اعتقادك؟".

"حسناً، يجب أن نعلم التفاصيل أولاً. سوف نذهب إلى هذا المحامى معاً حينما أعود. يمكننى أن آخذ يوماً أو يومين إجازة. بعد ذلك يا كارولين لا أعلم. سوف ندرس الأمر جيداً على ما أعتقد. ليس علينا الاستعجال فى اتخاذ أية قرارات".

قالت: "حسناً" وهي تشعر بأن زعر الأسبوع الماضي كله قد تبدد. فقد جعل آل الأمر يبدو بسيطاً للغاية. قالت: "أنا سعيدة لأنك هنا".

أخذ يدها وقال: "صدقيني يا كارولين. أنا لن أرحل بلا عودة. أنا فقط سأذهب إلى توليدو في السادسة من صباح الغد. لذا فإنني سوف أصعد للأعلى وأنام قليلاً".

قبلها في ذلك الحين ثم جذبها نحوه. وضعت كارولين وجنتها فوق وجنته مستشعرة رائحته ودفئه بينما تتذكر لقاءهما في هذا اليوم في ساحة الانتظار خارج لويسفيل، هذا اليوم الذي أعاد تشكيل حياتها.

نهض آل ويده لا تزال في يدها. قال: "تعالى معى للأعلى". أومات كارولين ونهضت وهي تمسك بيده.

. . .

في الصباح نهضت مبكراً وأعدت الإفطار مزينة أطباق البيض واللحم والخبز بالبقدونس.

قال آل بعدما دخل وقبلها على وجنتها ووضع الجريدة على الطاولة إلى جوار بريد أمس: "إن هذا رائحته شهية للغاية". كانت الخطابات باردة ورطبة بعض الشيء بين يديها. كانت هناك فاتورتان، بالإضافة إلى بطاقة براءة لبحر إيجان مكتوب على ظهرها رسالة صغيرة من دورو.

مررت كارولين أصابعها على الصورة وقرأت الرسالة الموجزة. "أصيب تريس بالتواء في الكاحل في باريس".

"هذا مؤسف للغاية". فتح آل الجريدة وهز رأسه حينما قرأ أخبار الانتخابات.

قال بعد لحظة وهو يضع الجريدة: "كارولين. لقد كنت أفكر ليلة أمس. لماذا لا تأتين معى؟ أنا واثق أن ليندا لن تمنع أن تعتنى بخويب، أثناء عطلة نهاية الأسبوع. يمكننا الابتعاد قليلاً،

أنا وأنت. سوف تحظين بذلك بفرصة لتري كيف ستتدبر فويب أمورها وحدها. ما رأيك؟".

"الآن؟ أتقصد أن نرحل الآن؟".

"نعم. لم لا؟".

قالت في سعادة بالرغم من أنها لا تحب تمضية الساعات الطويلة على الطريق: "لا أعرف. إن هناك الكثير من الأمور التي يجب أن أقوم بها هذا الأسبوع". ثم أضافت بسرعة راغبة في أن يجدد عليها العرض ثانية: "ربما في المرة القادمة".

قال متملقاً: "يمكننا ترتيب بعض الرحلات الجانبية في هذه المرة. وبذلك سيكون الأمر أكثر إمتاعاً لك".

قالت: "إنها حقاً فكرة جيدة".

ابتسم في إحباط وانحنى لتقبيلها.

بعدما رحل آل علقت كارولين بطاقة دورو على الثلاجة. كان ذلك هو شهر نوفمبر، وكان الطقس رطباً ومغبراً والثلج على وشك الهطول، وقد أحببت النظر إلى هذا البحر اللامع والمغرى وحافة الرمال الدافئة. وطوال هذا الأسبوع - أثناء مساعدتها للمرضى أو إعدادها العشاء أو طي الملابس - ظلت تفكر في دعوة آل. فكرت في تلك القبلة الحارة التي قاطعتها بين روبرت وابنتها والمكان الذي رغبت فويب العيش فيه. كان آل محققاً. في أحد الأيام لن يكونا هنا، ومن حق فويب أن تحظى بحياة خاصة بها.

ومع ذلك فإن العالم لن يكون أقل قسوة عن ذي قبل. ففي يوم الثلاثاء حينما كانتا في غرفة الطعام تتناولان اللحم والبطاطس المهروسة والفاصوليا الخضراء، دست فويب يدها في جيبها وأخرجت أحجية بلاستيكية من ذلك النوع المطبوع به أرقام على مربعات متحركة. وكانت الخدعة هي ترتيب الأرقام، وقد كانت فويب تدفع المربعات بين القضامات.

وطوال اليومين التاليين استقلت كارولين الأتوبيس مع فويب من وإلى عملها ولكن مايك هذا لم يظهر.

قالت فى مساء يوم الخميس لفويب أثناء غسيلهما للأطباق: "أخشى يا حبيبتي أنه كان يكذب". كانت فويب ترتدى معطفاً أصفر اللون، وكانت يداها تمتلئان بالجروح الصغيرة الناتجة عن عملها. راقبتها كارولين وهى ترفع كل طبق وتجفقه فى حرص بينما تشعر بالامتنان لأنها كانت بخير، وبالذعر من فكرة أنها قد تتعرض للأذى فى يوم ما. من هو هذا الغريب، مايك، وما الذى كان سيفعله بفويب إن ذهبت معه؟ تقدمت كارولين ببلاغ للشرطة ولكنها لم تكن تعتقد أنهم سيجدونّه. فهو لم يفعل شيئاً خاطئاً بالفعل كما أن فويب لم تستطع الإدلاء بأوصافه، كل ما قالت إنه كان يرتدى خاتماً ذهبياً وحذاءً أزرق اللون.

قالت فويب فى إصرار: "إن مايك لطيف. وهو لا يكذب".

"يا حبيبتي، ليس كل الناس صالحين ويودون الحفاظ على سلامتك. إنه لم يأت ثانية كما وعد. لقد كان يحاول خداعك يا فويب. لا بد أن تكونى حريصة".

قالت فويب وهى تلقى بفوطاة الأطباق على الطاولة: "إنك دوماً تقولين هذا. أنت تقولين هذا عن روبرت".

"هذا مختلف. إن روبرت لا يحاول إيذاءك".

"أنا أحب روبرت".

"أعلم". أغلقت كارولين عينيها وأخذت نفساً عميقاً. "اسمعى يا فويب، أنا أحبك. لا أريدك أن تتعرضى للأذى. فى بعض الأحيان يكون العالم خطيراً. أعتقد أن هذا الرجل خطير".

قالت فويب وهى تشعر بالجدية والخوف فى صوت كارولين: "ولكننى لم أذهب معه". وضعت آخر طبق على الطاولة وهى على وشك البكاء. "أنا لم أذهب".

قالت كارولين: "لقد تصرفت بذكاء. لقد أتيت التصرف السليم. لا تذهبي قط مع أحد".

قالت كارولين وهى ترشف اللبن: "إن هذا لطيف. من أين أتيت بذلك يا حبيبتي؟".

"من مايك".

سألت كارولين: "هل يعمل معك؟ هل هو جديد؟".

قالت فويب: "لا. لقد قابلته بالأتوبيس".

"بالأتوبيس؟".

"نعم. أمس. كان لطيفاً".

"نعم". شعرت كارولين بالوقت يبطلنى بعض الشيء، بينما أضحت جميع حواسها أكثر يقظة. أرغمت نفسها على التحدث بهدوء وبشكل طبيعى: "هل أعطاك مايك الأحجية؟".

"نعم. وهو يمتلك طائراً جديداً. وهو يود أن يريه لى". قالت كارولين بينما تشعر بهريح باردة تتخللها: "حقاً؟ فويب يا حبيبتي لا يمكنك أن تفكرى مجرد تفكير فى الذهاب مع غرباء إلى أى مكان. لقد تحدثنا بشأن هذا من قبل".

قالت فويب: "نعم. لقد أخبرته بذلك". وضعت الأحجية جانباً ووضعت المزيد من الكاتشاب على اللحم. "لقد قال لى تعالى معى إلى منزلى يا فويب. وقد قلت له حسناً ولكننى يجب أن أخبر أمى أولاً".

قالت كارولين: "يا لها من فكرة جيدة".

"إن أيمكننى أن أذهب إلى منزل مايك غداً؟".

"أين يعيش مايك؟".

هزت فويب كتفيها: "لا أعرف. أنا أقابله فى الأتوبيس".

"كل يوم؟".

"نعم. هل يمكننى الذهاب؟ أود رؤية طائره".

قالت كارولين بحرص: "حسناً، ماذا إن جئت أنا أيضاً؟ ماذا لو استقللنا الأتوبيس معاً غداً؟ بهذه الطريقة يمكننى مقابلة مايك وسوف آتى أيضاً لرؤية الطائر. ما رأيك".

قالت فويب فى سعادة وهى تشرب لبنها: "هذا جيد".

"إلا إذا كان يعلم الكلمة".

"صحيح. وهذه الكلمة هي سر، فأنت لا تقولينها لأحد".

همست فويب في سعادة: "ستارفاير! إنها سر".

تنهدت كارولين: "نعم، نعم، إنها سر".

...

في صباح يوم الجمعة أقلت كارولين فويب إلى عملها بالسيارة. في هذا المساء جلست كارولين بسيارتها تراقب فويب عبر النافذة بينما تتحرك خلف الطاولة تربط وثائق أو تمزج مع ماكس، زميلتها بالعمل، هذه الشابة ذات الشعر المجموع على شكل ذيل فرس والتي كانت تذهب لتناول الغداء مع فويب كل جمعة ولا تخشى مساعدتها إن أفسدت طلباً ما. ظلت فويب تعمل هنا طوال ثلاث سنوات. لقد أحببت عملها وبرعت فيه. فكرت كارولين وهي تراقب ابنتها من وراء لوح زجاجي في ساعات التنظيم الطويلة وجميع العروض التقديمية والمشاجرات والأعمال الورقية التي خاضتها لتجعل مثل هذه اللحظة ممكنة لفويب. ومع ذلك فلم تكن تكسب ما يكفي لإعالتها كما أنها ببساطة لا تستطيع أن تعيش وحدها ولو لأسبوع واحد. فإن اشتعل حريق أو انقطع التيار الكهربائي فإنها سوف تفزع ولن تعرف ماذا ينبغي أن تفعل.

وقد كان هناك روبرت كذلك. فائثاء أخذها من العمل لا تكف فويب عن التحدث عن العمل وماكس وعن روبرت، روبرت، روبرت. فمن المفترض أن يأتي في اليوم التالي ليعد فطيرة هو وفويب. أنصتت كارولين وهي سعيدة لأن غداً السبت وسوف يعود آل. ثمة شيء مفيد أسداه لها الغريب بالأتوبيس: أصبح لها مبرر يجعلها تقل فويب من وإلى العمل وبذلك تحد من الوقت الذي تمضيه مع روبرت.

وبمجرد أن دخلتا المنزل دق جرس الهاتف. تنهدت كارولين. لابد أن المتصل هو أحد البائعين أو جار يجمع تبرعات أو أحد اتصل على سبيل الخطأ. ظل القطرين يموء مرحباً بهما بينما يلتف حول كاحليهما.

قالت وهي ترفع السماعة: "هيا اذهب".

كانت الشرطة هي المتصلة، نقي رجل الشرطة صوته وسأل عنها. اندهشت كارولين ثم شعرت بالسعادة. ربما يكونون قد عثروا على الرجل بالأتوبيس.

قالت وهي تشاهد فويب ترفع رين وتحتضنه: "نعم. أنا كارولين سيمبسون".

نقي صوته مرة أخرى وتحدث.

لاحقاً، سوف تتذكر كارولين كم كانت هذه اللحظة طويلة للغاية. فقد تمدد الوقت حتى ملأ الغرفة وأسقطها فوق المقعد، بالرغم من أن الخبر كان بسيطاً للغاية ولم يستغرق الكثير من الوقت لقوله. فقد انحرفت شاحنة آل من على الطريق في أحد المنعطفات محطمة الحاجز وساقطة عبر تل صغير. وقد انكسرت ساقه وذهب إلى المستشفى؛ نفس المكان الذي وافقت فيه على الزواج منه منذ سنوات عديدة.

كانت فويب تدندن لرين ولكن بدا أنها استشعرت أن ثمة شيئاً ما ليس على ما يرام ورفعت عينيها مستفسرة عما حدث لحظة ما أغلقت كارولين الخط. شرحت لها كارولين ما حدث وهي تقود سيارتها. وفي أروقة المستشفى وجدت نفسها تغوص في ذكريات هذا اليوم من الماضي: شفتي فويب تتورمان، وكيف كانت تلاقى صعوبة في التنفس، وتدخل آل حينما غضبت من المريضة. الآن أصبحت فويب امرأة راشدة تسير إلى جوارها أثناء ارتدائها زي العمل، لقد تزوجت هي وآل منذ ثمانية عشر عاماً. حاول آل الجلوس حينما دخلتا ولكنه قطب في ألم ورجع للخلف ببطء مرة أخرى.

"يا إلهي يا آل". عبرت الغرفة وأخذت يده.

قال: "أنا بخير"، ثم أغلق عينيه للحظة وأخذ نفساً عميقاً. شعرت بسكون شديد بداخلها حيث إنها لم يسبق لها رؤية آل بهذه الحالة، يرتعد برفق وترتعث عضلة في فكه بالقرب من أذنه.

قالت كارولين محاولة الحفاظ على هدوء نبرة صوتها: "لقد بدأت تخيفني".

فتح عينيه في ذلك الحين وطوال لحظة ظلا ينظران مباشرة إلى بعضهما البعض بينما تذوب كل المسافات بينهما. مد يده الضخمة ولمس وجنتها برفق. ضغطت عليها بيدها وشعرت بالدموع في عينيه.

همست قائلة: "ماذا حدث؟".

تنهد: "لا أعرف. كان يوماً مشمساً، ساطعاً وصافياً. كنت أسير في طريقى وأنا أغنى مع الراديو بينما أفكر كم سيكون من الرائع لو كنت معي؛ مثلما كنا نتحدث. وما أتذكر أنه حدث بعد ذلك هو اختراق الشاحنة للحاجز. وبعد ذلك لا أتذكر شيئاً. ليس حتى استرددت وعيى هنا. لقد حطمت الشاحنة. يقول رجال الشرطة إنه إذا كانت هذه الحادثة قد وقعت بعد عدة ياردات في أى من الاتجاهين لكنت أصبحت في عداد الموتي الآن".

اتكأت كارولين للأمام ووضعت ذراعيها حوله، وهي تستنشق روائحه المألوفة. كان قلبه يدق بانتظام في صدره. منذ بضعة أيام مضت رقصاً معاً على أرضية الرقص بينما يساورهما القلق بشأن إصلاح سقف المنزل والمزrab. مررت يدها على شعره الذي أصبح طويلاً للغاية عند قاعدة رقبتة.

"يا إلهي يا آل".

قال: "أعلم يا كارولين. أعلم".

والى جوارهما بدأت فويب ذات العينين الواسعتين في البكاء ومسح وجهها بيدها. وقفت كارولين ووضعت ذراعها حولها. مررت يدها على شعر فويب واستشعرت دفء جسمها.

قال آل: "فويب. انظري إليك وأنت ترتدين ملابس العمل. هل حظيت بيوم جيد يا عزيزتى؟ أنا لم أذهب إلى كليفلاند لذا فأنا لم أشتري هذه اللقائف التى تحبينها، أنا آسف لأجل ذلك. سوف أجلبها لك فى المرة المقبلة، حسناً؟".

أومأت فويب وهى تلمس وجنتيها بيديها: "أين شاحنتك؟". وحينها تذكرت كارولين الأوقات التى اصططحبها فيها آل فى نزهة بالشاحنة حيث كانت فويب تجلس فى المقصورة العالية وتسحب قبضتها لأسفل حينما يتخطون شاحنات أخرى مما يجعلها تطلق نفيها.

قال آل: "أنا آسف يا حبيبتي، لقد تحطمت تماماً".

مكث آل فى المستشفى يومين ثم عاد إلى المنزل. كانت كارولين تضى وقتها فى اصطحاب فويب إلى العمل والذهاب إلى عملها والعناية بآل وإعداد الوجبات وغسل الملابس. كانت تلقى بنفسها على الفراش كل ليلة وهى تشعر بإرهاق شديد وتستيقظ فى الصباح لإعادة الكرة ثانية. ولم يسدها أى نفع أن آل كان مريضاً بشعاً ومشاكساً وحاد المزاج وكثير الطلبات وناقماً لأنه مقيد ولا يستطيع الحركة. وهذا قد ذكرها بتلك الأيام التى كانت تعتنى فيها بليو فى نفس هذا المنزل، وكأن الزمن لا يمضى فى خط مستقيم ولكنه يدور حول ذاته.

مر أسبوع. وفى يوم السبت وضعت كارولين وهى تشعر بالإرهاك بعض الملابس فى الغسالة وذهبت إلى المطبخ لإعداد شيء للعشاء. جذبت حزمة من الجزر من الثلاجة من أجل السلطة. فتشت فى الفريزر بحثاً عن أية أفكار. لا شيء. آل لن يعجبه هذا ولكن ربما تستطيع طلب بيتزا. كانت الساعة الخامسة وفى خلال بضع دقائق سيكون عليها المغادرة لجلب فويب من العمل.

قالت فويب بينما تننتا شفتها السفلى برفق - وهو ما كان يحدث حينما تغضب - : "أنا وروبرت بأمان. أنا وروبرت سوف نتزوج".

قالت كارولين وقد نفذ صبرها: "بحق السماء، كيف يمكنكما الزواج؟ أنتما لا تعرفان شيئاً عن الزواج".

قال روبرت: "بل نعلم. نحن نعلم كل شيء عن الزواج". تنهدت كارولين وقالت: "اسمع يا روبرت عليك العودة إلى المنزل. خذ الأتوبيس من هنا لتعود إلى المنزل. ليس لدى وقت لأقلقك لأى مكان. إن هذا كثير للغاية. لابد أن تعود لمنزلك".

ولكنها اندهشت حينما ابتسم روبرت. نظر إلى فويب ثم سار إلى الجزء الظليل من الشرفة الخلفية واتكأ أسفل الأرجوحة. وقد عاد وهو يحمل حزمة من الزهور البيضاء والحمراء والتي بدت أنها تبرق قليلاً فى ضوء الغسق. أعطاها إلى كارولين وقد احتكت البتلات الناعمة بجلدها.

قالت فى اندهاش وهى تستنشق رائحة الزهور التى تخللت الهواء البارد: "روبرت؟ ما هذا؟". قال: "لقد اشتريتها من متجر البقالة". هزت كارولين رأسها: "أنا لا أفهم". ذكرت فويب قائلة: "إنه يوم السبت".

السبت - إنه اليوم الذى يعود فيه آل من رحلاته وهو يحمل دوماً هدية لفويب وباقة من الزهور لزوجته. تخيلتهما كارولين - فويب وروبرت - يستقلان الأتوبيس إلى متجر البقالة حيث يعمل روبرت أمين مخزن ويتفحص أسعار الزهور ويعدان النقود. كان هناك جزء منها لا يزال يرغب فى الصراخ، فى وضع روبرت بالأتوبيس وخارج حياتهم، جزء منها أراد أن يقول: "إن هذا كثير للغاية. أنا لا أهتم".

توقفت عن التقشير ونظرت عبر صورتها المنعكسة على النافذة إلى لافتة فوودلاند الحمراء التى تبرق خلال فروع الأشجار العادية بينما تفكر فى ديفيد هنرى. فكرت فى نورا كذلك والتى بدت مجردة فى صورة ويعلو جسمها مثل القلال ويملاً شعرها الإطار بضوء غير متوقع. كان الخطاب الذى أرسله لها المحامى لا يزال فى درج المكتب. وقد التزمت بالموعد الذى حددته قبل حادث آل وذهبت إلى المكتب ذى ألواح البلوط الخشبية الأنيق وتعرفت على تفاصيل إرث ديفيد هنرى. ظل الحوار فى ذهنها طوال الأسبوع بالرغم من أنها لم يتح لها وقت للتفكير فيه أو التحدث إلى آل بشأنه.

كانت هناك ضوضاء بالخارج. استدارت كارولين فى زعر. ومن خلال النافذة بالباب الخلفى رأت فويب بالخارج، بالشرفة. لقد عادت إلى المنزل وحدها بطريقة ما! ولم تكن ترتدى معطفها. وضعت كارولين المقشرة وذهبت إلى الباب وهى تجفف يديها بالمنزلة. وهناك رأت ما لم تستطع رؤيته من الداخل: روبرت يقف إلى جوار فويب بينما يلف ذراعه حولها.

سألت بحدة وهى تخرج من المنزل: "ماذا تفعل هنا؟". قالت فويب: "لقد أخذت إجازة اليوم". "حقاً؟ ماذا عن العمل الذى ينبغى أن تقومى به؟". "إن ماكس هناك. سوف أعمل بدلاً منها يوم الاثنين". أومات كارولين ببطة. "ولكن كيف جئت إلى المنزل؟ كنت على وشك الذهاب لأخذك".

قال روبرت: "لقد أخذنا الأتوبيس". "نعم". ضحكت كارولين ولكن حينما تحدثت كان صوتها حاداً ومليناً بالقلق. "نعم. بالطبع. أخذت الأتوبيس. ألم أطلب منك يا فويب ألا تفعل ذلك. إنه ليس آمناً".

وفى الداخل ظل الجرس الذى تركته مع آل يرنب بإصرار. تنهدت كارولين وعادت خطوة للوراء وهى تشير إلى المطبخ والضوء والدفء.

قالت: "حسناً. ادخلا إلى المنزل قبل أن تتجمدا".

صعدت الدرج بسرعة محاولة لمام شتات نفسها. ما كم الأشياء التى من المفترض لامرأة واحدة أن تقوم بها؟ قالت وهى تدخل الغرفة حيث كان آل يرقد واضعاً قدمه على مسند القدم فى حين يرقد كتاب على ساقيه: "من المفترض أن تكون صبورا. الصبر، ألم تسمع عن هذه الكلمة من قبل يا آل؟ أعلم أن الأمر ممل ولكن الشفاء يتطلب وقتاً".

قال آل: "إنك من أردت أن أكون إلى جوارك فترة أطول. كوني حذرة بعد ذلك فيما تتمنيته".

هزت كارولين رأسها وجلست على حافة الفراش: "أنا لم أتمن حدوث هذا".

نظر خارج النافذة لبضع ثوان. قال أخيراً: "أنت محقة. أنا آسف".

سألت: "هل أنت بخير؟ كيف حال الألم؟".

"ليس سيئاً للغاية".

وخلف الزجاج كانت الريح تحرك آخر أوراق شجرة الجميز داخل السماء القرمزية. فى الشهر الماضى قامت هى وفويب بزراعة نبات الأقحوان ذى الزهور الأرجوانية البرتقالية الكريمية. وكانت قد جلست على كعبيها لإبداء الإعجاب بها وهى تنفض الطمى من فوق يديها متذكرة الأوقات التى قامت فيها بزراعة مثل هذه الزهور مع والدتها حيث كانتا تتواصلان من خلال المهمة التى تقومان بها وليس من خلال الكلمات. فهما نادراً ما تحدثتا عن أى شىء شخصى. وقد كان هناك الكثير الآن التى تمننت كارولين لو أنها قد قالتها.

قال دون أن ينظر لها: "أنا لن أفعل هذا ثانية. أعنى قيادة شاحنة".

قالت: "حسناً" وحاولت أن تتخيل كيف يمكن أن يؤثر ذلك على حياتهم. كانت سعيدة - فقد كان شيئاً بداخلها يصبح معتماً حينما تتخيله يقود سيارته مبتعداً مرة أخرى - ولكنها كانت قلقة بعض الشىء كذلك. فهما لم يمضيا أكثر من أسبوع واحد معاً منذ زواجهما.

قال آل وكأنه يقرأ أفكارها: "لن أكف عن إزعاجك طوال الوقت".

قالت بجدية وهى تحقق بشحوبة فى عينيه الجادتين: "هل هذا صحيح؟ هل تنوى التقاعد بشكل كامل إذن؟".

هز رأسه وهو لا يزال ينظر إلى يديه. "أنا مازلت صغيراً لأجل هذا. كنت أفكر فى العمل بشكل آخر. الانتقال إلى وظيفة مكتبية ربما، فأنا أعرف النظام جيداً. أو يمكننى قيادة أتوبيس داخل المدينة. لا أعرف - أى شىء. ولكننى لا أستطيع الخروج على الطريق السريع مرة أخرى".

أومأت كارولين. لقد ذهبت إلى موقع الحادث ورأت الثقب الذى أحدثته الشاحنة بالحاجز الحديدى، والفجوة التى تكونت بالأرض نتيجة سقوطها.

قال آل وهو ينظر إلى يديه: "طالما ساورنى هذا الشعور". كان قد ترك لحيته تنمو الآن. "كنت أشعر أن شيئاً مثل هذا سيحدث فى أحد الأيام. وها قد حدث بالفعل".

قالت كارولين: "لم أكن أعلم هذا. أنت لم تخبرنى قبل ذلك قط أنك كنت خائفاً".

قال آل: "ليس خائفاً. كان فقط يساورنى هذا الشعور. هناك فارق بين هذا وذلك".

"بغض النظر، أنت لم تحدثنى عن هذا الأمر من قبل".

هز كتفيه: "لم يكن ذلك ليشكل أى فارق. كان مجرد شعور يا كارولين".

أومات. فقط بضع ياردات أخرى وكان آل سيصبح فى عداد الأموات، هكذا قال رجال الشرطة أكثر من مرة. وطوال الأسبوع ظلت كارولين تمنع نفسها من تخيل ما لم يحدث. ولكن الحقيقة أنه كان يمكن أن تصبح أرملة تعيش ما تبقى من حياتها وحيدة. قالت ببطة: "ربما يجب أن تتقاعد. لقد ذهبت إلى المحامي يا آل. لقد التزمت بالموعد المحدد. لقد ترك ديفيد مبلغاً كبيراً لفويب".

قال آل: "حسناً، إنه لم يتركه لى. حتى لو كان مليون دولار، فهو ليس لى".

تذكرت فى ذلك الحين رد فعله حينما تنازلت لهما دورو عن المنزل: نفس هذا الرفض لقبول شيء لم يكسبه بجهد يديه. قالت: "هذا صحيح. إن المال لأجل فويب. ولكننى أنا وأنت قمنا بتربيتها. فإن أصبحت حياتها المادية مؤمنة لن نقلق عليها كثيراً بعد ذلك. يمكننا أن نحظى بمزيد من الحرية. لقد عملنا بكد طوال عمرنا يا آل. ربما حان الوقت لنا كي نتقاعد".

سأل: "ماذا تعنين؟ هل تريدين انتقال فويب للعيش فى مكان آخر؟".

"لا، لا أريد هذا على الإطلاق. ولكن فويب تريد هذا. هى وروبرت بالطابق السفلى الآن". ابتسمت كارولين قليلاً بعدما تذكرت باقة الزهور التى تركتها على الطاولة إلى جوار الجزر نصف المقشر... "لقد ذهبا إلى متجر البقالة معاً. بالأتوبيس. لقد اشتريا لى الزهور لأنه يوم السبت. لذا فأنا لا أعلم يا آل. من أنا لأتخذ هذا القرار؟ ربما أنهما سيكونان على ما يرام معاً".

أوما وهو يفكر بينما شعرت هى بالذهول من مدى التعب الذى يعانیه، وكيف أصبحتا ضعيفين فى النهاية. فطوال هذه السنوات وهى تحاول تخيل كل شيء يمكن أن يحدث، تحاول أن

تحافظ على سلامة الجميع، ومع ذلك فهى هو ذا آل وقد تقدم فى العمر وأصيب بكسر فى ساقه - وهو الأمر الذى لم يخطر لها على بال من قبل قط.

قالت آتية على ذكر وجبته المفضلة: "سوف أطهو لك لحمًا بقرياً محمراً. ما رأيك فى تناول بيتزا اليوم؟".

قال آل: "لا بأس بالبيتزا. ولكن اطلبوها من ذلك المكان فى طريق برادوك".

لمست كتفه وبدأت تهبط الدرج للاتصال بالمطعم. وفى الطابق الأرضى توقفت لتنصت إلى فويب وروبرت بالمطبخ، صوتيهما الخفيضان اللذين يتخللهما الضحك. لقد كان العالم مكاناً فسيحاً وغريباً بل ومخيفاً فى بعض الأحيان. ولكن ابنتها كانت فى المطبخ الآن تضحك مع صديقها وكان زوجها يغط فى النوم وهو يضع كتاباً فوق ساقيه وهى ليس عليها طهو طعام العشاء. أخذت نفساً عميقاً. كان الهواء عابقاً برائحة الزهور - رائحة نظيفة وناضرة مثل الثلج.

1919

١ يوليو ١٩١٩

لم يفتح أحد الاستوديو أو الغرفة المظلمة ويدخلها منذ انتقال ديفيد منذ سبع سنوات مضت، ولكن الآن على نورا القيام بذلك بما أنها سوف تعرض المنزل للبيع. لقد أصبحت أعمال ديفيد محط إعجاب الآخرين ثانية وسوف تباع مقابل مبلغ كبير من المال؛ فأمناء المتاحف سوف يأتون غداً لرؤية هذه المجموعة. لذا فقد ظلت نورا تجلس على الأرضية المطلية منذ الصباح الباكر بينما تفتح صندوقاً تلو الآخر وترفع الملفات المكدسة بالصور والنيجاتيف والملاحظات وهى عاقدة العزم أن تبقى متحجرة القلب أثناء عملية الاختيار هذه. ولا يجب أن يستغرق هذا الأمر طويلاً؛ فديفيد كان شديد التدقيق وقام بترتيب كل شىء ووضع بطاقات فوق الصناديق. هذا الأمر لن يستغرق سوى يوم واحد فقط، ليس أكثر من هذا.

ولكنها لم تضع فى الحسبان ما سوف تثيره هذه الصور من ذكريات والإغراء البطيء للماضى. فقد مضت فترة الظهيرة

بالفعل وأصبح الجو حاراً بينما لم تفتح سوى صندوق واحد فقط. كانت المروحة تصر عند النافذة وقد تجمع العرق على جلدها؛ مما جعل الصور البراقة تلتصق بأطراف أصابعها. بدت للوهلة الأولى قريبة للغاية ومستحيلة، سنوات شبابها تلك. فهي صورة لها وهي ترتدى وشاحاً فوق شعرها المصفف بعناية وإلى جوارها تقف برى التي ترتدى قرطاً براقاً وتنورة منقوشة واسعة. وها هي صورة نادرة لديفيد الذى يبدو جاداً للغاية وقصير الشعر ويحمل بول الذى كان لا يزال رضيعاً بين ذراعيه. تداعت عليها الذكريات حتى ملأت الحجرة وثبتت نورا بمكانها: رائحة نبات الليك والهواء النقي المنعش وجلد بول وهو رضيع؛ لمسة ديفيد، تنقيته لصوته؛ أشعة شمس فترة ما بعد الظهر تحرك نماذج على الأرضيات الخشبية. سألت نورا نفسها عما كانت تعنيه الطريقة التى عاشوا بها هذه اللحظات؟ ما الذى كان يعنيه أن هذه الصور لا تتلاءم والسيدة التى تتذكر عليها فى الماضى؟ فإن أمعنت النظر فيمكنها أن ترى مدى الشroud والحنين فى عينيها، الطريقة التى بدت دوماً أنها تنظر بها فيما وراء حافة الصورة. ولكن أى شخص غريب لن يلاحظ ذلك، وكذلك بول؛ فمن خلال هذه الصورة وحدها لا يمكن أن يلاحظ أحد ألغاز قلبها المعقدة.

حام دبور بالقرب من السقف. ففى كل عام كانت تعود الدبابير وتبنى لها عشاً فى مكان ما فى الإفريز. ولكن الآن بعد نضوج بول توقفت نورا عن القلق بشأنها. توقفت وتمددت وأخذت زجاجة كولا من الثلاجة التى كان يحفظ فيها ديفيد فيما سبق الكيماويات والأفلام. شربتها وهي تحدد خارج النافذة لنباتات الشوس البرية وصريمة الجدى فى الفناء الخلفى. وقد أرادت نورا دوماً أن تفعل بها شيئاً، أرادت أن تفعل أكثر من مجرد تعليق غذاء للطيور بفروع صريمة الجدى، ولكنها طوال

هذه السنوات لم تفعل شيئاً، والآن لن تستطيع هذا قط. ففى خلال شهرين سوف تتزوج فريدريك وتترك هذا المكان للأبد. لقد تم نقله إلى فرنسا. وقد أخفق التحويل مرتين وتحديثاً عن الانتقال معاً إلى ليكسنجتون وبيع منزليهما والبدء بداية جديدة: منزل جديد لم يعيش فيه أحد من قبل. كان حديثهما تافهاً وباعثاً عن الوهن، حوارات كانت تدور أثناء تناولهما العشاء أو استلقائهما معاً فى الغسق، بينما يضعان أكواب الشراب على طاولة الفراش ويبدو القمر مثل القرص الشاحب فى النافذة فوق الأشجار. ليكسنجتون، فرنسا، تايوان - لم يشكل ذلك فارقاً مع نورا والتى شعرت بأنها قد اكتشفت بالفعل مدينة جديدة مع فريدريك. فى بعض الأحيان ليلاً كانت تغلق عينيها وتستلقى مستيقظة تستمتع إلى أنفاسه المنتظمة بينما يملؤها شعور عميق بالسعادة. وقد آلمها أنها وديفيد قد توقفا عن حب بعضهما البعض. كان ذلك خطأه بالتأكيد، ولكنه خطأها كذلك. فإنها قد أصيبت بالتوتر بعد وفاة فويب وأصبحت تخشى كل شيء. ولكن هذه السنوات قد ولت الآن، ذهبت مع الريح، دون أن تترك شيئاً سوى الذكرى.

لا بأس بفرنسا. وحينما علمت أن الوظيفة ستكون خارج باريس شعرت بالسعادة. وهما قد قاما بالفعل بإيجار كوخ صغير على حافة النهر فى شاتونوف. كان فريدريك هناك فى هذه اللحظة يصنع بيتاً زجاجياً حول نبات السحلبية. حتى الآن كانت هذه الصورة تملأ خيال نورا: الفلين الأحمر الناعم للفناء المرصوف، نسيم النهر العليل يتخلل شجرة التبولا عند الباب، والطريقة التى تسقط بها أشعة الشمس على كتفى فريدريك وذراعيه بينما يعمل لوضع الجدران الزجاجية. وهي تستطيع التمشية إلى محطة القطار والسفر إلى باريس فى ساعتين أو يمكنها السير إلى القرية وشراء الجبن والخبز وزجاجات الشراب الداكنة البراقة بينما يزداد عدد حقائبها القماشية مع كل محطة.

لفتيات يمشين ويتسوقن ويتحدثن إلى بعضهن البعض. كانت الصورة الأخيرة لشابة في المكتبة تضع ذقنها فوق يدها وهي تحرق خارج النافذة ويعلو وجهها تعبير شارد والذي كان مألوفاً لنورا.

تركت نورا الملف يسقط فوق ساقيها بينما تتناثر الصور منه. ماذا كان هذا؟ كل هذه الفتيات والشابات: ربما يكون هذا نوعاً من الولع الجنسي ولكن نورا علمت غريزياً أن الأمر ليس كذلك. فما كانت تشترك فيه جميع الصور هو البراءة. فتيات تلعبن في الحديقة عبر الشارع بينما ترفع الريح شعرهن وثيابهن. حتى النساء الأكبر كن يشتركن في هذه الصفة: كن يجدقن في شرود إلى العالم بعينين واسعتين وكأنهن يطرحن سؤالاً ما. كان الشعور بالخسارة يغلف الأضواء والظلال. لقد كانت صوراً مليئة بالحنين والشوق وليس الشهوة.

قلبت الصندوق لتقرأ الملصق. كانت عبارة: "نظرة عامة" هو كل ما كان مكتوباً عليه.

وسريعاً ودون اكتراث للفوضى التي تحدثها فتحت نورا الصناديق الأخرى واحداً تلو الآخر. وفي منتصف الغرفة وجدت صندوقاً آخر مكتوب عليه كذلك "نظرة عامة". قامت بفتحه وأخرجت الملفات.

ليس فتيات هذه المرة وليس غرباء وإنما صور لبول. ملف تلو الآخر لبول في جميع مراحل العمرية، مراحل نموه والغضب الذي تملك منه في إحداها. جديته وموهبته المذهلة في الموسيقى وأصابعه التي تتحرك فوق أوتار الجيتار.

طوال فترة كبيرة من الوقت ظلت نورا جالسة في سكون شديد بينما التوتر يتملكها وهي تشعر بأنها على وشك معرفة معنى ذلك. وفجأة أدركت ما يحدث: كل سنوات الصمت هذه حينما عزف ديفيد عن التحدث عن ابنتهما المفقودة، كان يسجل غيابها. بول وآلاف من الفتيات الأخريات أثناء نموهم.

يمكنها قلى البطاطس والتوقف للنظر إلى النهر يتحرك ببطء خلف السور. وفي الفناء المرصوف في المساء سوف تجلس هناك في حين تعبق زهور القمر برائحها الليمونية المطار وتحتسى هي وفريدريك الشراب ويتحدثان. إنها أمور بسيطة حقاً. مثل هذه السعادة. نظرت نورا إلى صناديق الصور وهي ترغب في جذب هذه الشابة التي كانت من ذراعها وهزها برفق. أرادت أن تقول لها: "امضي قدماً. لا تستسلمي. سوف تكون حياتك على ما يرام في النهاية".

أنهت زجاجة الكولا وواصلت العمل تاركة الصندوق الذي وقعت في شراكه وفتحت واحداً آخر. وفي داخل هذا الصندوق كانت هناك ملفات مرتبة بعناية حسب الأعوام. الأول كان يحتوى على صور لأطفال مجهولين ينامون في عرباتهم أو يجلسون على المروج أو الشرفات، أو تحملهم أمهاتهم بين أذرعهن. كانت جميع الصور مقاس ٨ × ١٠، وأبيض وأسود، وحتى نورا كان بإمكانها أن تجزم أنها من بين تجارب ديفيد الأولى مع الضوء. سوف يسعد أمماء المتاحف بهذه الصور. وبعض الصور كانت داكنة للغاية لدرجة جعلت الأشخاص بها مرئيين بالكاد؛ والبعض الآخر كان أبيض ساطعاً. لابد أن ديفيد كان يختبر مجال الكاميرا بحيث يركز على بؤرة واحدة مع تغيير تركيز العدسة والثقيب والضوء المتاح.

كان الملف الثانى مشابهاً للغاية وكذلك الثالث والرابع. كانت صور لفتيات، ليس رضيعات ولكن فتيات في الثالثة والرابعة من أعمارهن. فتيات يرتدين أثوابهن في دار العبادة، وفتيات يركضن في الحديقة، وفتيات يتناولن المثلجات أو منتشرات خارج المدرسة. فتيات يرقصن ويقذفن بالكرة ويضحكن ويبكين. قطبت نورا مستعرضة الصور بشكل أسرع. لم يكن بها طفلة تعرفها. كانت الصور مرتبة بحرص حسب المراحل العمرية. وحينما وصلت إلى نهاية الصور أصبحت الصور لسيدات وليس

بول ولكن ليس فويب.

أرادت نورا البكاء. شعرت بالاشتياق للتحدث مع ديفيد. طوال هذه السنوات كان يفتقدها أيضاً. كل هذه الصور، كل هذا الصمت، هذا الشوق الأخرس. استعرضت الصور مرة أخرى متفحصاً بول وهو صبي. يلتقط كرة سلة، يعزف على البيانو، يتخذ وضعية حمقاء أسفل شجرة بالفناء. كل هذه الذكريات التي جمعها، لحظات لم ترها نورا. تفحصتها مرة أخرى ثم مرة أخرى وهي تحاول تخيل نفسها بالعالم الذي كان ديفيد يعيش فيه وتراه بعينه.

مرت ساعتان. شعرت بالجوع ولكنها لم تستطع حمل نفسها على المغادرة أو حتى ترك مكانها على الأرض. الكثير من الصور، كل هذه الصور لبول، كل هذه الفتيات والسيدات المجهولات واللاتى تناظر أعمارهن مراحل بول السنية المختلفة. طالما شعرت طوال هذه السنوات بوجود ابنتها - مثل الظل - تقف وراء كل صورة يتم التقاطها. ففويب التى ماتت عند ولادتها كانت تتحرك خارج مجال الرؤية مباشرة وكأنها نهضت قبل لحظات من التقاط الصور وغادرت الغرفة، وكأن رائحتها ونسمة الهواء التى أحدثته تحركها مازالا يجوبان المكان الذى تركته لتوها. ولقد احتفظت نورا بهذا الشعور لنفسها وهي تخشى أن يظن أى أحد يعرفه أنها عاطفية أو حتى معتوهة. وقد أدهشها هذا الآن بل إنه حتى جعل الدموع تترعرع فى عينيها، أن تدرك كم تأثر ديفيد أيضاً برحيل ابنتهما. لقد بحث عنها فى كل مكان كما يبدو - فى كل فتاة، فى كل شابة - ولكنه لم يجدها قط.

وأخيراً وفى داخل دوائر الصمت التى كانت تجلس داخلها سمعت صوت قعقة فوق الحصى: لقد توقفت سيارة عند مدخل المنزل. لقد جاء أحدهم. ومن بعيد سمعت صوت وقع أقدام ثم صوت جرس المنزل يرن. هزت رأسها وابتلعت لعابها ولكنها لم تنهض. فبغض النظر عن يوجود عند الباب فإنه سوف يرحل

ويأتى مرة أخرى، أو لا يأتى. كانت تمسح الدموع من عينيها، فأى شخص يريد لها سوف ينتظر. ولكن لا. لقد وعد لها مئتمن الأثاث أن يأتى فى هذه الظهيرة. لذا فقد ضغطت نورا بيديها فوق وجنتيها ودخلت المنزل من الخلف ثم توقفت ورشت بعض الماء على وجهها ومشطت شعرها. قالت من فوق صوت تدفق الماء من الصنبور حينما دق الجرس ثانية: "أنا آتية". سارت عبر الغرف، كان الأثاث مجمعا فى منتصف الحجرات ومغطى بملاءات بيضاء: فعمال الطلاء سوف يأتون غداً. وقد قامت بعد الأيام المتبقية متسائلة إن كان فى الإمكان الانتهاء من كل شيء قبل الرحيل. وقد تذكرت للحظة تلك الأمسيات فى شاتونوف حيث يمكن لحياتها أن تصبح دوماً هادئة وساكنة مثل زهرة تحركها الريح.

فتحت الباب وهي لا تزال تجفف يديها.

كانت السيدة التى تقف بالشرفة تبدو مألوفة بشكل غامض. كانت ترتدى بنظالا أزرق داكناً ومعطفاً أبيض ذا أكمام قصيرة وكان شعرها الكثيف رمادياً وقصيراً للغاية. وقد بدت من الوهلة الأولى أنها منظمة، من هذا النوع من النساء الذى لا يقبل الهراء، من هذا النوع من النساء الذى يتحمل مسئولية كل شيء. لم تتحدث بالرغم من ذلك، فقد بدت مفزوعة لرؤية نورا وأخذت تتفحصها بعناية حتى أن نورا عقدت ذراعيها أمامها بشكل دفاعى وقد شعرت فجأة بالبنطال القصير المقلّم والمتسخ الذى كانت ترتديه والقميص الرطب بفعل العرق. نظرت عبرت الشارع ثم نظرت مرة أخرى للمرأة الموجودة بشرفة منزلها. نظرت للمرأة مباشرة فى عينيها وركزت على عينيها الزرقاوين الواسعتين ثم عرفت أنها.

تسارعت أنفاسها: "كارولين؟ كارولين جيل؟".

أومأت المرأة وأغلقت عينيها للحظة وكأنها تؤكد لها أن شيئاً ما قد تم حسمه بينهما، ولكن نورا لم تعلم ما هو هذا الشيء

للخلف مرتين وهى عاجزة عن التخلص من المشاعر الغريبة التى أثارها وجود كارولين. كانت نظارة شمسية تتدلى من سلسلة حول رقبة كارولين. وقد أصبحت ملامح وجهها أقوى على مدار السنوات، وأنفها وذقنها أكثر نتوءاً. وقد اعتقدت نورا أنها تعرف كيف تتعامل مع تحديات العمل الصعبة. فهى ليست بالشخص الذى يمكن الاستخفاف به. ومع ذلك فقد أدركت نورا أن توترها جاء من مصدر مختلف. لقد عرفت كارولين كشخص آخر - امرأة شابة وغير واثقة منغمسة فى حياة وماض ليست فخورة بهما.

جلست كارولين عند طاولة الإفطار فى حين ملأت نورا كوبين بالثلج والماء. كانت آخر ملحوظات ديفيد - لقد قمت بإصلاح حوض دورة المياه، عيد ميلاد سعيد - معلقة على لوحة النشرات خلف كتف نورا مباشرة. فكرت نورا فى نفاد صبر فى الصور التى تنتظرها فى المرآب، فى كل ما ينبغى عليها القيام به ولا يمكنه الانتظار.

قالت كارولين مشيرة إلى الحديقة التى تعمها الفوضى: "إن لديك عصافير زرقاء".

"نعم، لقد تطلب منى الأمر سنوات لجذبها. أتمنى أن يعتنى بها جيداً السكان القاليون للمكان".
"إن الانتقال هو أمر غريب حقاً".

قالت نورا وهى تخرج صينيتين مدورتين وتضع الكوبين على الطاولة: "لقد حان وقته. ولكنك لم تأتى بشأن هذا".
"لا".

أخذت كارولين رشفة ثم وضعت يديها مسطحتين على الطاولة وكأنها تريد تثبيتهما كما شعرت نورا ولكنها حينما تحدثت بدت هادئة وواثقة.

"نورا - هل يمكننى أن أناذك نورا؟ هكذا كنت أفكر فيك طوال هذه السنوات".

فوجود هذه المرأة من الماضى البعيد أيقظ شيئاً كان نائماً فى سبات داخل قلبها وأعادها إلى تلك الليلة التى تبدو كالحلم حينم ذهبت هى وديفيد إلى العيادة عبر الشوارع الصامتة والممتلئة بالثلج، وحينما كانت كارولين جيل تضع المخدر فوق وجهه وتمسك بيدها أثناء الانقباضات وهى تقول: "انظري إلى، انظري إلى الآن يا سيدة هنرى، أنا هنا معك وأنت تبكين بلاء حسناً". تلك العينان الزرقاوان وإمساكها ليدها بقوة كانت أشياء منسوجة بعمق فى نسيج ذكرياتها عن قيادة ديفيد المنهاجية وصرخة بول الأولى.

سألت نورا: "ماذا تفعلين هنا؟ لقد مات ديفيد العام الماضى".
قالت كارولين وهى تومئ: "أعلم. أعلم ذلك وأنا آسفة للغاية. اسمعى يا نورا - أعنى يا سيدة هنرى - هناك شىء أود التحدث معك بشأنه، شىء صعب بعض الشىء. أتساءل إن كان باستطاعتى اقتطاع جزء من وقتك. يمكننى أن أعود ثانية إن لم يكن هذا وقتاً مناسباً".

كانت نبرة صوتها تنم عن أنها جاءت للتحدث فى موضوع مهم وعاجل، وضد رغبتها وجدت نورا نفسها تعود للخلف وتدع كارولين جيل تخطو داخل الردهة. كانت الصناديق الممتلئة والمشدودة بشرائط مكدسة إلى جوار الجدران. قالت: "لا بد أن تعذرينى على هذه الفوضى". أشارت إلى غرفة المعيشة حيث كان الأثاث مكدسا بالمنتصف. أضافت: "سوف يأتى بعض الخبراء للقيام ببعض التثمينات. فأنا سوف أتزوج ثانية وأرحل من هنا".
قالت كارولين: "أنا سعيدة لأننى تمكنت من اللحاق بك. أنا سعيدة لأننى لم أنتظر".

تساءلت نورا: "تلحقين بى؟" ولكن من باب العادة دعت نورا كارولين إلى المطبخ، المكان الوحيد حيث يمكن أن تجلسا بشكل مريح. وبينما كانتا تسيران فى غرفة الطعام دون أن تتحدثا تذكرت نورا اختفاء كارولين المفاجئ، الفضيحة. نظرت

أومات نورا وهى لا تزال مرتبكة ومتوترة. متى كانت آخر مرة فكرت فيها فى كارولين جيل؟ منذ سنوات طويلة، وفقط كجزء من ليلة ميلاد بول.

قالت كارولين وكأنها تقرأ أفكارها: "نورا، ماذا تذكرين من ليلة مولد ابنك؟".

"لماذا تسألين؟". كان صوت نورا حازماً وكانت تتكئ للخلف بالفعل مبتعدة عن الحدة فى عيني كارولين، عن خوفها مما قد يحدث. "لماذا أنت هنا؟ لماذا تسألين عن هذا؟".

لم تجب كارولين جيل على الفور. تخللت أصوات العصافير الزرقاء الغرفة مثل هباءات الضوء.

قالت كارولين: "اسمعى، أنا آسفة - لا أعرف كيف أخبرك بالأمر. فليس هناك طريقة سهلة للقيام بذلك، لذا فسوف أخبرك مباشرة. نورا، فى تلك الليلة التى رزقت فيها بتوأم - بول وفويب - حدثت مشكلة".

قالت نورا بحدة وهى تتذكر الشعور بالاكتمال الذى ساورها بعد الولادة، الحزن والبهجة مغزولان معاً والطريق الطويل الذى سلكته لتصل إلى هذه اللحظة من السكينة. "نعم. لقد ماتت ابنتى. تلك كانت المشكلة".

قالت كارولين وهى تنظر إليها مباشرة: "إن فويب لم تمت". شعرت نورا بأنها مجمدة داخل هذه اللحظة كما كانت منذ كل هذه السنوات، أنها تقف ثابتة فى مكانها بينما يتغير عالمها من حولها. "لقد ولدت فويب مصابة بمتلازمة داون. وقد كان تشخيص ديفيد لحالتها ليس جيداً. لقد طلب منى أخذها إلى مكان فى لويسفيل حيث كان مثل هؤلاء الأطفال يعيشون. ولم يكن مثل هذا التصرف شاذاً أو غير معهود فى عام ١٩٦٤. فمعظم الأطباء كانوا سينصحون بنفس الشيء. ولكننى لم أستطع تركها هناك. لقد أخذتها وانتقلت إلى بتسبرج. لقد قمت بتربيتها طوال

هذه السنوات يا نورا. إن فويب على قيد الحياة. إنها على ما يرام".

جلست نورا فى سكون بالغ. كانت الطيور فى الحديقة ترفرف وتغرد. تذكرت لسبب ما حادث تعثرها فى حفرة فى أسبانيا. حينما وجدت نفسها داخل مصرف وقد التوى كاحلها وأصيبت بخدوش طويلة دامية على رجليتها. "لنا بخير، لنا بخير" هكذا ظلت تقول الناس الذين ساعدوها على الصعود والذين أخذوها إلى الطبيب. لقد قالت فى عدم إكتراث والدماء تسيل من جروحها: أنا بخير. وقد كان ذلك لاحقاً - حينما كانت وحيدة وبأمان فى غرفتها - حينما أغلقت عينيها وشعرت بفقدان السيطرة على نفسها وبكت. ساورها نفس هذا الشعور الآن. لقد ارتعدت وأمسكت بحافة الطاولة.

"ماذا؟ ماذا تقولين؟".

أعادت كارولين كلامها: فويب لم تمت وإنما عاشت بعيداً. طوال كل هذه السنوات. إنها بأمان وتتلقى رعاية جيدة وتحظى بحب من حولها. فويب ابنتها، توأم بول. ولدت بمتلازمة داون ونشأت بعيداً عنها. لقد تخلص منها ديفيد.

قالت نورا: "لا بد أنك مجنونة" حتى بالرغم من أن العديد من أجزاء حياتها المتناثرة كانت تترابط معاً أثناء تفوهها بهذه العبارة مما جعلها تتيقن أن كلام كارولين لا بد أن يكون صحيحاً. دست كارولين يدها فى جيبها وأخرجت صورتين ووضعتهما على الرخام المظلى. لم تلتقطهما نورا، فقد كانت ترتعد بشدة ولكنها اتكأت للأمام وأخذتهما. فتاة صغيرة ترتدى ثوباً أبيض، ممثلة وذات ابتسامة تضىء وجهها بينما عيناهما اللتان تتخذان شكل اللوزتين مغلقتان فى سعادة. ثم الصورة الأخرى، نفس هذه الفتاة بعد سنوات على وشك تصويب كرة السلة، بحيث تظهر فى الصورة قبل أن تقفز مباشرة. وقد كانت تشبه بول بعض

الشيء وتشبه نورا بعض الشيء ولكن كان لها أيضاً شكلها المتفرد: فويب. لا تشبه أية صورة من تلك المرتبة بحرص في ملفات ديفيد. إنها حية وتوجد بمكان ما من العالم. قالت بينما يتخلل صوتها الحزن: "ولكن لماذا؟ لماذا فعل هذا؟ لماذا فعلت هذا؟".

هزت كارولين رأسها ونظرت للحديقة مرة أخرى. قالت: "طوال سنوات وأنا أومن أنني لست مذنبه. كنت متيقنة أنني أتيت التصرف السليم. إن تلك المصححة هي مكان مروع حقاً. إن ديفيد لم يرها؛ إنه لا يعلم مدى سوئها. لذا فقد أخذت فويب وقمت بتربيتها، وقد خضت الكثير من المعارك كي تحظى بالتعليم وتحصل على الرعاية الطبية. كي أتيقن من أنها ستحظى بحياة جيدة. كان من السهل أن أرى نفسى بطله. ولكننى أعتقد أنني طالما كنت أومن فى قرارة نفسى أن دوافعى لم تكن خالصة مائة بالمائة. لقد كنت أريد طفلاً ولم أنجب واحداً كما أنني كنت أحب ديفيد أيضاً أو ظننت هذا. أقصد من بعيد. فالأمر كان داخل رأسى فقط. فديفيد لم يلحظنى قط. ولكننى حينما رأيت إعلان الجنازة أدركت أنه على أخذها، أنه على الرحيل ولم أستطع تركها".

رجعت نورا المصابة باضطراب واهتياج شديدين بالذاكرة للوراء لتلك الأيام التى ساورها فيها شعور متضارب بالحزن والسعادة، وهى تحمل بول بين ذراعيها بينما تعطيها برى سماعة الهاتف وهى تقول: "لابد أن تضعى حداً لهذا". وهى قد خططت لإقامة الجنازة دون أن تخبر ديفيد شيئاً عنها، وقد ساعدها كل تفصيل من تفاصيل الجنازة على استعادة حياتها والعودة إلى العالم، وحينما عاد ديفيد إلى المنزل فى هذه الليلة صارت مقاومته.

كيف استطاع اجتياز مثل هذه الليلة والجنازة؟

سألت هامسة: "ولكن لماذا لم يخبرنى؟ طوال هذه السنوات لم يخبرنى شيئاً".

هزت كارولين رأسها وقالت: "لا أستطيع التحدث نيابة عن ديفيد. فطالما بدا بمثابة اللغز لى ولكنى أعرف أنه كان يحبك، وأعرف أنه بالرغم من البشاعة التى يبدو عليها كل ما حدث إلا أن نواياه الأولية كانت طيبة. لقد أخبرنى مرة عن أخته. كانت تعاني خللاً فى القلب وماتت صغيرة ولم تستطع أمه قط الكف عن الشعور بالحزن عليها. وأنا أعتقد أنه كان يحاول حمايتك من مثل هذا الحزن".

قالت نورا بينما تصدر الكلمات من مكان عميق ما فى جسدها، من جرح قديم دفنته قبل وقت طويل: "إنها طفلتى. لقد خرجت من جسمى. يحمينى؟ عن طريق أن يقول لى إنها ماتت؟".

لم تجب كارولين وجلست لفترة طويلة بينما تتفاقم حدة الصمت بينهما. فكرت نورا فى ديفيد فى كل هذه الصور، وفى لحظات حياتهما معاً أثناء حملها لهذا السر. إنها لم تكن تعلم ولم يكن بإمكانها حتى أن تخمن. ولكن الآن بعد أن عرفت بدت لها الكثير من الأمور منطقية.

وأخيراً فتحت كارولين حقيبتها وأخرجت ورقة مكتوباً عليها رقم هاتفهما وعنوانها. قالت: "هذا هو المكان الذى نعيش فيه. أنا وزوجى آل وفويب. هذا هو المكان الذى نشأت فيه فويب. لقد حظت بحياة سعيدة يا نورا. أعتقد أن هذا لا يعوضك شيئاً ولكنه صحيح. إنها امرأة لطيفة. وفى الشهر التالى سوف تنتقل لتعيش فى دار. إن ذلك هو ما تريده. إنها تعمل فى متجر تصوير مستندات. وهى تحب هذا المكان للغاية والجميع يحبونها هناك".

"متجر تصوير مستندات؟"

"نعم، إنها بارعة يا نورا".

سألت نورا: "هل تعرف؟ هل تعرف شيئاً عنى؟ أو عن بول؟".

نظرت كارولين للأسفل إلى الطاولة وهى تمرر أصابعها على حافة الصورة: "لا، أنا لم أخبرها، فقد انتظرت حتى أتحدث إليك أولاً. فأنا لم أعرف ماذا ستفعلين وإن كنت ستودين لقاءها أم لا. أتمنى أن ترغبى فى لقائها. ولكننى بالطبع لن ألومك إن لم ترغبى فى هذا. طوال هذه السنوات - يا إلهى، أنا آسفة. ولكن إن أردت المجيء فنحن هناك. فقط اتصى. الأسبوع القادم أو العام القادم".

قالت نورا ببطة: "لا أعرف. أعتقد أننى مصابة بحالة من الصدمة".

نهضت كارولين: "هذا طبيعى".

سألت نورا: "هل يمكننى الاحتفاظ بالصورة؟".

"إنها لك. طالما كانت تخصك".

وبالشرفه توقفت كارولين ونظرت إليها بإمعان.

قالت: "لقد كان يحبك كثيراً. لقد أحبك دوماً يا نورا".

أومات نورا متذكراً أنها قالت نفس الشئ لبول فى باريس. راقبت كارولين من الشرفه وهى تسير إلى سيارتها متخيلة الحياة الذاهبه إليها، التعقيدات والألغاز التى توجد فى كنفها. ظلت نورا واقفة بالشرفه وقتاً طويلاً. كانت فويب حية وتوجد بهذا العالم. كانت تلك المعرفة تمثل فتحة تزدد اتساعاً فى قلبها. تحظى بحب من حولها كما قالت كارولين. تحظى بالرعاية. ولكن ليس رعاية نورا التى عملت جاهدة كى تستطيع نسيانها وقد انهالت عليها الآن ذكريات الأحلام التى راودتها، كل هذا البحث وسط العشب المجدد الهش.

عادت إلى المنزل وشرعت فى البكاء وهى تسير أمام الأثاث المغطى. إن المثلث سوف يأتى. وبول سوف يأتى أيضاً، اليوم أو غداً؛ لقد وعدا أن يتصل أولاً ولكن فى بعض الأحيان يأتى دون

اتصال. غسلت أكواب الماء وجففتها ثم وقفت فى المطبخ الساكن وهى تفكر فى ديفيد، كل هذه الليالى طوال هذه السنوات وهو يستيقظ بالظلام ويذهب إلى المستشفى لإصلاح كسر فى جسم شخص ما. شخص صالح، ديفيد. كان يدير عيادة ويرعى المحتاجين؟

وهو قد تخلى عن ابنتهما وأخبرها أنها ماتت.

ضربت نورا بقبضتها على الطاولة جاعلة الأكواب تقفز. صبت لنفسها بعض الشراب وتجولت بالطابق العلوى. استلقت وهى مستيقظة واتصلت بفريدريك وأغلقت الخط حينما أجابتها آلة الرد الآلى. وبعد برهة ذهبت ثانية إلى استوديو ديفيد. كان كل شئ كما تركته، الهواء دافئ وساكن، الصور والصناديق مبعثرة على الأرض كما تركتها تماماً. إنها تساوى على الأقل خمسين ألف دولار كما أخبرها الأبناء. وأكثر إن كانت هناك ملاحظات بخط ديفيد عن التصوير.

كل شئ كان كما هو ولكن ليس كما هو مطلقاً.

التقطت نورا الصندوق الأول وسحبته عبر الغرفة. رفعته فوق الطاولة ثم وازنته على عتبة النافذة المظلة على الفناء الخلفى. توقفت لالتقاط نفسها قبل أن تفتح النافذة وتدفع الصندوق بحزم للخارج مستخدمة كلتا يديها بينما سمعت الصوت المكتوم لاصطدامه بالأرض بالأسفل. ذهبت إلى الصندوق التالى ثم التالى له. لقد كانت كل شئ أرادت أن تكونه من قبل: حاسمة ورشيقة ومتججرة القلب. وفى أقل من ساعة كان الاستوديو نظيفاً وفارغاً. عادت إلى المنزل مجدداً بعدما مرت على الصناديق فى ممر السيارات والتى تناثرت الصور منها على المرجة فى ضوء فترة بعد الظهر.

وفى الداخل أخذت حماماً وهى تقف أسفل الماء المتدفق حتى أضحى بارداً. ارتدت ثوباً فضفاضاً وصبت لها كأساً آخر من الشراب وجلست على الأريكة. ألتها عضلات ذراعيها نتيجة

رفع الصناديق. أتت بكأس آخر ثم عادت. وحينما حل الظلام بعدها بساعات كانت لا تزال هناك. رن جرس الهاتف وسمعت صوتها على الرد الآلى ثم صوت فريدريك من فرنسا. كان صوته انسيابياً وجميلاً مثل شاطئ بعيد. اشتاقت أن تكون هناك، أن تكون فى هذا المكان حيث ستصبح حياتها ذات معنى ولكنها لم ترفع السماعة أو تعاود الاتصال به. علا صوت قطار من بعيد. جذبت البطانية الملونة فوقها وغاصت فى ظلام هذه الليلة.

كانت تنام وتستيقظ. والآن نهضت وأعدت لها مشروباً آخر وسارت عبر الغرف الشاغرة التى يملؤها ضوء القمر بينما تملأ كوبها بأى شئ تصل إليه يدها. فبعد برهة من الوقت أصبحت لا تكثر بما تشرب، ماء أو ليمون أو ثلج. ذات مرة حلمت بأن فويب توجد بالحجرة تظهر بطريقة ما من الجدار الذى ظلت به طوال كل هذه السنوات، والتى كانت نورا تمر به دون أن تراها. استيقظت فى ذلك الحين وبكت. سكبت ما تبقى من الشراب فى الحوض وشربت كوباً من الماء.

نامت أخيراً بحلول الفجر. وفى فترة الظهيرة استيقظت بينما كان الباب الأمامى مفتوحاً على مصراعيه وفى الفناء الخلفى كانت الصور مبعثرة فى كل مكان: عالقة فى نبات الوردية، ملتصقة بأرجوحة بول القديمة. كانت صور الأذرع والأعين والجلد الذى يشبه الشواطئ والشعر وخلايا الدم مبعثرة مثل الزيت فوق الماء. لحظات من حياتهم كما رآها ديفيد. النيجاتيف والسليوليد الداكن - كل ذلك مبعثر على العشب. وتخيلت نورا الأصوات المصدومة والغاضبة للأمناء والأصدقاء وابنها، بل حتى صوتها هى أيضاً، تخيلتهم جميعاً يصرخون: "ولكنك تدمرين التاريخ!".

أجابت نورا: "لا، أنا أستعيده".

شربت كوبين آخرين من الماء وأخذت قرص أسبرين ثم بدأت تحمل الصناديق إلى الجزء الأبعد من الحديقة. وقد دفعت أحد الصناديق، ذلك الذى كان ممثلاً بـ بول خلال حياته - إلى

داخل المرآب حيث الأمان. كان الجو حاراً وشعرت بألم فى رأسها وبأن العالم يدور من حولها حينما نهضت فجأة. تذكرت هذا اليوم على الشاطئ منذ زمن بعيد، الماء المتلألئ، والدوار الذى أصابها، وهوارد الذى يمشى على الشاطئ.

كانت هناك كومة من الأحجار وراء المرآب. سحبتها للخارج واحدة تلو الأخرى وقامت برصها فى دائرة عريضة. ألقت الصندوق الأول بداخلها بينما تبرق الصور تحت أشعة الشمس وتحقق لها كل هؤلاء الشابات غير المألوفات من فوق العشب. ربضت أسفل شمس الظهيرة الحارقة وأمسكت القداحة أسفل حافة صورة ٨ × ١٠. وحينما أمسك اللهب بالصورة ألقت بها فوق كومة الملفات بداخل حلقة الأحجار. فى البداية لم يبد أن النار قد أمسكت بالصور. ولكن سرعان ما علت الحرارة والدخان.

دخلت نورا المنزل لتأتى بكوب آخر من الماء. جلست على الدرجة الخلفية ترشف الماء وتشاهد ألسنة اللهب. وقد كان هناك قانون محلى جديد يحظر إضرار أى نوع من النار وقد كانت تخشى أن يتصل أحد الجيران بالشرطة. ولكن الجو ظل ساكناً؛ حتى ألسنة النار كانت ساكنة، وترفرف داخل الهواء الساخن، مصدرة خيوطاً رفيعة زرقاء. كانت الدبابير تطوف بالفناء الخلفى حيث جذبتها الحرارة. وحينما بدأت النار فى دائرة الأحجار تتأجج قامت نورا بتغذيتها بمزيد من الصور. لقد كانت تحرق الضوء والظل، كانت تحرق هذه الذكريات الخاصة بديفيد، والذى التقطها وحفظها بعناية. همست قائلة: "أيها الوغد" بينما تراقب الصور وهى تشتعل قبل أن تصبح سوداء تماماً وتتقوقع حول نفسها وتختفى.

فكرت وهى تبتعد عن الحرارة والنار المتأججة والألسنة

المتصاعدة فى الهواء: من النور إلى النور.

من الرماد إلى الرماد.

وأخيراً من الغبار إلى الغبار.

حواراتهما فى البداية تتسم بالود وتتمركز حول أمور بسيطة مثل من سيعتنى بالقط أثناء تغيب كل منهما بالمدينة: هى فى إنديانا بوليز تعزف فى حفل وهو فى ليكسنجتون يساعد أمه. أما الآن وفجأة أصبحا هنا بداخل هذا القطاع الكثيب والمنعزل من القلب، هذا المكان الذى بدا أن كليهما يغرقان فيه مؤخراً.

أدرك بول أن عليه تغيير الموضوع.

قال بدلاً من ذلك بشكل عنيد: "إن الزواج لا يعنى بالضرورة إنجاب أطفال".

"كن صادقاً يا بول. إن أمنية حياتك هى إنجاب طفل. ليس أنا من تريد. أنت تريد فقط هذا الطفل الأسطورى".

قال: "طفلنا الأسطورى فى يوم ما يا ميشيل. ليس على الفور. اسمعى، أنا فقط أردت طرح فكرة الزواج. ليس الأمر بكل هذه الأهمية".

أصدرت صوتاً ينم عن السخط. كانت الأرضية بالعلية مصنوعة من خشب الصنوبر والجدران بيضاء وتضم تشكيلة مختلفة الألوان من الزجاجات والوسائد. كانت ميشيل ترتدى ثوباً أبيض كذلك، وكان شعرها وجلدها دافئين مثل الأرضيات. شعر بول بالألم وهو ينظر إليها لأنه أدرك أنها قد توصلت إلى قرار فى قرارة نفسها. إنها سوف تتركه قريباً، آخذة معها جمالها وموسيقاها الجامحين.

قالت: "إن ذلك رائع حقاً. فكم من الرائع أن تثير مثل هذه الموضوعات فى الوقت الذى بدأ يزدهر فيه عملى. ليس قبل ذلك ولكن الآن. يساورنى شعور غريب بأنك تحاول إنهاء علاقتنا".

"هذا سخيف. إن التوقيت لا علاقة له بالأمر".

"حقاً؟"

"حقاً! "

٢ - ٤ يوليو ١٩٨٩

"من السهل عليك أن تقول هذا الآن يا بول". كانت ميشيل تقف عند النافذة وهى تعقد ذراعيها وحينما استدارت كانت عيناها مليئتين بالعاطفة ويحجبهما الغضب كذلك. "أنت تستطيع أن تتمنى ما تشاء فى عالم الخيال، ولكن فى الواقع فإن طفلاً سيغير كل شىء - وخاصة بالنسبة لى".

كان بول يجلس على الأريكة الحمراء الداكنة والتى كانت دافئة ومريحة فى ذلك الصباح الصيفى. فقد وجدها هو وميشيل بالشارع حينما انتقلا للسكن فى هذه الشقة هنا فى سينسيناتى، حينما لم يكن يمثل لهما حمل أريكة لثلاثة طوابق أى عناء، أو كان يعنى الإرهاق وتناول الشراب والضحك وممارسة العلاقة الحميمة ببطء لاحقاً على سطحها القטיפى الصلب. الآن استدارت لتتنظر بالنافذة بينما يتأرجح شعرها الأسود. شعر بكتلة من الفراغ تملأ قلبه. فمؤخراً كان العالم يبدو له هشاً مثل بيضة مكسورة والذى قد ينكسر ويتحطم بفعل لمسة خاطئة. كانت

لم يتحدث طوال عدة دقائق وملاً الصمت فراغات الغرفة حتى ضغط على الجدران. كان بول خائفاً من التحدث وخائفاً أكثر من ألا يتحدث ولكنه فى النهاية لم يستطع أن يصمت أكثر من ذلك. "لقد دامت علاقتنا عامين. فالأمور إما تنمو أو تتغير أو تموت. أنا أريد لعلاقتنا أن تستمر فى النمو".

تنهدت ميشيل: "إن كل شيء يتغير فى جميع الأحوال بورقة زواج أو لا. إن هذا هو ما لا تعرفه. وبغض النظر عما تقوله فإن هذا أمر مهم. بغض النظر عما تقوله فإن الزواج يغير كل شيء، والنساء دوماً هن من يقمن بكل التضحيات بغض النظر عما يقوله أى إنسان".

"هذا كلام نظرى. هذا ما لا يحدث فى الحياة الواقعية".
 "يا إلهى! أنت تثير حنقى يا بول - فأنت واثق من كل شيء بشكل مبالغ فيه".

كانت الشمس عالية فى كبد الشمس تلمس النهر وتملأ الغرفة بأشعة فضية وتلقى على السقف أشكالا متحركة. دخلت ميشيل دورة المياه وأغلقت الباب وراءها. علا من الداخل صوت التنقيب داخل الأدراج وتدفق الماء. عبر بول الغرفة إلى حيث كانت تقف ونظر من النافذة وكأن ذلك قد يساعده على فهمها. ثم سرعان ما قام بالطرق على الباب.

قال: "أنا راحل".
 ساد الصمت قليلاً ثم صاحت من الداخل: "هل ستعود غداً مساءً؟".

"إن حفلك فى السادسة، أليس كذلك؟".
 "نعم". فتحت باب دورة المياه ووقفت وهل تلف حولها منشفة بيضاء كبيرة وتضع الغسول على وجهها.

قال: "حسناً، إذن" ثم قام بتقبيلها مستنشقا رائحتها ومستشعراً نعومة جسدها. ثم أضاف وهو يعود للخلف: "أنا أحبك".

ظلت تنظر إليه للحظة ثم قالت: "أعلم. أراك غداً".
 "أعلم". ظل يفكر فى كلماتها طوال الطريق إلى ليكسنجتون. وقد قطع الطريق فى ساعتين: عبر نهر أوهايو وخلال زحمة السير الكثيفة بالقرب من المطار ثم أخيراً عبر التلال الدائرية الجميلة. بعد ذلك كان يقود السيارة مختبراً شوارع وسط المدينة الهادئة ماراً أمام المباني الشاغرة ومتذكراً الوقت الذى كان فيه شارع مين هو مركز الحياة، المكان الذى كان يذهب إليه الناس للتسوق وتناول الطعام ولقاء بعضهم بعضاً. تذكر الذهاب إلى داخل متجر الأدوية والجلوس على نافورة الآيس كريم بالداخل. كريمة الشيكولاتة بكوب معدنى مجمدة بالثلج، دوران الخلط، الروائح المتداخلة للحم المشوى والمطهو. لقد تقابل والداه بوسط المدينة. فقد استقلت والدته المصعد وصعدت فوق الزحام مثل الشمس وتبعها والده.

مر أمام مبنى البنك الجديد وقاعة المحكمة القديمة، والمبنى الشاغر الذى كان فيما سبق مسرحاً. كانت امرأة نحيفة تسير فوق الرصيف وهى تثنى رأسها وتعقد ذراعيها بينما تداعب شعرها الريح. ولأول مرة منذ سنوات يتذكر بول لورين لوبجلىو والطريقة الواثقة والصامته التى كانت تعبر بها المرائب إليه أسبوعاً بعد آخر. وقد ذهب إليها مرة بعد مرة؛ وقد كان يستيقظ فى منتصف العديد من الليالى الحالكة وهو يخشى أن يحدث مع لورين كل ما يتمناه الآن مع ميشيل: الزواج، الأطفال، واندماج حياتهما حقاً.

كان يقود وهو يدندن أغنيته مع نفسه. "شجرة فى القلب".
 كان ذلك اسمها - والتى ربما يقوم بعزفها فى هذه الليلة فى حانة لينا. سوف يصدم ذلك ميشيل ولكن بول لم يكتثر لذلك. فمؤخراً، منذ وفاة والده أصبح يعزف أكثر فى أماكن غير رسمية أو ردهات المسارح: فقد كان يمسك بالجيتر ويعزف فى الحانات أو المطاعم، مقطوعات كلاسيكية ولكن أيضاً المزيد من الأعمال

الشعبية التي ظل دوماً في الماضي يزدريها. ولم يكن بإمكانه التعليل لهذا التغيير الذي حدث في قلبه ولكنه يعلم أن له علاقة بالحميمية التي يجدها في هذه الأماكن، الرابط الذي يشعر به مع الجمهور والذي يكون قريباً بما فيه الكفاية حتى أنه يكون في إمكانه مد يده ولمسه. ولم تستحسن ميشيل هذا واعتقدت أنه ناتج عن شعوره بالحزن، وأرادته أن يقلع عما يفعله ولكن بول لم يستطع التوقف. فطوال سنوات مراهقته ظل يعزف بدافع من الغضب والحنين للترباط، وكأنه من خلال الموسيقى سيستطيع جلب بعض النظام والجمال غير المرئي داخل أسرته. والآن رحل والده ولم يصبح هناك أحد لكي يعزف بول من أجل أن يكيد. لذا فقد حظى بهذه الحرية الجديدة.

قاد سيارته إلى الحي القديم ماراً أمام المنازل الفخمة والأفنية الأمامية الواسعة والأرصفة والهدوء اللانهائي. كان الباب الأمامي لمنزل والدته مغلقاً. أوقف محرك السيارة وجلس للحظة ينصت إلى صوت الطيور وآلات جز الحشائش.

"شجرة في القلب". لقد مات أبوه منذ عام وسوف تتزوج أمه من فريدريك وتسافر إلى فرنسا لبعض الوقت، وقد جاء إلى هنا ليس كطفل ولكن بصفته وكيلاً عن الماضي. فكان له حرية التصرف واختيار ما يود إبقاءه وما يود التخلص منه. وقد حاول أن يتحدث إلى ميشيل بشأن هذا الأمر، بشأن شعوره العميق بالمسئولية، وكيف أن ما سيحتفظ به من هذا المنزل سيصبح كل ما سيمنحه لأطفاله في يوم ما - كل ما سيعرفونه بشكل متداخل عما قام بتشكيله. كان يفكر في والده الذي كان ماضيه بمثابة اللغز، ولكن ميشيل لم تستطع فهمه؛ فهي قد ثارت لمجرد أنه ذكر موضوع الأطفال هذا بشكل عرضي. احتج قائلاً وهو يشعر بالغضب: "ليس هذا ما قصدته". وقد كانت هي أيضاً غاضبة: "سواء تعرف هذا أم لا، فإن ذلك هو ما قصدته".

اتكأ للخلف وبحث في جيبه عن مفتاح المنزل. فبعدما علمت أمه القيمة المادية الكبيرة لأعمال والده بدأت توصل الباب بالرغم من أن الصناديق كانت مغلقة في الاستوديو.

حسناً، هو كذلك لم يرغب في رؤية هذه الصور.

وحينما خرج بول أخيراً من السيارة وقف للحظة على الحاجز الحجري ينظر حوله. كان الجو حاراً وكان نسيم عال يتحرك خلال الأجزاء العلوية من الأشجار. فكانت أوراق شجر البلوط تصنع حفراً في الضوء وتلقى مجموعة من الظلال على الأرض. والغريب أيضاً أن الهواء بدا كأنه ملىء بالثلج، مادة بيضاء رمادية ريشية تنهمر من السماء الزرقاء فوق الأرض. مد بول يده داخل الهواء الساخن الرطب وهو يشعر كأنه يقف داخل إحدى صور والده حيث كانت توجد الأشجار داخل القلب وحيث يبدو العالم فجأة ليس كما يبدو. التقط كسرة في راحة يده، وحينما أغلق يده وفتحها ثانية وجد فتاتاً أسود بها. لقد كان الرماد يسقط كالثلج في حرارة شهر يوليو.

تركت قدماه آثاراً بالرصيف أثناء سيره لصعود الدرج. كان الباب الأمامي غير موصد ولكن المنزل كان شاغراً. "مرحباً؟" نادى بول وهو يسير عبر الغرف حيث كان الأثاث مجمعا في منتصفها ومغطى بشرائط والجدران عارية ومستعدة للطلاء. وقد انتقل للسكن في مكان آخر منذ سنوات ولكنه وجد نفسه يتوقف في غرفة المعيشة والتي تم تجريدتها من كل شيء يجعلها ذات معنى. فكم مرة قامت أمه بتغيير ديكور هذه الغرفة. ومع ذلك فقد كانت مجرد غرفة. "أمي؟" نادى ثانية ولكن لم يجب أحد. وفي الطابق العلوي وقف عند مدخل غرفته. كانت الصناديق مكدسة هنا أيضاً، ممتلئة بالأشياء القديمة التي عليه فرزها. إن أمه لم ترم أي شيء؛ حتى ملصقاته كانت ملفوفة بعناية ومربوطة بأشرطة مطاطية. وقد كانت هناك آثار مستطيلة خفيفة على الجدران حيث كانت هذه الملصقات معلقة.

نادى ثانية: "أمي؟". هبط إلى الطابق السفلى ومنه إلى الشرفة الخلفية.

كانت هناك، تجلس على الدرجات وترتدى بنطالاً قصيراً قديماً أزرق اللون وتى شيرت أبيض. توقف دون أن يتحدث محدقاً في هذا المشهد الغريب. نار مازالت تتأجج داخل دائرة من الأحجار ورماد وأجزاء محروقة من الورق مثل تلك التي سقطت فوقه بالفناء الأمامي كانت هنا أيضاً والتي كانت تستقر داخل الشجيرات وفي شعر أمه. كانت الأوراق متناثرة في كل أنحاء المرجة، محشورة عند قواعد الأشجار والأرجل المعدنية للأرجوحة القديمة. أدرك بول وهو يشعر بالصدمة أن أمه كانت تحرق صور والده. نظرت للأعلى بينما يغطي وجهها الرماد والدموع.

قالت بصوت رخيم: "لا بأس. لقد توقفت عن حرقها. لقد كنت غاضبة للغاية من أبيك يا بول، ولكن بعد ذلك خطر في ذهني أن ذلك هو إرثك كذلك. لقد قمت بحرق صندوق واحد فقط. لقد كان هو الصندوق الذي يضم صور كل هذه الفتيات، لذا فلا أعتقد أنه ذو قيمة مادية كبيرة".

سأل وهو يجلس إلى جوارها: "ما الذي تتحدثين عنه؟". أعطته صورة له، واحدة لم يسبق له رؤيتها. كان في الرابعة عشرة من عمره تقريباً ويجلس على أرجوحة الشرفة ويعزف على جيتاره بجدية غير آبه لأي شيء من حوله، سوى موسيقاه. وقد اندهش من اكتشافه تصوير والده للحظة مثل هذه - لقد كانت لحظة خاصة من تلك اللحظات التي كان فيها بول يشعر بأنه ليس في هذا العالم وأنه نابض بالحياة.

"حسناً. ولكني لست أفهم. لماذا أنت غاضبة بهذه الطريقة؟". وضعت والدتها يديها على وجهه برفق وتنهدت. "هل تذكر ما أخبرتك به عن ليلة مولدك يا بول؟ العاصفة الثلجية العنيفة وكيف أننا وصلنا إلى العيادة في الوقت المناسب؟".

"بالتأكيد". انتظر أن تواصل كلامها وهو لا يعرف ماذا يقول بالرغم من أنه أدرك بشكل غريزي أن الأمر له علاقة بأخته التوأم التي ماتت.

"هل تذكر الممرضة كارولين جيل؟ هل أخبرناك بشأنها؟". "نعم، ليس اسمها. لقد قلت إنه قد كان لها عينان زرقاوان".

"هذا صحيح. زرقاوان للغاية. لقد أتت إلى هنا أمس يا بول. كارولين جيل. أنا لم أرها منذ هذه الليلة. ولكنها قد صدمتني بالخبر الذي جاءت حاملة إياه. وأنا سوف أخبرك بما قالت له لي حيث إنني لا أعرف ماذا عساني أن أفعل غير ذلك".

أخذت يده. وكان قد تركها لها. لقد أخبرته بهدوء أن أخته لم تمت عند ولادتها. لقد ولدت مصابة بمتلازمة داون وقد طلب والده من كارولين جيل أخذها إلى مصحة في لويسفيل.

قالت أمه بصوت يشوبه الحزن: "كسي يحميننا من الحزن. هكذا قالت. ولكنها لم تستطع القيام بذلك. لقد أخذت أختك يا بول. أخذت فويب. طوال هذه السنوات وشقيقتك على قيد الحياة وبخير. وتعيش في بتسبرج".

قال بول: "أختي؟ في بتسبرج؟ لقد كنت في بتسبرج الأسبوع الماضي". لم تكن تلك هي الإجابة الملائمة ولكنه لم يجد شيئاً آخر يقوله؛ فقد كان يمتلئ بفراغ غريب، نوع من الانفصال المفاجئ. كانت له شقيقة: كانت تلك أخباراً كافية. كانت متأخرة ذهنياً وليست مثالية، لذا فقد تخلص والده منها. ولم يكن الغضب هو الشعور الذي ساوره بعد ذلك وإنما الخوف، فقد تولد بداخله بعض الخوف من الضغط الذي كان والده يمارسه عليه بصفته الابن الأوحده. وقد تولد كذلك من حاجة بول ليشق طريقه في الحياة كما يحلو له، حتى لو كان ذلك سيثير غضب والده ويجعله يرحل. هذا الخوف الذي ظل بول يحوله - مثل كيميائي بارع - إلى غضب وثورة.

قالت أمه: "وقد انتقلت كارولين جيل للعيش فى بتسبرج وبدأت حياة جديدة. لقد قامت بتربية أختك. وأعتقد أنها كافحت لأجل هذا، فقد كان هذا بمثابة الصراع وخاصة فى تلك الأيام. أنا أحاول أن أكون ممتنة لأنها أحسنت معاملتها، ولكن هناك جزءاً منى يشتعل غضباً".

أغلق بول عينيه للحظة محاولاً ربط كل هذه الأفكار معاً. بدا له العالم غريباً وغير مألوف. لقد ظل طوال هذه السنوات يحاول تخيل أخته، كيف كان سيكون شكلها، ولكنه الآن عجز عن استرجاع ولو صورة واحدة كان قد كونها عنها.

سأل أخيراً: "كيف أمكنه هذا؟ كيف أمكنه إبقاء أمر مثل هذا سرا؟".

قالت أمه: "لا أعلم. لقد ظللت أطرح على نفسى هذا السؤال لساعات. كيف أمكنه هذا؟ كيف جرؤ على أن يموت تاركاً لنا اكتشاف أمر مثل هذا وحدنا؟".

جلسا هناك فى صمت. تذكر بول أحد أوقات تظهير الصور مع والده فى اليوم التالى لتحطيمه الغرفة المظلمة حينما كان الشعور بالذنب يملؤهما هو ووالده، حينما كان الهواء مشحوناً بما قالاه وما لم يقولا. وقد أخبره والده، أن كلمة "كاميرا" أصلها فرنسى حيث كانت مشتقة من الكلمة *Chambre* التى تعنى حجرة. وقد كان والده يؤمن أن كل شخص هو بمثابة كون منعزل. أشجار داكنة فى القلب، حفنة من العظام: كان ذلك هو عالم والده وهو لم يجعله يشعر بالمرارة أكثر من هذه اللحظة.

قال وهو يفكر فى الطريقة التى طالما قاوم بها نظرة والده للعالم: "أنا مندهش لأنه لم يتخل عنى أنا أيضاً". لقد غادر المنزل وعزف على الجيتار، فكانت الموسيقى تخرج منه وتدخل العالم وكان الناس يستديرون ويضعون مشروباتهم وينصتون وتصبح الغرفة مليئة بأناس مترابطين. "أنا واثق من أنه كان يرغب فى هذا".

قطبت والدته: "بول! لا. لقد أراد تحقيق المزيد من أجلك بسبب كل هذا. توقع منك المزيد. وطالب نفسه بالكمال. هذا هو أحد الأشياء التى أصبحت واضحة لى. هذا هو الجزء الأبشع فى الواقع. فالآن بعد أن عرفت بأمر فويب استطعت فك طلاسم العديد من ألغاز والدك. ذلك الجدار الذى طالما شعرت به - لقد كان حقيقياً".

نهضت ودخلت المنزل وعادت وهى تحمل الصورتين. قالت: "ها هى. ها هى أختك فويب".

أخذهما بول وشرع يحدق فى واحدة تلو الأخرى: فتاة تبتسم ثم صورة لها وهى تقذف كرة سلة. كان لا يزال يحاول استيعاب ما قالت له أمه: تلك الغريبة ذات العينين لوزتى الشكل والساقين المتلفتين كانت أخته.

قالت نورا برفق وهى تجلس إلى جواره مرة أخرى: "إن لك نفس الشعر. إنها تحب الغناء يا بول: "أليس ذلك رائعاً؟". ضحكت مضيئة "وخمن ماذا - إنها تعشق كرة السلة".

كانت ضحكة بول حادة ومليئة بالألم.

قال: "حسناً. أعتقد أن أبى اختار الطفل الخطأ".

أخذت أمه الصورتين بيديها التى يغطيها الرماد.

"لا تكن قاسياً يا بول. إن فويب مصابة بمتلازمة داون. أنا لا

أعرف الكثير عن هذا المرض ولكن كارولين جيل كانت لديها الكثير لتقوله. الكثير مما جعلنى ألقى صعوبة فى استيعابه فى الحقيقة".

كان بول يمرر يده على الحافة الخرسانية للدرج ولكنه الآن

توقف وأخذ يشاهد الدم ينساب من إصبعه.

قال: "لا أكون قاسياً؟ لقد قمنا بزيارة قبرها؟" شرع فى تذكر

أمه وهى تسير عبر البوابة الحديدية المزركشة بينما تحمل الزهور بين ذراعيها وتطلب منه الانتظار فى السيارة. لقد

تذكرها وهي تربض فوق الأرض وتزرع بذور الصباح. "ماذا عن هذا؟"

"لا أعلم. لقد كانت أرض بنتلى. لذا لا بد أنه كان يعرف بالأمر كذلك. إن أباك لم يكن يريدني أن أذهب إلى هناك. وقد اضطررت لمقاومته بضراوة. في هذا الوقت كنت أظن أنه كان خائفاً من أن أصاب بانهيار عصبي. يا إلهي كم كان يثير جنوني ادعاؤه بأنه يعرف كل شيء."

شعر بول بالفزع من العنف في صوتها متذكراً حرارة هذا الصباح مع ميشيل. وضع حافة إبهامه في فمه ومص خيوط الدم الصغيرة وهو سعيد بالطعم النحاسي الحاد. جلسا في صمت لبرهة ينظران إلى الفناء الخلفي الذي كانت تنهمر فوقه أمطار الرماد وتتناثر به الصور والصناديق الرطبة.

سأل أخيراً: "ماذا يعني هذا؟ إنها متأخرة ذهنياً، أعنى بالنسبة للحياة العادية؟"

نظرت أمه إلى الصور مرة أخرى. "لا أعلم. قالت كارولين إنها بارعة، ولكني لا أعرف ماذا يعني هذا. إن لديها وظيفة وصديقاً حميماً. لقد ذهبت إلى المدرسة. ولكن من الواضح أنها لا تستطيع أن تعيش وحدها."

"هذه الممرضة - كارولين جيل - لماذا أتت إلى هنا الآن، بعد كل هذه السنوات؟ ماذا تريد؟"

قالت أمه برفق: "أرادت فقط أن تخبرني. هذا هو كل ما في الأمر. إنها لا تريد شيئاً. إنها تفتح باباً يا بول. أنا أومن بهذا. كانت دعوة. ولكن ما يحدث لاحقاً هو شيء راجع لنا."

سأل: "وما هو هذا الشيء؟ ماذا سنفعل الآن؟". "سوف أذهب إلى بتسبرج. أعلم أن على رؤيتها. ولكن بعد ذلك لا أعلم ماذا سيحدث. هل يجب أن آخذها معي وآتي بها إلى هنا؟ نحن سوف نكون غريبين لها. كما أن على التحدث إلى فريدريك؛ لا بد أن يعرف". وضعت وجهها بين يديها للحظة. "يا إلهي يا بول -

كيف يمكنني أن أسافر إلى فرنسا وأمكث هناك عامين وأتركها هي هنا؟ لا أعرف ماذا أفعل. إن الضغوط على كبيرة للغاية."

رفرفت الصور المبعثرة بالمرجة بفعل النسيم. جلس بول بهدوء وهو يصارع العديد من المشاعر المتضاربة: الغضب من والده، والدهشة، والحزن على ما فقده. القلق أيضاً؛ كان من الشنيع أن يفكر بهذه الطريقة، ولكن ماذا لو كان عليه العناية بهذه الأخت التي لا تستطيع أن تعيش بمفردها؟ كيف سيمكنه القيام بهذا؟ إنه لم يلتق من قبل قط بشخص متأخر ذهنياً، وقد اكتشف أن جميع الأفكار التي يمتلكها عن مثل هذا الشخص سلبية. لم يكن أي منها يتواءم والفتاة اللطيفة التي تبتسم في الصورة وكان ذلك مربكاً كذلك.

قال بول: "لا أعرف أيضاً. ربما يكون أول شيء علينا القيام به هو تنظيف هذه الفوضى."

قالت أمه: "إرثك".

قال ببطء وهو يدرس كلماته: "ليس إرثي فقط، ولكن إرث أختي كذلك".

أخذاً يعملان على مدار هذا اليوم واليوم التالي له، يصنفان الصور ويعيدان حزم الصناديق ويقومان بجرها إلى الأعماق الباردة للمرآب. وفي أثناء مقابلة أمه للأمناء اتصل بول بميشيل ليشرح لها ما حدث ويخبرها بعدم استطاعته المجيء إلى الحفل. وقد توقع منها أن تكون غاضبة ولكنها أنصتت دون تعليق ثم أغلقت الخط. وحينما حاول التحدث ثانية، أجابه جهاز الرد الآلي، وظل الوضع على هذه الحال طوال اليوم. وأكثر من مرة فكر في ركوب سيارته والعودة إلى منزله في سينسيناتي ولكنه كان يعلم أنه لا فائدة من هذا. وعلم كذلك أنه لا يود فعلاً أن يسلك هذا الطريق، حيث إنه طالما أحب ميشيل أكثر مما كانت تحبه. لذا فقد أرغم نفسه على البقاء. عاد إلى العمل في حزم المنزل، وفي المساء سار إلى وسط المدينة إلى المكتبة ليقرأ عن متلازمة داون.

وفى صباح يوم الثلاثاء استقل هو ووالدته السيارة بينما يتملكهما السكون والشروود والترقب. وقادا فوق النهر وعبرا أراضى أوهايو الخضراء. كان الجو شديد الحرارة وأوراق الذرة ترفرف داخل السماء الزرقاء الممتدة. وصلا إلى بتسبرج واقتحما زحمة السير التى سببها احتفال الرابع من يوليو بعيد الاستقلال، ودخلا النفق المؤدى إلى جسر يطل على منظر خلاب لمكان التقاء نهريْن. زحفا خلال زحمة السير فى وسط المدينة بطول نهر مونونجاليا مسافرين خلال نفق آخر طويل. وفى النهاية وصلا إلى منزل كارولين جيل الطوبى بذلك الشارع المزدهم والذى تصطف به الأشجار.

طلبت منهما إيقاف السيارة فى الزقاق وقد فعلا وخرجا من السيارة وتمددا. وخلف حزام من العشب كانت هناك درجات تقود إلى ساحة انتظار ضيقة ومنزل طوبى عال حيث نشأت أخته. حلق بول فى المنزل الذى كان يشبه كثيراً منزله فى سينسيناتى ويختلف كثيراً عن منزل طفولته الفخم والراقى. كانت السيارات تجرى بسرعة فى الشارع مارة بالأفنية الصغيرة ومتجهة إلى الشوارع المؤدية إلى المدينة الحارة والمزدحمة.

كانت الحدائق بالزقاق مليئة بالزهور، زهور الخطمي والسوسن مختلفه الألوان والتى كانت ألسنتها البيضاء والأرجوانية تشع حيوية وحياة داخل العشب. وفى هذه الحديقة كانت هناك امرأة تعتنى بمجموعة من ثمار الطماطم الخضراء. وكان سياج من شجيرات اللىك ينمو وراءها وترفرف الأوراق مصدرة نسيماً حرك الهواء الساخن دون تبريده. وقد جلست تلك المرأة التى كانت ترتدى بنطالاً قصيراً أزرق داكناً وتى شيرت أبيض فى المكان الذى كانت تربض به ومرتت ظهر يدها على جبهتها. كان صوت السيارات عالياً ولهذا لم تشعر بمجيئهما. قطعت ورقة من نبات الطماطم ووضعتها فوق أنفها.

سأل بول: "هل هذه هى؟ هل هذه هى المرضة؟".

أومات أمه. عقدت ذراعيها بإحكام على صدرها وكأنها تحمى نفسها. كانت نظارة الشمس تحجب عينيها ولكن بالرغم من هذا كان بإمكانه رؤية توترها وشحوبها. "نعم. هذه هى كارولين جيل يا بول، الآن وبعد أن أتينا إلى هنا، لست أثق أن بإمكانى القيام بهذا. ربما علينا فقط العودة للمنزل".

"لقد قدنا السيارة كل هذه المسافة، كما أنهم ينتظروننا". ابتسمت ابتسامة صغيرة متعبة. فقد نامت بالكاد طوال الأيام الماضية، وحتى شفتاها كانتا شاحبتين. قالت: "إنهم لا ينتظروننا. ليس فعلاً".

أوماً بول. انفتح الباب الخلفى ولكن الشخص الذى كان بالشرفة ظل مختبئاً فى الظلال. وقفت كارولين ونفضت يديها فى بنطالها.

نادت: "فويب. ها أنت".

شعر بول بأمه وهى تزداد توتراً إلى جواره ولكنه لم ينظر إليها. نظر بدلاً من ذلك إلى الشرفة. امتدت هذه اللحظة لوقت طويل بينما كانت أشعة الشمس متسلطة فوقهما. وفى النهاية خرج هذا الشخص - كانت تمسك بكوبين من الماء.

حلق بشدة. كانت قصيرة، أقصر كثيراً منه، وكان شعرها أدكن وأخف وقصيراً حول وجهها. كانت شاحبة مثل أمه، ومن هذه المسافة بدت ملامحها رقيقة فى وجه عريض، وجه بدا إلى حد ما مسطحاً، كما لو أنه ضغط كثيراً فى جدار. كانت عيناها مائلتين بعض الشيء وأطرافها قصيرة. لم تعد فتاة - كما كانت فى الصور - وإنما امرأة ناضجة فى مثل سنه يتخلل شعرها بعض الشعيرات البيضاء. فكانت تظهر فى لحيته كذلك بعض الشعيرات الرمادية حينما كان يتركها تنمو. كانت ترتدى بنطالاً قصيراً منقوشاً وكانت ممثلة الجسم بعض الشيء بحيث تحك ركبتيها ببعضهما البعض حينما تسير.

قالت أمه: "يا إلهي". وضعت يداً على قلبها. كانت النظارة تخفى عينيها. وكان سعيداً؛ فكانت هذه اللحظة شديدة الخصوصية.

قال: "لا بأس. دعينا فقط نقف هنا لبرهة".

كانت الشمس حارقة والشارع مزدحماً بالسيارات. جلست كارولين وفويب على الدرجات بجوار بعضهما البعض يشربان الماء.

قالت أمه أخيراً: "أنا مستعدة". وهبطا معاً الدرج إلى المرجة الصغيرة بين الخضراوات والزهور. رأتها كارولين جيل أولاً، غطت عينيها لتستطيع الرؤية عبر ضوء الشمس ونهضت. نهضت فويب أيضاً وطوال بضع ثوان ظلوا ينظرون إلى بعضهم البعض عبر المرجة. بعد ذلك أخذت كارولين يد فويب في يديها. تقابلوا عند ثمار الطماطم والتي كانت قد بدأت تنضج بالفعل معبقة الهواء برائحة نظيفة ونفاذة. لم يتحدث أحد. كانت فويب تحرق في بول وبعد لحظة طويلة عبرت المسافة الفاصلة بينهما ولمست وجنته برفق كما لو أنها تتأكد أنه حقيقي. أوما بول دون أن يتحدث وهو ينظر إليها بجدية، فقد بدت لمستها تلك صحيحة له بشكل ما. لقد أرادت فويب أن تعرفه، كان هذا هو كل ما في الأمر. وقد أراد أن يعرفها أيضاً ولكنه لم يكن لديه أدنى فكرة عما ينبغي أن يقوله لهذا الأخت المفاجئة، تلك التي تربطه بها علاقة حميمية للغاية وبالرغم من ذلك كانت غريبة عنه. كان كذلك شديد الإدراك لذاته وخائفاً من أن ينتهج التصرف الخاطئ. كيف يمكن التحدث إلى شخص متأخر ذهنياً؟ كل هذه المعلومات التي قرأها في عطلة نهاية الأسبوع، كل هذه المعلومات الإكلينيكية - لم تجعله مستعداً لهذا الكائن الحي الحقيقي الواقف أمامه والذي لمس وجنته برفق.

كانت فويب هي التي استطاعت التحدث أولاً.

قالت وهي تمد يدها إليه في شكل رسمي: "مرحباً". أخذ بول يدها مستشعراً كم كانت أصابعها صغيرة وهو لا يزال عاجزاً عن التفوه بكلمة واحدة. "أنا فويب. أنا سعيدة بلقائك". كانت كلماتها ثقيلة ومن الصعب فهمها. وبعد ذلك استدارت إلى أمه وقامت بنفس الشيء.

قالت أمه وهي تأخذ يدها وتضغط عليها بشدة: "مرحباً". كان صوتها مشحوناً بالعاطفة: "مرحباً يا فويب. أنا سعيدة للغاية لرؤيتك".

قالت كارولين: "إن الجو حار للغاية. لماذا لا تأتيا إلى الداخل؟ إن لدى مراوح بالمنزل. وقد أعدت فويب الشاي المثجج هذا الصباح. لقد كانت سعيدة لمجيئكما، أليس كذلك يا حبيبتي؟"

أومأت فويب وابتسمت في خجل. تبعها داخل المنزل البارد. كانت الغرف صغيرة ولكن نظيفة وتزينها أعمال خشبية جميلة وتفصل الأبواب الفرنسية بين غرفة المعيشة وغرفة الطعام. كانت غرفة المعيشة مليئة بأشعة الشمس والأثاث الرث أرجواني اللون. وكان هناك نول كبير يرقد بالركن البعيد. قالت فويب: "أنا أصنع وشاحاً".

قالت أمه: "إنه جميل" وعبرت الغرفة ولمست خيوط الغزل الوردية والكرمية والصفراء والخضراء. خلعت نظارتها ونظرت للأعلى بينما اغرورقت عيناها بالدموع ويشوب صوتها العاطفة. "هل اخترت هذه الألوان بنفسك يا فويب؟"

قالت فويب: "إنها ألواني المفضلة".

قالت أمه: "إنها ألواني المفضلة كذلك. حينما كنت في سنك كانت تلك هي ألواني المفضلة كذلك. وقد ارتدت وصيفاتي أثواباً وردية وكرمية اللون وأمسكن بزهور صفراء".

تفاجأ بول حينما علم هذا، فجميع الصور التي رآها كانت أبيض وأسود.

قالت فويب وهي تجلس عند النول: "يمكنك أن تأخذى هذا الوشاح. سوف أصنعه من أجلك".
قالت أمه وهي تغلق عينيها لفترة وجيزة: "يا إلهى، فويب، هذا لطيف حقاً".

أحضرت كارولين الشاي المثلج، وجلسوا هم الأربعة فى توتر فى غرفة المعيشة يتحدثون فى ارتباك عن الطقس وعن نهضة بتسبرج فى أعقاب انهيار صناعة الصلب. كانت فويب تجلس فى هدوء عند النول تحرك الوشاعة للأمام والخلف وترفع وجهها من حين لآخر حينما تسمع اسمها. ظل بول يختلس النظر إليها. كانت يدا فويب صغيرتين وممتلئتين. كانت تركز على الوشاعة وهي تعض على شفتها السفلية. فى النهاية انتهت أمه من شرابها وتحدثت..

قالت: "حسناً. ها نحن هنا. وأنا لا أعلم ما الذى من المفترض أن يحدث الآن".

قالت كارولين: "فويب. لماذا لا تنضمين إلينا؟". وفى هدوء أتت فويب وجلست على الأريكة إلى جوار كارولين.

بدأت أمه التحدث بسرعة وهي تشابك يديها فى توتر. "أنا لا أعلم ما المفترض فعله والذى سيكون فى صالح الجميع. فليس هناك خرائط لهذا المكان الذى نوجد فيه، أليس كذلك؟ ولكننى أود عرض منزلى على فويب. بإمكانها أن تأتى وتعيش معنا إن كانت تريد هذا. لقد فكرت فى هذا الأمر كثيراً طوال الأيام الماضية. إن أمراً مثل هذا يتطلب حياة كاملة للاعتياد عليه". توقفت عن الكلام لالتقاط أنفاسها ثم استدارت إلى فويب التى كانت تنظر إليها بعينين واسعتين وحذرتين. "أنت ابنتى يا فويب، هل تفهمين ذلك؟ وهذا هو أخوك بول".

أمسكت فويب بيد كارولين وقالت: "هذه هى أمى".
"نعم". نظرت نورا إلى كارولين ثم حاولت مرة أخرى. "لقد حملتك داخل جسمى يا فويب". وضعت يدها على معدتها. "لقد

حملتك هنا. ولكننى أنجبتك بعد ذلك وقامت أمك كارولين بتربيتك".

قالت فويب: "أنا سوف أتزوج من روبرت. أنا لا أريد أن أعيش معك".

وقد شعر بول الذى ظل يراقب معاناة أمه طوال عطلة نهاية الأسبوع بكلمات فويب فى جسده وكأنها ركلته وقد رأى أمه تشعر بها كذلك.

قالت كارولين: "لا بأس يا فويب. لن يرغمك أحد على شيء".

"أنا لم أقصد — أنا فقط أردت عرض —" سكتت أمه وأخذت نفساً عميقاً. كانت عيناها خضراوين وعميقتين ومتعبتين. حاولت مرة أخرى. "فويب، أنا وبول نود التعرف عليك. هذا هو كل ما فى الأمر. لا تخافى منا، حسناً؟ إن ما أريد أن أقوله — إن ما أقصده — هو أن منزلى مفتوح لك. دائماً. فيمكنك أن تأتى معى إلى أى مكان أذهب إليه. وأتمنى أن تقومى بهذا. أتمنى أن تأتى وتزورينى فى يوم ما، هذا هو ما أريده. ما رأيك فى هذا؟".

قالت فويب: "ربما".

قالت كارولين: "فويب، لماذا لا تأخذين بول ليشاهد المكان؟ امنحينا أنا والسيدة هنرى الفرصة لنتحدث قليلاً. ولا تقلقى يا حبيبتى". وضعت يدها على ذراع فويب. "لن يذهب أحد إلى أى مكان. إن كل شيء على ما يرام".

أومات فويب ونهضت.

سألت بول: "أتريد رؤية غرفتى؟ لقد اشتريت جهاز تسجيل جديداً".

نظر بول إلى أمه والتى أومات وهي تشاهد كليهما يعبران الغرفة معاً. تبع بول فويب على الدرج.

سأل: "من هو روبرت؟".

"إنه صديقى الحميم. إننا سوف نتزوج. هل أنت متزوج؟".

قالت: "أنا أحب آلة المترددة" متظاهرة بأنها تجذب ذراع الآلة وحينما ضحك بول ضحكت هي أيضاً. تنهدت قائلة: "أنا حقاً أحب المترددة".

قال: "أنا أعزف على الجيتار. هل كنت تعلمين هذا؟".
أومات: "لقد أخبرتنى أمى بهذا. مثل جون لينون؟".
ابتسم. قال وهو مندهش لأنه وجد نفسه منخرطاً فى حوار معها: "قليلاً". وقد اعتاد على طريقة كلامها، وكلما تحدث إلى فويب وجد أنها تتصرف على سجيتهما للغاية ومن المستحيل تصنيفها. "هل سمعت من قبل عن أندريه سيجوفيا؟".
"نعم".

"إنه بارع حقاً. إنه موسيقارى المفضل. فى أحد الأيام سوف أعزف لك موسيقاه، حسناً؟".
"أنا أحبك يا بول، أنت لطيف".
وجد نفسه يبتسم وهو يشعر بالإطراء. قال: "شكراً لك. أنا أحبك أيضاً".

"ولكننى لا أريد أن أعيش معك".
قال: "لا بأس. أنا لا أعيش مع أمى أيضاً. أنا أعيش فى سينسيناتى".
أشرق وجه فويب: "بمفردك؟".
قال وهو يعلم أنه سيعود ليجد أن ميشيل قد رحلت: "نعم. بمفردى".
"إنك محظوظ".

قال بجدية مدركاً فجأة أنها محقة: "أعتقد هذا".
فالأمر الذى كان يعتبرها أشياء مسلماً بها فى حياته كانت هى أحلام فويب: "أنا محظوظ، نعم. هذا صحيح".
قالت مفاجئة إياه: "أنا محظوظة كذلك. فروبرت لديه وظيفة جيدة وأنا كذلك".
سأل بول: "ما هى وظيفتك؟".

هز بول - الذى تألم حينما تذكر ميشيل - رأسه. "لا".
"هل لديك صديقة؟".

"كان لى صديقة ولكنها رحلت عنى".
توقفت فويب على الدرجة واستدارت. كانا يواجهان بعضهما البعض على مقربة شديدة مما جعل بول يشعر بعدم الراحة فقد تم اختراق حيزه الشخصى. أشاح بوجهه ثم نظر ثانية ليجدها مازالت تنظر إليه مباشرة.
قال: "حسناً، ليس من الأدب أن تحدقنى فى الآخرين يا فويب".

"حسناً، إنك تبدو حزيناً".
قال: "أنا حزين. فى الواقع أنا حزين للغاية".
أومات وللحظة بدت أنها انضمت إليه فى حزنه، حيث تجهم وجهها قليلاً ثم بعد ذلك أشرق مرة أخرى.
قالت وهى تقوده بالردهة: "تعال، إن لدى بعض الاسطوانات الجديدة كذلك".

جلسا على الأرض بغرفتها. كانت الجدران وردية والستائر ذات نقش وردى وأبيض على النوافذ. لقد كانت حجرة فتاة صغيرة، مليئة بالحيوانات المحشوة، وصور براقية على الجدران. فكر بول فى روبرت وتساءل إن كان صحيحاً أن فويب سوف تتزوج. ثم شعر بالسوء لأنه يفكر بهذه الطريقة؛ لماذا لا ينبغى عليها الزواج أو فعل ما يحلو لها؟ فكر فى غرفة النوم الإضافية بمنزل والديه حيث كانت تقيم جدته عرضياً حينما كان طفلاً. كانت تلك لتصبح غرفة فويب؛ والتى كانت ستملؤها بالموسيقى وبأشائها. وضعت فويب الاسطوانة بالمسجل ورفعت الصوت وبدأت تغنى مع أغنية "أحبنى، أحبنى يا بول" وهى تغلق عينيها نصف إغلاق. لاحظ بول أن لها صوتاً جميلاً وقام بخفض الصوت قليلاً مستعرضاً باقى الاسطوانات. كان لديها الكثير من الموسيقى الشعبية ولكن كانت تملك سيمفونيات كذلك.

قالت والفخر يملؤها: "أنا أنسخ الورق. الكثير من الورق".
 "وهل تحبين هذا العمل؟".

ابتسمت: "إن ماكس يعمل هناك. إنها صديقتي. إن لدينا
 ثلاثة وعشرين لوناً مختلفاً من الورق".

دندنت قليلاً في سعادة ثم وضعت الاسطوانة الأولى جانباً
 واختارت أخرى. لم تكن حركات يديها سريعة ولكنها كانت
 عالية الكفاءة ومركزة. كان بإمكان بول تخيلها في متجر
 التصوير تقوم بعملها وتمزج مع صديقتها بينما تتوقف من حين
 لآخر كي تستمتع بألوان الورق أو العمل المنتهى. وبالطابق
 السفلى سمع حفيف الأصوات حيث كانت كارولين جيل وأمه
 يتحدثان عما يجب فعله. وقد أدرك والخزى يمتلكه أن شفقتة
 على فويب وافتراض أمه بأنها مخلوقة تعتمد على الآخرين في
 كل شيء كان غيباً ولا حاجة له. إن فويب كانت تحب نفسها
 وتحب عالمها، لقد كانت سعيدة. كل الصراعات التي خاضها، كل
 المنافسات والجوائز، الصراع الطويل والعقيم كي يسعد نفسه
 ويبهز والده - كل ذلك بدا غيباً أيضاً عند مقارنته بحياة فويب.
 سأل: "أين والدك؟".

"في العمل. إنه يقود أتوبيساً. هل تحب أغنية الغواصات
 الصفراء؟".

"نعم".

ابتسمت فويب ابتسامة عريضة وشغلت الاسطوانة".

١ سبتمبر ١٩٨٩

ارتفعت النغمات الموسيقية من دار العبادة تتخلل الهواء
 الساكن. وقد بدت الموسيقى شبه مرئية لبول الذي كان يقف
 خارج الأبواب الحمراء البراقة مباشرة، فقد بدت له وكأنها
 تتحرك بين أوراق شجر الحور ومبعثرة على المرجة مثل هباءات
 الضوء. كانت عازفة الأرغن إحدى صديقاته، امرأة من بيرو تدعى
 أليجانديرا والتي كانت تعقف شعرها بإحكام في ذيل فرس طويل
 والتي كانت - في الأيام الكثيبة بعد رحيل ميشيل - تظهر عند
 عتبة بابه وهي تحمل الحساء والشاي المثلج والتشجيعات. كانت
 تقول له: "استيقظ" بينما تفتح الستائر والنوافذ وتضع الأطباق
 القذرة في الحوض. "انهض. ليس هناك جدوى من النحيب
 وخاصة على عازفة فلوت. إنهم دائماً ما يهربون، ألم تكن تعلم
 هذا؟ أنا مندهشة لأنها مكثت هنا طوال تلك المدة التي
 مكثتها. عامان، إن هذا بالفعل رقم قياسى".

الآن انهمرت نغمات أليجاندر في المكان مثل ماء فضى يتبعه فقرة تصعيدية تتسلق وتتعلق للحظة بأشعة الشمس. ظهرت أمه عند الباب وهي تضحك بينما تضع ذراعها بخفة على ذراع فريدريك. سارا معاً في أشعة الشمس، في المطر البراق للزهور والبذور.

قالت فويب الواقفة إلى جواره: "إنها جميلة".

كانت ترتدى ثوباً أخضر فضياً وتمسك بنبات النرجس البري الذي أمسكته في الزفاف في يدها اليمنى. كانت تبتسم وتضيق عيناها في سعادة بينما تخترق وجنتيها غمازتان عميقتان. كانت البذور والزهور تتقوس داخل السماء الصافية؛ وقد ضحكت فويب في سعادة أثناء سقوطها على الأرض مرة أخرى. نظر إليها بول بإمعان: هذه الغريبة، توأمته. كانا قد سارا معاً في ممر دار العبادة الصغيرة هذه إلى حيث كانت أمه تنتظر فريدريك. وهو قد سار ببطء بينما تسير فويب بشكل جدي إلى جواره وهي تبدو عاقدة العزم على فعل كل شيء على النحو السليم وتعتقد يدها حول مرفقه. كانت طيور السنونو ترفرف بالروافد الخشبية أثناء تبادل النذور؛ ولكن أمه أصرت على عقد زواجها في هذه الدار منذ البداية تماماً كما أصرت أثناء كل هذه المناقشات الغريبة وغير المتوقعة والمليئة بالدموع حول فويب ومستقبلها أن يقف كلا طفليها إلى جوارها بالزفاف.

هطل نوع آخر من المطر في هذه المرة، نثار، وعلت موجة أخرى من الضحك. أحنت أمه وفريدريك رأسيهما ونفضت برى قصاصات الورق من فوق كتفيهما وشعرهما. كان النثار البراق متناثراً في كل مكان جاعلاً المرجة تبدو مثل التريسة.

قال لفويب: "أنت محقة. إنها جميلة".

أومأت وهي تفكر ووضعت يديها على تنورتها.

"إن أمك ستذهب إلى فرنسا".

قال بول بعدما توتر من اختيارها للكلمات: أمك "نعم". إنها عبارة تستخدمها مع الغرباء، وهما بالطبع كانا كذلك بالنسبة لها. وهذا هو أكثر ما آلم أمه كثيراً، السنوات الضائعة التي تقف بينهما، كلماتهم الرسمية والجديّة والتي كان ينبغي أن يحل محلها الحب والراحة. قال مذكراً فويب بالخطط التي استقروا عليها أخيراً: "وأنا وأنت كذلك في غضون شهرين. سوف نذهب إلى فرنسا لرؤيتهما".

علا تعبير ينم عن القلق وجه فويب والذي اختفى سريعاً كالسحابة.

قال برفق: "إننا سنعود" متذكراً زعر فويب من اقتراح والدته باصطحابها معها إلى فرنسا.

أومأت ولكنها كانت لا تزال تبدو قلقة.

سأل: "ما الأمر؟".

"تناول القواقع".

نظر إليها بول في دهشة. لقد كان يمزح مع أمه وبري في الردهة قبل الزفاف بشأن الوليمة التي سيعدونها في شاتونوف. وقد كانت فويب تقف في سكون دون أن تشارك في الحوار؛ وهو لم يعتقد أنها كانت تنصت. لقد كان ذلك لغزاً أيضاً، وجود فويب في العالم، ما كانت تراه وتشعر به وتفهمه. فكل ما يعلمه عنها حقاً يمكن كتابته في بطاقة صغيرة: إنها تحب القطط وتغزل وتنصت إلى الراديو وتغنى في دار العبادة. إنها تبتسم كثيراً وتحب احتضان الآخرين وكانت مثله مصابة بحساسية ضد لدغات النحل.

قال: "إن القواقع ليست سيئة. فنحن نقوم بمضغها. مثل العلكة".

صنعت فويب بوجهها شكلاً مضحكاً وضحكت. قالت: "هذا مقرف يا بول". تحرك النسيم بخفة في شعرها وكانت لا تزال تحقق في المشهد أمامها: الضيوف المتحركون، أشعة الشمس،

أوراق الشجر، كل ذلك كان مغزولاً خلال الموسيقى. كان النمش يغطي وجنتيها مثله تماماً. وعبر المرجة رفعت أمه وفريدريك سكيناً فنياً لتقطيع الكعكة.

قالت فويب: "أنا وروبرت سوف نتزوج أيضاً".

ابتسم بول. لقد قابل روبرت في زيارته الأولى تلك إلى بتسبرج؛ فإنهم قد ذهبوا إلى متجر البقالة للقائه، وقد كان طويلاً ويقظاً، ويرتدي زياً بنياً وشارة مطبوعاً عليها اسمه. وحينما قدمتهم فويب لبعضهما البعض في حجل أخذ روبرت على الفور يد بول وربت على كتفه وكأنهما التقيا بعد فترة غياب طويلة. "كم من الرائع أن ألتقيك يا بول. أنا وفويب سوف نتزوج، لذا فسرعان ما سأصبح أنا وأنت أخوين، ما رأيك بهذا؟". وبعد ذلك ودون أن ينتظر رداً استدار في ثقة وبهجة وهو واثق أن العالم هو مكان مثالي وأن بول يشاركه فرحته ونظر إلى فويب ووضع ذراعه حولها. وقف الاثنان هناك يبتسمان.

"إنه أمر مؤسف حقاً أن روبرت لم يستطع المجيء".

أومات فويب وقالت: "إن روبرت يحب الحفلات".

قال بول: "إن ذلك لا يدهشني".

شاهد بول أمه تضع قطعة من الكعك في داخل فم فريدريك بينما تلمس حافة شفته بإبهامها. كانت ترتدي ثوباً كريماً اللون وكان شعرها قصيراً، أشقر ضارباً إلى الرمادية، يجعل عينيها تبدوان أوسع. فكر في أبيه وتساءل كيف بدا زفافهما. رأى الصور بالطبع ولكن كان ذلك فقط السطح. لقد أراد معرفة كيف بدا الضوء، كيف بدت الضحكات، أراد أن يعلم إن كان أبوه قد اتكأ مثل فريدريك الآن لتقبيل أمه بعد أن لعقت خطأ من الكريمة من فوق شفتيها.

قالت فويب: "أنا أحب الزهور الوردية. أنا أريد الكثير والكثير من الزهور الوردية في زفافي". أصبحت جادة الآن وقطبت وهزت كتفيها، بينما ينزل ثوبها الأخضر قليلاً فوق

عظمة الترقوة خاصتها. هزت رأسها. "ولكن يجب على أنا وروبرت أن نوفر مالا أولاً".

تحرك النسيم وفكر بول في كارولين جيل، طويلة وقوية تقف في ردهة الفندق في وسط مدينة ليكسنجتون برفقة زوجها آل وفويب. لقد تقابلوا جميعاً هناك أمس، على أرض محايدة. كان منزل أمه شاغراً بينما تعلو لافتة "للبيع" فناءً. والليلاً سوف ترحل هي وفريدريك إلى فرنسا. وقد جاءت كارولين وآ من بتسبرج وبعد تناولهما طعام الإفطار معاً تركا فويب هذا لحضور الزفاف بينما توجهتا لقضاء الإجازة في ناشفيل. وقد قالا إنها إجازتهما الأولى معاً، وقد كانت سعيدين بشأنها. ومع ذلك فقد احتضنت كارولين فويب مرتين ثم توقفت على الرصيف لتنظر عبر النافذة وتلوح.

سأل بول: "هل تحبين بتسبرج؟". كان قد تلقى عرضاً للعمل هناك، وظيفة جيدة مع أوركسترا؛ وقد تلقى عرضاً آخر بالعمل مع أوركسترا في سانتا في كذلك.

قالت فويب: "أنا أحب بتسبرج. تقول أمي إن بها الكثير من السلام ولكني أحبها".

قال بول: "قد أنتقل لأعيش هناك. ما رأيك".

قالت فويب: "سيكون هذا لطيفاً. يمكنك أن تأتي إلى زفافي". بعد ذلك تنهدت. "إن حفل الزفاف يحتاج إلى الكثير من النقود. هذا ليس عدلاً".

أوما بول. نعم، لم يكن هذا عدلاً. ليست التحديات التي واجهتها فويب في العالم هي التي كانت تزعجها، ليست طريقة حياتها، وليس ما فعله بها والدهما. وفجأة شعر أنه يريد أن يمنح فويب الزفاف الذي تريده، أو على الأقل كعكة. ستكون تلك لفظة صغيرة بين كل شيء آخر حدث لها.

اقترح قائلاً: "يمكنك الهرب معه".

قالت فويب وهي تمد يدها لتأخذ طبقاً من الكعك: "أنا أحب حفلات الزفاف".

ابتسمت أمه بحزن. راقب بول فويب وهو يتساءل عن الطريقة التي تستوعب بها ما يحدث من حولها. بدا أنها لا تكثر كثيراً لما يحدث بل تقبل العالم كمكان رائع وغير عادي حيث يمكن لأي شيء أن يحدث. مكان قد يظهر به في أحد الأيام أم وأخ لم يسبق لها رؤيتهما عند الباب ويقومان بدعوتها لحفل زفاف.

قالت أمه: "أنا سعيدة لأنك ستأتي لزيارتنا في فرنسا يا فويب. أنا وفريدريك سعيدان لهذا بشدة".

نظرت فويب للأعلى وهي تشعر بالتملل مرة أخرى.

قال بول: "إنها القواقع. إنها لا تحب القواقع".

ضحكت أمه. "لا تقلقي. أنا لا أحبها أيضاً".

أضافت فويب: "كما أنني سأعود للمنزل".

قالت أمه برفق: "هذا صحيح. نعم. هذا هو ما اتفقنا عليه".

ظل بول يراقب ما يحدث وهو يشعر بقلّة الحيلة إزاء الألم الذي استقر داخل جسده مثل الحجر. وفي ظل هذا الضوء الساطع أدهشه تقدم أمه في السن، رقة قوام جلدها، شعرها الذهبي الذي تتخلله شعيرات رمادية. ولكن أدهشه جمالها كذلك. فقد بدت جميلة وضعيفة، وقد تساءل كما ظل يتساءل كثيراً طوال هذه الأسابيع الماضية كيف استطاع والده خيانتها بهذه الطريقة، كيف استطاع خيانتهم جميعاً.

سأل برفق: "كيف؟ كيف لم يخبرنا قط؟".

استدارت إليه في جدية: "لا أعرف. أنا لن أفهم هذا قط.

ولكن فكر في الحياة التي عاشها يا بول وهو يحمل معه هذا السر طوال هذه السنوات".

نظر عبر الطاولة. كانت فويب تقف إلى جوار شجرة الحور -

والتي بدأ لون أوراقها يتغير - تقطع كعكتها بالشوكة.

فكرت فويب في هذا وهي تدير سواراً أخضر بلاستيكيّاً حول معصمها. قالت: "لا. لن نعد كعكة".

"لا أعلم حقاً. ألن تجلبين واحدة؟ أعني لماذا لا؟".

قطبت فويب بشدة لترى إن كان يسخر منها. قالت بحزم:

"لا. لا يكون الزفاف زفافاً بدون كعكة يا بول".

ابتسم بعدما تأثر بثقتها في الطريقة التي تسير بها الأمور في العالم.

"أتعلمين شيئاً يا فويب؟ أنت محقة".

علا صوت الضحك والتصفيق عبر المرجة المشمسة حينما انتهت أمه وفريدريك من تقطيع الكعكة. رفعت برى وهي تبتسم الكاميرا لتأخذ صورة أخيراً. أوماً بول للطاولة حيث كان يتم ملء الأطباق الصغيرة وتمرر من يد إلى يد. "إن كعكة الزفاف مكونة من ست طبقات. وتحتوي على توت العليق والكرامة المخفوقة في المنتصف. ما رأيك يا فويب؟ هل تريدين قطعة؟".

ابتسمت فويب بشكل أعمق وأومات.

قالت بينما يسيران عبر المرجة خلال الأصوات والضحك والموسيقى: "كعكتي ستكون ثمانى طبقات".

ضحك بول: "ثمانى فقط؟ لماذا ليست عشراً؟".

قالت فويب: "سخيف. أنت سخيف يا بول".

وصلا إلى الطاولة. كان النثار اللامع متناثراً فوق كتفى والدته. كانت تبتسم وتعبر عن عواطفها برقة ولمست شعر فويب وأعادته للخلف كما لو أنها لا تزال طفلة صغيرة. عادت فويب للخلف وانقبض قلب بول؛ حيث إنه بالنسبة لهذه القصة لا يمكن أن تكون هناك نهايات بسيطة. فسوف تكون هناك زيارات عبر الأطلسى ومكالمات هاتفية ولكن ليس حياة يومية عادية وطبيعية. قالت أمه: "لقد أبليت بلاءً حسناً. أنا سعيدة للغاية لأنك أتيت إلى الزفاف يا فويب، أنت وبول. كان ذلك يعنى الكثير لي. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى سعادتي بوجودك".

"كان يمكن لحياتنا أن تكون مختلفة".
 "نعم، هذا صحيح. ولكنها لم تكن مختلفة يا بول. كان من المقدر لها أن تسير بهذه الطريقة".
 قال ببطء: "أنت تدافعين عنه".
 "لا. أنا فقط أسامحه. أنا أحاول ذلك. هناك فارق".

قال بول وهو مندهش من قسوته: "إنه لا يستحق المسامحة".
 قالت أمه: "ربما لا. ولكن أنت وأنا وفويب نملك الاختيار. أن نكون قاسين وغاضبين، أو أن نحاول ونمضي قدماً. إنه لأمر شديد الصعوبة بالنسبة لي أن أتنازل عن حقى فى الغضب بشأن هذا الأمر. أنا مازلت أصارع مشاعرى. ولكن هذا ما أود فعله".

شرع يفكر فى كلامها. قال: "لقد تلقيت عرض عمل فى بتسبرج".
 "حقاً؟". أصبحت عينا أمه جادتين الآن واللذان كانا تبدوان خضراوين داكنتين فى هذا الضوء. "هل ستقبلها؟".
 قال وهو يدرك أنه قد توصل إلى قرار: "أعتقد هذا. إنها وظيفة جيدة للغاية".

قالت برفق: "ليس بإمكانك إصلاح ما حدث يا بول. ليس بإمكانك إصلاح الماضى".

قال: "أعلم"، وكان صادقاً فى كلامه. لقد ذهب إلى بتسبرج فى هذه المرة الأولى وهو يؤمن أنه يملك الحرية فى عرض المساعدة أو لا. لقد كان قلقاً بشأن المسؤولية التى سيحملها على عاتقه، كيف أن عبء أخت متأخرة ذهنياً سوف يغير حياته، وقد اندهش فى الحقيقة حينما وجد نفس هذه الأخت تقول: "لا، أنا أحب حياتى كما هى، لا شكراً لك".

واصلت حديثها الآن: "إن حياتك ملكك أنت وحدك. أنت لست مسئولاً عما حدث. إن فويب بخير من الناحية المادية".

أوما بول: "لا أعلم. أنا لا أشعر بأننى مسئول عنها. كل ما فى الأمر أننى ظننت أنى أريد التعرف عليها. يوماً وراء يوم. أعنى أنها أختى. إنها وظيفة جيدة وأنا حقاً بحاجة لتغيير. إن بتسبرج هى مدينة جميلة. لذا - لم لا؟".

تنهدت أمه وهى تمرر يدها خلال شعره القصير: "يا إلهى يا بول. هل هى حقاً وظيفة جيدة؟".
 "نعم. نعم".

أومات. ثم اعترفت ببطء: "سيكون من الرائع أن يكون كلاكما فى نفس المكان. ولكن عليك التفكير فى الصورة الكبرى. أنت مازلت صغيراً وفى بداية الطريق عليك أن تكون واثقاً من أن ما ستقوم به سيكون فى صالحك".

وقبل أن يستطيع الإجابة جاء فريدريك وطرق فوق ساعته قائلاً إن عليهما الرحيل للحاق برحلتهم. وبعد دقيقة من التماور ذهب فريدريك إلى السيارة واستدارت أمه لبول ووضعت يدها على ذراعه وقبلت وجنته.

"لا بد أن نذهب الآن كما أعتقد. هل ستصطحب فويب إلى المنزل؟".

"نعم. لقد قالت لي كارولين وآل إنه بإمكانى الإقامة فى منزلهم".

أومات. قالت برفق: "شكراً لك. شكراً على حضورك. أعرف أن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة لك للعديد من الأسباب. ولكن وجودك يعنى الكثير لى".

قال: "أنا أحب فريدريك وأتمنى لكما السعادة".

ابتسمت ولمست ذراعه: "أنا فخورة للغاية بك يا بول. هل تعلم كم أنا فخورة بك؟ هل تعلم كم أحبك؟". استدارت لتنظر عبر الطاولة إلى فويب، والتى كانت قد وضعت باقة زهور النرجس البرى أسفل ذراعها وكان النسيم يحرك تنورتها البراقة. "أنا فخورة بكليكما".

كانت حزينة، على الرغم من أنه كان يحمله معه لاحقاً في كل مكان يذهب إليه.

الآن ذهب كل ذلك لحاله، هذا الحزن: تلك الحياة انتهت وولت كذلك.

قاد بسرعة وسط معالم فصل الخريف. كانت أوراق شجر القرانيا قد تغير لونها بالفعل، وتظهر سحب حمراء براقاً فوق التلال. دغدغت حبوب اللقاح عيني بول وعطس عدة مرات ولكنه لم يغلق النوافذ. كانت أمه لتترك التكييف دائراً لتصبح السيارة باردة مثل متاجر الزهور. وكان أبوه ليفتح حقيبتة ويبحث عن مضاد الهيستامين. وقد أخذت فويب الجالسة إلى جواره بينما يبدو جلدها أبيض للغاية - شبه شفاف - منديلاً ورقياً من عبوة صغيرة كانت توجد بحقيبتتها السوداء الكبيرة وقدمته له. وكانت العروق الزرقاء الشاحبة تجرى أسفل سطح جلدها. وكان باستطاعته رؤية النبض يتحرك في رقبتها، هادئاً ومنظماً.

أخته. توأمه. ماذا إن كانت قد ولدت غير مصابة بمتلازمة داون؟ أو ماذا لو أنها قد ولدت كما هي ولم يعطها والده لكارولين جيل بينما تهطل الثلوج بالخارج وتعمو سيارة زميله بالمصرف؟ تخيل والديه شابين وسعيدين يضعونهما في السيارة ويقودان ببطة عبر شوارع ليكسنجتون التي يبللها الماء بعدما ذاب الثلج في شهر مارس في الوقت التالي لولادتهما. وكانت لتصبح غرفة اللعب المشمسة الملحقة بغرفته هي الغرفة الخاصة بفويب. وقد كانت هي لتلاحقه فوق الدرجات وخلال المطبخ وداخل الحديقة بينما يصاحبه وجهها دائماً وتكون ضحكاتها صدى لضحكاته. كيف كان ذلك ليؤثر على الشخص الذي سيكونه؟

ولكن أمه كانت محقة؛ ليس في إمكانه قط أن يعرف ما كان يمكن أن يحدث. فكل ما لديه هي الحقائق. قام أبوه بتوليد توأمه في عاصفة ثلجية غير متوقعة متبعا الخطوات التي يحفظها عن ظهر قلب بينما يركز على النبض وضربات

قال بول وهو يتحدث بسرعة لإخفاء مشاعره: "إن فريدريك يلوح. أعتقد أن الوقت قد حان. أعتقد أنه مستعد. اذهبي وانعمي بالسعادة يا أمي".

حدقت فيه بشدة وعيناها تمتلئان بالدموع ثم قبلته على وجنته.

عبر فريدريك المرجة وصافح بول. شاهد بول أمه وهي تحتضن أخته وتعطيها باقتها، كما شاهد فويب وهي تحتضنها بشدة بدورها. استقلت أمهما وفريدريك السيارة وهما يبتسمان ويلوحان بين سيل آخر من النثار. اختفت السيارة عند المنعطف وعاد بول أدراجه إلى الطاولة متوقفاً ليقول مرحباً لضيف وراء الآخر بينما يضع عينييه على فويب. وحينما اقترب منها سمعها تتحدث بسعادة مع ضيف آخر عن روبرت وزفافها. كان صوتها عالياً وكلامها ثقيلًا ومرتبكاً وسعادتها لا حدود لها. رأى رد فعل الضيف - يشوبه التوتر وعدم الثقة وابتسم في صبر - وأجفل لأن فويب أرادت فقط أن تتحدث، ولأنه كان يستجيب لمثل هذه الحوارات بنفس هذه الطريقة منذ بضعة أسابيع قليلة.

قال بعدما وصل إليها وقاطعها: "ما رأيك يا فويب؟ أترغبين في الرحيل؟".

قالت وهي تضع طبقها: "حسناً".

قاد السيارة عبر الأراضي الخضراء. كان يوماً دافئاً. أغلق بول جهاز التكييف وفتح النوافذ متذكراً كيف كانت أمه تقود السيارة بجموح عبر نفس هذه الأراضي للهرب من وحدتها وحزنها بينما يحرك الريح شعرها. لا بد أنه قد سافر آلاف الأميال بصحبتها ذهاباً وإياباً عبر الولاية وهو يرقد على ظهره ويحاول معرفة أين هما من خلال أوراق الشجر وأسلاك الهاتف والسماء. تذكر رؤيته لسفينة تجارية تتحرك عبر المياه الضحلة للميسيسيبي بينما تنثر إطاراتها الضوء والماء. ولم يفهم قط لماذا

قلب المرأة الراقدة فوق الطاولة والجلد المشدود والرأس البازعة. التنفس، مرونة الجلد، أصابع اليدين والقدمين. صبي. ظاهرياً، فى حالة ممتازة وبدأت أغنية تتردد فى مكان عميق من عقل أبيه وبعد ذلك بلحظة طفل آخر. وحينها توقفت الأغنية.

كانا قريبين من المدينة الآن. انتظر بول انتهاء زحمة السير ثم انحرف ناحية مقبرة ليكسنجتون ماراً بالبوابة الحجرية. أوقف السيارة أسفل شجرة دردار والتي استطاعت الصمود مائة عام خلال الفيضان والأمراض وخرجاً من السيارة. سار حول السيارة حتى باب فويب وفتحه ومد لها يده. نظرت إليها فى دهشة ثم إليه. بعد ذلك دفعت نفسها خارج السيارة وحدها وهى لا تزال تحمل زهور النرجس البرى والتي تحطمت براعمها الآن. سارا على الطريق لبرهة مارين بالآثار الحجرية والبحيرة التي يملؤها البط حتى قادها عبر العشب إلى شاهد الضريح الذي يعلو قبر أبيه.

مررت فويب أصابعها فوق الأسماء والتواريخ المحفورة فى الجرانيت الداكن. تساءل ثانية فيما كانت تفكر فيه. كان آل سيمبسون هو الرجل الذى تدعوه أباه. كان يلعب الأحجيات معها فى المساء ويجلب لها ألبوماتها الموسيقية المفضلة من رحلاته، وقد اعتاد حملها على كتفيه حتى تستطيع لمس الأوراق العالية لشجرة الجميز. لا يمكن لهذا الاسم أن يعنى لها أى شئ، شاهد الضريح هذا، هذا الاسم.

ديفيد هنرى ماكليستر. قرأت فويب الكلمات بصوت عال وببطء. ملأت الكلمات فمها وسقطت بثقل بالعالم. قال: "أبونا".

قالت: "أبونا الذى فى السماء".

قال فى دهشة "لا. أبى. أبوك".

كررت قائلة: "أبونا". وشعر بدفقة من الإحباط تجتاحه حيث كانت كلماتها ميكانيكية وآلية وسطحية. لاحظت فى ذلك الحين: "أنت حزين. إن مات أبى فسوف أكون حزينة كذلك".

أجفل بول. نعم، كل ذلك صحيح - لقد كان حزينا. لقد تبدد غضبه وفجأة بدأ يرى أباه بشكل مختلف. إن وجوده لابد أنه كان يذكر أبيه مع كل نظرة ومع كل نفس بالقرار الذى اتخذه ولم يستطع التراجع عنه. تلك الصورتان لفويب التى أرسلتهما كارولين منذ سنوات عديدة ووجداهما مخبأتين فى الجزء الخلفى من أحد أدراج الغرفة المظلمة بعد رحيل الأمناء، وكانت هناك أيضاً الصورة الوحيدة لأسرة أبيه - تلك الصورة التى كان بول لا يزال يحتفظ بها - وهى تقف بشرفة منزلهم القديم. وآلاف الصور الأخرى - واحدة تلو الأخرى - والتي وضعها والده طبقة فوق طبقة محاولاً إخفاء هذه اللحظة التى لا يستطيع تغييرها قط، وبالرغم من ذلك فقد ظل الماضى حياً ومستمراً وقوياً مثل الأحلام.

فويب، شقيقته، سر ظل محتفظاً به طوال ربع قرن. سار بول بضع أقدام للخلف على الطريق الحصوى. توقف وهو يضع يديه فى جيبه بينما تتحرك أوراق الشجر بفعل تيارات الريح، وتطفو صفحة من جريدة على صفوف الشواهد الحجرية. تحركت السحب أسفل الشمس مكونة أشكالاً على الأرض وبرقت أشعة الشمس على شواهد القبر والعشب والأشجار. تحركت الأوراق برفق فى النسيم وأصدرت الأعشاب الطويلة حفيفاً.

فى البداية كانت النغمات خفيفة، فكان صوتها يحجب صوت الريح، لدرجة أنه بذل جهداً ليستطيع سماعه. استدار. كانت فويب لا تزال تقف عند شاهد القبر بينما تضع يدها فوق حافظته الجرانيت الداكنة وقد شرعت فى الغناء. كان العشب

أبطأ كل شيء حتى توقف العالم في هذه اللحظة. توقف بول ساكنا ليرى ماذا سيحدث بعد ذلك. وطوال بضع لحظات لم يحدث شيء. بعد ذلك استدارت فويب ببطء وضبطت تنورتها المجددة. كانت إيماءة بسيطة ولكنها أعادت الحركة إلى العالم ثانية.

لاحظ بول كم كانت أصابعها قصيرة معقوفة، كيف بدا معصمها رقيقاً فوق شاهد الضريح الحجري. كانت يدا أخته صغيرتين، تماماً كيدي أمهما. سار عبر العشب ولمس كتفها ليأخذها إلى المنزل.

فوق القبور والأوراق تتحرك. لقد كانت ترنيمة والتي كانت مألوفة بشكل غامض. كانت كلماتها غير مميزة ولكن صوتها كان صافياً وعذباً، وقد بدأ الزوار الآخرون للمقبرة ينظرون باتجاهها، باتجاه فويب ذات الشعر الذى يتخلله شعيرات رمادية وثوب وصيفة العروس والوقففة الغريبة والكلمات غير الواضحة وسلوكها الذى لا يحمل للحياة هما وصوتها الملائكى. ابتلع بول لعابه وحقق فى حذائه. وقد أدرك أنه سيظل طوال حياته يتمزق بهذه الطريقة حينما يرى اختلافات فويب الناتجة عن ميلادها مختلفة والطريقة التى كانت تتعايش بها مع كل هذا ببراءتها وحبها الذى تغمره للجميع. بحبها، نعم. وقد أدرك والنعيمات تغمره الحب الذى أصبح يحمله لها.

تحرك صوتها العالى والواضح، عبر أوراق الشجر وخلال أشعة الشمس. تناثر فوق الحصى والعشب. تخيل النغمات تسقط فى الهواء مثلما تسقط الأحجار فى الماء محركة السطح غير المرئى للعالم. موجات الصوت وموجات الضوء: لقد حاول والده احتواء كل شيء ولكن العالم كان مثل السائل الذى لا يلبث أن ينسال من بين يديه.

تحركت الأوراق وطافت أشعة الشمس. تعرف بول على الترنيمة القديمة التى كانت فويب تردها وشرع فى الغناء معها. لم يبد أن فويب قد لاحظت هذا وواصلت الغناء متقبلة صوته كما تتقبل الريح. اندمج غناؤهما معاً وتخللت الموسيقى التى كانت بالخارج أيضاً، فقد كان صوتها هو توأم صوته. وحينما انتهت الأغنية ظلا فى مكانهما أسفل ضوء فترة بعد الظهيرة الشاحب. تغير اتجاه الريح جاعلاً شعر فويب يصطدم برقبتهما وأوراق الشجر القديمة تتناثر فوق قاعدة السور الحجري البالى.

dodyadodo
www.rewity.com

حوار مع كيم إدواردز

إن هذه الرواية هي اتحاد قوى بين قصة تراجيدية مثيرة للمشاعر وأحداث تجذب الانتباه على نحو أسر، وذلك بسبب تمرکزها حول تصرف مصدم واحد أقدم عليه شخص واحد والذي أثر على كل أحبائه. كيف جاءتك هذه الفكرة؟

بعد بضعة أشهر من نشر روايتي *The Secrets of a Fire King* جاءتني واحدة من رعاة دار العبادة التي أذهب إليها وأخبرتني أن لديها قصة تود أن تعطيها لي. وقد كنت سعيدة لأنها فكرت في، في الواقع كنت مندهشة قليلاً. فقد عاودت الذهاب إلى دار العبادة بعد غياب دام نحو بضعة وعشرين عاماً وكنت متشككة في الأمر برمته. ولكن حتى عند إقدامي على الأمر والشك يملؤني كان من الواضح أن أمورا إيجابية تحدث: فكانت الاجتماعات نابضة بالحياة وتقدمية ويسودها الترابط؛ وكان الراعيان وهما زوج وزوجة واللذان كانا أستاذين سابقين بالجامعة يلقيان ندوات دينية رائعة وتستحث على التفكير وتمس القلب. وأنا قد أعجبت بهما كثيراً. ومع ذلك فكثيراً ما أصادف أناساً يرغبون في أن يعطوني قصصاً، ومما لا شك فيه أن مثل هذه القصص لا تخصني وبالتالي لا يحق لي كتابتها. لذا فقد قمت بشكر الراعية ولم أفكر في الأمر كثيراً بعد ذلك.

ولكنها في الأسبوع التالي أوقفتني مرة أخرى. قالت "لا بد أن أقص عليك هذه القصة" وقد فعلت. كانت عبارة عن جمل قليلة فقط، عن رجل اكتشف في وقت متأخر من حياته أن أخاه قد ولد بمتلازمة داون وتم وضعه في مصحة بعد ولادته وأخفى أمره عن أسرته، حتى عن أمه - طوال حياته. وهو قد مات في هذه المصحة دون أن يعرف عنه أحد شيئاً. وأتذكر أنني شعرت بالصدمة حينما سمعت القصة وفكرت على الفور أنني قد أصنع منها رواية جيدة.

إن أكثر ما جذب انتباهي هو وجود سر في مركز أسرة. ومع ذلك فقد فكرت بيني وبين نفسي: بالطبع لن أكتب هذه القصة. ولم أفعل طوال سنوات.

الدافع الإنساني، لماذا نقوم بما نقوم به؟ هذا السؤال البسيط الذي عادة ما يكون شديد التعقيد كما هو الحال هنا مع ديفيد وقراره المصيري. بصفتك المبتكرة لهذه الشخصية هل تعاطفت بأي شكل من الأشكال مع دوافعه؟

آه، نعم، بالتأكيد. فبالرغم من أنه قد لا يمر أحدنا بلحظة درامية إلى هذا الحد، فإننا جميعاً قد مررنا بتجارب مشابهة، أوقات استجبنا فيها بقوة لحدث بطرق لم نفهمهما بالكامل حتى بعد مضي وقت طويل أو قد لا نفهمهما على الإطلاق مطلقاً.

وكنت أعلم منذ البداية أن ديفيد ليس شخصاً شريراً. وهو قد اتخذ بدون شك القرار الخاطيء في الفصل الأول، ولكنه كان يؤمن أنه قام بذلك انطلاقاً من نوايا حسنة - الرغبة في حماية نورا من الحزن، وحتى الرغبة في اتباع ما كان يعتقد المجتمع الطبي في ذلك الحين أنه الأفضل للطفل المصاب بمتلازمة داون.

بل إن هناك المزيد بالطبع. فالحزن الذي ساور ديفيد على خسارة أخته هو شيء لم يستطع أبداً مواجهته أو التخلص منه. ولا أعتقد أن هذا شيء غير معتاد. فالاستشاريون المتخصصون في المساعدة على التغلب على الحزن لم يظهروا إلا في الآونة الأخيرة. وأنا أتذكر الكثير من الحكايات عن بالغين في بلدتي عانوا من خسائر فادحة. فكانت هناك حالة من الصمت تحيط بهؤلاء. كان الجميع

يعلمون حكاياتهم وكان أثر الخسارة جلياً فى كل شيء يفعلونه، ولكن ما من أحد كان يأتى على ذكر الفقيد قط. كذلك كان هو الحال مع ديفيد. فكانت طريقته للتأقلم مع فقدان أخته وفقدان أسرته الناتج عن ذلك هى الماضى قدماً؛ السيطرة على حياته والماضى فى سبيله بها؛ أن يصبح ناجحاً فى عين العالم. ومع ذلك لم يكن حزنه يبعد عن السطح كثيراً، وحينما ولدت فويب مصابة بمتلازمة داون، وهو الشيء الذى لم يكن يتوقعه ولا يستطيع السيطرة عليه، طفا حزنه مجدداً. ورد فعل ديفيد فى هذه اللحظة كان للماضى بقدر ما هو للحظة الحالية، ولكن استغرق الأمر منه عقوداً ورحلة عودة إلى حيث نشأ كى يدرك هذا.

إن أحداث الرواية تبدأ فى عام ١٩٦٤. هل تعتقد أن أفكارنا وسلوكياتنا إزاء أصحاب الإعاقات قد تغيرت منذ ذلك الحين؟ هل أصبحنا أكثر استنارة أو تقبلاً الآن؟

نعم، فقد تغيرت الأمور للأفضل على مدار العقود الماضية، وأنا أرى أن عملية التغيير مازالت مستمرة، مع بقاء الكثير من الأمور التى هى بحاجة لتطوير. ومما لا شك فيه أن كتابة هذه القصة كان بمثابة عملية تنوير بالنسبة لى. فحينما بدأت كتابة هذه الرواية لم أعرف كيف أتخيل فويب. لقد كنت أصب تركيزى على السر وتأثيره على الأسرة، دون أن أملك كثيراً من المعرفة عن متلازمة داون. فإن خلق شخصية مقنعة - شخصية متفردة وليست نمطية دون أن تكون شديدة العاطفية أو تبدو بطولية - كانت مهمة عسيرة حقاً.

شرعت فى القراءة والتنقيب. كما بدأت أجرى حوارات. وكان أول زوجين تحدثت إليهما لديهما ابنة قاما بتربيتها فى الوقت الذى تدور فيه أحداث هذه الرواية. وهما قد كانا نعم العون لى، فقد كانا لطيفين ومباشرين وحكيمين. وحينما أريتهما الفصل الافتتاحى، كان رد فعلهما الأول هو أننى قمت برسم شخصية الطبيب بشكل رائع ودقيق: فسلوكيات ديفيد إزاء متلازمة داون قد تبدو لنا مبالغاً فيها اليوم، ولكن كان هناك وقت ليس ببعيد كان الأطباء يعتنقون فيه مثل هذه الأفكار.

ولعل السبب فى تغير الأفكار والسلوكيات هو ببساطة أن آباء الأطفال المصابين بمتلازمة داون - كما فعلت كارولين فى هذه الرواية - رفضوا قبول القيود المفروضة على أطفالهم من قبل المجتمع. والصراع الذى خاضته كارولين فى هذه الرواية هو تمثيل للصراعات التى قام بها الآباء فى كل أرجاء البلاد خلال هذه الحقبة لتغيير سلوكيات قائمة ولفتح أبواب كانت موصدة.

والتغييرات لم ولا تحدث بسهولة، أو دون تكبد هؤلاء الذين كافحوا أو لا يزالون يكافحون لخسائر شخصية كى يجعلوا العالم يرى أطفالهم. وقد انبهرت مراراً وتكراراً من مدى الكرم البالغ الذى يتمتع به هؤلاء المصابون بمتلازمة داون وأسرهم والذين التقيت بهم وشاركونى رحلة حياتهم وتوقعاتهم، بهجتهم وصراعاتهم، وكانوا متحمسين لمساعدتى على التعلم. والعديد منهم قد قرأ الكتاب وأحبه وهو الأمر الذى يعد بالنسبة لى مقياساً للنجاح.

٤. فى حين أن تلك الرواية تعرض لمسألة التخلص من الخطيئة ومفعمة بالأمل إلا أنها تعكس الكثير من الجانب المظلم من التجربة الإنسانية. إن الممثلين كثيراً ما يتحدثون عن مدى تأثير الجهد المبذول لتقصص شخصية مؤلمة للغاية على حالتهم النفسية، بينما يؤكد آخرون على نجاحهم فى الفصل بين الشخصية التى يلعبونها وحياتهم اليومية. بصفتك مؤلفة، كيف تؤثر عملية تأليف قصة تفتقر القلب مثل هذه على حالتك الذهنية؟ فحينما تتوقفين عن الكتابة، هل يكون بإمكانك إبعاد الرواية عن ذهنك؟

حسناً، إن الشخصيات جميعها تصارع، أليس كذلك؟ إن جميعهم يسرون فى الكثير من الظلام. ومع ذلك فأنا لم أجد قط أن تأليف هذا الكتاب ينطوى على أى ألم. فأنا أعتقد أننى - بشكل جزئى - قمت بالتوحد مع جميع الشخصيات فى هذه الرواية؛ هذا الذى يخفى سرا وهذا الذى تحجب عنه الأسرار، الأب الذى يتوق لإنجاب طفل والطفل الذى يتوق إلى العثور على الانسجام والتكامل، الشخص الذى يجوب العالم وكذلك الذى يقبع مكانه. لقد قمت بالإبحار فى رحلات اكتشاف ذواتهم. لقد كنت مفتونة بهم وأردت أن أعلم ماذا سيحدث لهم، وطبيعة شخصياتهم. وكانت الطريقة الوحيدة لاكتشاف كل هذا هى أن أولف هذه الرواية. وكذلك لوجود أربعة رواة مختلفين - التنقل بين عقل إحدى الشخصيات لعقل شخصية أخرى - استطعت أن أخرج من إطار رأى وأركز على رأى آخر. وقد ساعدنى ذلك على التحرر وتحقيق قدر من الانفصال عن إحدى الشخصيات والعمل على شخصية أخرى.

٥. من هم مؤلفوك المفضلون وماذا تقرئين فى الوقت الحالى؟

أنا أقرأ كثيراً. أليس مونرو ووليم تريفور هما من المؤلفين الذين أقرأ أعمالهم كثيراً. وقد انتهيت لتوى من رواية مارلين روبنسون *Gilead* وسوف أقرأها فى وقت قريب فقط لأستمتع بجمال اللغة. كما توجد على مكتبى كتب للمؤلفين أرسىولا هيجى وسوكيد بالإضافة إلى قصائد لـ "بابلو". وأثناء تأليف هذه الرواية، قرأت روايات كلاسيكية تدور أحداثها حول الأسرار، وخاصة رائعة ديستوفسكى "الجريمة والعقاب" ورائعة هاوثورن *The Scarlet Letter*. وأنا حالياً أقرأ رباعية توماس مان القائمة على قصة النبى يوسف وإخوته؛ وهذه القصص تمهد الطريق للرواية القادمة التى أخطط لكتابتها أيضاً.

٦. ما الذى تعملين به الآن؟

لقد بدأت تأليف رواية جديدة تدعى *The Dream Master*. وتدور أحداثها فى منطقة فينجر ليكس حيث نشأت، وهى منطقة رائعة الجمال والتى ستظل دوماً أرض أحلامى. وشأنها شأن هذه الرواية، فإن تلك الرواية تدور حول فكرة الأسرار - والتى أصبحت تهيمن على ككاتبه - بالرغم من أنه فى هذه الحالة حدث السر فى الماضى وهو محجوب عن القارئ كما هو محجوب عن الشخصيات، وفيما يتعلق بموضوعها وأفكارها فإن روايتى الجديدة هى بمثابة اكتشاف جديد تماماً.